مع المتنبي

طه حسين

مع المتنبي

تأليف
طه حسين

هنداوي

مع المتنبي

طه حسين

رقم إيداع ٢٣٢٢٢ / ٢٠١٣
تدمك: ٢ ٦١٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطي من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi Foundation for Education and Culture.
Copyright © Taha Hussein 1937.
All rights reserved.

المحتويات

١- صِبى المتنبي وشبابه ٩
٢- في ظل الأمراء ١٠١
٣- في ظل سيف الدولة ١٤٥
٤- في ظل كافور ٢٣٥
٥- غنيمة الإياب ٢٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

صدق اللهُ أيَّتها الزوج الكريمة وتمَّتْ كلِمتُه؛ ففي ظِلِّ هذه المودَّة درستُ هَذَا الشَّاعِرَ العظيم، وفي ذُرَى هذه الرحمة أمليتُ هذه الفصول، وإنَّ قلبي ليملؤه البرُّ ويغمره الحنان حين أذكر ما كنتِ تبدئين وتعيدين فيه أثناء ذلك من حث لي على الراحة، ورغبة إليَّ فِي التروُّض، وإلحاح عليَّ فِي الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة فِي جبال الألب، وما كنت ألقى به عطفك من إباءٍ وإعراضٍ، وما كان يثور فِي نفسك من غضبٍ مصدره الرحمة والإشفاق، وإني لأعلم أني كنت فِي ذلك قاسيًا جافيًا، ولكنِّي أعلم أني مدينٌ لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب، فأْذَني لي فِي أن أقدمه إليكِ لعله ينسيكِ من ذلك ما لا تزالين تذكرين.

الكتاب الأول

صِبى المتنبي وشبابه

(١) قبل البدء

لا أريد أن أدرس المتنبي؛ فأنا لم أترك القاهرة، ولم أعبر البحر، ولم آوِ إلى هذه القرية للبحث والدرس، وإنما اصطنعت هَذَا كله طلبًا للراحة، وإيثارًا للفراغ الذي أخلو فيه إلى نفسي، فقد طالما شُغلت عنها فِي القاهرة بأحداث الحياة الخاصة والعامة، وقد طالما اشتقت إلى أن ألقاها وجهًا لوجه، وأدير بينها وبيني ألوان الحديث وأفر فيه من نفسي؛ فأنا كثير السأم لها والضيق بها — كما قلت فِي غير موضع — لا أكاد أقبل عليها حَتَّى أنصرف عنها وأفزع منها إلى كتاب من هذه الكتب التي تدعوني وتُلحُّ فِي الدعاء، فلا أكاد أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين.

لا أريد إذن أن أدرس المتنبي؛ فإني قد فررت بنفسي وأهلي من الدرس والبحث والتحصيل، ولقد صحبت المتنبي طوال العام الجامعي أدرِّس شعره مع الطلاب وأتحدث عنه إلى جمهور الناس، حَتَّى سئمت درسه والتحدث عنه.

وكما أكره لابنيَّ أن يُقبلا أثناء الصيف على ما كانا يقبلان عليه فِي عامهما الدراسي، فأنا أكره لنفسي أن أمضيَ فِي درس المتنبي بعد أن أنفقت فيه ما أنفقت من الليالي والأيام.

ومع ذلك فقد طلبت إلى صاحبي حين كان يجمع ما ينبغي أن نحمله من الكتب ألا ينسى ديوان المتنبي، ولم أطلب إِلَيْهِ أن يحمل ديوانًا آخر من دواوين الشعر القديم أو الحديث، وإنما طلبت ديوان المتنبي وحده، وأراد صاحبي أن يحمل ما فِي مكتبي من الشروح التي كتبها القدماء والمحدثون يفسرون بها هَذَا الديوان، وأراد أن يحمل ما فِي

مكتبي من البحوث التي تناول بها القدماء والمحدثون حياة أبي الطيب وشعره؛ فأبيْتُ عليه هَذَا كله، وتقدمت إِلَيْهِ فِي أن يكتفي بأيسر طبعة من طبعات المتنبي؛ لأني لا أريد درسًا ولا بحثًا وإنما أريد صحبة ومرافقة ليس غير.

وليس المتنبي مع هَذَا من أحب الشعراء إليَّ وآثرهم عندي، ولعله بعيد كل البعد عَنْ أن يبلغ من نفسي منزلة الحب أو الإيثار، ولقد أتى عليَّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطر ببالي أني سأُعْنَى بالمتنبي أو أطيل صحبته، أو أُديم التفكير فيه، ولو أني أطعت نفسي وجاريت هواي لاستصحبت شاعرًا إسلاميًّا قديمًا عسيرًا كالفرزدق أو ذي الرمة أو الطِّرِمَّاح، أو شاعرًا عباسيًّا من هؤلاء الذين أحبهم وأوثرهم؛ لأني أجد عندهم لذة العقل والقلب، أو لذة الأذن، أو اللذتيْن جميعًا، كمسلمٍ، وأبي نواس، وأبي تمَّام، وأبي العلاء، ولكني لم أطع نفسي وإنما عصيتها، ولم أجار هواي وإنما خالفته أشد الخلاف، وطلبت إلى صاحبي على كرهٍ مني أن يستصحب المتنبي.

وأكبر الظن أني إنما فعلت ذلك لأن المتنبي كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين، ولأني حاولت وما زلت أحاول أن أستكشف السر فِي حب المحدثين له وإقبالهم عليه، وإسرافهم فِي هَذَا الحب والإقبال، كما أسرف القدماء فِي العناية به حبًّا وبغضًا، وإقبالًا وإعراضًا.

وأكبر الظن أَيْضًا أني إنما فعلت ذلك؛ لأني أحب أن أعاند نفسي وآخذها من حينٍ إلى حينٍ ببعض ما تكره من الأمر، وقد قلت فِي غير هَذَا الموضع: إني لست من المحبين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه، فلم أجد بأسًا فِي أن أشقَّ على نفسي أثناء الراحة، وأثقل عليها حين تبغض الإثقال عليها.

نعم؛ لم أجد بأسًا فِي أن أقطع عليها لذة الحياة فِي فرنسا بين هذه الربى الجميلة وفي هَذَا الجو الحلو، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، والتي أغرق فيها إلى أذني كلما عبرت البحر.

لم أجد بأسًا بأن أثقل على نفسي أثناء هَذَا كله بالتحدث إلى المتنبي والتحدث عنه، والاستماع له، والنظر فيه، والناس يعرفون أني شديد العناد للناس، فليعرفوا أَيْضًا أني شديد العناد لنفسي كذلك.

لا أريد أن أدرس المتنبي إذن؛ فالذين يقرءون هذه الفصول لا ينبغي أن يقرءوها على أنها علم، ولا على أنها نقد، ولا ينبغي أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد، وإنما هُوَ خواطر مرسلة تثيرها فِي نفسي قراءة المتنبي فِي قرية من قرى الألب فِي

فرنسا، قراءة المتنبي فِي غير نظام ولا مواظبة، وعلى غير نسق منسجم، إنما هي قراءة متقطعة متفرقة، أقصد إِلَيْهَا أحيانًا لأني أريدها، وأقصد إِلَيْهَا أحيانًا أخرى؛ لأن نفسي تنازعني إلى كتَّاب الأدب الفرنسي، فأعاندها وأمانعها وأُكرِهها على أن تسمع للمتنبي أو تتحدث إليه.

هي قراءة إنْ صورت شيئًا فإنما تُصور طغيان المرء على نفسه، ولعبه بوقته، وعبثه بعقله، وعصيانه لهواه، وطاعته لهذا الهوى أحيانًا.

وقُل ما تشاء فِي هَذَا الكلام الذي تقرؤه: قُل: إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول. وقل: إنه كلام يهذي به صاحبه هذيانًا. قُل: إنه كلام يصدر عَنْ رأيٍ وأناة. وقل: إنه كلام يصدر عَنْ شذوذ وجموح. فأنت محقٌ فِي هَذَا كله؛ لأني مرسل نفسي على سجيتها، ونفسي كغيرها من النفوس من سجيتها الأناة، ومن سجيتها العجلة، ومن سجيتها الجد، ومن سجيتها اللهو، ومن سجيتها التفكير، ومن سجيتها الهذيان، وما يمنعني أن أرسل نفسي على سجيتها بين وقت ووقت إذا طلبت إلى صاحبي أن يأخذ الورق والقلم ويسطر ما يملى عليه؟!

إني مثلك آخذ نفسي بأشد القيود وأثقل الأغلال أكثر العام حين أحيا فِي مصر، وأنهض بما تفرضه الحياة من تكاليف، وآخذ نفسي بأشد القيود وأثقل الأغلال أربعة أخماس الوقت الذي أنفقه يقظان فِي فرنسا حين أعاشر الناس وأخالطهم ولو كانوا أقرب الناس وألصقهم بي، ولا أتحلل من هذه القيود والأغلال إلا فيما بيني وبين الضمير أحيانًا، ولعلي أكره ذلك فأباه إباءً شديدًا، فلنطلق أنفسنا من هَذَا العقال الاجتماعي بعض الشيء، ولنخلِّ بينها وبين الحرية بعض الوقت، ولنرسلها على سجيتها لحظات، ولنصورها كما هي فِي غير تحرج ولا إسراف فِي الاحتياط؛ فإن هَذَا من حقها علينا، وهو قبل كل شيء من حق الأدب العربي على الأدباء، وما أظنني أعرف أدبًا مقيَّدًا فِي التحرج غاليًا فِي الاحتياط كأدبنا العربي الحديث، الذي ينشئه أصحابه وهم يفكرون فِي الناس أكثر مما يفكرون فِي أنفسهم، حَتَّى أطمعوا الناس فيهم، وأصبحوا عبيدًا للجماعة وخدمًا للقراء.

فلنتمرَّد على الجماعة، ولنُثرِ بالقراء، ولننبذ الاحتياط كله إلا هَذَا الذي يثير الشر أو يؤذي الأخلاق.

(٢) نسب المتنبي: أبوه

وقد تعوَّد الناس أن يؤمنوا بأن المتنبي رجلٌ عربيٌّ خالص النسب، ينتهي من قبل أبيه إلى جعفى، ومن قبل أمه إلى همْدَانَ، وهما حيَّان من أحياء اليمن، فيما يقول المؤرخون والنسابون.

وجائزٌ جدًّا أن يكون المتنبئ عربيًّا، وجائز أن يكون من عرب الجنوب، جعفيَّ الأب، همْدَانيَّ الأم، ولكن الشيء الذي ليس فيه شكٌّ هُوَ أَنَّ ديوانه لا يثبت هَذَا ولا يؤكده بل لا يسجله ولا يذكره، ومن يدري؛ لعل ديوانه ينفيه، ولعله ينفيه نفيًا هُوَ إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح.

أكان المتنبي يعرف أباه؟ قال المؤرخون نعم، ولم يقل المتنبي شيئًا، فأنت تقرأ ديوانه من أوله إلى آخره وتقرؤه مستأنيًا متمهلًا، فلا تجد فيه ذكرًا لهذا الرجل الطيب الذي أنجب للقرن الرابع شاعره العظيم.

لم يمدحه المتنبي، ولم يفخر به، ولم يَرْثُهُ المتنبي، ولم يظهر الحزن عليه حين مات؛ أكان ذلك لأن المتنبي لم يعرف أباه؟ أم كان ذلك لأن المتنبي عرف أباه ولكنه لم يرَ له خطرًا، ولم يرَ فِي ذكره ما يرفع من شأنه ويرد عنه كيد الكائد وحسد الحسود؟ أم كان المتنبي يزدري أباه ويكبر شعره عَنْ أن يقف عنده مادحًا أو هاجيًا ونادبًا أو راثيًا؟

كل ذلك ممكن، ولكن الشيء المحقق أَنَّ المتنبي كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح، وإلى الحرب والبأس، على أن ينتسب إلى هَذَا الرجل الطيب الذي سماه المؤرخون الحسينَ، ونسبوه إلى جعفى من عرب الجنوب.

أكان المتنبي يعرف جده؟ لا يحدثنا ديوانه بشيء، ومن أعرض عَنْ ذكر أبيه لا يستغرب منه أن يعرض عَنْ ذكر جده، ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده! إذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أنهم كانوا يعرفون أبا المتنبي ويسمونه حسينًا فإنهم لم يتفقوا على جده، ولم يجمعوا على الاسم الذي يلصقونه به، فهو الحسين حينًا، وهو عبد الصمد حينًا آخر، ومهما يكن من شيء فقد كان للمتنبي أبٌ، وكان له جدٌّ؛ لأننا لا نعرف إنسانًا ليس له أب ولا جد، لا نستثني من ذلك إلا اللذين استثناهما الله عزَّ وجل حين قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾.

كان للمتنبي أبٌ وجدٌّ، ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من أمر جده قليلًا ولا كثيرًا، ويكادون يختلفون فِي اسمه كما رأيت.

أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئًا، شيئًا يسيرًا جدًّا: كانوا يزعمون أنَّ أبا المتنبي كان سقاء فِي الكوفة، تحدث المؤرخون بذلك، وهم بين متحدِّث به يريد أن يرفع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجلٍ حقيرٍ، فملأ الدنيا وشغل الناس، وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة، كان أبوه يبيع الماء على الناس، وكان هُوَ يبيع ماء وجهه على الممدوحين.[1]

وما أظن أنَّ الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا إلى إثبات الحق من حيث هُوَ حق، وتسجيل التاريخ من حيث هُوَ تاريخ، وإنما قصدوا إلى ما ذكرتُ لك: إلى الرفع من شأن المتنبي أو الوضع من قدره، فكأنهم إذن لم يصنعوا شيئًا، وكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر المتنبي إلا مثل ما عرفوا من أمر جده، أي لم يعرفوا شيئًا ما.

ولعل المتنبي نفسه قد عرف الكثير من أمر أبيه وجده، ولكنه كان فيما يظهر غاليًا فِي الغرور مُسرفًا فِي الكبرياء؛ وكان غروره فيما يظهر أكبر من شعره فأفسد عليه الأمر إفسادًا.

والتاريخ أو القصص يحدثنا بأن أبا جرير لم يكن شيئًا، وبأن جريرًا قد أضاف إِلَيْهِ من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب، حَتَّى غلب به الشعراء وقهر به الفحول، ثم لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو[2] ليثبت لهم أنَّ شعره كان أكبر

[1] وإلى هَذَا أشار بعض الشعراء حين هجاه بقوله:

أَيُّ فَضْلٍ لِشَاعِرٍ يَطْلُبُ الْفَضْـ ـلَ مِنَ النَّاسِ بُكْرَةً وَعَشِيَّا
عَاشَ حِينًا يَبِيعُ فِي الْكُوفَةِ الْمَا ءَ وَحِينًا يَبِيعُ مَاءَ الْمَحَيَّا

(وفيات الأعيان ج١ ص٥٠ طبع بولاق).

[2] حدَّث صاحب الأغاني قال: قال إسحاق وقال الأصمعي: حدثني بلال بن جرير — أو حُدثت عنه —: إنَّ رجلًا قال لجرير: من أشعر الناس؟ قال له: قم حَتَّى أعرفك الجواب؛ فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزًا له فاعتقلها وجعل يمصُّ ضرعها، فصاح به: اخرج يا أبت؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته فقال: ألا ترى هذا؟ قال: نعم، قال: ألا تعرفه؟ قال: لا، قال: هَذَا أبي، أفتدري لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قلت: لا، قال: مخافة أن يُسمع صوت الحلب فيُطلب منه لبن، ثم قال: أشعر الناس من فاخر بمثل هَذَا الأب ثمانين شاعرًا وقارعهم فغلبهم جميعًا. (أغاني ج٧ ص٥٨ طبع بولاق).

من غروره، وأنَّ طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده شعره، وأعانه على أنْ يخلق أباه خلقًا جديدًا.

أما المتنبي فلم يستطع شعره أن يغلب غروره، ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقًا جديدًا، ومن يدري! لعل مصدر ذلك أنَّ جريرًا كان يعرف أباه فصوَّره كما أراد لا كما كان، وأنَّ المتنبي لم يكن يعرف أباه، فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان.

وبعدُ فليس يضع من قدر المتنبي عندي ألا يعرف لنفسه أبًا، وليس يرفع من شأنه أن يكون أبوه من المجد ونباهة الذكر بحيث كان غالب بن صعصعة أبو الفرزدق وشيخ تميم.

وأنا أقبل من المتنبي فِي إعجابٍ لا حدَّ له هذه الأبيات التي هي من أروع ما قال من الشعر:

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الـْ … ـبَاحِثِ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ
وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ … مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ
فَخْرًا لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ … وَسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ
وَلْيَفخرِ الفَخْرُ إِذَا غَدَوْتُ بِهِ … مُرْتَدِيًا خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَهْ
أَنَا الذِي بَيَّنَ الْإِلَهُ بِهِ الـْ … أَقْدَارَ وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ
جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشِّرَافُ بِهَا … وَغُصَّةٌ لَا تُسِيغُهَا السَّفِلَهْ
إِنَّ الْكِذَابَ الَّذِي أُكَادُ بِهِ … أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ الَّذِي نَقَلَهْ
فَلَا مُبَالٍ وَلَا مُدَاجٍ وَلَا … وَانٍ وَلَا عَاجِزٌ وَلَا تُكَلَهْ
وَدَارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقًى … فِي الْمُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَهْ
وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بِقَافِيَةٍ … يَحَارُ فِيهَا الْمُنَقِّحُ الْقُوَلَهْ
وَرُبَّمَا أُشْهِدُ الطَّعَامَ مَعِي … مَنْ لَا يُسَاوِي الْخُبْزَ الَّذِي أَكَلَهْ
وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ … وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ

فالمتنبي كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس، وإنما ينسب نفسه إلى متجزئ له بعض يمتاز من كله، وبعضه هَذَا يفوق آباء الباحثين عَنْ نسبه المتقصين لأمره.

هو لا ينسب نفسه إلى رجل؛ لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال، وإنما ينتسب إلى الآباء والجدود منْ غلبه المفاخرون وقهره المنافرون، وقطعوا

عليه السبل، وسدُّوا عليه أبواب الحيلة، فاتخذ الآباء والجدود تعلةً ومعذرةً يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه، ويستعير من أعمالهم ما لا يجد ﻓِﻲ أعماله.

هو إذن لا ينتسب إلى الرجال؛ لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد ﻓِﻲ الانتساب إلى الرجال غناء، وإنما ينتسب إلى معنًى بعضه يُغنِي عَنْ كل غيره، وقليله يُغني عَنْ كثيرٍ سواه، ﻫُﻮَ ينتسب إلى البأس والشدة، وإلى المروءة والنجدة، وإلى ارتفاع الهمة وبعد الأمل وحسن البلاء: به يفخر السيف إنْ اشتمل السيف، وبه يفخر الرمح إن اعتقل الرمح، وبه يفخر الفخر إن اكتساه ثوبًا أو احتذاه نعلًا.

ثم ﻫُﻮَ بعد ذلك حسن البلاء حين يجرِّد السيف، أو يلاعب السنان، بهذا وذاك يصرع الأبطال الدارعين، ثم ﻫُﻮَ بعد ﻫَﺬَا وذاك ابن الشعر الذي يقهر به الشعراء مهما ينبغوا، ويقهر به النقاد مهما يبرعوا، وهو من أجل ﻫَﺬَا وذاك يزدري كثيرًا من الناس، أو قل إنه يزدري الناس جميعًا، وما أقدره على أنْ يعلن ذلك ويجهر به! لولا أنْ يمدح أبا العشائر بهذه القصيدة، وغير أبي العشائر بغير هذه القصيدة، فهو محتاج إلى أنْ يعلن ﻫَﺬَا الازدراء ﻓِﻲ تحفظ واحتياط، وهو يكتفي هنا بأن يزدري قومًا يشهدون معه الطعام وهم لا يساوون الخبز الذي يأكلونه.

ولكن شيئًا واحدًا يحتاج إلى أن نقف عنده لحظة ﻫُﻮَ ﻫَﺬَا الكِذَاب الذي كان المتنبي يُكاد به عند أبي العشائر، والذي كان أهون عند المتنبي من ناقله، والذي لم يحفل به المتنبي فأعلن ﻓِﻲ حزم أنه لا يبالي ولا يداجي ولا يني ولا يعجز ولا يعتمد على أحد.

ما عسى أن يكون ﻫَﺬَا الكِذَابُ؟ أتراه يمس نسب المتنبي من قريبٍ أو بعيدٍ؟

ليس ﻓِﻲ ذلك عندي من شكٍّ؛ فقد اتهم الرجل ﻓِﻲ نسبه، وسئل عَنْ أبيه وجده فلم يستطع، أو لم يرد أن يجيب سائليه، وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس، وأن يزدري الكائدين له والمرجفين به والمؤلبين عليه، ومع أنَّ هذه الأبيات تصور ضعف المتنبي من ناحية نسبه أبلغ تصوير؛ لأن ﻫَﺬَا الإسراف ﻓِﻲ الفخر والغلو ﻓِﻲ التيه والإغراق ﻓِﻲ ازدراء العائبين دليل في حقيقة الأمر على العجز والنكول — أقول مع أنَّ هذه الأبيات تصور ضعف المتنبي من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه، فهي ﻓِﻲ الوقت نفسه تصور فتوَّة المتنبي وحسنَ رأيه ﻓِﻲ نفسه، وقوة إيمانه بهذه النفس، وصدق معرفته للناس، وشدة ازدرائه لهم، واستهزائه بهم؛ لأنه قد علم من حقائقهم ودخائل أمورهم ما دفعه دفعًا إلى ﻫَﺬَا الازدراء والاستهزاء.

(٣) نسب المتنبي: أمه وجدته – عربيته

وَهَلْ كان المتنبي يعرف أمه؟ مسألةٌ فيها نظر — كما يقول الأزهريُّون — فديوان المتنبي صامتٌ بالقياس إلى أمه صمته إلى أبيه، فالصبيُّ الشابُّ، والرجل المكتهل، والمتنبي راضيًا وساخطًا، ومسرورًا ومحزونًا، لا يذكر أمه، كما أنه لا يذكر أباه، ولكن الخطب فِي أمِّ المتنبي أعظم من الخطب فِي أبيه؛ فقد سكت المتنبي نفسه عَنْ أبيه، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه فسموه الحسين، وعرفوا له أبًا اختلفوا فِي اسمه بعض الاختلاف، وعرفوا له صناعة هي السقاية فِي الكوفة، وهذا على قلته وضآلته كثير بالقياس إلى ما عرفوا عَنْ أم المتنبي؛ لأنهم لم يعرفوا من أمرها شيئًا، ولم يذكروا من أمرها شيئًا.

فنحن لا نعرف اسمها، ولا نعرف أباها، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية، وكل ما نعرفه أنَّ أمها قد عطفت على المتنبي، وأحبته وكلفت به، وعمرت حَتَّى رأته رجلًا، وهذه السيدة التي قتلها حب حفيدها، فيما يُقال وكما سنرى، لا نعرف لها اسمًا ولا أبًا، وإنما نعرف أنَّ بعض الرواة كانوا يقولون: إنها همْدانية صحيحة النسب، وإنها كانت من صوالح نساء الكوفة، وهذا ما يعرفه عنها التاريخ، وهو كذلك كل ما يعرفه عنها ديوان المتنبي — أستغفر الله — فديوان المتنبي لا يذكر نسبها ولا يشير إليه، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذي أملاه الغرور وصاغته الكبرياء، ووضعه جموح الشَّاعِر فِي غير موضعه من الرثاء، وهو قوله:

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمَ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَونَكِ لِي أُمَّا

فأقل ما فِي هَذَا البيت أنَّ المتنبي يذكر لنا أنَّ جدته قد كانت بنت أكرم والد، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هَذَا النسب لأنه حفيدها، ولكن المتنبي لم يذكر لنا شيئًا عَنْ هَذَا الوالد الذي كان أكرمَ الناس، ومن الإنصاف أنْ نلاحظ أنَّ المتنبي لم يكن يقرر فِي أكبر الظن أننا سنتشكك فِي نسبه، وسنلتمس وجه الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة، ولو أنه قدَّر شيئًا من ذلك لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط، ومن يدري! لعله كان يزدري شكَّنا — كما كان يزدري كيد المعاصرين — ولعله كان يجيبنا بكل ما أجابهم حين قال:

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الـْ ـبَاحِثِ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ   مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ

وإذا كان الكائدون للمتنبي من معاصريه قد عجزوا عَنْ أن ينفروه وينفدوا حيله، ويضطروه إلى أن يذكر لهم آباءه وجدوده، فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين، فليس بين هؤلاء المعاصرين الباحثين وبين المتنبي منافسة ولا خصومة، وليس هؤلاء الباحثون المعاصرون من العلم بأمر المتنبي ودخيلته بحيث كان خصومه ومنافسوه فِي القرن الرابع، فليس من شكٍّ فِي أنَّ الذين عاصروا المتنبي يعرفون من سيرته — ومِن أمْره جملةً — أكثر جدًّا مما نعرف؛ لأننا لا نعرف شيئًا أو لا نكاد نعرف شيئًا، بل إنَّ مُضيَّ الزمن بيننا وبين المتنبي قد رفع الرجل عَنْ الخصومات وصفاه من أكدار المنافسة، ورفع بحثنا عنه ودرسنا له عَنْ الأحقاد والضغائن، فنحن لا نُسَرُّ، أو أنا على أقل تقدير لا أُسَرُّ ولا أحزن إن ظهر أنَّ نسب المتنبي، من جهة أبيه أو من جهة أمه، قد كان صريحًا أو مدخولًا؛ فنحن نبحث، أو أنا على أقل تقدير أبحث من أمر المتنبي عَنْ شيء أبقى وأرقى وأقومُ من نسبه العربي الصريح أو المدخول: عَنْ أدبه، وفنه، ومكانته من الأدباء، وأصحاب الفن القدماء والمحدثين.

ونحن إذا انتهينا إلى قرارة الأشياء، لا نكاد نشك فِي أنَّ المتنبي قد كان عربيًّا، ولكن بشرط أن نفهم من لفظ العربي معنى أوسع وأعمق وأصدق مما كان يفهمه النسابون فِي العصور الأولى، ومما يفهمه المقلدون من الأدباء فِي العصر الحديث.

فأين العقل العاقل الذي يستطيع أن يصدِّق ما كان يقال فِي العصور الأولى، وما لا يزال يقال فِي كثير من المدارس الأدبية، من أنَّ العربي الصريح أو العربي الصليبة هُوَ الذي يُعرَفُ له نسبٌ صحيح إلى قبيلة من قبائل العرب فِي الشمال أو فِي الجنوب؟ أين العقل العاقل الذي يُصدِّق أنَّ جميع سكان جزيرة العرب منذ العصور الجاهلية الأولى إلى هَذَا العصر الذي نعيش فيه قد حفظوا لأنفسهم أنسابًا صريحة صحيحة ترفعهم إلى عدنان أو إلى قحطان؟ إنما حفظ الأنساب مزية قد اختصَّت بها طبقات من أشراف العرب وساداتهم فِي بعض الأوقات، ثم أصبحت سنة موروثة وعادة مألوفة، ومظهرًا من مظاهر الارستقراطية، ثم فرضت على أصحابها أن يحفظوها ويتوارثوها، ويبتدعوها ابتداعًا إذا غلبهم عليها النسيان.

ومن الحديث المعاد فِي غير طائل، بل من الحديث المعاد فِي كثير من السأم والملل، أنْ نذكر ما أثير حول الأنساب وصحتها منذ أقدم العصور العربية، بل من الحديث المعاد الممل أنْ نذكر ما أثير حول صحة الأنساب عند الأمم القديمة كاليونان والرومان.

ليس من الحق إذن أنَّ العربي لا يكون عربيًّا، حَتَّى يحفظ لنفسه أو يحفظ الناس له نسبًا صحيحًا صريحًا ينتهي به إلى قبيلة من القبائل، ولو كان هَذَا حقًّا لتغير كثيرٌ جدًّا من القيَم التاريخية والمعاصرة، فأكثر الذين كانوا يرون أنفسهم عربًا فِي العصور القديمة، لم يكونوا يحفظون أنسابهم فِي أكبر الظن، والتاريخ لم يحفظها عنهم على كل حال، أفنجحد الآن أنهم كانوا عربًا؛ لأن أنسابهم لم تصل إلينا؟ وأكثر المعاصرين من الشعوب العربية فِي الشرق الأدنى، لا يحفظون أنسابهم، ولا يستطيعون أن يرقوا بها إلى عدنان أو قحطان، أفنجحد تحدُّرهم من العنصر العربي الصريح؟! وما هَذَا العنصر العربي الصريح؟ وكيف السبيل إلى تحقيقه واستخلاصه من العناصر المختلفة التي لا تحصى، والتي اتصلت به وأثرت فيه على تتابع الأحداث ومرِّ العصور؟

ولكن ماذا؟ أراني أستطرد وأُسرف فِي الاستطراد، وأكاد أثير مسألة الأجناس التي يثيرها بعض الساسة المعاصرين، ويندفعون معها إلى كثير من الحمق، وإلى كثير من الظلم أيضًا، والأمر أيسر من هذا؛ فالتفكير فِي نسب المتنبي والحديث عنه أهون من أن يدفعنا إلى أن نخوض هذه الغمرات.

كان المتنبي يرى أنه عربي، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأي، ولعل هَذَا الرأي كان أبلغ المؤثرات فِي حياته العملية، وهو أبلغ المؤثرات فِي حياته الفنية على كل حال، وقد أنبأنا المتنبي برأيه هَذَا فِي نفسه حين قال:

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا ... دَ وَعَوْذُ الْجَانِي وَغَوْثُ الطَّرِيدِ

فهذا البيت الثاني صريح فِي أنَّ المتنبي كان يعلن إلى الناس أنه لا يشرف بقومه وإنما يشرف قومه به، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده، وإن كان قومه فخر العرب ومجتمع خلالهم وخصالهم.

فما الذي يمنعنا من أن نُصدِّق المتنبي، ونرى معه أنه كان عربيًّا قحطانيًّا؟ لا شيء إلا أنه لم يحفظ نسبه، ولم يحفظه له المؤرخون؛ فأمره فِي ذلك أمر الكثرة التي لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم، أفنجحد عربيتهم؛ لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب؟ وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانية الناس؛ لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول، أو إلى الأناس الأولين؟ إنما أفهم الشك فِي عربية المتنبي لو أنَّ المؤرخين رووا أنَّ له نسبًا معروفًا أو قريبًا من المعروف فِي أمة غير عربية، وأنه قد

جحد هَذَا النسب وتبرأ منه، واصطنع لنفسه نسبًا عربيًّا، ولكني لم أر أحدًا عاب المتنبي بهذا، أو أضاف إِلَيْهِ نسبًا أعجميًّا أو جعله عربيًّا بالولاء، وإذن فلنقبل من المتنبي، ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب؛ فذلك لا يُغيِّر من العلم شيئًا، وأكبر الظن أنه يلائم الحق.

أفهم أنْ يُنْسب ابن الرومي إلى اليونان؛ لأن جده اليوناني قد حفظ اسمه، وأنْ ينسب من قِبَل أمه إلى الفرس؛ لأن أمه الفارسية قد كانت معروفة، وأفهم أنْ ينسب بشار إلى الفرس؛ لأنه كان يفاخر بذلك ولا يخفيه، وأفهم أنْ تثار المناقشات إن زعم زاعم أنْ بشارًا كان عربيًّا، بل أفهم أن تثار المناقشات حول طائية أبي تمام، ثم حول عربيته؛ لأن المعاصرين قد شكُّوا فِي نسبه وغمزوه ببعض الهنات، ولكني لا أفهم الشك فِي عربية المتنبي، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمة أعجمية، وما دام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك، وما دام هُوَ ينبئنا بأنه عربي صريح.

ومن حقك أنْ تسألني لماذا أطيل الحديث عَنْ نسب المتنبي، وأظهر الشك فِي معرفته لأمه ومعرفته لأبيه ما دمت لا أميل إلى الجدال فِي عنصره العربي الصريح؟ من حقك أن تلقي عليَّ هَذَا السؤال.

فاعلم يا سيدي أني لم أُثِرْ هذه المناقشة الطويلة لأعرف أكان المتنبي عربيًّا أم أعجميًّا، وإنما أثرتها لأنتهي منها إلى حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك، وهي أنَّ المتنبي لم يكن يستطيع أنْ يفاخر بأسرته، ولا أنْ يجهر بذكر أمه وأبيه، التمسْ لذلك ما شئت من علة، فهذا لا يعنيني، وإنما الذي يعنيني، ويجب أنْ يعنيك، هُوَ أنَّ شعور المتنبي الصبي بهذه الضِّعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأَدْنَيْنَ قد كان العنصر الأول الذي أثر فِي شخصية المتنبي، وبغَّض إِلَيْهِ الناس، وفرض عليه أنْ يرى أنَّ حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه، وإنما كانت حياة يحيط بها كثيرٌ من الغموض، ويأخذها كثير من الشذوذ.

رأى نفسه شاذًّا لأمرٍ ليس له فيه يد، وليس له عليه سلطان، ففكر تفكير الشاذ وعاش عيشة الشاذ، ثم انضمت إلى هَذَا العنصر عناصر أخرى سيظهرها لنا شعره، فكوَّنت هذه الشخصية التي لم نستطع أنْ نفهمها، ولا أنْ نحللها إلى الآن.

ليكن المتنبي عربيًّا من قحطان أو من عدنان، أو ليكن فارسيًّا، أو ليكن نبطيًّا، أو ليكن ما شئت؛ فالأمر الذي لا شك فيه هُوَ أنَّ هَذَا الصبي الذي نراه متى أخذنا فِي قراءة ديوانه، نبات شعبي خالص، نشأ فِي هَذَا الشعب الكوفي الذي كان فِي أوائل القرن الرابع

مضطربًا أشد الاضطراب، فدَرْسُ هذه البيئة الشعبية الكوفية التي أنبتت هَذَا النبات الشاذ أقوَمُ وأجدى من البحث عَنْ أبيه، أكان من جعفى، وعن أمه أكانت من همدان.

وتسألني — ومن حقك أنْ تسألني — عَنْ مظاهر هَذَا الغموض الذي أحاط بحياة المتنبي، وعن مواطن هَذَا الشذوذ الذي أخذه من كل وجه فِي بيئته الكوفية، فلاحِظْ قبل كل شيء غموض الأمر فِي نسبه، ولاحظ بعد ذلك خلو ديوانه من ذكر أمه وأبيه، أو الإشارة إليهما، ولاحظ بعد هَذَا وذاك هَذَا الكِذَابَ الذي كان يُكاد به عند أبي العشائر، ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه، ووجد الشوق إلى لقائها، وذهب لتنعم وينعم هُوَ بهذا اللقاء، لم يستطع أنْ يدخل الكوفة، فذهب إلى بغداد وكتب إلى جدته لتشخص إليه، فلما انتهى إِلَيْهَا كتابه فرحت به فقتلها الفرح.

أليس هَذَا كله دليلًا على أنَّ شيئًا كثيرًا من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبي؟

لماذا احتاج المؤرخون إلى أنْ يتحدثوا عَنْ أبيه، وعجزوا أو لم يريدوا أنْ يتحدثوا عَنْ أمه، ولم يتحدث هُوَ عَنْ هذه وذاك؟

لماذا كاد الكائدون للمتنبي فِي نسبه؟ لماذا تعمد الغربة عَنْ الكوفة وألَحَّ فيها، وتجنب الحياة فِي العراق ما وسعه هَذَا التجنب؟ لماذا عجز عَنْ دخول الكوفة حين خفَّ للقاء جدته، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدته أنْ تشخص إليه؟

كل هذه الحقائق واقعة لا نستطيع أنْ نشك فيها، ولكننا لا نستطيع أنْ نعللها تعليلًا قاطعًا، والمتنبي يحقق لنا هذه الأحداث فِي هذه القصيدة الخالدة التي يرثي بها جدَّته، فاقرأ معي هذه الأبيات، ولكن قراءة المستأني المتمهل الذي لا يمر بالشعر مرًّا، والذي لا يشغله الجمال الفني عَنْ التماس نفس الشاعر، وما يُكنُّ فِي ضميره من العواطف المكظومة، والأهواء المكتومة، والخواطر التي لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح:

طَلَبْتُ لَهَا حَظًّا فَفَاتَتْ وَفَاتَنِي ... وَقَدْ رَضِيَتْ بِي لَوْ رَضِيتُ بِهَا قِسْمَا
فَأَصْبَحتُ أَسْتَسْقِي الْغَمَامَ لِقَبْرِهَا ... وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَغَى وَالْقَنَا الصُّمَّا
وَكُنْتُ قُبَيْلَ الْمَوْتِ أَسْتَعْظِمُ النَّوَى ... فَقَدْ صَارَتِ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتِ الْعُظْمَى
هَبِينِي أَخَذْتُ الثَّأْرَ فِيكِ مِنَ العِدَى ... فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فِيكِ مِنَ الحُمَّى
وَمَا انْسَدَّتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ لِضِيقِهَا ... وَلَكِنَّ طَرْفًا لَا أَرَاكِ بِهِ أَعْمَى
فَوَا أَسَفَا أَلَّا أُكِبَّ مُقَبِّلًا ... لِرَأْسِكِ والصَّدْرِ اللَّذَيْ مُلِئَا حَزْمَا

وَأَلَّا أُلَاقِي رُوحَكِ الطَّيِّبَ الَّذِي ... كَأَنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمَا
ولَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ ... لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِي أُمَّا
لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِموتِها ... لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَنْفِهِمُ رَغْمَا
تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمَا
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ ... وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى
كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأَنَّنِي ... جَلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنُهُ اليُتْمَا
وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي ... بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا
وَلَكِنَّنِي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ ... ومُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الغَشْمَا
وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ تَحِيَّتِي ... وَإِلَّا فَلَسْتُ السَّيِّدَ البَطَلَ القَرْمَا
إِذَا فَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ ... فَأَبْعَدُ شَيءٍ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا
وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ ... بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتِ فَاذْهَبِي ... وَيَا نَفْسُ زِيدِي فِي كَرَائِهِهَا قُدْمَا
فَلَا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعِزُّنِي ... وَلَا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

فهو قد طلب لجدته حظًّا لم يدركه؛ لأنها أسرعت إلى الموت، ولأن هَذَا الحظ أبطأ على طالبه، وهو يسأل كيف يستطيع أنْ يثأر لها من الحمى التي قضت عليها، على فرض أنه استطاع أن يثأر لها من الأعداء الذين أساءوا إليها.

فمن حقنا أن نسأل عَنْ هؤلاء الأعداء من هم، ومن عسى أن يكونوا؟ ومن حقنا أن نسأل عَنْ هذه المساءة ما هي وما عسى أن تكون؟ من حقنا أنْ نسأل، ولكن المتنبي لم يقدر هَذَا السؤال فلم يجب، أو قدَّره ولم يرد أنْ يجيب عنه؛ لأنه آثر التلميح على التصريح، ولأنه رأى، ومن حقه أنْ يرى أنَّ هذه أمور لا ينبغي أنْ تعنينا، أو إنما هي تعنيه وحده، وحسبه أنْ يعرف بعضها ناس من المعاصرين قليلون أو كثيرون.

هذا يدل من غير شك على أنَّ سرًّا من الأسرار كان يكتنف حياة أبي الطيب ويحيط بأسرته، ويستر عنا حقيقة الصلة التي كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة، والتي كانت بين الحسين السقاء وبين هذه الجدة الصالحة أيضًا، والتي اقتضت أنْ تُهمَل أمّ المتنبي إهمالًا تامًّا.

والمتنبي لا يكتفي بهذا التلميح الموجز، وإنما يطيل فيه إطالة مقصودة تصور ما يملأ نفسه من الضغينة والحقد، وما يفعم قلبه من الموجدة والبغض، ولكنه على هذه الإطالة لا يفصِّل هَذَا التلميح ولا يكشف عما يدل عليه من غموض، فهو يحدثنا بأن قومًا قد يسرُّون بموت جدته، ويشتمون به وبها، ولكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت وأعجزها الموت عَنْ أن تكبتهم وتردَّ كيدهم فِي نحورهم، فقد ولدته رغمًا لأنوفهم، وكبتًا لما فِي صدورهم من الحقد والشنآن، ثم هُوَ يصف لنا نفسه، كما تعوَّد أَنْ يصفها، شديدة البأس، قوية المراس، أبية الضيم، ممتنعة على الذل، ولكننا نقف من هَذَا الوصف المألوف فِي شعر المتنبي عند هَذَا البيت الذي لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفكير:

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمَا

فهو إذن لم يتغرب عَنْ الكوفة حبًّا فِي الغربة، ولكن إيثارًا لها ولمشقاتها وأخطارها على العافية فِي الكوفة، وهو لأمر ما قد آثر هذه الغربة، وتعرَّض لما قد تتكشف عنه من الأخطار والأهوال.

ولعلنا نغلو حين نقول: لأمرٍ ما؛ فهو يبين لنا هَذَا الأمر أو هذه الأمور فِي هَذَا البيت نفسه وفي الأبيات التي تليه، فهو تغرب لأنه لم يكن يستعظم إلا نفسه، وهو تغرَّب لأنه لم يكن يقبل حكمًا إلا لخالقه، وما معنى هذا؟ معناه فِي أكبر الظن أنه تغرَّب منكرًا للحياة فِي الكوفة، وماذا عسى أَنْ ينكر من الحياة فِي الكوفة؟ إنما هما أمران اثنان كانا خليقين أَنْ ينكرهما المتنبي، أحدهما يتصل بالحياة الاجتماعية والآخر يتصل بالحياة السياسية، وليس من شكٍّ عندي — ولك أنت أَنْ تشك — فِي أَنَّ المتنبي لَمَّا تقدمت به السن قليلًا قد عرف من أمر نفسه ومن أمر أسرته ما أنكره، وما لم يستطع أَنْ يقيم معه فِي الكوفة فآثر الرحيل.

فهذا هُوَ الأمر الاجتماعي الذي يتصل بشخص المتنبي وأسرته، ومكانه ومكان هذه الأسرة فِي طبقته الاجتماعية، فأما الأمر الآخر الذي يتصل بالحياة السياسية، فأبيات المتنبي التي رويناها آنفًا، تدل عليه أَيْضًا دلالة واضحة، وسنتبينه بعد قليل فِي شيء من الجلاء لا يحتمل اللبس، وهو عندي أثر من آثار الأمر الأول، فقد كان المتنبي ثائرًا على نظام الحكم المستقر فِي الكوفة، ضيقًا به، راغبًا فِي تغييره أو جادًّا فِي هَذَا التغيير، ولعل هَذَا كله لم يقنعك كما أقنعني بأن طفولة المتنبي لم تكن طفولة عادية مألوفة، وبأن صبا المتنبي لم يكن صبًا عاديًّا مألوفًا، وبأن الكِذَاب الذي كان يُكاد به عند أبي

العشائر ويراه أهون عنده من ناقله، لم يكن كِذَابًا كله وإنما كان له أصل يملأ صدر المتنبي غيظًا وحفيظةً ويذوده عَنْ الكوفة، بل يُبغِّض إِلَيْهِ الحياة فِي العراق، ويحمله على أن ينفق عمره غريبًا مجولًا فِي الآفاق.

هذا كله يكفيني لأقتنع بأن مولد المتنبي كان شاذًّا، وبأن المتنبي أدرك هَذَا الشذوذ وتأثر به فِي سيرته كلها، ولم يستطع أنْ يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التي كان يراد له أنه يعيش فيها، فما هذه البيئة؟

(٤) الحياة الإسلامية حين ولد المتنبي

وهل تريدني على أن أعيد عليك ما امتلأت به الكتب والصحف من تصوير الحياة العراقية خاصة، والإسلامية عامة، آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع؟ أظنك أرفق بنفسك وبي من أنْ تنتظر مني هَذَا الحديث المعاد، ولكن لا بأس بأن نتذكر إنْ كنا قد نسينا أنَّ هذه الحياة العراقية خاصة والإسلامية عامة كانت تنحل إلى ثلاثة أشياء، كل منها خليق بالتفكير الطويل العميق؛ لأن لكلٍ منها أثرًا بالغًا فِي أحداث ذلك العصر على اختلافها:

الأمر الأول فساد السياسة، والأمر الثاني الاقتصاد، والأمر الثالث رقيُّ العقل، وما أظن أنك محتاج إلى أن أذكر لك فساد أمر الخلافة فِي ذلك العصر؛ فكل كتب التاريخ وكل كتب الأدب تُصوِّر لك ما كان من انهيار سلطان الخلفاء وانحلال أمرهم، وخضوعهم المطلق لعبث الجند، وقادة الجند، ولسلطان الخدم والنساء؛ وما نشأ عَنْ ذلك كله من عجز السلطان المركزي فِي بغداد عَنْ أنْ يجمع أطراف الدولة ويحزم أمرها، كما كان يفعل حين كان الخلفاء خلفاء، وحين كانت الخلافة خلافة، وحين لم يكن أمير المؤمنين لعبة فِي يد خادم أو أمة؛ ثم ما نشأ عَنْ هَذَا كله من استقلال الأطراف، وطموح الولاة إلى الملك، وظهور القوميات الوطنية فِي الشرق والغرب، ونشوء عهد يشبه عهد الإقطاع فِي أوربا أثناء القرون الوسطى.

أنت تعرف هَذَا كله، ولست أحدثك بجديد إنْ أعدته عليك، وهو من غير شك يصور لك فساد السياسة الإسلامية فِي ذلك العصر، وفساد هذه السياسة الإسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الإسلامي، فما دام السلطان المركزي مضطربًا عاجزًا، كثير التقلب، فشئون المال فِي الدولة مضطربة مختلطة كثيرة الارتباك، وإذن فجباية الضرائب، وتحصيل الدخل وملء الخزانة، كل ذلك مضطرب أيضًا، وإذن فدافعو

الضرائب على اختلافهم وتباين طبقاتهم، معرَّضون لألوان من الظلم لا يمكن إحصاؤها، وإذن فالتعاون بينهم وبين السلطان منعدم، وسوء الظن قائم مقام هَذَا التعاون.

السلطان محتاج إلى المال دائمًا، وهو معتقد أنَّ الرعية قادرة دائمًا على أن ترضي حاجته إلى هَذَا المال، والرعية سيئة الرأي فِي السلطان، ترى ظلمه وبطشه، وعجزه وعبثه بما تدفع إِلَيْهِ من مال، فلا تطيب له نفسها عَنْ شيء؛ فهي تُظهر الفقر، وتعلن الشكوى، وتضمر البغض للحكومة، وتجدُّ فِي أن تخفي عليها ما تملك، فالعداء مستحكم بين الراعي والرعية؛ كلٌ يرى نفسه لصاحبه خصمًا، وكلٌ ينتهز لصاحبه الفرصة ويتربص بصاحبه الدوائر، وعجز السلطان واضطرابه، وعبث الجند والخدم يدفعه إلى شيء آخر غير ظلم الرعية، يدفعه إلى ظلم أعوانه أنفسهم؛ فهو يأجر الجند إنْ استطاع، فإذا أعياه ذلك لم يؤد إلى الجند أجورهم؛ وإذن فسوء الظن قائمٌ بينه وبين الجند: يرى هُوَ أنهم نهمون لا يشبعون، ويرون هم أنهم مستأثر دونهم بالمال، يستغلهم ولا يُؤدي إليهم أجرًا، فسياسة السلطان للجند وطاعة الجند للسلطان يقومان على المكر والخداع، أكثر مما يقومان على الصراحة والإخلاص، والأمر ليس مقصورًا على الجند وقادتهم، ولكنه يتجاوز أولئك وهؤلاء إلى أصحاب المناصب المدنية على اختلافها؛ فهم أَيْضًا لا يتقاضون أجورهم فِي نظام، وهم أَيْضًا مدفوعون إلى أنْ يسيئوا الظن بالسلطان، والسلطان مدفوع إلى أنْ يُسِيء الظن بهم، وهم مدفوعون إلى شرٍّ من هذا، مدفوعون إلى أن يأجروا أنفسهم على حساب الرعية، يَظلمون ويغصبون، ويسرقون ويرتشون، والرعية ترى هَذَا وتتقيه ما استطاعت — وقلما تستطيع — فهي تنكر السلطان وجند السلطان، وأعوان السلطان، وهي أَيْضًا تريد أن تعيش، وأن تعيش فِي لين إن وجدت إلى ذلك سبيلًا، والسلطان يضرب لها المثل وينصب لها القدوة، فما لها لا تظلم كما يظلم السلطان! وما لها لا تغضب كما يغضب السلطان! وإذن فقوام الأمر كله الظلم والغصب، وإفلات المرء بما يستطيع أن يفلت به من نعيم الحياة ولذاتها.

ومن هنا يوجد الأغنياء الذين لا تُحصى ثروتهم، والفقراء الذين لا يُتَصَوَّر فقرهم، والمضطربون بين الغني والفقير الذين يواتيهم الحظ فيبلغون أقصى النعيم، ثم تخلفهم الأماني وعودها فيهبطون إلى قرارة البؤس.

وما أظنك فِي حاجة إلى أن أؤكد لك أنَّ هذه الصور التي عرضتها عليك ليست صورًا قد اخترعها الخيال من عند نفسه، وألفها تأليفًا، مؤثرًا فِي هَذَا التأليف الغلو والإغراق، إنما هي صور متواضعة، أقل ما توصف به أنها أيسر وأهون وأقل بشاعة وسماجة

مما نقرؤه فِي كتب التاريخ الذي يعرض علينا فساد السياسة والاقتصاد مفصلًا أقبح تفصيل وأشنعه، يعرضه علينا مكتوبًا بالدم لا بالمداد.

أما رقيُّ العقل فِي هَذَا العصر فليس أقل ظهورًا وجلاءً من فساد السياسة والاقتصاد، فهو العصر الذي نضجت فيه الحضارة الإسلامية، وأدركت رشدها، واستكملت قوتها، وأخذت تؤتي ثمرها طيبًا لذيذًا فِي كل فرع من فروع العلم والفلسفة والأدب والفن.

وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة: فيه التقت أكثر الأجناس التي تتألف منها الدولة الإسلامية، أو على أكثر تقدير أكثر هذه الأجناس استعدادًا للحضارة، وأحسنها بلاءً فيها، وأعظمها حظًّا من الإنتاج قديمًا وحديثًا، فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين، وفيه كان الفرس ومعهم حضارتهم الساسانية المعقدة التي تمتاز بالترف المادي والعقلي معًا، وفيه كانت أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود، وتمثلوا تراث اليونان، وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة، ينقلون إِلَيْهَا تراث الأولين من أهل الشرق والغرب، ويعينونها على أن تسيغه وتتمثله، ولم يخلُ العراق من يونانيين انحدروا إِلَيْهِ وأقاموا فيه طائعين للاقتصاد والتماس المنفعة، وكارهين بحكم الحرب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين وبحكم الرق أيضًا، ولم يخلُ العراق من الهنود الذين كانوا يفدون طوعًا أو كرهًا كاليونان، ثم لم يخلُ العراق ممن كانوا يمثلون الأقاليم والأطراف الغربية للدولة، كانوا يفدون للتجارة، وكانوا يفدون للسياسة، وكانوا يفدون لطلب العلم أيضًا، وكل هذه الأجناس كانت تلتقي متعارفة لا متناكرة، ومؤتلفة لا مختلفة، ومتعاونة لا متقاطعة، قد زالت بينها الفروق، وألغيت بينها الحجب، وصبغتها الحضارة الجديدة صبغة واحدة، وجعلت لها لغة واحدة هي اللغة العربية، بها تتحدث، وبها تكتب، وفيها تدوِّن، وعن هَذَا كله نشأت الظاهرة التي تعنينا الآن، وهي أنَّ رقيَّ العقل فِي هَذَا العصر قد انتهى إلى ما لم ينته إليه قط فِي العصور الإسلامية السابقة، فأحدث آثارًا غريبة أقل ما توصف به أنها كانت متناقضة أشد التناقض.

اختلطت الثقافات المختلفة وانتشرت فِي الطبقات كلها، فِي الطبقات القوية، وفي الطبقات الوسطى، وفي الطبقات الضعيفة الخاملة، ونشأ عَنْ انتشار الثقافة وتغلغل العلم فِي جميع الطبقات أنَّ كل متعلم مثقف طمح إلى حالٍ خير من حاله التي هُوَ فيها، وفتحت الثقافة للمثقفين أبواب الحيل، ومدت لهم أسباب النجح، ومهدت لهم سبل الفوز، فأما الأغنياء وأصحاب الصولة فقد طمعوا وجهدوا فِي أن يتزيدوا من الغنى

والصولة، وظفروا من ذلك بالشيء الكثير، وأما أوساط الناس فقد طمعوا فِي السيادة، وسموا إلى المكانات العليا، وبلغوا منها كثيرًا مما أرادوا، وأما الطبقات الضعيفة الخاملة فقد طمعت فِي أن ترقى درجة أو درجات، وظفرت من ذلك بكثير مما أرادت أيضًا، ولكن الطمع الإنساني لا حد له، والطموح إلى الكمال لا يقف، والأمور الاجتماعية لا تطرد على هَذَا النحو السهل الذي يتصوره العقل، فكل طمع فِي أي طبقة من الطبقات يصدُّه طمع مثله، وكل طموح يقاومه مثله، وكل ظفر ينتهي إِلَيْهِ فرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات، إنما هُوَ انتصار على فردٍ آخر، أو ظهور على طبقة أخرى؛ فهو إن أرضى قومًا يسخط آخرين، والحياة الإنسانية لذلك دائمًا حربٌ متصلة، وصراعٌ مستمر، وطموحٌ لا ينقضي، وآمالٌ لا تُحدُّ وجشعٌ لا يُرضى. فإذا أتيح لهذه الحياة سلاحٌ من العقل الراقي والثقافة الواسعة، والعلم الذي يفتق الحيلة ويرهف الحس ويذكي نار الشعور ويشحذ العزم، لم يكن بدٌّ من أن ينتهي الأمر إلى الثورة وإلى الاضطراب، وإلى مثل ما نشهده فِي ذلك العصر من فساد السياسة والاقتصاد والخلق والشعور الديني أيضًا، وإذا كنا قد لاحظنا ما لاحظناه من فساد السياسة الإسلامية فِي ذلك الوقت وغليانها كما يغلي المرجل، ثم انفجارها آخر الأمر وانتهائها إلى ما انتهت إِلَيْهِ من الكوارث والأحداث، فالثورة البابكية أو الخرَّمية فِي أول القرن الثالث، وثورة الزنج أواسط هَذَا القرن، وثورة القرامطة فِي آخره وفي أثناء القرن الرابع، لم تكن إلا نتائج طبيعية لتفاعل هذه العناصر التي أشرنا إِلَيْهَا فِي كثير من الإيجاز.

ولعل أخص ما تمتاز به هذه الثورات الثلاث أنها كلها كانت تقصد إلى تغيير الحياة الاقتصادية، بحيث يغير توزيع الثروة بين الناس، ويتحقق شيء من العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات، وأنها كلها كانت تقصد كذلك إلى تقوية الشخصية الفردية، وتحريرها بين القيود والأغلال التي فرضها عليها النظام الديني والسياسي والاجتماعي، فقد كان الأفراد كما هم دائمًا يحتالون فِي أن يتحللوا من هذه القيود بين الحين والحين؛ فكانوا يحاولون اللهو والعبث، واستباحة ما لم يكن مباحًا، يجهرون بذلك إن أتيحت لهم الفرص، ويسرُّون ذلك إن حيل بينهم وبين الإعلان، فإذا هذه الثورات تطالب لهم بالحق فِي أن يجهروا من ذلك بما أحبوا، وفي أن يأخذوا من ذلك ما أرادوا، تعلن ذلك فِي غير تحفظٍ حينًا، وتعلن ذلك مع التحفظ والاحتياطِ حينًا آخر، وهي على كل حال تتملق أحوال العامة وشهواتهم وحاجاتهم إلى استباحة ما لا يباح، والاستمتاع بما لا يحل الاستمتاع به.

والثقافة تُهوِّن عليهم إثم ذلك من جهة، وتفتق لهم الحيلة فِي ذلك من جهة أخرى، والغرائز المظلومة تستجيب لهذه الدعوات الجريئة الملحة المغرية، والأمر يختلط بين الخاصة والعامة، وبين العالم والجاهل، وبين المقدم عَنْ فهمٍ ورأي، والمقدم عَنْ انتهاز للفرصة واستمتاع بالساعة التي هُوَ فيها؛ حَتَّى فسد الأمر واختلط، وحتى طغى السيل وكاد يكتسح كل شيء، وقد قاومه المعتضد، وأقام الجسور التي حصرته حينًا، ولكن المعتضد لم يكد يموت حَتَّى انهارت هذه الجسور، واندفع السيل أمامه لا يلوي على شيء، وعجزت الدولة الإسلامية عَنْ مقاومة هَذَا الطوفان الخطر الذي أثاره ما كان من التفاعل بين هذه العناصر التي صورناها منذ حين.

فِي هَذَا العصر الذي نحن بإزائه عظمت الشخصية الفردية حَتَّى انتهت من القوة إلى حدٍّ لم تبلغه قط فِي التاريخ الإسلامي، وضعفت قوة الجماعة حَتَّى كادت لا تكون شيئًا يُذكر، ونشأ عَنْ ذلك أن قويت الأثرة، وتحكمت فِي الأفراد، وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم، وامَّحى الإيثار أو كاد يَمَّحِي، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التي تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة؛ ولم يكن غريبًا أن يمكر الصديق بصديقه، ويغدر الخليل بخليله، ويكيد الابن لأبيه، ويبغي الأخ على أخيه، ولم يكن من الغريب أن تستباح الدماء التي عصمها الله، وتُنتهك الحرمات التي أمر الله أن ترعى.

ويجب أن نلاحظ أنَّ كل هذه الظواهر التي كانت حقائق واقعة فِي ذلك العصر، لم تكن تتخذ طرقها ميسرة ممهدة مستقيمة، وإنما كانت تلتوي وتعوَج وتدور حول الصعاب والمشكلات إذا لم تستطع أن تقتحمها، وليس من شكٍّ فِي أنَّ كثيرًا من التضليل والتغرير قد سلط على جماعاتٍ بريئة مطمئنة غافلة؛ فَلَبَّس لها الحق بالباطل، وزَيَّن لها الشر حَتَّى رأته خيرًا، ودفعها بألوان الإغراء العنيف حَتَّى اندفعت أمامها فِي هذه الصحراء تلتمس الري من هَذَا الماء الذي كانت تراه رأي العين وتركض إليه؛ حَتَّى إذا بلغته لم تجده شيئًا ووجدت عنده الخيبة والبؤس والشقاء.

فهذه الجماعات الضخمة التي ثارت مع بابك الخرمي أو مع صاحب الزنج أو مع دعاة القرامطة، لم تكن كلها مُقدِمة عَنْ علم بما تُقدِم عليه، وإنما ثارت تلتمس العدل الاجتماعي الذي تتطلبه النفس الإنسانية دائمًا، وتتطلبه مُلحَّةً شاكيةً كلما عظم حظها من البؤس والشقاء، وقد عرف قادتها وسادتها كيف يُلْبِسون عليها الأمر ويزينون لها الشر، وعرف الحكام وأعوان الحكام كيف يبغِّضون إِلَيْهَا النظام القائم ويزهدونها فيه، ويدفعونها إلى الثورة به والخروج عليه.

في هَذَا العصر الذي نحن بإزائه، وفي هَذَا الاضطراب المتصل والفساد الشائع، كثر المغامرون والمخاطرون وأصحاب المطامع التي لا تحدُّ، وظفر بعض هؤلاء المغامرين بما كان يريده كله أو بعضه، ظفرًا يطول حينًا ويقصر حينًا، ولكنه ظفر على كل حال، من شأنه أن يغري بالمغامرة ويدفع إلى المخاطرة، ويزيد أثرة الأفراد، ويُضعِف فِي حياة الجماعات فسادًا إلى فساد.

في هذه البيئة المنكرة، التي لم نبالغ ولم نغلُ فِي تصويرها ولد المتنبي، وأكبر الظن أنَّ مولده كان أثرًا من آثار هَذَا الفساد العظيم، أو أنه لم يخل من تأثر به على كل حال.

وُلد المتنبي فِي بيئةٍ كان الدم يصبغها من حينٍ إلى حينٍ، كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حَتَّى يُسفك دم آخر، ولم يكن الدم وحده يصبغها، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكرًا من سفك الدم، هُوَ النهب والسلب، واستباحة الأعراض وانتهاك الحرمات، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين.

أضف إلى هَذَا الشر كله شرًّا آخر سياسيًّا جنسيًّا، إن صح هَذَا التعبير، وهو أنَّ الأمة العربية التي أقامت هَذَا الملك الضخم، وشيَّدت هذه الحضارة المزدهرة، قد غُلبت على أمرها وطُردت من مستقر سلطانها؛ فانحاز إلى الشام والجزيرة منها من انحاز، وخضع للذل منها من أقام فِي العراق، ودُفع إلى الجهالة والبداوة منها من انحاز إلى جزيرة العرب وأقام فيها، وتسلط الغلمان والرقيق والمغامرون من الخدم وأشباه الخدم على الملوك والأمراء والخلفاء يعبثون باسمهم ويبطشون بسلطانهم ويظلمون دون أن يردعهم رادع أو يزعهم وازع أو يصدُّهم عَنْ ذلك صادٌّ، فعامة الناس طامعون فِي العدل العام، وهم مع ذلك ينكر بعضهم بعضًا، ويمكر بعضهم ببعض، ويعتدي بعضهم على بعض، وخاصة الناس متنافسون متدابرون لا يعرفون لما بينهم من التنافس والتدابر حدًّا، ولا يعرفون لما يثيره التنافس والتدابر فِي نفوسهم من الآمال والأهواء ومن المطامع والمآرب غاية ينتهون إليها.

ملك عظيم ينقض، وسلطان هائل ينهار، وقومٌ يتهالكون على فتات ذلك المُلك وأنقاض هَذَا السلطان، فإذا ولد فِي هذه البيئة صبي ذكي القلب، مرهف الحس، رقيق المزاج، حاد الشعور، ملتهب العاطفة، قوي الخيال، كان من الطبيعي أنْ يسير السيرة التي تكوِّن منه هَذَا الشخص الذي يعرف بالمتنبي.

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن نصحب هَذَا المتنبي فِي طريقه القصيرة التي سلكها منذ وُلد سنة ثلاث وثلاثمائة إلى أنْ مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وقد نجد

غموضًا والتواء فِي هذه الطريق، ولكنها على كل حال أيسر من كثير من الطرق التي سلكها غيره من الشعراء؛ لأنه هُوَ قد يسرها لنا فأحسن تيسيرها.

(٥) صِبى المتنبي في العراق

وطفولة المتنبي مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه، وليس فِي ذلك شيء من الغرابة، ما دمنا نجهل من أمر أسرته الخاصة كل شيء، أو نكاد نجهل من أمرها كل شيء، وما دمنا لا نعرف شيئًا عَنْ أمه، ولا نكاد نعرف أو لا نعرف شيئًا عَنْ أبيه؛ فطبيعي ألا نعرف عَنْ طفولته شيئًا ما.

والذي نعرفه عَنْ صبا المتنبي ينقسم قسمين: أحدهما ينبئنا به الرواة، وأنا أقف منه موقف التحفظ والاحتياط، ولكني لا أهمله ولا ألغيه.

والآخر ينبئنا به المتنبي نفسه، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر الصبا، وأنا أطمئن إِلَيْهِ اطمئنانًا ما، وآخذه أخذ الناقد الذي لا يُصدِّق كل ما يُلقَى إِلَيْهِ فِي غير تفكير.

فأما الرواة فيحدثوننا أنَّ المتنبي دفع إلى مدرسة من مدارس العلويين، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين،[٣] فبدأ فِي هذه المدرسة أو فِي هَذَا المكتب تعلمه، ولا يزيد الرواة على هَذَا الخبر شيئًا يفصله أو يوضحه، ولكن المتأخرين، والمحدثين منهم خاصة، يذهبون فِي فهم هَذَا الخبر مذهبًا أقل ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة، فهم يظنون أنَّ هذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة، وهم بعد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان فِي تفسير اختلاف الصبي إلى هذه المدرسة العلوية الأرستقراطية، ويفسرونه تفسيرات مختلفة.

أما أنا فلست أدري أكانت المدرسة العلوية هذه ممتازة أرستقراطية حقًّا، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس، ولكنها تعلم على مذهب الشيعة العلويين، فكان العلويون يؤثرون أن يرسلوا إِلَيْهَا أبناءهم، فلفظ العلويين فِي هَذَا الخبر عندي يوشك أن يكون مرادفًا للفظ الشيعة، وواضح جدًّا أنَّ المدارس فِي مدينة كمدينة الكوفة كانت تختلف باختلاف السكان لهذه المدينة، فللشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم، وللسنيين منهم مدارسهم أيضًا، وجائز أن تسمى مدارس الشيعة مدارس علوية، كما تسمى مدارس أهل السنة مدارس عباسية.

[٣] خزانة الأدب ج١ ص٣٨٢ (طبع القاهرة).

وأكبر الظن عندي أَيْضًا أَنَّ الأرستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة، لم يكونوا يرسلون أبناءهم فِي طور الصبا إلى المدارس العامة، وإنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين؛ فإذا شبوا خَلَّوْا بينهم وبين الاختلاف إلى مجالس العلم فِي الأندية والمساجد الجامعة، إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هذه المكاتب والمدارس.

للشيعة العلويين مكاتبهم ومدارسهم، ولأهل السنة مكاتبهم ومدارسهم أيضًا، فاختلاف المتنبي إلى هذه المدرسة العلوية لا يدل عندي على امتياز ولا على استثناء، وإنما يدل على الاتجاه الديني الذي وُجه إِلَيْهِ الصبيُّ، ويدل على أَنَّ الذين كانوا يكفلون هَذَا الصبيَّ ويقومون على تربيته وتنشئته كانوا من الشيعة العلويين.

ولسنا فِي حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبي فِي هذه المدرسة التي اختلف إِلَيْهَا أيام صباه، فالراجح بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة وقرأ فيها القرآن كله أو بعضه، وتلقى فيها أصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين، وسمع فيها الشعر، وروى منه أطرافًا، وتعلم فيها شيئًا من علوم اللغة والأدب بوجه عام.

وقد كان لهذه المدرسة تأثير ظاهر فِي عقل هَذَا الصبيِّ وقلبه ينبئنا به الديوان؛ فقد حفظ الديوان للمتنبي مقطوعات من الشعر قالها الصبيُّ وهو يختلف إلى المكتب.

وليس يعنينا أَنْ نؤرخ بالدقة هذه المقطوعات، فقد لا تكون السبيل ميسرة إلى هَذَا التأريخ، ولكن الشيء الذي نستطيع أن نحققه هُوَ أَنَّ ثلاث خصال تظهر لنا فِي هَذَا الشعر:

الخصلة الأولى: أَنَّ الصبيَّ مقلد فِي الفن الشعري، يتأثر بما كان يحفظ فِي المدرسة، أو ما كان يسمع فيها من شعر القدماء ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير وهذا طبيعي؛ فالأصل فِي الابتداء الفني التقليد بحيث يقلد المبتدئ واحدًا أو غير واحد من الذين سبقوه فِي الفن الذي يزاوله، يلتمس نفسه — كما يقول الفرنسيون — فِي هَذَا التقليد، حَتَّى إذا وجدها استغل قواها وعواطفها واستثمر كنوزها ودخائلها، واستخرج منها شخصيته التي تنمو على مر الزمن وطول المرانة، فليس غريبًا أن يكون فن المتنبي فِي صباه فنًّا تقليديًّا ليست له قيمة خاصة.

والخصلة الثانية: أن هَذَا الشعر، شعر صبيٍّ متشيع للعلويين، متأثر بآراء الشيعة وبآراء الغلاة منهم خاصة، وسنرى هَذَا بعد قليل.

والخصلة الثالثة: أنَّ هَذَا الشعر شعر صبيٍّ لم يكن بعيدًا كل البعد عَنْ أمور القرامطة وأخبارهم، وعن كلفهم بسفك الدماء، وشغفهم بالحروب والغارات، وقد يجوز أن نضيف إلى هذه الخصال الثلاث خصلة رابعة، وهي أنَّ هَذَا الصبيَّ كان طويل اللسان شيئًا ما، مستعدًّا استعدادًا حسنًا للسخرية ثم الهجاء.

وكل هذه الخصال تدلنا على أنَّ الصبي قد كان ممتازًا حقًّا؛ فليس قليلًا على صبيٍّ لم يكن يتجاوز العاشرة أن يقول شعرًا يُروَى، وأنْ يمس بهذا الشعر الغزل والحماسة، والمدح والهجاء وفلسفة الغالية من الشيعة.

والآن يحسن أن نقف عند هذه المقطوعات لحظة لنرى أتصوَّر حقًّا كل هذه الخصال التي أحصيناها، فانظر إلى هذين البيتين اللذين يحدثنا الديوان بأنهما أول ما نظم من الشعر فِي صباه، وليس يعنينا أكانا فِي الحق أوَّل ما نظم أم لم يكونا، وإنما الذي يعنينا أنهما من شعر الصبا، وأنهما يصوران ما أشرت إِلَيْهِ من التقليد، ويصوران الصنعة والجهد والتكلف، ويصوران صبيًّا يريد أن يصنع الشعر، ويحس فِي نفسه الرغبة فِي ذلك فيعمد إليه، ولكنه لا يحسن التصرف فيه:

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُهُ فَافْتَرَقْنَا　　　وَقَضَى اللهُ بَعْدَ ذَاكَ اجْتِمَاعَا
فَافْتَرَقْنَا حَوْلًا فَلَمَّا الْتَقَيْنَا　　　كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

فالفكرة الشعرية التي يريد الصبيُّ أن يصورها هي أنه أحب شخصًا؛ فلم يكد يحبه حَتَّى فرَّقَ الدهر بينهما، ثم طال انتظاره للقاء من أحب وأتيح له هَذَا اللقاء، ولكنه لم يطل بل فرَّق الدهر بينهما مرة أخرى فالصبيُّ سيئ الحظ، يحب ثم يحال بينه وبين من أحب قبل أن ينعم بعشرته، ثم يتاح له اللقاء فيقدر أنه سيستدرك ما فاته من نعم، ولكن قسوة الدهر تخيب أمله هَذَا أيضًا، وأكبر الظن أنَّ الفكرة التي حملت الصبيَّ على أنْ ينظم هذين البيتين هي هذه التي توجد فِي الشطر الأخير من البيت الثاني وهي:

كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

أعجب الفتى بهذا المعنى، فأراد أن ينظمه وأن يصل إليه، فتكلف لذلك بيتًا ونصف بيت وأنت ترى مظهر التكلف فِي قوله:

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُهُ فَافْتَرَقْنَا

فكلمة «وددته» هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار فِي مكانها الذي هي فيه، أراد الصبي أن يقول: أحببته فلم يستقم له الوزن، فالتمس كلمة تؤدي له هَذَا المعنى وتلائم هَذَا الوزن فلم يجد إلا «وددته» هذه، ثم انظر إلى الشطر الثاني من هَذَا البيت:

وَقَضَى اللهُ بَعْدَ ذَاكَ اجْتِمَاعَا

فستراه فِي نفسه حسنًا مستقيمًا، ولكنه مع الشطر الأول قلق، يظهر عليه التكلف الشديد، لا لشيء فيما أظن إلا لأن الشَّاعِر الصبيَّ قد أعجل ولم يملك ما ينبغي له من الأناة ولم يتم معناه الذي ضمنه الشطر الأول، وإنما وثب منه وثوبًا إلى هَذَا المعنى الثاني؛ لأنه عجلٌ يريد أن يصل إلى الشطر الذي ألقي إليه، والذي حمله على نظم هذين البيتين، وكذلك الشطر الأول من البيت الثاني يصور عبث الصبيِّ واجتهاده، وما كان يلقى من المشقة فِي هَذَا الاجتهاد، فانظر إلى قوله «فافترقنا حولًا» بعد قوله «وقضى الله بعد ذاك اجتماعًا»، وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعًا، فستظهر لك الصنعة والمحاولة ظهورًا لا يدع سبيلًا إلى الشك فِي أن الصبيَّ قد أنفق جهدًا ثقيلًا ووقتًا طويلًا، حَتَّى استخرج من نفسه هذين البيتين.

وسواء أكان هَذَا الشعر جيدًا أم رديئًا مستقيمًا أو ملتويًا، فإني أجد فِي نفسي حبًّا له وميلًا إليه؛ لأني أتمثل هَذَا الجهد العنيف الذي بذله هَذَا الصبي الذكي، حَتَّى استخرج هذين البيتين، ومن يدري! لعلي إنما أحب هذين البيتين، وأعجب بجهد الصبي فِي استخراجهما؛ لأني شهدت صبيًّا أحبه يبذل هَذَا الجهد وينفق مثل هَذَا الوقت ويستخرج مثل هَذَا الشعر، ولم أجد بدًّا من أن أثني له على شعره، وأهنئه بما انتهى إِلَيْهِ من الفوز، ولم أكن فِي هذه التهنئة ولا فِي ذلك الثناء متكلفًا ولا غاليًا، وإنما كنت صادقًا مرسلًا نفسي على سجيَّتها، أصدر عَنْ العاطفة أكثر مما أصدر عَنْ الفن.

وانظر بعد هذين البيتين إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخرى التي قالها صبينا فِي حداثته، كما ينبئنا الديوان وكما تنبئنا هي أيضًا؛ فسترى من جهة أنها كالبيتين الأولين، ألقيَ منها على الصبي بيت هُوَ البيت الأخير، وهو الذي حمله على أن يتكلف البيتين الآخرين ليصل إليه، وكان هذا البيت الأخير كحظ ذلك الشطر الأخير من البيتين السابقين، حفظه الناس وأحبوه وتمثلوا به؛ لأنه وحي الطبع البرئ وأهملوا ما قبله؛ لأنه متكلف مصنوع:

أَبْلَى الهَوَى أَسَفًا يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي ... وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الجَفْنِ وَالوَسَنِ
رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا ... أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ
كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ ... لَوْلا مُخاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

فواضح جدًّا أنَّ بيت المقطوعة هُوَ البيت الأخير، وأنَّ الفكرة التي يريد الصبيُّ تصويرها هي الإغراق فِي وصف النحول، فانظر إِلَيْهِ كيف تكلف الوصول إلى هَذَا البيت:

أَبْلَى الهَوَى أَسَفًا يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي

«فأسفًا» هنا كلمة لم تأتِ إلا لتقيم الوزن، ونبوُّها عَنْ موضعها أظهرُ من أن يُدَلَّ عليه، ولكننا مع ذلك نلاحظ شيئًا من الموسيقى قد وفق الشَّاعِر له بين الهوى والنوى، وهو يدل على شيء من الرقي فِي صناعة النظم، وعلى أنَّ الصبيَّ قد استطاع أن يتصرف شيئًا ما فِي الألفاظ.

ونلاحظ كذلك أنه قد صرَّع فِي هَذَا البيت بين البدن والوسن، صنيع الشَّاعِر الذي يريد أن ينشئ قصيدة طويلة، ولعله لم يستطع أن يتجاوز البيت الثالث فوقف عنده، ولعله تجاوزه وأتم قصيدته، ولكنه لم يرضَ عما بعد البيت الثالث فأسقطه حين أراد أن يجمع الديوان، أما البيت الثاني فعبث الصبيِّ ظاهر فيه، وهو لا يخلو من ظرف وخفة وروح، هُوَ إعادة لقول الشَّاعِر القديم:

وَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتِ مِنِّي مُعَلَّقٌ ... بِعُودِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا

ولكن الصبيَّ اختصر الطريق وأراح نفسه وجعل جسمه عود الثمام لا شيئًا معلقًا بهذا العود، ثم انظر إلى قوله:

أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ

فسترى فيه الطفولة الحلوة، والحداثة العذبة، وليس من شك فِي أنَّ طبيعة الشَّاعِر الحدَث قد واتته فِي البيتين السابقين.

واقرأ هذين البيتين الآخرين وكأنه ارتجلهما ارتجالًا حين قيل له وهو فِي المكتب، ما أحسن هذه الوفرة! فقال:

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالْ
عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يَعُلُّهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السِّبَالْ

ولعلك تلاحظ معي أنَّ فِي هذين البيتين جزالة مطبوعة لا تلاحظها فِي الأبيات السابقة، وأنهما بريئان البراءة كلها من الصنعة والتعمل، ولكني لم أروهما لهذا وحده، وإنما رويتهما لما يصوران من نزاع هَذَا الصبي الحدث إلى الحرب والقتال ورؤية الدم المسفوك، وما ينمان به من حفيظة تضطرب فِي نفس الصبيِّ، وضغينة تضطرم فِي قلبه الغض، وتطلق لسانه بهذا الكلام الملتهب، ولك فِي فهم هذين البيتين وجهان فيما يظهر، فهل كانت الوفرة التي استُحسنتْ له وفرته هو؟ وإذن فهو غير راضٍ عَنْ نفسه ولا مطمئن إلى حاله، وإنما هُوَ يتحرق شوقًا إلى الشباب الذي يمنحه القوة والحرية، وإلى الظروف التي تتيح له خوض غمار الحرب، وعلى صعدته من دماء الأعداء، أو هل كانت الوفرة وفرة تِرْب من أترابه فِي المكتب؟ فالصبيُّ إذن يهجو ولا يرضى عَنْ هؤلاء الصبية المنعمين الذين يعنوْنَ بوفرتهم وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة.

ومهما يكن من شيء، ففي هذين البيتين ريح البيئة الدامية التي كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبي، بين تلك الغارات التي كانت تنتهي بالقرامطة إلى الكوفة وسوادها من حينٍ إلى حينٍ.

وتستطيع الآن أن تقرأ هذه الأبيات التي قالها الصبي يعبث فيها برجلين قتلا جرَذًا وأظهراه للناس:

لَقَد أَصبَحَ الجُرَذُ المُستَغيرُ　　أَسيرَ المَنايا صَريعَ العَطَبْ
رَمَاهُ الكِنانِيُّ وَالعامِرِيُّ　　وَتَلَّاهُ لِلوَجهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلَا الرَجُلَيْنِ اتَّلَى قَتْلَهُ　　فَأَيُّكُمَا غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ
وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ؟　　فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَنَبْ

فظاهر أنَّ هَذَا الشعر ليس شعر صبي يقرْزمُ، وإنما هُوَ شعر شاعر قد راض نفسه على نظم الكلام، وتعلَّم كيف يُصرِّف هَذَا الكلام كما يحب من وجوه القول، بل تجاوز رياضة النفس على إجادة النظم إلى التماس الهجاء المُمِضِّ والسخرية اللاذعة، وإلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب.

فالشاعر الناشئ يقص علينا فِي البيت الأول والثاني قصة مؤثرة فيها ما يحزن، وفيها ما يثير الإعجاب، فِي البيت الأول ما يحزن ويدعو إلى الرثاء لهذا الجرذ المسكين الذي أسرته المنايا وصرعه العطب، وفي البيت الثاني ما يعجب من أمر هَذَا الكناني وهذا العامري اللذين تعاونا على رمي الجرذ وتلَّاه للوجه — كما يفعل العرب البواسل — وفي هذين البيتين تنتهي القصة ظريفة سريعة مضحكة، بما فيها من رثاء مصنوع، وإعجاب متكلف، ولكن شاعرنا الصبي لا يكتفي بالقصة وإنما يريد أن يستغلها ويستثمرها ويستخرج منها الذخائر والكنوز، فهو يحقق أن كلا الرجلين قد قتل الجرذ، فهل كانت للجرذ درع؟ وهل كان له سيفٌ ورمحٌ؟ وهل كانت له بيضة ودرقة؟ وهل كان يحمل ذهبًا وفضةً ومتاعًا؟ كل هذه الصور يثيرها الشطر الأخير من البيت الثالث، ثم انظر إلى هَذَا البيت الأخير:

وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ؟　　فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَنَبْ

فلن ترى سخرية ألذعَ من هذه السخرية ولا هجاء أمضَّ من هَذَا الهجاء، ولن ترى أشد من هَذَا الازدراء للحضريين من أهل الكوفة المعاصرين له، الذين استسلموا واستكانوا وقنعوا من الشجاعة والنجدة، ومن المخاطرة وحسن البلاء، بأن يتعاون اثنان منهم على قتل جرذ، ثم يظهران ذلك للناس إعجابًا به واختيالًا، على حين تضطرب

البادية بما يملؤها من الأهوال التي يثيرها القرامطة، وعلى حين تندفع البادية من وقتٍ إلى وقت حَتَّى تبلغ الحضر وتبلغ الكوفة نفسها، فتمزق أهلها كل ممزق، وتعلمهم كيف يكون البأس والنجدة، وكيف تكون الشجاعة والبسالة فلا يتعلمون.

حقًّا لقد مرن الصبي على قول الشعر، وصح فيه قول جرير فِي عمر بن أبي ربيعة إن صدقتني الذاكرة: «مَا زَالَ هَذَا القرشي يهذي حَتَّى قال الشعر.»[٤]

وللصبي مقطوعة أخرى فِي الهجاء ليس لها حظ هذه المقطوعة من الجودة ولا من البراعة فِي السخرية، ولكنها تصور اتجاه الصبي إلى الصناعة اللفظية بعض الشيء، وهي هذه الأبيات التي قالها يهجو بها القاضي الذهبي:

لَمَّا نُسِبْتَ فَكُنْتَ ابْنًا لِغَيْرِ أَبٍ ... ثُمَّ اخْتُبِرْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلى أَدَبِ
سُمِّيتَ بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ تَسْمِيَةً ... مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ العَقْلِ لَا الذَّهَبِ
مُلَقَّبٌ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَيْكَ بِهِ ... يَأَيُّهَا اللَّقَبُ المُلقَى عَلَى اللَّقَبِ

وأظن أنَّ قول أبي تمام فِي بائيته المشهورة:

وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرَبِ

هو المثال الذي صاغ الصبي عليه أبياته فِي هجاء القاضي، وكل ما فِي هذه الأبيات إنما هُوَ ابتهاج الصبي بأنه قد استطاع أن يستنبط هَذَا المعنى، فيجعل نسبة القاضي إلى شيء مشتق من ذهاب العقل لا إلى الذهب، والذي يعنينا من هذه الأبيات إنما هُوَ دلالتها على أن صبينا قد أخذ منذ طوره الأول يتجه بعض الاتجاه إلى مذهب أبي تمام.

قال الرواة: وقد خرج المتنبي من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حينًا، ثم عاد منها، وقد نما جسمه وعقله، وفصح لسانه، وأصبح فتى يملأ العين والأذن.

ومن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التي حملت الصبيَّ على أن يرتحل إلى البادية، فهل ارتحل لمجرد التبدِّي والاستفادة لجسمه ولسانه وفنه الشعري من الإقامة بين هؤلاء العرب البادين الذين كان العلماء يختلفون إليهم ويقيمون بين أظهرهم،

[٤] أغاني ج١ ص٣٨ (طبع بولاق).

يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر والأيام والأساطير؟ أو هل ارتحل الفتى إلى البادية لشيء آخر غير هَذَا يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية التي كانت محيطة به؟ وبعبارة أوضح: هل ارتحل الفتى إلى البادية كما كان يرتحل إِلَيْهَا المتعلمون التماسًا للصحة ورياضة اللسان؟ أو ارتحل إِلَيْهَا التماسًا لهذه البيئة القرمطية التي كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفي فِي ذلك الوقت، تبعث الرعب فِي قلوب فريق منه، وتبعث الحب فِي قلوب فريق آخر، كما هي الحال بالقياس إلى الشيوعية الروسية الآن التي تتصل أشد الاتصال بطبقات الشعوب المتحضرة فِي أوربا وفي غير أوربا، فيتهالك عليها قوم، ويتألب عليها قومٌ آخرون؟

ليس من اليسير أن نقطع بشيء من هذا، ولكن الذي نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون، هُوَ أَنَّ رحلة المتنبي إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعًا، فقد ربا جسمه، ونما عقله وفصح لسانه، وتعلم أصول القرامطة، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معًا؛ وشِعْرُ المتنبي فِي صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة يُبين لنا هَذَا أوضح تبيين وأجلاه.

فلننظر قبل كل شيء إلى هذه الأبيات التي استبقاها المتنبي فِي ديوانه، وهي عندي بقية من قصيدة لعلها كانت مطوَّلة مفصلة، فلما أراد المتنبي جمع ديوانه حذف منها أكثرها، مُداراةً للظروف، وإشفاقًا من السلطان، وهذه الأبيات الثلاثة التي استبقاها المتنبي كافية كل الكفاية لإثبات أنَّ هذا الغلام قد عاد من البادية القرمطية وهو قرمطي الرأي، متحفز أن يكون قرمطي السيرة أيضًا، وفي هذه الأبيات الثلاثة جزالة بدوية لا تخفى:

إِلَى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِي زِيِّ مُحْرِمِ
وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَمِ؟
وَإِلَّا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا
تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقًا بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدٍ
يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

فانظر إلى هَذَا التحرق الذي يظهره الغلام إلى تغيير حاله والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة، إلى حال أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة.

هو يكره لنفسه زي المحرم؛ أي زي الرجل الوادع الذي يُحرِّم ما حرَّم الله، ويمتنع عَنْ قتل الصيد وعما يمتنع عنه المحرمون بالحج، هو يريد أَنْ يكون مُحِلًّا، وأن يتناول ما لا يتناوله الوادعون؛ لأن حياة الدعة والإحرام لم تجن عليه إلا شقاء، فهو يريد أن يلتمس السعادة والعزة في حياة البأس والفتك، وهو مطمئن إلى أنه إنْ لم يتعرض للبأس والفتك، ولم يصطل نار الحرب اتقاءً للموت كريمًا تحت السيوف أدركه الموت ذليلًا مهينًا في ظل الدعة والإحرام، وانظر إلى هذا البيت الأخير.

فَـثِـبْ وَاثِـقًـا بِـالـلـهِ وَثْـبَـةَ مَـاجِـدٍ
يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

فهو لا يريد بهذا الوثوب إلا الخروج على السلطان، وشق عصا الطاعة، والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف.

ليس عندي من شك في أنَّ هذه الأبيات تصور ما عاد به الغلام من البادية بعد أن عاش في بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد، المنتظرة من وراء هذا المذهب وانتشاره الخير كل الخير، وتصور كذلك ما عاد به الغلام من البادية من هذه الرصانة اللفظية التي ترفع اللفظ عن الابتذال، وتكسبه عذوبة نحس فيها ريح الصحراء.

وإذا كانت هذه الأبيات تصور تأثر المتنبي بالبيئة العملية القرمطية، فإن هناك قصيدة أخرى طويلة بعض الشيء تصور تأثر المتنبي بالمذهب النظري للقرامطة وغلاة الشيعة، وهي هذه القصيدة التي مدح بها المتنبي — فيما يقول الديوان — رجلًا يُعرف بأبي الفضل، وأراد أن يستكشف مذهبه، فيما يقول الديوان أيضًا، وفيما يقول الرواة كذلك، وعندي أنَّ المتنبي لم يرد أن يمتحن أبا الفضل، ولا أن يستكشف مذهبه، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل، وأن يمدحه بما كان هذا الرجل يحب أن يمدح به، وسواء عليَّ أكان المتنبي مؤمنًا بهذه الآراء التي أثبتها في قصيدته أم لم يكن، فحسبي أنه أثبت هذه الآراء، وجهر بها، وتقرَّب بها إلى رجل، والتمس بها العطاء.

ولست أروي صدر هذه القصيدة، فقد احتاج أنْ أعود إِلَيْهِ حين أستأنف الكلام عَنْ فن المتنبي، وإنما أكتفي برواية هذه الأبيات:

يَـأَيُّـهَـا الْـمَـلِـكُ الْـمُـصَـفَّـى جَـوْهَـرًا مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أَسْمَى مِنْ سَمَا

نُـورٌ تَـظَـاهَـرَ فِـيـكَ لَاهُـوتِـيُّـهُ ... فَتَكَادُ تَعْلمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا
وَيَـهُـمُّ فِـيكَ إِذَا نَـطَـقْـتَ فَـصَـاحَـةً ... مِـنْ كُلِّ عُـضْـوٍ مِـنْـكَ أَنْ يَـتَـكَلَّـمَـا
أَنَـا مُـبْـصِـرٌ وَأَظُـنُّ أَنِّـي نَـائِـمٌ ... مَـنْ كَـانَ يَـحْـلُـمُ بِـالْإِلَـهِ فَـأَحْـلُـمَـا
كَـبُـرَ الـعِـيَـانُ عَـلَـيَّ حَـتَّـى إِنَّـهُ ... صَـارَ الْـيَـقِـيـنُ مِـنَ الـعِـيَـانِ تَـوَهُّـمَـا

فنحن هنا بإزاء رأي صريح فِي الحلول؛ فالمتنبي يرى أَنَّ صاحبه ملك قد صُفِّي جوهره من ذات ذي الملكوت، أي إن روحه قبس من ذات الله، وهو يرى أَنَّ هذا القبس نور لاهوتي قد استقر في صاحبه، فكاد يظهره على الغيب، وهو يكبر ما يرى، فهو يقظان يرى الله، وهو يظن أنه نائم، ثم ينكر أن يكون نائمًا؛ لأن الله لا يُرى فِي الأحلام وهو يكبر هَذَا العيان، ويرى أنه أعظم وأجلُّ من أن يثبت له أمثاله، فيرتاب فيما يرى ويكاد يتهم نفسه بالخيال والوهم، وهذا الكلام وحده صريح فِي انحراف المتنبي عَنْ الجادة الدينية، واندفاعه إلى هَذَا اللون من ألوان الفلسفة التي هي إلى الإلحاد أقرب منها إلى أي شيء آخر.

ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فِي الديوان زعم للرواة أو زعم الرواة له أنه إنما امتحن بهذه الأبيات أبا الفضل، وأراد أن يعرف مذهبه، كلام يقصد به إلى الاعتذار وإلى التقيَّة أكثر من أي شيء آخر.

وعندي أَنَّ المتنبي حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها لا بالبيئة القرمطية العادية، بل بداع من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون فِي البادية، ومن يدري! لعل هَذَا الداعي كان أبا الفضل نفسه هَذَا الذي يمدحه المتنبي، ومن يدري! لعل المتنبي لم يعد إلى الكوفة من البادية مستصحبًا أباه وجده، وإنما عاد مستصحبًا رجلًا آخر أو قومًا آخرين، يريدون أن يستقروا فِي الكوفة وأن يدعوا فيها لمذهب القرامطة.

ومهما يكن من شيء، وسواء واتتنا النصوص التي بقيت لنا أم لم تُواتنا، فإني أجد فِي نفسي شعورًا قويًّا جدًّا بأن المتنبي قد نشأ نشأةً شيعية غالية، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة، وعلى كل حال فقد أغار القرامطة على الكوفة سنة ست عشرة وثلاثمائة، يقودهم إمامهم أبو طاهر، فدمروا وحرقوا ونهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل،[٥]

[٥] الكامل لابن الأثير ج٨ ص٥٦.

وكانوا يُقدِّرون أنَّ الطريق ستخلو لهم إلى بغداد، ولكن الأمر لم يتم لهم كما أرادوا، فعذبوا الكوفة وسوادها، وأرهبوهما عامًا كاملًا، ثم رحلوا بعد ذلك إلى البحرين.

وكان المتنبي حين أغار القرامطة على الكوفة فِي الرابعة عشرة من عمره، وكان المتنبي حين جلا القرامطة عَنْ العراق فِي الخامسة عشرة من عمره.

ونلاحظ أنه فِي ذلك الوقت بعد جلاء القرامطة عَنْ العراق لم يستقر فِي الكوفة، وإنما يحدثنا الرواة أنه ارتحل عنها وارتحل معه أبوه، إلى بغداد بعد جلاء القرامطة عَنْ الكوفة، ألِأنه كان يريد أن يذهب إلى بغداد ليتم الدرس، وليشق طريقه إلى المجد الأدبي، فأخرت غارة القرامطة رحلته شيئًا ما؟ أم لأنه كان قد تورط وتورط معه أبوه، وتورط معهما كثير من الناس فِي فتنة القرامطة هذه، فلما انهزم القرامطة وجلوا عَنْ العراق لم يستطع المتنبي وأمثاله أن يقيموا فِي الكوفة إشفاقًا من السلطان ومن تتبعه للذين أعانوا القرامطة من قريب أو من بعيد؟

كلا الأمرين ممكن، ولكني أرجح الأمر الثاني؛ لأنه يُلائم ما رأينا من نشأة المتنبي كلها، ولأن إقامة المتنبي فِي بغداد لم تتصل، ولو قد كان المتنبي قصد إلى بغداد يلتمس العلم والأدب والمجد الشعري، لأقام فيها فأطال المقام، ولاتَّصل بالمعروفين من علمائها وأدبائها وأصحاب المكانة السياسية والاجتماعية فيها، ولكنه فيما تعلم لم يصنع من ذلك شيئًا، إنما أقام ببغداد فترة قصيرة، ثم ارتحل عنها إلى الجزيرة وشمال الشام، ومعه أبوه فيما يقول الرواة.

هل ذهب المتنبي إلى بغداد هاربًا من السلطان كما قلنا؟ أو ذهب إِلَيْهَا هاربًا من السلطان ومبتغيًا شيئًا آخر؟ فلو قد أراد الهرب وحده لكان فِي البادية وصحراء السماوة مَفْزَعٌ ومَهربٌ من السلطان، ولكنه يترك الكوفة إلى عاصمة الخلافة، حيث القوة المركزية التي كانت تصارع القرامطة أشد صراع وأعنفه.

أحب أن نذكر هنا أنَّ أمور الشيعة والقرامطة لم تكن تجري فِي وضوحٍ ويسرٍ، وإنما كان قوامها التكتم والتحفظ، والجماعاتُ السرية المبالغة فِي حفظ السر وإخفائه، وما دُمتُ قد افترضتُ منذ حين أنَّ المتنبي إنما ذهب إلى البادية ليتعلم على بعض دُعاة القرامطة، فلأمض فِي الفرض على طبيعته، ولأرجح كما قدَّمت أنَّ المتنبي عاد من البادية مع بعض دعاة القرامطة، واشتغل فِي الكوفة بنشر الدعوة القرمطية، وأنَّ المتنبي سافر من الكوفة بعد جلاء القرامطة، فقصد إلى بغداد لأمر يتصل بالدعوة، ولستُ أستبعد، بل أنا أرجح جدًّا أنْ يكون فِي بغداد مركز قوي من مراكز الدعوة القرمطية، ذهب إِلَيْهِ المتنبي فأدَّى إِلَيْهِ شيئًا، وتلقى منه شيئًا، وترك بغداد قاصدًا إلى الجزيرة ثم الشام.

لست أدري أتسعدنا النصوص التي بقيت لنا من شعر المتنبي أم لا تسعدنا؟ ولكني قوي الشعور بأن المتنبي لم يرحل إلى الشام طالبًا للرزق فحسب، وإنما ذهب إلى الشام داعية من دعاة القرامطة، فِي هَذَا القسم الشمالي من سوريا، الذي لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطي، كما أدرك غيره من أقسام الشام.

مهما يكن من شيء فلم يكد يبلغ المتنبي السابعة عشرة من عمره حَتَّى كان قد هجر الكوفة، وترك بغداد، وانتهى إلى شمال الشام، واستأنف حياة جديدة ليست من الصبا فِي شيء، وإنما هي حياة الشباب.

فلنستخلص من كل ما قدمنا أنَّ المتنبي قد قطع المرحلة الأولى من طريقه، مرحلة الصبا، ولم يكد يبلغ آخرها، حَتَّى كان قد تمَّ له حظه من الشعر، وتمّ له حظه من القرمطة، وتمَّ له حظه من القوة البدنية أيضًا، ويكفي أن ننظر فِي هذه القصيدة التي قالها فِي بغداد، يمدح بها رجلًا رسميًّا — محمد بن عبد الله العلوي — لنرى منها أنه قد استكمل حظه من القدرة على نظم الشعر الجيد، وإن لم يبلغ بعدُ ما قدِّر له من النبوغ:

أَهْلًا بِدَارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا ... أَبْعَدُ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا
ظَلْتَ بِهَا تَنْطَوِي عَلَى كَبِدٍ ... نَضِيجَةٍ فَوْقَ خِلْبِهَا يَدُهَا
يَا حَادِيَيْ عِيسِهَا وَأَحْسَبُنِي ... أوجَدُ مَيْتًا قُبَيْلَ أَفْقِدُهَا
قِفَا قَلِيلًا بِهَا عَلَيَّ فَلَا ... أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةٍ أزوَّدُهَا
فَفِي فُؤَادِ الْمُحِبِّ نَارُ جَوًى ... أَحَرُّ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدُهَا
شَابَ مِنَ الهَجْرِ فَرْقُ لِمَّتِهِ ... فَصَارَ مِثْلَ الدِّمَقْسِ أَسْوَدُهَا
بانوا بخُرْعوبة لها كفلٌ ... يكادُ عند القيام يُقعدُها
ربحلة أسمر مُقبَّلها ... سِبَحْلة أبيض مُجرَّدها
يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعْ فِئَةً ... أَضَلَّهَا اللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا
لَيْسَ يُحِيكُ المَلَامُ فِي هِمَمٍ ... أَقْرَبُهَا مِنْكَ عَنْكَ أَبْعَدُهَا
بِئْسَ اللَّيَالِي سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ ... شَوْقًا إلى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا
أَحْيَيْتُهَا وَالدُّمُوعُ تُنْجِدُنِي ... شُئُونُهَا وَالظَّلَامُ يُنْجِدُهَا
لَا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا ... بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا ... زِمَامُهَا، وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا
أَشَدُّ عَصْفِ الرِّيَاحِ يَسْبِقُهُ ... تَحْتِيَ مِنْ خَطْوِهَا تَأَوُّدُهَا

فِي مِثْلِ ظَهْرِ الْمِجَنِّ مُتَّصِلٍ ... بِمِثْلِ بَطْنِ المِجَنِّ قَرْدَدُهَا
مُرْتَمِيَاتٌ بِنَا إلى ابْنِ عُبَيْـ ... ـدِ اللهِ غِيطَانُهَا وَفَدْفَدُهَا
إلى فَتًى يُصْدِرُ الرِّمَاحَ وَقَدْ ... أَنْهَلَهَا فِي القُلُوبِ مُورِدُهَا
لَـهُ أَيَـادٍ إِلَـيَّ سَـابِـقَـةٌ ... أَعُـدُّ مِـنْـهَـا وَلَا أُعَـدِّدُهَـا
يُعْطِي فَلَا مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا ... بِـهَـا وَلَا مَـنُّـهُ يُـنَـكِّـدُهَـا
خَيْرُ قُرَيْشٍ أَبًا وَأَمْجَدُهَا ... أَكْـثَـرُهَـا نَـائِـلًا وَأَجْـوَدُهَـا
أَطْعَنُهَا بِالقَنَاةِ أَضْرَبُهَا ... بِالسَّيْفِ جَحْجَاحُهَا مُسَوَّدُهَا
أَفْرَسُـهَـا فَـارِسًا وَأَطْـوَلُـهَـا ... بَـاعًـا وَمِغْـوَارُهَـا وَسَـيِّـدُهَـا
تَـاجُ لُـؤَيِّ بْـنِ غَـالِـبٍ وَبِـهِ ... سَمَا لَهَا فَرْعُهَا وَمَحْتِدُهَا
شَمْسُ ضُحَاهَا هِلَالُ لَيْلَتِهَا ... دُرُّ تَـقَـاصِـيـرِهَـا زَبَـرْجَـدُهَـا
يَا لَيْتَ بِي ضَرْبَةً أُتِيحَ لَهَا ... كَمَا أُتِيحَتْ لَـهُ مُـحَـمَّـدُهَـا
أَثَّرَ فِيهَا وَفِي الحَدِيدِ وَمَا ... أَثَّـرَ فِـي وَجْـهِـهِ مُـهَـنَّـدُهَـا
فَاغْتَبَطَتْ إِذْ رَأَتْ تَزَيُّنَهَا ... بِمِثْلِهِ وَالجِرَاحُ تَحْسُدُهَا
وَأَيْقَنَ النَّاسُ أَنَّ زَارِعَهَا ... بِالْمَكْرِ فِي قَلْبِهِ سَيَحْصُدُهَا
أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ ... يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا
تَبْكِي عَلَى الْأَنْصُلِ الْغُمُودُ إِذَا ... أَنْـذَرَهَـا أَنَّـهُ يُـجَـرِّدُهَـا
لِعِلْمِهَا أَنَّهَا تَصِيرُ دَمًا ... وَأَنَّهُ فِي الرِّقَابِ يُغْمِدُهَا
أَطْلَقَهَا فَالْعَدُوُّ مِنْ جَزَعٍ ... يَذُمُّهَا وَالصَّدِيقُ يَحْمَدُهَا
تَنْقَدِحُ النَّارُ مِنْ مَضَارِبِهَا ... وَصَبُّ مَاءِ الرِّقَابِ يُخْمِدُهَا
إِذَا أَضَلَّ الهُمَامُ مُهْجَتَهُ ... يَوْمًا فَأَطْرَافُهُنَّ تَنْشُدُهَا
قَدْ أَجْمَعَتْ هَذِهِ الخَلِيقَةُ لِي ... أَنَّكَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدُهَا
وَأَنَّكَ بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِمًا ... شَـيْـخَ مَـعَـدٍّ وَأَنْتَ أَمْـرَدُهَـا
وَكَمْ وَكَمْ نِعْمَةٍ مُجَلِّلَةٍ ... رَبَّيْتَهَا كَانَ مِنْكَ مَوْلِدُهَا
وَكَمْ وَكَمْ حَاجَةٍ سَمَحْتَ بِهَا ... أَقْـرَبُ مِـنِّـي إِلَـيَّ مَـوْعِـدُهَـا
وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْـ ... ـبِرِّ إِلَى مَنْزِلِي تُرَدِّدُهَا
أَقَرَّ جِلْدِي بِهَا عَلَيَّ فَلَا ... أَقْدِرُ حَتَّى المَمَاتِ أَجْحَدُهَا

فَـعُـدْ بِـهَـا لَا عَـدِمْـتُـهَـا أَبَـدًا   خَيْرُ صِلَاتِ الكَرِيمِ أَعْوَدُهَا

فالقصيدة كما ترى طويلة قد بلغت الأربعين بيتًا، وهي أطول ما حفظ ديوان المتنبي لنا من شعره فِي هَذَا الطور، وهي كاملة الخلق قد استوفت حظها من النظام الفني الموروث، وهي تنقسم ثلاثة أقسام: القسم الأول غزل من هَذَا الغزل الذي تعوَّد الشعراء أن يفتتحوا به القصيدة، وقد طال نفس الشَّاعِر فيه شيئًا فبلغ اثني عشر بيتًا.

والقسم الثاني: وصف من هَذَا الوصف الذي تعوَّد الشعراء أن ينتقلوا إِلَيْهِ إذا قضوا حظهم من الغزل، وأن يتخذوه طريقًا إلى الغرض الأساسي الذي يقصدون إليه، وقد قصر نفس الشَّاعِر فيه، فلم يتجاوز به أربعة أبيات، ومعنى هَذَا كله أنَّ الفتى قد أخذ يعقد شعره ويسلك إِلَيْهِ طريق غيره من الشعراء، ويلم فِي القصيدة الواحدة بغير فن من فنون الشعر، لا يجد فِي ذلك مشقة ولا حرجًا، ولا يحتمل فِي ذلك جهدًا ولا عناءً، وأنت إذا أخذت القصيدة جملةً رأيت طبيعة الشَّاعِر سمحةً سهلةً مواتيةً لا تبخل عليه ولا تُعَنِّيه، وإنما تمنحه كل ما يريد منها، فلسنا نحس تكلف الحصر ولا جهد المُقِلِّ، ولعلنا نحس أنَّ هذه القصيدة كانت تتدفق من نفس الشَّاعِر كما يتدفق السيل، وتنحدر منها انحدارًا يوشك أن يكون عنيفًا، ولعل مصدر هَذَا الإحساس هَذَا البحر الذي اختاره الشَّاعِر والذي تظهر فيه السرعة والانحدار، وتتدافع فيه أبيات القصيدة وألفاظ البيت تدافع الموج، ولعل مصدر هَذَا الإحساس أَيْضًا هذه القافية التي اختارها الشاعر، والتي جمعت بين خصلتين ظاهرتين: إحداهما المتانة والقوة، والأخرى الرحب والسعة، فهذه الدال التي تسبقها حركة يسبقها سكون تصور المتانة والقوة، وهذه الهاء المطلقة تصور الرحب والسعة.

وأنت إذا أخذتها تفصيلًا استطعت أن تتبين فيها خصلتين فنيتين هما الآن — وستكونان دائمًا — القوام الفني لشعر المتنبي، يسرف فيهما أحيانًا فيفسد شعره، ويقتصد فيهما أحيانًا فيجمل شعره، ولكنه لا يكاد يخلص منهما فِي وقت من الأوقات.

فأما الخصلة الأولى فهي المطابقة التي يحبها المتنبي أشد الحب، ويستخرج منها فنونًا من الجمال نراها فاترة فِي الطور الأول من شعره، ولكنها تقوى وتشتد كلما استكمل الشَّاعِر حظه من القوة، فنونًا من الجمال تؤثر فِي العقل والذوق والحس جميعًا فتنشئ شيئًا من الموسيقى اليسيرة الحلوة فِي أكثر الأحيان، ذلك أنَّ المتنبي يحسن المقابلة بين الأضداد فِي أنفسها، كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التي يختارها ليدل بها على

هذه الأضداد، فإذا تمت له المقابلة بين المعاني المتضادة وتم له الاختيار الحسن للألفاظ التي تدل عليها، عرف كيف يضعها فِي مواضعها من النظم، وكيف يلائم بينها وبين ما يسبقها وما يلحقها من الألفاظ، وتأتَّى له بذلك تحقيق شيء من الاتساق البديع يلهيك ويشغلك عما تكلف الشَّاعِر من الجهد فِي تحقيق هَذَا الفن، ولست فِي حاجة إلى أن أعيد عليك ما فِي هذه القصيدة من الأبيات التي عمد فيها المتنبي إلى المطابقة فوفق أحيانًا، وأخطأه التوفيق أحيانًا أخرى، فما أظنك إلا قد لاحظت هذه الأبيات أثناء قراءة القصيدة، وليس عليك بأس من أن تعود إلى قراءتها مرة أخرى لتتحقق صحة هذه الملاحظة.

والخصلة الأخرى المبالغة التي يعمد إِلَيْهَا المتنبي لأسباب سنوضحها فِي هَذَا الموضع من الحديث، ولكننا نكتفي الآن بأن نلاحظ منها طبيعة المتنبي نفسه، فهو قوي الحس، حاد المزاج، عنيف النفس، مندفع بحكم هَذَا كله إلى الغلو والإسراف، وكذلك نلاحظ تقليد الشَّاعِر لشعراء القرن الثالث الذين كلفوا بالبديع وأمعنوا فيه وعُنوا منه بالمبالغة عناية خاصة.

ثم نلاحظ آخر الأمر انتشار مذهب المبالغة بين النقاد منذ صوَّره قُدامة فِي كتابه نقد الشعر،[٦] وأذاعه على أنه مذهب أرسطاطاليس، وآثره فِي الشعر كما كان يؤثره أرسطاطاليس على القصد والاعتدال،[٧] فجمال الشعر عند المتنبي فِي هَذَا الطور وفي الأطوار التي تليه، راجع دائمًا إلى هاتين الخصلتين الفنيتين: المطابقة من ناحية، والمبالغة من ناحية أخرى، يجمع بينهما الشَّاعِر حينًا ويفرق بينهما حينًا آخر، فيعجبك مرة ويسوءك مرة أخرى.

فأما إذا أخذت أجزاء القصيدة الثلاثة، وامتحنتها جزءًا جزءًا، فلن تجد فيها للمتنبي شخصية قوية ولا معنًى مبتكرًا، وإنما هي المعاني المألوفة فِي الغزل والوصف والمديح، حَتَّى هذه المحاولة التي أراد الشَّاعِر بها أن يُظهر شيئًا من الجهد حين وصف نعله، حيث يصف الشعراء إبلهم، وأسبغ على هذه النعل من الصفات ما يسبغه الشعراء على الإبل — هذه المحاولة نفسها ليست مبتكرة، وإنما هي إطناب وتفصيل، حيث آثر أبو نواس الإجمال والإيجاز فِي قوله:

---

[٦] كتاب نقد الشعر لقدامة ص١٩ (طبع الجوانب).

[٧] Poétique II et XXIV.

إِلَيْكَ أَبَا الْعَبَّاسِ مِنْ دُونَ مَنْ مَشَى عَلَيْهَا امْتَطَيْنَا الحَضْرَمِيَّ الْمُلَسَّنَا

فلم يزد المتنبي على أن قال: إنه سعى إلى ممدوحه ماشيًا يركب نعليه كما قال أبو نواس، ولكنه فَصَّل ذلك، فشبه أجزاء النعل بالأدوات التي يصطنعها راكب الناقة.

وإذا كانت هذه المحاولة تقليدًا صرفًا من الجهة الفنية الخالصة، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية؛ لأنها على الأقل تنبئنا بأن الشَّاعِر الفتى لم يسافر من الكوفة إلى بغداد راكبًا، وإنما ذهب إِلَيْهَا راجلًا، وذهب إِلَيْهَا راجلًا مسرعًا يسابق الريح، فإذا صح هَذَا التقدير فإن الفتى قد أعجل عَنْ الاستعداد للرحيل، وفرَّ من الكوفة فرارًا كما قدمنا.

والمدح الذي يكوِّن الجزء الثالث من القصيدة، والجزء الأهم والأطول، ليس أدنى إلى الابتكار ولا أقرب إلى التجديد من الجزءين الأولين، بل هُوَ برئ من الابتكار الجدِّي، إن صح هَذَا التعبير، كل البراءة، هُوَ مدحٌ تقليديٌّ بأوضح معاني الكلمة وأدقها، لا يتجاوز الشَّاعِر به أن يصف ممدوحه، بأنه أكرم قريش وأشجعها وأعظمها حظًّا من الخصال التي يمتاز بها الرجل حقًّا، وبأنه كان أحلم قريش وأحكمها حين بلغ الحلم، وبأنه ابن النبي، وبأنه أوحد الخليقة وأجمعها لصفات النبل والشرف؛ إلى غير هَذَا من الأوصاف التي تعوَّد الشعراء أن يرصُّوها فِي مدحهم رصًّا، ومع ذلك فقد حاول الشَّاعِر أن يجدد فأخطأه التوفيق، وظهر أنه لا يزال فِي حاجة إلى ممارسة قول الشعر وتصريف الكلام، وذلك حين أراد أن يذكر الضربة التي تلقاها ممدوحه فِي وقعة من الوقعات، فزعم أنَّ هذه الضربة شرفت ممدوحه، ولم تلحق به ضررًا ولا أذًى، فهذا تفكير أطفال وحديث فتى يلغو، والمتنبي معتمد فِي مدحه كما اعتمد فِي غزله ووصفه على الطباق والمبالغة، ويظهر ذلك ظهورًا واضحًا حين يحدثنا بأن الأغماد تبكي على النصول إذا علمت أنها ستجرَّد، وبأن هذه النصول تغمد فِي الأعناق والرءوس فتقدح النار، ولكن الدماء التي تسفكها تخمد هذه النار التي تقدحها، فأنت ترى فِي هَذَا الكلام المبالغة والطباق معًا، وتحس فيه محاولة الشَّاعِر استغلال هذين الأصلين من أصول البديع، وأنه إن وفق فِي ذلك حينًا فما يزال يخطئه التوفيق كثيرًا؛ لأنه على تقدمه فِي الصنعة لم يستكمل بعدُ حظه من المهارة والإتقان.

على أنَّ هذه القصيدة تدلنا على شيء آخر له قيمته من الناحية التاريخية. فالشاعر لم يمدح أحدًا من رجال الحكم، ولم يتجه إلى أحد من المتصلين بالسلطان العباسي

القائم، وإنما مدح رجلًا علويًّا، فأوضح ما يستنبط من ذلك أنَّ المتنبي حين وصل إلى بغداد كان محتفظًا بمذهبه السياسي، منحرفًا عَنْ السلطان العباسي القائم فِي بغداد، ولكننا لا نرى فِي القصيدة مذهب القرامطة، ولا إشارة إلى نظرية الحلول، فلا أقل من أن نفهم من ذلك أن شاعرنا متحفظ محتاط، وأنه لا يمدح هَذَا العلوي رغبةً فِي مدحه أو إخلاصًا فِي حبه وحب العلويين، وإنما يمدحه ملتمسًا لنواله، يريد أن يستعين بهذا النوال على الرحيل من بغداد إلى الشام.

وفي أثناء إقامة المتنبي فِي بغداد رأى الفتى من غير شك ما لم يره فِي الكوفة ولا فِي البادية من مظاهر الترف وألوان النعيم، وفنون العبث واللهو، فزاد سخطه على النظام الاجتماعي، وحنقه على توزيع الثروة بين الناس، والغريب أنه لم يستبق مما رأى ومما سمع فِي بغداد هذه المرة إلا ما ترويه لنا عنه الأخبار من أنه كان يمشي مرة في بغداد ومعه خمسة دراهم، فرأى بطيخًا أعجبه لأنه كان باكورة، فساوم فيه صاحبه حَتَّى عرض عليه دراهمه الخمسة، ولكنه لم يبلغ منه شيئًا، ووقف الفتى حزينًا ينظر إلى البطيخ وإلى الدراهم، وإذا تاجر يخرج من خان مقابل لبائع البطيخ، فينهض البائع إِلَيْهِ متملِّقًا مبالغًا فِي التملق، يدعو له ويعرض عليه بطيخه والتاجر يأبى ويمتنع، والرجل يهبط بالثمن شيئًا فشيئًا حَتَّى سمح التاجر وطابت نفسه عَنْ شراء هَذَا البطيخ بدرهمين اثنين، وأمر البائع أن يحمله إلى داره، فلما انصرف التاجر أظهر المتنبي عجبه لصاحب البطيخ من هذه الحماقة التي حملته على أن يرفض خمسة دراهم كان يعرضها عليه، ويقبل من التاجر درهمين، لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والعناء، فقال له التاجر: ويلك! إنه يملك مائتي ألف دينار!

ويزعم الرواة على المتنبي أنه أحب المال منذ ذلك الوقت وكلف بالغنى، وحرص على أن يملك مائتي ألف دينار.

ومهما يكن من أمر هذه القصة فلست أريد أن أحملها أكثر مما تحتمل، ولست أرى فيها إلا رمزًا لما تأثر به الشَّاعِر الفتى أثناء إقامته فِي بغداد من حماقة العامة واستكانتهم، وطغيان الخاصة والأغنياء وإسرافهم فِي استغلال هذه العامة الحمقاء المستكينة.

أقبل الفتى على بغداد قرمطيًّا منهزمًا، حانقًا على النظام الاجتماعي والسياسي وخرج من بغداد إلى الشام، وأضاف حنقًا إلى حنق، وسخطًا إلى سخط، وازداد حظه من التمرد على السلطان والنظام، وإذا أضفنا إلى هذه القصة قصة أخرى يرويها الرواة عَنْ

المتنبي الصبي أثناء إقامته بالكوفة استطعنا أن نتبين العناصر الخلقية والعقلية التي كونت شخصية هَذَا الفتى المندفع المخاطر والضارب فِي الأرض يبتغي شيئًا لعله لم يكن يحققه ولا يعرفه إلا توهُّمًا.

فقد زعم الرواة أنَّ الصبي كان يختلف إلى ورَّاق فِي الكوفة يجلس عنده وينظر فيما يحضره من الكتب، فأقبل ذات يوم رجل، ومعه كتاب لأبي عبيدة فِي اللغة، يقع فِي ثلاثين ورقة، وكان الرجل يعرض كتابه للبيع، فأخذه الصبي وجعل يطيل النظر فيه، حَتَّى ضاق به البائع وقال له: يا هذا! إنما جئت بهذا الكتاب لأبيعه، وإنك إذا أردت حفظه واستقصاءه احتجت إلى أيام، قال الصبي: فإذا كنت قد وعيت ما فيه؟ قال البائع: فهو لك، ثم امتحن القوم الصبي فإذا هُوَ قد حفظ ما فِي الكتاب.

لا أريد أن أحمل هذه القصة أَيْضًا أكثر مما تحتمل، وإنما أرى فيها رمزًا لنشاط الصبي وحضور ذهنه وحدة ذكائه، وإذن فقد أدرك الفتى نفسه وهو متميز من غيره بذكاء غير شائع فِي الناس، وهو مع ذلك فقير بائس يشتهي من لذات الحياة المتواضعة ما لا يستطيع أن يبلغه وإن بذل الجهد والمال، والأغنياء البُله من حوله ينعمون ويترفون ويُكرهون على النعيم والترف إكراهًا فلا غرابة فِي أن يمتلئ هَذَا الفتى غرورًا بنفسه، وفي أن يشعر قلبه بعض هذه الحياة التي تجري فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والحق والإنصاف، ولا غرابة فِي أن يقصد إلى الشام وفي نفسه خواطر كثيرة مختلطة مضطربة ليس من اليسير تمييزها، ولكنها على كل حال خواطر متشائم ساخط يريد أن تتغير الظروف من حوله لمصلحة الناس جميعًا، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل فلا أقل من أن تتغير الظروف حوله لمصلحته هُوَ خاصة.

وأكاد أعتقد أنَّ حياة المتنبي بعد سفره من بغداد تمثل هذين النوعين من الأمل، وهذين الفنَّين من المحاولة، فهو فِي أول أمره مخلص صادق فيما بينه وبين نفسه، معجبٌ بنفسه من غير شك، ولكنه ليس مسرفًا فِي الأثرة، يرى أنه قد يستطيع تغيير ظروف الحياة لمصلحة المظلومين والمستضعفين، وسبيله إلى ذلك نشر الدعوة القرمطية وتغيير الأمور السياسية فِي مكان بعيد بعض الشيء عَنْ مركز السلطان ومستقر الخلافة، وقد اندفع الفتى فِي ذلك وجهد فِي أن يصل إِلَيْهِ مخاطرًا يومًا متحفظًا يومًا آخر، متجاوزًا الحدود يومًا ثالثًا، حَتَّى أدركه الإخفاق ثم أدركه اليأس، فلم يجد بدًّا من المرتبة الثانية التي تقوى فيها الأثرة بعد أن أخفق الإيثار، ويقوى فيها الطمع وحب النفس بعد أن أخفق الرفق بالناس والنصح لهم وحملهم على الإصلاح.

هنالك ظهر المتنبي على طبيعته الصحيحة التي أخفاها حينًا كرم الشباب واندفاعه الطبيعي إلى الخير، فلما أدركه الإخفاق وألمت به الخيبة انجلت عنه غمرة الشباب، وظهر كما أراد الله له أن يكون شاعرًا نابغة، نابِه الذكر، مؤثرًا لنفسه بالخير، مسرفًا فِي إيثار نفسه بالخير، لا يستبقي من آماله الأولى إلا الحقد على الجماعة والازدراء لها والبغض لما تقدم عليه من نظام وتخضع له من سلطان، ولكننا فيما يظهر نتعجل الحوادث بعض الشيء، والخير فِي أن نصطنع الأناة ونساير الشَّاعِر فِي طريقه؛ حَتَّى نقطع معه المرحلة الثانية التي انتهت به إلى السجن ثم إلى اليأس والقنوط.

(٦) إلى الشام

وأول مسألة تعرض لنا فِي هذه الطريق، مسألة تاريخية بالطبع، أو مسألتان تاريخيتان: فمتى ارتحل المتنبي عَنْ بغداد قاصدًا إلى الشام؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التي قالها فِي الشام قبل أن تنتهي به الحوادث إلى السجن؟

فأما المسألة الأولى فليس إلى الجواب عنها من سبيل؛ لأن المؤرخين لا يحدثوننا بشيء يُعيِّن الوقت الذي خرج المتنبي فيه من بغداد أو يقربه، والديوان نفسه لا ينبئنا من هَذَا بشيء، ولكني أرجح خلافًا لما ظن الأستاذ بلاشير[٨] أَنَّ إقامة المتنبي فِي بغداد لم تطل، وإنما مرّ الشَّاعِر بها مرًّا لم ينفق فيها إلا الوقت الذي مكن له من أن يتهيأ للرحيل إلى الشام؛ لأنه لم يكن آمنًا فِي بغداد كما لم يكن آمنًا فِي الكوفة، وعندي أنه، خلافًا لما ظن الأستاذ بلاشير أيضًا، لم يختلف إلى مجالس العلماء، ولا إلى أندية الأدب، ولم يتصل بأحد من الأشخاص الظاهرين فِي بغداد إلا محمد بن عبد الله العلوي الذي مدحه بالقصيدة التي فرغنا من تحليلها آنفًا؛ وما أراه مدحه إلا ليستعين بنائله على الرحيل.

لم يكن المتنبي آمنًا فِي بغداد؛ لأنه كما رأيت كان قرمطي الهوى، ولأن بغداد كانت شديدة الاضطرابات بأحداث القرامطة الذين كانوا يغيرون عليها منذ وقت قصير، وما أرى إلا أن المتنبي قد أنفق ما أنفق من الوقت فِي بغداد وجلًا مضطربًا، وخرج منها خائفًا يترقب، وانتفع فِي إقامته وسفره بأنه شخص مجهول لا ينم عليه اسم معروف، ولا تفضحه مكانة ممتازة، وأكبر الظن أن خوفه واحتياطه هما اللذان حملاه على أن يخفي اسمه ونسبه، إن كان له نسب، على القبائل التي كان ينتقل بينها أثناء رحلته.

[٨] R. Blachère: About-Tayyib al-Motanabbi p. 35.

وأوضح دليل على أنه لم يطل الإقامة ِفي بغداد أنَّ ديوانه لا يحفظ لنا شعرًا قاله ِفي بغداد إلا مدحه لهذا العلوي، ولو قد أقام المتنبي ببغداد إقامة أمن وفراغ بال، لما أعياه أن يقول كثيرًا من الشعر ِفي كثير من الأشخاص وفي كثير من المشاهد التي شهدها ِفي دار السلام.

وأما المسألة الثانية فالأمر فيها مختلف بعض الشيء، فقصائد المتنبي التي قالها بين خروجه من بغداد ودخوله السجن منثورة ِفي القسم الأول من ديوانه على نحوٍ يظهر أنه قصد به إلى كثير من التعمية والتضليل، فهناك قصائد مقدمة ِفي الديوان وقد كان إنشاؤها متأخرًا، وهناك قصائد متأخرة ِفي الديوان وقد كان إنشاؤها متقدمًا، وما أشك ِفي أن هَذَا التأخير والتقديم شيء أُريد لأمرٍ ليس ِفي حاجة إلى التوضيح، وأكثر الأشخاص الذين قصد إليهم المتنبي بمدحه وثنائه ِفي هَذَا الطور خاملون لم يعرفهم أو لم يكد يعرفهم التاريخ، ومع ذلك فقد يخيل إِلَيَّ أن توقيت هذه القصائد إن لم يكن ممكنًا كله، فليس مستحيلًا كله، ولي إلى ذلك التوقيت طريقتان.

فأما الأولى فتتصل بنفس الشاعر، وأما الأخرى فتتصل بطريق الشَّاعِر حين اضطرابه ِفي بلاد الشام، فأما الطريقة الأولى، وهي الطريقة النفسية، إن صح هَذَا التعبير، فإني أستنبطها من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التي كان يحياها المتنبي قبل أن تلم به الكارثة، فقد رأيناه قرمطي الهوى ِفي الكوفة لا يتحفظ ولا يحتاط، ورأيناه شيعيًّا ِفي بغداد متحرجًا يصطنع الحذر، ورأيناه أنه ِفي أكبر الظن إنما سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إِلَيْهَا هناك، وإذن فلابد، إن صح هَذَا الفرض، من أن يمتاز شعر المتنبي ِفي هَذَا الطور من حياته بشيئين: أحدهما آراء قرمطية تظهر ِفي هَذَا الشعر من حين إلى حين؛ لأنها هي آراء الشاعر، وهي قوام حياته وتفكيره ونشاطه الخفي، فلا يستطيع الشَّاعِر أن يمحوها من آثاره الأدبية محوًا، والآخر تحفظ واحتياط، وإيثار للعافية يدفع الشَّاعِر إلى أن يخفي آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك، وإلى أن يلمح بهذه الآراء إذا أمن أو طمع، وإلى أن يجهر بما يمكن الجهر به من هذه الآراء إذا أمن واطمأن، فإذا استطعنا أن نتبين هاتين الخصلتين ِفي طائفة من قصائد المتنبي، فأكبر الظن أنَّ هذه القصائد قد قيلت ِفي هَذَا الطور، على أني أكثر اعتمادًا على الطريقة الثانية الجغرافية مني على هذه الطريقة الأولى النفسية، فالظاهر أنَّ المتنبي قد خرج من بغداد متابعًا طريق الجزيرة حَتَّى انتهى إليها، فأقام فيها وفي شمال الشام دهرًا يتنقل بين القبائل البادية وبين المتحضرين ِفي المدن، يمدح الرؤساء وسراة الناس كما يمدح أوساطهم وفقراءهم

أيضًا، وهو ﻓِﻲ أثناء ذلك كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسي الذي كانوا يخضعون له ﻓِﻲ ذلك الوقت خضوعًا فيه غير قليل من التلون والاضطراب، فإن وجد عندهم استعدادًا لقبول دعوته أذاعها فيهم، وإن لم يجد كتم عنهم أمره، وهو ﻓِﻲ الحالين يعيش بما يأخذه منهم أجرًا لما يهدي إليهم من المديح.

وأنت إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبي بعد خروجه من العراق رأيته ينقسم ثلاثة أقسام جغرافية، إن صح ﻫَﺬَا التعبير: القسم الأول قيل ﻓِﻲ والجزيرة وشمال الشام، ومدح به جماعة من رؤساء البادية وأغنياء الحاضرة وأوساطها، وأصحاب المناصب فيها، والقسم الثاني قيل ﻓِﻲ اللاذقية وهو موقوف على التنوخيين الذين قد نطيل عنهم الحديث، والقسم الثالث قيل ﻓِﻲ طرابلس، يحدثنا الشَّاعِر نفسه بذلك، وأنت تفهم من سياق شعره ﻓِﻲ التنوخيين، أنه قد غاب ﻋَﻦْ اللاذقية حينًا، فأقام ﻓِﻲ طبرية ثم عاد إليها، وإذن فيخيل إليَّ أنَّ المتنبي قد جاء سوريا من شمالها فأقام ﻓِﻲ ﻫَﺬَا الشمال دهرًا، ثم مضى فأقام ﻓِﻲ طرابلس حينًا قصيرًا، ثم انحرف إلى اللاذقية فأطال فيها المقام شيئًا، ثم انصرف عنها إلى طبرية فأقام قليلًا، ثم عاد إلى اللاذقية فجدد العهد بها وتهيأ فيها لما كان يريد أن يحدث من خطب، ثم تركها إلى البادية غير بعيد ﻋَﻦْ حمص، فلم يكد يعلن الدعوة إلى الثورة ﺣَﺘﱠﻰ أُخذ، وأُلقيَ ﻓِﻲ السجن، ويجب أن يكون أخذه وإلقاؤه ﻓِﻲ السجن ﻓِﻲ سنة ثلاث أو أربع وعشرين وثلاثمائة، فنحن نراه يمدح أحد التنوخيين، ويبرئ نفسه إِﻟَﻴْﻪِ من تُهمةٍ رُمي بها عنده، وهي تهمة الهجاء له، فيقول:

وَمَا أَرْبَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِّي	فَكَيْفَ مَلِلْتُ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ

وأقل ما يفهم من ﻫَﺬَا البيت أنَّ الشَّاعِر قاله سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وسترى أنه مدح التنوخيين قبل أن يحدث الأمر الذي اضطره إلى السجن، وأظن أننا حين نستعين بهاتين الطريقتين نستطيع أن نوقت توقيتًا مقاربًا تاريخ ﻫَﺬَا القسم من شعر المتنبي، وأنْ نمحو الغموض الذي أحيط به ﻫَﺬَا القسم عمدًا ﻓِﻲ الديوان، بما اصطنع فيه من تقديم وتأخير.

ومهما يكن من شيء فإني أفترض أنَّ المتنبي قد سلك هذه الطريق التي رسمتها مع قليل أو كثير من الانحراف لا يؤثر فِي صورتها العامة تأثيرًا ذا خطر، وإذن فسأسلك هذه الطريق نفسها فِي درس شعره فِي هَذَا الطور على النحو الآتي:

(١) شعره فِي سوريا الشمالية.
(٢) شعره فِي طرابلس.
(٣) شعره فِي اللاذقية.
(٤) شعره حين كان يستعد للثورة فِي البادية.
(٥) وأخيرًا شعره فِي السجن.

(٧) شعر المتنبي في شمال الشام

وبين أيدينا فِي الديوان — إن صح ما ذهبت إِلَيْهِ من الفرض، وما عمدت إِلَيْهِ من الإحصاء — ست عشرة قصيدة ومقطوعة قالها المتنبي فِي أول عهده بالشام، حين كان فِي الشمال متنقلًا بين أهل البادية وأهل الحضر.

وقد مدح بهذا الشعر أو بأكثره على الأقل جماعة من العرب، ليس فيهم إلا مضريٌّ واحد، هُوَ سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابيُّ القيسي، ومدحه بالقصيدة التي مطلعها:

أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا   والْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

ولبعض الكلابيين من رهط هَذَا الرجل، قال هاتين المقطوعتين فيما أرجح، وفيهما تلميح ظاهر إلى غرضه، وإلى دعوته القرمطية:

إِذَا مَا شَرِبْتَ الخَمْرَ صِرْفًا مُهَنَّئًا   شَرِبْنَا الَّذِي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الْكَرْمُ
أَلَا حَبَّذَا قَوْمٌ نُدَامَاهُمُ القَنَا   يُسَقُّونَهَا رِيًّا وَسَاقِيهِمُ الْعَزْمُ

* * *

لِأَحِبَّتِي أَنْ يَمْلَئُوا   بِالصَّافِيَاتِ الْأَكْؤُبَا
وَعَلَيْهِمُ أَنْ يَبْذِلُوا   وَعَلَيَّ أَلَّا أَشْرَبَا
حَتَّى تَكُونَ الْبَاتِرَا   تُ الْمُسْمِعَاتُ فَأَطْرَبَا

وفيهم رجل واحد هُوَ سيف الدولة، مدحه فِي هَذَا الطور بميميته التي يقول فِي أولها:

ذِكْـرُ الـصِّـبَـا ومَـرَابِـعِ الْآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حمَامِي

وأما الآخرون فقحطانيون، منهم الأزدي، وهو أبو المنتصر شجاع الأزدي، وقد مدحه بالقصيدة التي مطلعها:

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

ومنهم جماعة من الطائيين، هم علي بن أحمد الطائي، ومدحه بالقصيدة التي أولها:

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أُشَيِّعُ

وشجاع بن محمد الطائي، وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما قوله:

عَزيزُ أَسًى مَنْ دَاؤُهُ الْحَدَقُ النُّجْلُ عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ المُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ

ومطلع الثانية قوله:

الْيَوْمَ عَهْدُكُمُ فَأَيْنَ الْمَوْعِدُ؟ هَيْهَاتَ لَيْسَ لِيَوْمِ عَهْدِكُمُ غَدُ

وعبد الله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن البحتري الشَّاعِر وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولهما:

بَكَيْتُ يَا رَبْعُ حَتَّى كِدْتُ أُبْكِيكَا وَجُدْتُ بِي وَبِدَمْعِي فِي مَغَانِيكَا

ومطلع الثانية:

أَرِيقُكِ أَمْ مَاءُ الغَمَامَةِ أَمْ خَمْرُ بِفِيَّ بَرُودٌ وَهْوَ فِي كَبِدِي جَمْرُ

ومدح أخاه بالقصيدة التي يقول فِي أولها:

مَا الشَّوْقُ مُقْتَنِعًا مِنِّي بِذَا الْكَمَدِ حَتَّى أَكُونَ بِلَا قَلْبٍ وَلَا كَبِدِ

ونلاحظ أنه فِي هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحتري الشَّاعِر جدَّ ممدوحيه ولم يشر إليه، ولعل هَذَا يلائم ما كان معروفًا عَنْ المتنبي من الإمعان فِي قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء، والادعاء مع ذلك أنه لا يقرؤهما ولا يحسن العلم بهما، حَتَّى افتضح فِي ذلك.[٩]

ومدح غير هؤلاء محمد بن زريق، وكان على بعض العمل فِي طرسوس بالقصيدة التي مطلعها:

هَذِي بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيسًا ثُمَّ انْثَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسَا

ولما أراد أن يرتحل من طرسوس استجداه بالأبيات التي أولها:

مُحَمَّدُ بْنَ زُرَيْقٍ مَا نَرَى أَحَدًا إِذَا فَقَدْنَاكَ يُعْطِي قَبْلَ أَنْ يَعِدَا

ومدح كذلك مساور بن محمد الرومي، وكان حاجبًا بقصيدتين يقول فِي أولاهما:

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ أَغِذَاءُ ذَا الرَّشَأِ الْأَغَنِّ الشِّيحُ

ويقول فِي الأخرى:

أَمُسَاوِرٌ أَمْ قَرْنُ شَمْسٍ هَذَا أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الْأُسْتَاذَا

---

[٩] الصبح المتنبي ص٧٩، ٨٠.

ومدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي بالقصيدة التي أولها:

صِلَةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوِصَالِ   نَكَسَانِي فِي السُّقْمِ نُكْسَ الْهِلَالِ

وكل هؤلاء الناس كان مقيمًا فِي شمال سوريا حين مدحه المتنبي، فمنهم من كان بأنطاكية، ومنهم من كان بمنبج، ومنهم من كان بطرطوس، ولا يتعرض منزل واحد منهم للشك إلا أن يكون مساور بن محمد الرومي، وأحسب المتنبي لقيه فِي حلب أو قريبًا منها.

ويرى الأستاذ بلاشير[١٠] والدكتور عبد الوهاب عزام،[١١] أنه لم يمدح مساورًا إلا فِي وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق، والذالية تؤيد هَذَا الرأي، ولكني مع ذلك أميل إلى ترجيح ما قدمته، ولعله مدحه مرتين؛ مدحه بالحائية فِي طوره هذا، وبالذالية بعد موت ابن رائق، وإن كانت إغارة المصريين على الشام قد تكررت.

وأنت إذا قرأت هَذَا الشعر كله لم تشك فِي أنه الشعر الذي يلي ما قدمنا الحديث عنه فِي الفصول السابقة؛ أي أَنَّ الشعر الذي قيل فِي آخر الصبا وأول الشباب، وعند وصول المتنبي إلى شمال الشام.

فيه كل الخصائص التي تثبت هَذَا إثباتًا قاطعًا، فالآراء القرمطية ظاهرة فيه كما سترى، إلا أن يتحفظ الشَّاعِر ويحتاط، والمذهب الفني الذي ابتدأ الفتى به شعره ظاهر فيه كل الظهور: تقليد للقدماء، ولأبي تمام خاصة، واعتماد ظاهر على الطباق والمبالغة، يسرف فيهما إنْ استعصت عليه القريحة، ويقتصد فيهما إن واتاه الطبع.

ثم ظاهرة أخرى نجدها فِي هَذَا العصر عند جماعة من الشعراء ولم يسلم منها المتنبي، لا فِي هَذَا الطور ولا فِي بعض الأطوار الأخرى التي تليه، وهي تكلف القوافي التي لا تخلو من عسر، والتي لم يكن المطبوعون من الشعراء المتقدمين يتكلفونها، فكافيته فِي مدح البحتري، وذاليته فِي مدح مساور بن محمد الرومي، تدلان على أَنَّ الفتى كان يأخذ نفسه بشيء من الشدة ليظهر شيئًا من البراعة فِي اصطناع القوافي، والقدرة على استذلالها.

[١٠] R. Blachère: About-Tayyib al-Motanabbi p. log.

[١١] ذكرى أبي الطيِّب للدكتور عزام ص٥٨.

ثم أنت حين تقرأ هَذَا الشعر تكاد تحس فِي ألفاظه، ومعانيه وأساليبه، بنمو طبيعة الشاعر، وتقدم ملكته الفنية نحو الرشد والنضج شيئًا فشيئًا، ولولا أني أكره الإطالة والإملال فيما لا حاجة إلى الإطالة فيه والإملال به، لاستقصيت هَذَا المقدار من شعر المتنبي، ولدرسته قصيدة قصيدة، ومقطوعة مقطوعة، ولحاولت أنْ أستنبط من هَذَا الاستقصاء والدرس نحو الملكة الفنية عند هَذَا الشَّاعِر الشاب، ولكني إنْ فعلت أثقلت عليك وعلى نفسي، ولم أنته بك ولا بنفسي إلى غاية هذا الحديث، فخذ أنت هَذَا الشعر وقف عليه من وقتك أيامًا، فما أشك فِي أنك ستصل إلى ما لا أريدُ أنا أنْ أطيل فيه، ولكني واقفٌ معك عند بعض هَذَا الشعر، فاجتهد فِي أن تتذوقه لعلنا نتعرف أصول فن المتنبي فِي شيء من التفصيل والوضوح، ينفعنا حين نعبر هَذَا الطور من أطواره الفنية.

ولنأخذ لاميته التي مدح بها سعيد بن عبد الله، فإنها خليقة ببعض التفكير؛ لأنَّا نلتمس فيها صبا الشَّاعِر وطفولته، لا فِي اللفظ وحده، بل فِي الشعور والتفكير أيضًا، فأقرأ معي هَذَا الغزل الذي أقدمه بين يديك:

أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلا وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

فانظر إِلَيْهِ كيف أراد أن يعبر عَنْ أنه يحتمل من البين ما لا سبيل إلى الحياة معه، فدار حول هَذَا المعنى، ولم يستطع أن يؤديه إلا فِي شيء من التكلف، فاصطنع هَذَا الفعل فِي أول البيت، ثم أضاف إِلَيْهِ هذه الجملة الحالية، ثم لم يستطع أن يُؤدي هذه الجملة الحالية نفسها دون شيء من المعاظلة حين جمع بين هذين الموصولين فِي قوله:

أَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلا

ولعله أشفق من التنافر الذي يأتي من كثرة القافات، فآثر هَذَا التعقيد اليسير، ثم انظر إلى الشطر الثاني من هَذَا البيت:

وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

فسترى فيه طباقًا ظاهرًا يخلب بعض الشيء، ولكنك ستحس أنَّ الشطر كله لا حاجة إليه، وأنَّ القافية قد أكرهت إكراهًا وعُتلت إلى مكانها عتلًا، وأنَّ الشَّاعِر قد استوفى معناه الأساسي فِي الشطر الأول، ثم جاء بالشطر الثاني ليتم البيت، فإذا انتقلت إلى البيت الثاني:

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّوَى أَبَدًا وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحَلَا

أحسست فِي نفس الشَّاعِر فرحًا بهذه الملاءمة التي اهتدى إِلَيْهَا بين قوة النوى وقوة الوجد فِي الشطر الأول، وبين نحول الصبر ونحول الجسم فِي الشطر الثاني، وبهذا الطباق البعيد بين قوة الوجد والنوى، ونحول الصبر والجسم، ولكن انظر إلى قوله: «أبدًا»، فسترى أنَّ هذه الكلمة إنما جاءت لتقيم وزن الشطر لا لشيء آخر؛ فإن لقوة النوى وإنْ كانت غريبة، حدًّا يجب أن تنتهي إِلَيْهِ فتنتهي معها قوة الوجد، وانظر إلى الشطر الثاني كيف أعاد الضمير فيه على الصبر فِي شيء من التكلف لا يخفى، ثم انتقل إلى البيت الثالث:

لَوْلَا مُفارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا المَنَايَا إلى أَرْوَاحِنَا سُبُلَا

فسترى فيه مبالغة ظاهرها يخلب، ولكن تحقيقها يدل على أنَّ صاحبها صبي، لم ينضج تفكيره بعد، ذلك إلى رجع الضمير فِي «لها» على المنايا، مع تقدم الضمير وتأخر المرجع فِي اللفظ، وأنا أعلم أنَّ هَذَا ليس خطأً، ولست أذكره لذلك، وإنما أذكره لأضع يدك على الجهد الذي يبذله الصبي فِي إقامة شعره.

واقرأ البيت الرابع:

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفًا يَهْوَى الْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلَا

فستنكر منه هَذَا الاستحلاف الذي يفجؤك بهذه الباء تليها باء أخرى لا يفصل بينهما إلا هَذَا الموصول، وهو حاجز غير حصين، كما يقول النحاة، ثم أتم قراءة البيت فسترى فيه قصورًا فِي الأداء لم يستطع الشَّاعِر أن يخلص منه، فاضطر إلى الحذف وإلى الإضمار؛ فهو يريد أن يقول لصاحبته: صلي دنفًا يهوى الحياة ما وصلته، فأما إن صددتِ عنه فليس يهواها.

والمتنبي مضطر بحكم الجهد إلى مثل هَذَا التكلف، ولكنه سيمضي فيه وسيستجيزه، ولعله كان يحس من الناس شيئًا من الإنكار فيأبى عليه عناده إلا أن يغيظ مخاصميه بالإلحاح فيما يكرهون، وما دام النحو يجيز له مثل هَذَا فليس عليه بأس من الإيغال فيه، وكذلك ينتقل المتنبي من التكلف إلى التعقيد، ومن التعقيد الذي تفرضه الضرورة إلى التعقيد الذي يصبح مذهبًا من مذاهب الشعر، وفنًّا من فنون الأداء، مثل المتنبي فِي ذلك مثل الفرزدق الذي كان يرى المعاظلة وسيلة من وسائل الأداء الشعري، ويتعمد تجاوز المألوف ليغيظ خصومه من النحويين.[١٢]

ثم انظر إلى البيت الخامس:

إِلَّا يَشِبْ فَلَقَدْ شابَتْ لَهُ كَبِدٌ شَيْبًا إِذَا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلَا

فقد صرَّف فيه الشيب تصريفًا يكاد يذكِّر بتلاميذ المكاتب، فجاء منه بالمضارع والماضي والمصدر، ثم أسنده إلى الكبد، ثم لم يكفه ذلك حَتَّى جعل السلوة خضابًا، وحتى جعل شيب هذه الكبد مستعصيًا على هَذَا الخضاب.

أما البيت السادس فحلو مؤثر، فيه حنين الفتى لا إلى صاحبته هذه، بل إلى وطنه ذلك الذي هجره، والذي مَا زَالَ يتنسم ريحه، ويمسك على نفسه عقله بما يحمل إِلَيْهِ هَذَا النسيم:

يُجَنُّ شَوْقًا فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةً تَزُورُهُ فِي رِيَاحِ الشَرْقِ مَا عَقَلَا

ولكن الشَّاعِر لا يكاد يدع هَذَا البيت حَتَّى يعود إلى التكلف والجهد، فاقرأ البيت السابع:

هَا فَانْظُرِي أَوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَأَلَا

فإنك واضع يدك على ما فِي هَذَا البيت من المشقة والعسر: فهذه الهاء فِي أول البيت، وطلب الشَّاعِر إلى صاحبته أن تنظر من أن تظن به أي أن تتخيله، ثم إنباؤه إياها بأنها

[١٢] طبقات الشعراء لابن سلام ص٧.

إن نظرت أو ظنت به فسترى به حرقًا مهلكة، وانظر إِلَيْهِ كيف عبر عَنْ هذه الحرق المهلكة بأن من لم يذق منها طرفًا فقد نجا، فما أظن أَنَّ التكلف ينتهي بشاعر إلى تقصير أشد من هَذَا التقصير.

ولكن شاعرنا فِي السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، فليس عليه من هَذَا الجهد بأس، وسترى إذا أمضيت فِي قراءة الديوان أَنَّ النسيب ليس من الفنون التي يحبها المتنبي أو يحفل بها، وإنما هُوَ يتكلفه على غير طبعه احتفاظًا بالسنة المألوفة عند الشعراء.

وانظر بعد هَذَا الغزل كيف تخلص الشَّاعِر إلى ممدوحه بهذا البيت الذي عابه عليه النقاد ظالمين:

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي إلى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِي الْهَوَى مَثَلَا

فهم أنكروا على الفتى أَنْ يجعل الأمير شفيعًا له عند صاحبته، ولكنهم نسوا أَنَّ الفتى يمدح رجلًا بدويًّا، وأَنَّ السُّنة كانت متصلة بأن قومًا أعظم خطرًا من هَذَا البدوي قد شفعوا فِي الحب للمحبين، أو لم تحفظ الأخبار أَنَّ الحسين بن علي شفع لقيس بن ذريح عند أبي لبنى،[١٣] وأَنَّ بعض عمال الأمويين شفع لقيس بن الملوح عند أبي ليلى،[١٤] وأَنَّ ابن أبي عتيق سفر بين عمر وبين الثريا،[١٥] فما يمنع المتنبي أن يشفِّع هَذَا الأعرابي الكلابي عند التي تركته مثلًا فِي الهوى؟

ليس على الشَّاعِر بأسٌ من هَذَا البيت، وإنما البأس عليه من البيت الذي يليه والذي يمثل طفولة الشَّاعِر وسذاجته حقًّا:

أَيْقَنْتُ أَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فدع هاتين الباءين اللتين توشكان أن تلتقيا فِي الشطر الثاني لولا هَذَا الضمير الضعيف الذي يحول بينهما ما استطاع، وانظر إلى هَذَا التكلف الشنيع، إلى هَذَا التكلف

[١٣] الأغاني ج٨ ص١١٣ (طبع بولاق).
[١٤] الأغاني ج١ ص١٧٣ (طبع بولاق).
[١٥] الأغاني ج١ ص٢٦ (طبع بولاق).

فِي المعنى لا فِي اللفظ: رأى الفتى ممدوحه وقد اعتقل الرمح، فاستيقن أنه طالب بدمه، عند من؟ عند صاحبته هذه التي تعنِّيه وتضنيه وتجعله مثلا للعشاق المدنفين، ما أقسى قلب هَذَا الفتى الذي يحمد من أميره أن يهدد حبيبته بالرمح، فلو أنَّ الأمير طعنها بهذا الرمح فقتلها أكان يرضى عنه هَذَا الغلام؟ أم هُوَ يريد حبًّا بالإكراه، ويرى أنَّ صاحبته غرة مثله إذا رأت الرمح خافت وأسمحت بما كانت تبخل به، وما موقف الأمير بين هذين العاشقين؟ قد كنا نحتمله شفيعًا، فأما مخوِّفًا ومكرهًا على الحب فلا، ولكن الفتى لم يرد شيئًا من هذا، وإنما هُوَ عبث شاعر واحتيال فِي الوصول إلى الممدوح مع شيء من الظرف والدعابة، وما أرى إلا أنه وقع من نفس الممدوح الأعرابي موقعًا حسنًا، وإن لم يعجبنا نحن المتحضرين.

ويمضي الشَّاعِر فِي مدح عادي لصاحبه، قوامه المبالغة فِي وصف الكرم، حَتَّى يصل إلى هَذَا البيت الذي لا بأس بما فيه من الموسيقى، وإن كانت المبالغة فيه شنيعة حقًّا:

تُرَابُهُ فِي كِلَابٍ كُحْلُ أَعْيُنِهَا وَسَيْفُهُ فِي جَنَابٍ يَسْبِقُ العَذَلَا

فانظر إلى الملاءمة الموسيقية بين تراب وكلاب وجناب، وانظر إلى نظمه للمثل السائر فِي غير تكلف ولا جهد، ولكن ما رأيك فِي قومٍ يكتحلون بالتراب؟!

وانظر إلى هذه الأبيات:

هُوَ الْأَمِيرُ الذِي بَادَت تَمِيمُ بِهِ قِدْمًا وَسَاقَ إِلَيْهَا حَيْنُها الْأَجَلَا
لَمَّا رَأَوْهُ وَخَيْلُ النَّصْرِ مُقْبِلَةٌ وَالْحَرْبُ غَيْرُ عَوَانٍ أَسْلَمُوا الْحِلَلَا
وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا

فالبيت الأخير منها يذكرك من غير شك بقول جرير للأخطل:

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شيءٍ بَعْدَهُم خَيْلًا تَشُدُّ عَلَيْكُمُ وَرِجَالَا

واقرأ هَذَا البيت:

فَبَعْدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكَضَتْ   بِالخَيْلِ فِي لَهَوَاتِ الطِّفْلِ مَا سَعَلَا

فما رأيك فِي هَذَا الطفل الذي تركض فِي لهواته تميم بخيلها فلا يأخذه السعال؟ ما عسى أن يكون هَذَا الطفل؟ وما عسى أن تكون تميم وخيل تميم؟

وعلى هَذَا النحو من الكلام الذي تتكلف فيه المبالغة فِي المعنى والملاءمة فِي الألفاظ يمضي الشَّاعِر حَتَّى يتم قصيدته، ونحن لا نكاد نخرج من هذه القصيدة بشيء ذي غناء، إلا أننا نرى هَذَا الفتى يكلف نفسه ألوان الجهد وفنون العناء، مبتهجًا بذلك غير محزون له ولا مظهر به ضجرًا؛ لأنه يستقبل فنه وأمله بنشاط الفتوة وميعة الصبا، وهذه الثقة التي لا يعرفها إلا الشباب.

ولم يصرح المتنبي فِي هذه القصيدة بمذهبه القرمطي، ولم يلمح له، ولكنك رأيت أنه قد لَمَّح لأقارب المدوح فِي المقطوعتين السابقتين، وليس من شكٍّ فِي أنه أقام مع هؤلاء الكلابيين ما أقام، وقال لهم ما قال دون أن يجد عندهم غناء.

فلنقف لحظة قصيرة عند هذه القصيدة الأخرى، التي مدح بها المتنبي أبا المنتصر شجاع بن أوس بن معن بن الرضا الأزدي كما يقول الديوان، فسنرى أَنَّ القراءة الأولى لهذه القصيدة تخالف القصيدة الماضية خلافًا ظاهرًا من وجوه: ففي هذه القصيدة الثانية نحس للشاعر غناءً صادقًا، يصور نفسه ويجلو عواطفه، وليس العشق فِي هَذَا الغناء إلا رمزًا غامضًا لمعنى غامض، هُوَ الذي يتغنى الشَّاعِر به دون أن يعرب عنه فِي أول الأمر، وإنما يتركه لك، تفهم منه ما تشاء أو تفهم منه ما تستطيع، فإذا كنت مُلمًّا بحياة الشاعر، ظاهرًا على دخائله، مصاحبًا له منذ نشأته الأولى، شاهدًا لما مازج صباه من حزن، وما عرض له فِي حياته من أسى وحسرة، فأنت فاهم عنه، محقق لما يتغنى به، وإن كنت غريبًا عَنْ الشَّاعِر تسمع له مصادفة، وتقرؤه على غير علم دقيق بحاله، فأنت تراه شاعرًا كغيره من الشعراء، يعشق كما يعشقون، فينسب كما ينسبون، ويكفي أن تقرأ الأبيات الأولى من هذه القصيدة لترى صحة ما أشير إليه:

أَرَقٌ عَلَى أَرَق وَمِثْلِي يَأْرَقُ   وَجَوًى يَزِيدُ وعبرة تَتَرَقْرَقُ
جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أُرَى   عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلْبٌ يَخْفِقُ

مَـا لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ تَـرَنَّـمَ طَـائِـرٌ   إِلَّا انْـثَـنَـيْـتُ وَلِـي فُـؤَادٌ شَـيِّـقُ

فالشاعر ﻓِﻲ هذه الأبيات يتغنى كما ترى غناءً غامضًا بعواطف مبهمة، وإن ظهر منها أنها العشق، ولكن هَذَا الغناء صادق اللهجة قوي النغمة، يصدر عَنْ قلبٍ حزين وينتهي إلى القلوب فيثير فيها الحزن والأسى، فأَرَقُ الشَّاعِر متصل يقفو بعضه أثر بعض، والشاعر يقرر ذلك ولا ينكره؛ لأنه يرى أنَّ مِثْلَه خليق أنْ يأْرَق، فأما عامة الناس فيفهمون من هَذَا الشطر الأول شدة العشق، وحدة الحب، ولوعة الهوى، وأما العارفون بأمر المتنبي فيفهمون من هَذَا الشطر همَّ الشَّاعِر الذي يطيل ليله ويضاعف أرقه، وأمل الشَّاعِر الذي يملأ قلبه، ويبعد عَنْ متناوله، والشاعر محزون يزيد حزنه كلما مرت الساعات والأيام، وقد ينتهي به هَذَا الحزن المتصل المتزايد إلى البكاء.

ثم انظر إلى البيت الثاني:

جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أُرَى   عَـيْـنٌ مُـسَـهَّـدَةٌ وقَـلْـبٌ يَـخْـفِـقُ

فهل ترى غناءً أصدق من هَذَا الغناء، وأبلغ تأثيرًا ﻓِﻲ النفس! ومع ذلك فليس ﻓِﻲ البيت شيء جديد، ولا معنى طريف، ولكن صدق لهجة الشاعر، والجمع بين تسهيد العين وخفقان القلب يشيع ﻓِﻲ هَذَا البيت حزنًا لا أدري كيف أحققه، ولكني أعلم أنه شديد العدوى سريع الانتقال إلى سامعيه وقارئيه.

ثم انظر إلى هَذَا البيت الثالث:

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   إِلَّا انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيِّقُ

فسترى فيه مثل ما رأيت ﻓِﻲ البيت السابق، وستجد فيه حنين الشَّاعِر إلى وطنه الذي لم تزل نفسه به متصلة لم تَسْلُ عنه بعد.

ثم اقرأ الأبيات الثلاثة التي تأتي بعد ذلك، فسترى أنَّ الشَّاعِر قد أدرك نفسه فأخفى شخصه، وتكلف ما يتكلف الشعراء من هَذَا النسيب المصنوع، فظهر تكلفه ﻓِﻲ لفظه وأسلوبه ومعناه، فهو قد جرَّب من نار الهوى ما تنطفئ نار الغضا قبل أن ينطفئ، وما تعجز نار الغضا عَنْ إحراق ما يحرقه، فالمعنى ﻓِﻲ نفسه ليس شيئًا وليس أداؤه بخير منه:

جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفِي نَارُ الْغَضَا وَتَكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ

واقرأ البيت الذي يأتي بعد ذلك، فسترى طفولة الشَّاعِر قد عادت إلى الظهور، وستحس رضا الصبي أو رضا الفتى عَنْ هَذَا المعنى الذي يحسبه شيئًا، وليس بشيء، وإنما هُوَ السخف الذي يخدع العامة، وليس من ورائه طائل:

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ

يريد أنَّ العشق وحده هُوَ سبيل الموت، وقد سبق المتنبي نفسه إلى هَذَا المعنى فِي القصيدة التي حللناها آنفًا حين قال:

لَوْلَا مُفارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا المَنَايَا إلى أَرْوَاحِنَا سُبُلَا

ولما عرف الشَّاعِر أنه قد كان مخطئًا فِي لوم العشاق قبل أن يذوق العشق لم يرَ بُدًّا من أنْ يعذرهم، ومن أنْ يعترف بأن ما يلقى من ألم العشق وجواه ليس إلا جزاء له على ما قدَّم إلى العاشقين من ذنب:

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

فالشاعر كما ترى ممعن فِي تكلفه، راضٍ عَنْ هَذَا التكلف، يحسب أنه قد استنبط معنى خطيرًا، فهو يتمه ويستوفيه، ولعلك أحسست كما أحسستُ أنا أنَّ الشَّاعِر آذى نفسك حين بدأ صادقًا فأرضاك، ثم انحدر إلى التكلف فأسخطك، ولكن الشَّاعِر نفسه قد أحس هَذَا التكلف وهو ضيق به لا يطيق المضي فيه، وهو محزون حقًّا، ولا بد له من أن يعود إلى لهجته الأولى، ومن أن يرسل نفسه على سجيتها، ومن أن يتغنى حزنه العميق، وهو فِي هَذَا الغناء أوضح شيئًا منه فِي الغناء الذي بدأ به القصيدة:

أَبَنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الْأَكَاسِرَةُ الْجَبَابِرَةُ الْأُلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلاَ بَقُوا

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ ... حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا ... أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ ... وَالْمُسْتَغِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ ... وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبَةُ أَنْزَقُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَّتِي ... مُسْوَدَّةٌ وَلِمَاءِ وَجْهِي رَوْنَقُ
حَذَرًا عَلَيْهِ قَبْلَ يَوْمِ فِرَاقِهِ ... حَتَّى لَكِدْتُ بِمَاءِ جَفْنِي أَشْرَقُ

اقرأ هذه الأبيات! أرأيت ما فيها من الحزن، ألحظت البيت الأول منها كيف يمثِّل اطمئنان الشَّاعِر إلى هؤلاء الذين يتحدث إليهم؛ لأنهم بنو أبيه ليسوا مضريين ولا عجمًا؟ أرأيت أنه يسجل أنَّ القحطانية أهل منازل ينعب فيها غراب البين أبدًا، فالهجرة من طبعهم، والغربة مفروضة عليهم؟

ثم أرأيت كيف مضى الشَّاعِر فِي هذه الشكوى مفلسًا فِي سذاجة توشك أنْ تكون عامية، بل هي أشبه بالوعظ منها بالفلسفة؟ ولكن الذي ينبغي أنْ نفكر فيه هو أنَّ هذه الفلسفة الساذجة أصل لهذه الشجرة التي ستنمو وتمتد أغصانها حَتَّى تملأ شعر المتنبي مواعظ وحكمًا وأمثالًا.

والذي ينبغي أنْ نفكر فيه أَيْضًا هُوَ أننا نكاد نحس فِي هذه الأبيات بدء التفكير الفلسفي الحزين عند هَذَا الفتى، وأنَّ هَذَا التفكير الفلسفي إنما يأتي من رجوع الفتى إلى نفسه أولًا وإلى قومه ثانيًا، فهو يرى نفسه غريبًا مشردًا، سيئ الحال، وهو يرى قومه بعد ذلك غرباء مشردين، قد تسلط عليهم من كان ينبغي أن يتسلطوا هم عليه، واستأثر بالأمر دونهم من كان ينبغي ألا يكون له من الأمر شيء، والطباق كما ترى فِي هذه الأبيات، هُوَ القوام الفني لشعر الشَّاعِر لا يعدل عنه، ولا يكاد يعدل به أداة فنية أخرى.

وانظر إلى آخر هذه الأبيات، وإلى بكاء الشَّاعِر على الشباب، وهو فِي ريعان الشباب، وإلى تعليل الشَّاعِر لبكائه هَذَا على شباب لم يفارقه، بل لم يكد يستقبله، بالخوف من مفارقته التي ليس منها بدٌّ.

وأكبر ظني أنَّ الشَّاعِر يتكلف التعليل هنا، كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين، واعتذاره بعد ذلك عنهم، ولكنه هنا ليس فاحش التكلف، ولعله هُوَ لا يعرف لماذا يبكي الشباب، ولا يرى أنه إنما يبكي الشباب؛ لأنه فِي حاجة إلى البكاء ليس غير، كما هُوَ يشكو العشق؛ لأنه فِي حاجة إلى الشكوى ليس غير، ولعل من أوضح الأدلة على صدق الشَّاعِر فِي هذه القصيدة أو فِي القسم الأول منها، أنه قد نسى أو كاد ينسى ممدوحه، واندفع فِي تفكيره وحزنه وغنائه لهذا التفكير والحزن، حَتَّى إذا قضى من ذلك إربه أو كاد، ذكر أنه ينشئ قصيدة فِي المدح والثناء، لا فِي الحزن والعناء، فاقتضب التفكير والتعبير اقتضابًا، ولم يلتمس تخلصًا إلى المدح؛ لأنه ليس فارغ البال للتكلف والاحتيال، فلجأ إلى «أمَّا» وقال:

أَمَّا بَنُو أَوْسِ بْنِ مَعْنِ بْنِ الرِّضَا فَأَعَزُّ مَنْ تُحْدَى إِلَيْهِ الْأَيْنُقُ

ويمضي الشَّاعِر فِي مدحه لبني أوس هؤلاء مبالغًا كدأبه، مرددا ما قال الناس فِي المدح، ثم يخلص إلى محمد ممدوحه فيصفه بما لا يغني، ولكني أحب أن تقف عند هَذَا البيت:

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَحَدًا وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

لترى ما فيه من المبالغة الفاحشة التي لا تصدر عَنْ الفن الخالص أكثر مما تصدر عَنْ فساد الرأي الديني عند الفتى، وتأثره بهذه القرمطية التي تتيح للناس، أو لبعض الناس على الأقل، من الرأي والقول والعمل ما لم يكن يستباح.

فنحن بإزاء قصيدة لها خطرها فِي تصوير نفس المتنبي حين كان يودع الصبا ويستقبل الشباب: هي نفس حزينة معنَّاة مؤرقة؛ لأن لها همًّا بعيدًا، ولأنها قد أخذت تفكر فِي الناس وفِي نفسها، وتستنبط من هَذَا التفكير أمورًا لا تسر ولا ترضى، وما زال الفتى قرمطيًّا ماضيًا فِي قرمطيَّته، وما زال الفتى متعمدًا فِي فنه على المبالغة والطباق.

فلندع هذه القصيدة، ولننتقل إلى قصيدة أخرى يظهر أنها قيلت بعد هذه القصيدة بزمنٍ مَّا، ولكنها قيلت حين كان المتنبي متنقلًا فِي شمال الشام، وهي هذه السينية التي مدح بها الشَّاعِر محمد بن زريق الطرسوسي، والتي بذل فيها الفتى كثيرًا من الجهد

وقال فيها كثيرًا من الخطل، فلم ينل عليها — فيما يقول ياقوت[١٦] — إلا عشرة دراهم، ثم شفع له شافع فنال عشرة دراهم أخرى، وما أرى إلا أنه قد زاد فِي الشعر حين زيد فِي العطاء، فقال الأبيات الدالية التي نجدها فِي الديوان والتي يمدح فيها ابن زريق أيضًا.

فاقرأ هذه الأبيات التي قدمها الشَّاعِر بين يدي المدح لترى التكلف فِي أبشع صوره، والتعمُّل فِي أشنع مظاهره، ولنرى كيف ينتهي الشَّاعِر الفتى أحيانًا من السخف إلى ما لا يطاق:

هَذِي بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيسَا ثُمَّ انْثَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسَا
وَجَعَلْتِ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي فِي الْكَرَى وَتَرَكْتِنِي لِلْفَرْقَدَيْنِ جَلِيسَا
قَطَّعْتِ ذَيَّاكِ الْخُمَارَ بِسَكْرَةٍ وَأَدَرْتِ مِنْ خَمْرِ الْفِرَاقِ كُئُوسَا

فالكلام إلى هنا فارغ، ولكنه محتمل آخر الأمر، فإذا أردت سخف الأطفال، فانظر إلى قوله:

إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِعِي تَكْفِي مَزَادَكُمُ وَتُرْوِي الْعِيسَ

أترى إلى هذه الدموع التي يسفحها المتنبي، فإذا هي من الغزارة بحيث يستطيع القوم أن يأخذوا منها ما يملأ مزادهم ليشربوا فِي أثناء السفر، وما يكفي لري الإبل فِي أثناء السفر أيضًا.

ولكن المتنبي لم يسأل نفسه أتصلح دموعه لشرب صاحبته الحسناء؟ أهي من العذوبة بحيث تلائم هَذَا الجسم الغض البض، وتبعث فيه الجمال والحياة؟ على أن ظن المتنبي بصاحبته ليس حسنًا، فانظر إلى قوله:

حَاشَى لِمِثْلِكِ أَنْ تَكُونَ بَخِيلَةً وَلِمِثْلِ وَجْهِكِ أَنْ يَكُونَ عَبُوسًا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكِ أَنْ يَكُونَ مُمَنَّعًا وَلِمِثْلِ نَيْلِكِ أَنْ يَكُونَ خَسِيسَا

[١٦] معجم الأدباء ج٥ ص٢٠٤.

ولست أدري بأي امرأة أراد المتنبي أن يشبب فِي هذين البيتين، وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء، فالمرأة التي ترتفع عَنْ البخل، ويرتفع وصلها عَنْ التمنع، ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها، ولكن المتنبي لا يقف عند مثل هَذَا التفكير، بل لا يكره أن ينقض هذين البيتين، فيصف صاحبته بالدل الذي يمنعها من أن تتكلم، والخفَر الذي يمنعها أن تميس، فيقول:

خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَوَاذِلِي   حَرْبًا وَغَادَرَتِ الْفُؤَادَ وَطِيسَا
بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا تَكَلَّمَ دَلُّهَا   تِيهًا وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ تَمِيسَا

فهي أرفع من البخل، ووصلها أرفع من الامتناع، ولكنها مع ذلك من الدل والتيه، ومن الخفر والحياء، بحيث لا تستطيع أن تتكلم، ولا أنْ تميس، فهي بخيلة كريمة، وهي ممنعة مبتذلة، وهي حيية وقحة، وقد وجد الشَّاعِر عندها آخر الأمر دواءه من كل داء، فأعرض عنه الأطباء، وهانت عليهم صفات زعيمهم العظيم:

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا   هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا

ويظهر أَنَّ هذه الفتاة التي لا يكره المتنبي أنْ يرويها بدموعه، والتي جمعت النقائض من صفات النساء، قد شغلت فتَّانًا حقًّا، فأنسته التخلص إلى الممدوح، وإذا هُوَ يقتضب الكلام اقتضابًا، ويهجم على ممدوحه هجومًا لا رفق فيه ولا ظرف، فيقول:

أَبْقَى زُرَيْقٌ لِلثُّغُورِ مُحَمَّدًا   أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسَا

فانظر إلى هذه النفنفة، أو إلى هذه الفسفسة، أو إلى هذه النسنسة التي تأتي من تكرار النفيس ثلاث مرات فِي شطر واحد، واعذر محمد بن زريق إذا ضاق بصاحبه المتنبي أولًا، وبهذا التكرار ثانيًا، وبما سيأتي من السخف ثالثًا، فلم يعط الفتى إلا عشرة دراهم، ولم يزده إلا بعد أن شفع إِلَيْهِ الشافعون وزاد المتنبي فِي المدح.

ولكن المهم من هذه القصيدة هي هذه الأبيات التي تظهر المبالغة القرمطية فيها أبشع مظهر، لا من الناحية الدينية وحدها، بل من الناحية الفنية أيضًا.

فالمبالغة حسنة ِفي الشعر بشرط أن تكون معقولة يسيغها الذوق، فإذا تجاوزت هَذَا الحد كانت سخفًا أو هجاء، وكان من حق الممدوح أن يظن أنَّ مادحه يسخر منه ويستهزئ به، ولكن محمد بن زريق كان لحسن حظ المتنبي أجهل من هَذَا كله فيما يقول الرواة.

بَشَرٌ تَصَوَّرَ غَايَةً فِي آيَةٍ | تَنْفِي الظُّنُونَ وَتُفْسِدُ التَّقْيِيسَا
وَبِهِ يُضَنُّ عَلَى الْبَرِيَّةِ لَا بِهَا | وَعَلَيْهِ مِنهَا لَا عَلَيْهَا يُوسَى
لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ | لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صِرْنَ شُمُوسَا
أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ | فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لَأَعْيَا عِيسَى
أَوْ كَانَ لُجُّ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ | مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى
أَوْ كَانَ لِلنِّيرَانِ ضَوْءُ جَبِينِهِ | عُبِدَتْ فَكَانَ الْعَالَمُونَ مَجُوسَا

وما أظن هذه الأبيات تحتاج إلى شرح أو تعليق لتستخرج منها إغراق المتنبي ِفي المبالغة وإسرافه ِفي تجاوز الحدود الدينية الذي جاءه من قرمطيته، وأحسبه حين مدح ابن زريق قد ظن أنه كان يمدح أبا الفضل الكوفي، ذلك الذي جعله ِفي صباه إلهًا يجلُّ عَنْ أن يرى ِفي يقظة أو منام.

ويظهر أنَّ آخر شعر المتنبي ِفي شمال الشام، أو من آخره على أقل تقدير، قصيدته التي مدح بها سيف الدولة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة حين أوقع بعمرو بن حابس وبني ضبة ِفي رأس العين — كما يقول الديوان — وبعض الناس يفترض أنَّ المتنبي قد ذهب إلى أوساط الشام ثم عاد إلى شمالها قبل الكارثة، وفي زيارته الثانية للشمال قال هذه القصيدة، وليس ِفي الديوان ولا فيما بين أيدينا من أقوال الرواة ما يدل على أنَّ الفتى بعد أنْ فارق شمال الشام عاد إِلَيْهِ قبل خروجه من السجن.

وأنا أعتقد أنه قال هذه القصيدة ِفي زيارته الأولى للشمال السوري، ولعله لمَّا لم يستطع أن ينشدها للأمير الفتى ولم يظفر عليها بجائزة استيأس من الشمال حقًّا، وكان هَذَا اليأس باعثًا له على الإيغال ِفي الشام والانتقال من ملك العباسيين إلى ملك الإخشيديين، وكان سيف الدولة ِفي مثل سن المتنبي ولد ِفي السنة التي ولد فيها الشاعر، وكان قد أظهر نجابة ونباهة شأن، وأبلى ِفي هذه الموقعة بلاءً حسنًا، فلا يبعد أن يكون المتنبي قد طمع ِفي أن يجد من التقرب والاتصال به ما يرفع شأنه ويُقربه من أمله البعيد، فلما لم يظفر من ذلك بما كان يرجو استبدل أرضًا بأرض وقومًا بقوم.

وكان المتنبي ﻓِﻲ التاسعة عشرة من عمره حين قال هذه القصيدة، وقد قدمتُ لك أنه ينبئنا بأنه مدح الحسين بن إسحاق التنوخي ولم تجاوز سنُّهُ العشرين، وإذن فقد كان ﻓِﻲ اللاذقية ﻓِﻲ أواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وأثناء سنة اثنتين وعشرين، ثم غاب عنها، ثم رجع إِلَيْهَا ﻓِﻲ هذه السنة نفسها أو ﻓِﻲ أوائل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وهي السنة التي نُكِب فيها واضطر إلى السجن فيما نرى.

وليس ﻓِﻲ قصيدته لسيف الدولة شيء يستحق العناية إلا هَذَا البيت الذي يدل على أنَّ الفتى كان ﻓِﻲ هذه القصيدة — كما كان ﻓِﻲ غيرها — شديد التهاون ﻓِﻲ دينه، يتحدث عنه ﻓِﻲ غير عناية ولا حرج:

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ

(٨) شعره في طرابلس

ويجب أن نمر مرًّا سريعًا بمقطوعات ثلاث قالها المتنبي ﻓِﻲ طرابلس بعد أن فارق شمال الشام، وليس من اليسير أن نعلم أقالها قبل أن يزور اللاذقية ويقيم بها، أم قالها بعد ذلك، وأكاد أرجح أنه استقر ﻓِﻲ اللاذقية أول الأمر، وأطال الإقامة فيها لما وجد من بر التنوخيين به وإصفائهم له بالمعروف، ولهذه المودة التي نشأت بينه وبينهم، فحملته على أن يكثر فيهم ما قال من الشعر، ولعلها بعثت ﻓِﻲ نفسه آمالًا إن لم يصرح بها، فقد أشار إِلَيْهَا كما سترى، ثم من اللاذقية أخذ ينتقل ﻓِﻲ مدن الشام وبيئاتها المختلفة يمينًا وشمالًا، فزار حمص وبعلبك وطرابلس، ولعله زار دمشق، وانتهى بعد ذلك إلى طبرية فأقام فيها حينًا، ثم لم يرض عَنْ أهلها فعاد إلى اللاذقية وإلى أصدقائه التنوخيين.

وينبغي أن نلاحظ هنا أنَّ المتنبي حين ترك شمال الشام طرق أرضًا جديدة، فيها سلطان سياسي جديد لم يعرفه ولم يخضع له من قبل، فقد خضع ﻓِﻲ العراق للسلطان العباسي، وخضع ﻓِﻲ شمال الشام لسلطان مضطرب بين العباسيين والإخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه من حينٍ إلى حين، ومضطرب كذلك لهذه الغارات التي كانت متصلة بين المسلمين والروم على الحدود، ثم مضطرب آخر الأمر لهذا الطموح الذي كان يملأ نفوس الأمراء المتفرقين ﻓِﻲ بادية سوريا الشمالية وحاضرتها، والذين كانوا بحكم هَذَا الطموح ينزعون إلى السيادة والملك، ويترددون بين السلطان العراقي والمصري ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف إقليمهم المختلطة المضطربة.

ولم يجد المتنبي لنفسه أملًا ولا مطمعًا فِي هَذَا الإقليم المضطرب الذي اشتدت به عناية السلطانين اللذين كانا يتنازعان القوة فِي ذلك الوقت: سلطان بغداد، وسلطان الفسطاط، والذي كانت تشغله غارات الروم، والذي استيقظت فيه الأثرة الفردية والمنافسات بين القبائل البادية من العدنانية والقحطانية، فترك هَذَا الإقليم وأبعد فِي السفر حَتَّى انتهى إلى ملك الإخشيديين فأقام فيه ما أقام، ثم انتهى إلى الكارثة.

والحق أنَّ هَذَا الشعر القليل الذي قاله فِي طرابلس ليس خليقًا بشيء من العناية، لولا أمران اثنان: أحدهما أنه يدلنا على أنَّ المتنبي كان فِي طرابلس هادئًا مطمئن النفس، فارغًا لصغائر الأمور التي لا يفرغ لها الإنسان، إلا حين ترفِّه الظروف عليه بعض الشيء، وكأن شهرة المتنبي كانت قد بدأت تظهر وتشيع، فهو لا يأتي طرابلس كاسبًا ملتمسًا للرزق فيما يظهر، وإنما يأتيها زائرًا، ويلقى من بعض أهلها ضيافة لا تخلو من عناية وبر وترف.

والأمر الآخر: أنَّا لا نجد المتنبي فِي هَذَا الشعر الذي قاله فِي طرابلس فارغًا لصغائر الأمور فحسب، بل لصغائر الفن وسخفه أيضًا، ولهذه التكاليف التي يخاطر بها الشعراء من أصحاب البديع، ليظهروا براعتهم اللفظية ومهارتهم فِي النظم.

ويكفي أنَّ تقرأ هذين البيتين اللذين يتكلف فيهما المتنبي ويكلف سامعه وقارئه شططًا؛ لأنه لا يزيد فيهما على نظم الألفاظ، كما سيغلو فِي نظم الأفعال بين يدي سيف الدولة بعد ذلك بزمنٍ طويل:

أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسٍ　　　دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبغِضٍ بَهِجِ
جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسٍ　　　نَدٍ أَبِيٍّ غَرٍ وافٍ أَخِي ثِقَةٍ

والظاهر هُوَ أنَّ أبا الطيب لما بلغ طرابلس مدح صاحبه عبيد الله بن خلكان هَذَا بهذه السينية التي لا تُغني شيئًا، وكأن الرجل أعجب بها فأحسن ضيافة الشاعر، وأهدى إِلَيْهِ طرفتين من هذه الطرف التي يظهر أنَّ السوريين يحسنون اصطناعها وإهداءها من قديم.

الأولى: هدية — كما يقول الديوان — فيها سمك من سكر ولوز فِي عسل، والأخرى: جامة فيها حلوى.

فأما الهدية الأولى فقد سحرت المتنبي وبهرته، وإذا هُوَ يتغنى بمدح صاحبه ويقدمه على حاتم الطائي، ويجعله مثلًا حيًّا للكرم والجود، ويقول فِي وصف هذه الهدية هَذَا البيت الذي ما أشك فِي أنه أرضى المتنبي، وفتن عبيد الله بن خلكان:

أَقَلُّ مَا فِـي أَقَلِّهَا سَمَكٌ   يَسْبَحُ فِي بِرْكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ

وأما الأخرى فلم تكن أقل إرضاءً للمتنبي من الأولى، ويظهر أنَّ الفتى الكوفي كان «حلويًّا يحب الحلوى» فقد رد الجامة إلى صاحبها بعد أن كتب عليها بالزعفران هذه الأبيات:

أَقْصِرْ فَلَسْتَ بِزائِدِي وُدًّا   بَلَغَ الْمَدَى وَتَجاوَزَ الحَدَّا
أَرْسَلْتَها مَمْلُوءَةً كَرَمًا   فَرَدَدْتُها مَمْلُوءَةً حَمْدَا
جَاءَتْكَ تَطْفَحُ وَهِيَ فَارِغَةٌ   مَثْنَى بِهِ وَتَظُنُّهَا فَرْدَا
تَأْبَى خَلَائِقُكَ الَّتِي شَرُفَتْ   أَلَّا تَحِنَّ وَتَذْكُرَ العَهْدَا
لَوْ كُنْتَ عَصْرًا مُنْبِتًا زَهَرًا   كُنْتَ الرَّبِيعَ وَكَانَتِ الوَرْدَا

فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حَتَّى فِي وصف السكر واللوز والعسل، وفي الشكر على علبة حلوى، ومن حق المتنبي أنْ يستريح وأنْ يلهو بالصغائر، ويُرفِّه بها على نفسه من هذه الهموم الثقال التي يطوف بها فِي الآفاق، ويفكر فيها آناء الليل وأطراف النهار، ولكن راحة المتنبي وفراغه، ودعابة المتنبي ومجونه، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح، كما سترى فِي غير هَذَا الموضع من الحديث، فلم يكن المتنبي حلو الروح، ولا خفيف الظل، ولا جذَّابًا، وإنما كان مُرًّا غليظ الذوق فِي أوقات الدعة والفراغ.

فلندعه غارقًا فِي بركته العسلية، أو عاطفًا عليها يصطاد سمك السكر واللوز، ولنذهب إلى اللاذقية، لننظر فِي شيء من هَذَا الشعر الكثير الذي قاله هناك للتنوخيين.

(٩) شعره في اللاذقية

وشعر المتنبي ﻓِﻲ التنوخيين كثير، يعظم حظه من الجودة، وينتهي أحيانًا إلى الروعة، وفيه البشائر بنضج الشاعر، والطلائع المنبئة بنبوغه، وفيه على ذلك ما يدل على أنَّ حياته مع التنوخيين قد أثارت ﻓِﻲ نفسه آمالًا وأماني، وخيلت إِلَيْهِ أنه قريبٌ من غايته، وكانت حياة راضية على كل حال. وقد ذكر ﻓِﻲ شعره ثلاثة من التنوخيين: فأما أولهما وهو محمد بن إسحاق التنوخي فلم يذكره إلا راثيًا له باكيًا أو متباكيًا ومبكيًا عليه، كأنه لم يعرفه، ولم تتصل المودة بينه وبينه، وإنما مات قبل أن تطول إقامة المتنبي ﻓِﻲ اللاذقية، وقد رثاه بالرائية التي مطلعها:

إِنِّـي لَأَعْلَـمُ وَاللَّبِيبُ خَبِيـرُ أَنَّ الْحَيَاةَ وَإِنْ حَرَصتُ غُرُورُ

وهي قصيدة عادية لا خطر لها ولا غناء فيها، ولكنها أرضت أهل الميت، فاستزادوه فزادهم على الوزن والقافية هذه الأبيات التي يقول ﻓِﻲ أولها:

غَاضَتْ أَنَامِلُهُ وَهُنَّ بُحُورُ وَخَبَتْ مَكَائِدُهُ وَهُنَّ سَعِيرُ

وكأن أسرة أخرى كانت تنافس التنوخيين ﻓِﻲ اللاذقية، فأشاعت أنَّ أبناء عم الميت لم يحزنوا عليه وأنهم قد شمتوا بموته، فلجئوا إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى عنهم هذه الشماتة، فقال على الوزن والقافية الأبيات التي أولها:

أَلِآلِ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ إِلَّا حَنِينٌ دَائِمٌ وَزَفِيرُ

وقد استزادوه ﻓِﻲ هَذَا المعنى كما استزادوه ﻓِﻲ الرثاء، وكأنه قد استنفد جهده ﻓِﻲ هَذَا الوزن وهذه القافية، فعدا إلى وزن آخر وقافية أخرى، وقال هذه الأبيات التي لا أقف منها إلا عند هَذَا البيت:

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنَّ بَيْنَ بَنِي أَبٍ لِنَجْلِ يَهُودِي تَدِبُّ العَقارِبُ

وإنما أقف عند هَذَا البيت لأضع بإزائه بيتًا آخر قاله فِي قصيدته التي استعطف بها وإلى حمص بعد أن سجن، وهو قوله:

فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الكَاشِحِينَ وَلَا تَعْبَأَنَّ بِمَحْكِ اليَهُودِ

فهل أشار المتنبي إلى رجل واحد فِي هذين البيتين؟ ومن عسى أن يكون هَذَا اليهودي؟ وهل لصلة المتنبي بالتنوخيين الذين كان ينافسهم هَذَا اليهودي أثر فِي السعاية به حَتَّى ألقي فِي السجن أو أثر فِي النكاية به حَتَّى طالت إقامته فِي السجن؟ وما بال المتنبي بعد أن خرج من سجنه لم يعد إلى أصدقائه التنوخيين، ولم يذكرهم فِي شعره؟ وهل بين هَذَا اليهودي الذي يذكره المتنبي فِي هذين البيتين، واليهودي الذي كان يحكم دمشق حين لجأ إِلَيْهَا المتنبي بعد أن فارق سيف الدولة صلة؟ أو هل هُوَ رجلٌ واحدٌ؟

كل هذه مسائل خليقة بالتفكير والعناية، لولا أَنَّ النصوص التي بين أيدينا لا تعنينا على أن نجد لها جوابًا مقنعًا، لنحتفظ بها، فقد تنفعنا بعد حين.

وقد مدح المتنبي رجلين من التنوخيين: أحدهما الحسين بن إسحاق التنوخي. ومدحه بقصائد ثلاث مطلع أولاها قوله:

هُوَ الْبَيْنُ حَتَّى مَا تَأَنَّى الْحَزَائِقُ وَيَا قَلْبِ حَتَّى أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ

ومطلع الثانية:

أَتُنْكِرُ يَابْنَ إِسْحَاقٍ إِخَائِي وَتَحْسَبُ مَاءَ غَيْرِي مِنْ إِنَائِي

وهي التي ذكر فيها سنَّه، وكأنه أرسلها إلى ممدوحِه من بعيد، وأقل ما تصور هذه القصيدة أن أمر الشاب قد عظم فأصبح له حساد ومنافسون، وأَنَّ الشَّاعِر قد وثق بنفسه واطمأن إلى فحولته. ومطلع الثالثة قوله:

سَلَامُ النَّوَى فِي ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الذِي بِي مِنْ السُّقْمِ

ومدح عليَّ بن إبراهيم بن إسحاق التنوخي بثلاث قصائد أيضًا، يقول ﻓِﻲ أولاها:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِ   لُيَيْلَتُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي

ويقول ﻓِﻲ الثانية:

مُلِثَّ الْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوعًا   وَإِلَّا فَاسْقِهَا السُّم النقِيعَا

ويقول ﻓِﻲ الثالثة:

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ   أَحْدَثُ شَيءٍ عَهْدًا بِهَا الْقِدَمُ

وقد قال هذه القصيدة بعد عودته من طبرية، وكأن مودة خاصة كانت تجمع بينه وبين ممدوحه هذا، فقد كانت بينهما منادمة يصورها الشَّاعِر ﻓِﻲ مقطوعتين لم نحفل بهما لقلة خطرهما.

ولابد من الوقوف عند بعض هَذَا الشعر لنتبيَّن مقدار نضج الشَّاعِر ﻓِﻲ فنه من جهة، ومقدار دنوه من الثورة والانفجار من جهةٍ أخرى.

ولندع شعره ﻓِﻲ الحسين بن إسحاق التنوخي، لا لأنه أهون من أن نقف عنده، ولا لأنه يشبه ما قال المتنبي من الشعر قبل وصوله إلى اللاذقية، فإن مدحه للحسين بن إسحاق يمتاز بأشياء، يخيل إليَّ أنها طريقة مستحدثة، وإنْ كنا نلمح أصولها ﻓِﻲ الشعر السابق، ولكنها ﻓِﻲ هَذَا الشعر كثيرة شائقة توشك أن تكون القوام الفني له، وهذه الخصال هي جزالة اللفظ ورصانته، وصحة المعنى واستقامته، واعتدال الأسلوب وحسن انسجامه، إلا أبياتًا يضطرب فيها الشَّاعِر هنا وهناك ﻓِﻲ اللفظ وحده أو ﻓِﻲ المعنى وحده، أو ﻓِﻲ اللفظ والمعنى جميعًا، وأنت واجد لذلك نماذج ﻓِﻲ ميميته التي يمدح بها الحسين، ولا سيما القسم الأخير منها، وأنت واجد ﻓِﻲ هَذَا الشعر كله إيثارًا ظاهرًا للغة البادية، واختيارًا ظاهرًا للألفاظ الضخمة التي تملأ الفم والأذن جميعًا، ولا سيما ﻓِﻲ القافية التي يمدح بها الحسين.

وأنا مع ذلك أدع هذه القصائد الثلاث؛ لأني أكاد أعتقد أنَّ المتنبي كان أشد ميلًا إلى عليٍّ بن إبراهيم وأصدق له حبًّا وأعظم به ثقة، وهو من أجل ذلك صادق اللهجة حين يتحدث إليه، لا يكاد يخفي عليه ميوله وأهواءه، وكأنه كان ينتظر منه معونةً وإمدادًا،

ومهما يكن من شيء فلست أستبعد أن يكون هؤلاء التنوخيون، وعليٌّ منهم خاصة، قد شجعوا المتنبي سرًّا على ما كان يحاول من الوثوب، وآية ذلك عندي أنه لم يعد إليهم بعد النكبة، ولم يذكرهم فِي شعره، إما إشفاقًا عليهم، وإما لأنهم هم أنفسهم قد أشفقوا منه وخافوه.

واقرأ معي داليته التي يمدح بها على بن الحسين، ولا تطل الوقوف عند مطلعها الغامض البغيض الذي أنكره القدماء ورأوا فيه إلغازًا وخطأً فِي الحساب وبعدًا عَنْ الشعر:[١٧]

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِ   لُيَيْلَتُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي[١٨]

لا تقف عند هَذَا البيت السخيف الذي تجد مثله كثيرًا فِي أجمل شعر المتنبي وأروعه، بل تجاوزه إلى ما قاله الشَّاعِر بعد، فسترى أنك لا تقرأ لفتى ناشئ يعالج الفن على غير علم به ولا قدرة عليه، وإنما أنت بإزاء شاعر ناضج قد تمت له أداة الشعر واستكمل حظه من القدرة على تصريف المعاني والألفاظ وأنت كذلك بإزاء شاعر قد نفد صبره أو كاد، قد سئم السكون ورغب فِي الحركة، وقد ضاق بالهدوء وتحرق إلى الثورة، وقد عجز حَتَّى عَنْ أن يخفي سره، فهو ينادي الناس به فِي غير تحفظ، ولا تحرج ولا حذر:

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعْشٍ فِي دُجَاهَا   خَرَائِدُ سَافِرَاتٌ فِي حِدَادِ

---

[١٧] الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٧٨ (طبع العرفان بصيدا)، ويتيمة الدهر للثعالبي ج١ ص١٢٤ (طبع إسماعيل الصاوي).

[١٨] انظر: Massignon Mutanabbi devient le siècle Ismaelien de i'Islam.

Mémoires de l'institut français de Damas Bey Beyrouth 1936.

فإنه يفسر هَذَا البيت بالبيت الذي يليه ويجعل العدد رمزًا لبنات نعش، وهو رأي أقل ما يوصف به أنه طريف.

فما رأيك فِي هَذَا التشبيه الرائع البديع الذي يخلبك بلفظه ومعناه؟ ولكن الشَّاعِر ليس فارغ البال ليصف رهبة الليل، وجمال النجوم، وإنما هُوَ مثقل بهمومه، معجل عَنْ التفكير فِي جمال الطبيعة، وعن تصوير هَذَا الجمال إلى التفكير فِي معاقرة المنايا:

أُفَكِّرُ فِي مُعَاقَرَةِ المَنَايَا وَقَوْدِ الْخَيْلِ مُشْرِفَةَ الْهَوَادِي
زَعِيمٌ لِلْقَنَا الْخَطِّيِّ عَزْمِي بِسَفْكِ دَمِ الْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي
إلى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ والتَّوانِي وَكَمْ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي
وَشَغْلُ النفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي بِبَيْعِ الشِّعْرِ فِي سُوقِ الكَسَادِ
وَمَا مَاضِي الشَّبَابِ بِمُسْتَرَدٍّ وَلَا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ
مَتَى لَحَظَتْ بَيَاضَ الشَّيْبِ عَيْنِي فَقَدْ وَجَدَتْهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ
مَتَى مَا ازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِي فَقَدْ وَقَعَ انْتِقَاصِي فِي ازْدِيَادِي

فهذا الشعر يعرب عَنْ نفسه، ويعلن إلى قارئه أو سامعه ما فيه من جمال وروعة، وما فيه من قوة وحزم، وما فيه من تحرق إلى الخروج من هذه الحال التي ضاق بها الشَّاعِر أشد الضيق، كما أنه يعلن إلى قارئه أو سامعه أن عقل صاحبه قد نضج وبلغ أشده وأصبح قادرًا لا على التفكير المستقيم فحسب، بل كذلك على استخراج المعاني الدقيقة وتصويرها فِي أبرع اللفظ وأرقاه.

ولا أمضى فِي تحليل ما يأتي بعد ذلك من المدح، وإن كان خليقًا بالعناية والتحليل، وإنما أدع هذه القصيدة لأنتقل إلى قصيدة أخرى هي عندي أروع ما قال الشَّاعِر فِي المديح أثناء هَذَا الطور، هي أروع هَذَا الشعر؛ لأنها جمعت إلى الخصال التي لاحظت أَنَّ الشَّاعِر قد استكملها فِي شعره الذي قاله فِي اللاذقية، خصلتين خليقتين بالتفكير:

إحداهما سياسية، فقد صرح لنا الشَّاعِر فِي هذه القصيدة بمذهبه السياسي، فإذا هُوَ أعم وأشمل من القرمطية أو التشيع، وإذا القرمطية أو التشيع عند المتنبي وسيلة إلى تحقيق هَذَا المذهب السياسي الخطير، وهو أَنْ تجتمع كلمة العرب وأَنْ يعود إليهم ملكهم وسلطانهم، وأَنْ يُردَّ غير العرب من الخدم والرقيق إلى طورهم الذي كانوا فيه حين كان الملك عربيًّا صحيحًا.

والمتنبي فِي هذه القصيدة يذكرنا بشاعر قرشي قديم اشترك فِي الفتن الإسلامية، وجاهد مع الزبيريين حَتَّى انهزموا، ثم استخفى دهرًا، ثم انتهى أمره إلى الاستئمان والإذعان لبني أمية، وهو عبيد الله بن قيس الرقيات الذي لم يكن يعنيه من هذه الفتن التي اصطلى نارها إلا أن تجتمع كلمة قريش، وأنْ يعود إِلَيْهَا ملكها قويًّا متينًا، ولذلك لم يأنف أن يثوب إلى بني أمية، وأنْ يمدحهم، وينعم بجوار أمير من أمرائهم، وهو عبد العزيز بن مروان، كذلك المتنبي جاهد بلسانه وعرض نفسه للخطر، ولعله جاهد بسيفه ونفسه، ثم انتهى أمره إلى السجن، فلما خرج منه أنفق بعض الدهر مشردًا بائسًا، ثم لم يلبث أن تعزَّى عَنْ هَذَا كله حين خيل إِلَيْهِ أنه وجد أميرًا عربيًّا يحيي الأمل، ويرد إلى النفوس شيئًا من الرضا والثقة، واقرأ هذه الأبيات التي تصور هَذَا المذهب السياسي للمتنبي أجمل تصوير:

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ ... أَحْدَثُ شيءٍ عَهْدًا بِهَا القِمَمُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالمُلُوكِ وَمَا ... تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ ... وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ ... تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمُسُهُ ... وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ القَلَمُ

وقد قال المتنبي هذه القصيدة بعد أنْ ذهب إلى طبرية فأقام فيها، ثم سخط فعاد إلى اللاذقية، وسخطه ظاهر فِي هذه الأبيات.

ولكن إقامة أبي الطيب فِي طبرية قد كشفت عَنْ ناحية من نواحي ملكته الشعرية، لم تظهر واضحة فِي شعره السابق، وهي قدرته على الوصف وبراعته فِي تصوير الطبيعة، وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة التي يصف بها البحيرة:

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرُكِ الْبُحَيْرَةَ وَالْـ ... ـغَوْرُ دفيءٌ وَمَاؤُهَا شَبِمُ
وَالْمَوْجُ مِثْلُ الفُحُولِ مُزبدةً ... تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَطَمُ
وَالطَّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسَبُهَا ... فُرْسَانَ بُلْقٍ تَخُونُهَا اللُّجُمُ
كَأَنَّهَا وَالرِّيَاحُ تَضْرِبُهَا ... جَيْشَا وَغًى: هَازِمٌ وَمُنْهَزِمُ
كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ ... حَفَّ بِهِ مِنْ جِنَانِهَا ظُلَمُ

نَاعِمَةُ الجِسْمِ لَا عِظَامَ لَهَا   لَـهَـا بَنَـاتٌ وَمَـا لَـهَـا رَحِـمُ
يُبْقَرُ عَنْهُنَّ بَطْنُهَا أَبَدًا   وَمَا تَشَكَّى وَمَا يَسِيلُ دَمُ
تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا   وَجَادَتِ الْأَرْضُ حَوْلَهَا الدِيَمُ
فَـهْـيَ كَـمَـاوِيَّـةٍ مُـطَـوَّقَـةٍ   جُـرِّدَ عَنْـهـا غِشَـاؤُهَـا الْأَدَمُ
يَشِينُهَا جَرْيُهَا عَلَى بَلَدٍ   تَـشِـيـنُـهُ الْأَدْعِـيَـاءُ وَالْـقَـزَمُ

كان المتنبي وهو يقول هَذَا الشعر الناضج قد أتم العشرين من عمره، وأتم فِي الوقت نفسه نضجه الفني ونُضْجَ عواطفه الثائرة التي ستدفعه إلى الكارثة بعد قليل، وأنت قد لاحظت اضطرام نفسه فِي كل ما قال من الشعر للتنوخيين، ولاحظت أنَّ مقامه فِي طبرية بعد عشرته لهؤلاء العرب فِي اللاذقية قد انتهى بهذا المرجل، الذي كان يغلي فِي صدره إلى الانفجار.

فلنترك هَذَا الفتى الشَّاعِر الذي كان يعدو فِي التفوق والنبوغ عدوا، ولنعد إلى الفتى الثائر فنستعرض ما قال من الشعر الحاد العنيف الذي انتهى به إلى السجن فِي حمص.

(١٠) شعره حين كان يستعد للثورة

فنحن حين نقرأ القسم الأول من ديوان المتنبي قراءة ممعن مفكر، مضطرون إلى أنْ نلاحظ أنَّ المتنبي صبيًّا وشابًّا، كان يحيا لونين من الحياة مختلفين أشد الاختلاف فِي أول الأمر، ثم غلب أحدهما على الآخر فامتزجا وانتهيا بالفتى إلى سجنه.

فأما اللون الأول من حياته، فهو هَذَا الذي رأيته فِي أكثر ما قدمت إليك من هَذَا الحديث، هُوَ حياة الشَّاعِر العادي الذي يسلك سبيل أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء المعروفين، وهي سبيل قوامها طلب الرقي الفني، واتخاذ الفن وسيلة إلى الغنى والثروة، وإلى ارتفاع المكانة والاستمتاع باللذات؛ فقد سلك أبو الطيب هذه السبيل — كما سلكها غيره — فقال الشعر فِي صباه ناسبًا وهاجيًا ومادحًا، قاله للتمرين والتعلم فِي أول الأمر، ثم قاله للكسب والارتزاق والتماس الشهرة بعد ذلك، وقد رأيت كيف سلك طريقه هذه فِي سرعة ما، ولكنها على كل حال ليست سرعة فذة ولا ممتازة؛ فقد نبغ الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين فِي مثل هذه السن التي نبغ فيها، بل فِي مثل هذه السن التي كان يحاول فيها التفوق والامتياز.

وأما اللون الآخر لحياة المتنبي فهو هَذَا اللون الأحمر القاني، لون الثورة الدامية أو الغارقة فِي الدم، وقد أحسست من كل ما قدمت فِي هَذَا الحديث أن فتانًا قد عرف السخط منذ عرف نفسه، واستطاع أن يفكر فِي أمره شيئًا.

فهو قد شك فِي أمر أسرته، وسأل نفسه، ولعله سأل جدته عَنْ أمه وأبيه، وهو قد أنكر من أمر هذه الأسرة أمورًا لم ينبئنا بها، بل اجتهد فِي إخفائها علينا، وكان يظهر الضجر والضيق والغيظ إذا أحس أنَّ المعاصرين له كانوا يعرفون منها قليلًا أو كثيرًا، وهو فِي الوقت نفسه قد نشأ فِي بيئة شيعية ساخطة تنتظر الفرج، واتصل ببيئة قرمطية هادمة للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع، وهو قد تأثر بهاتين البيئتين، فكان فِي حياته الظاهرة شيعة علويًّا ما أقام فِي العراق، وكان قوله للشعر وتأثره بما يتأثر به الشعراء، ربما نمَّ على دخيلة نفسه، فأظهر قرمطيته العقلية فِي مدحه لأبي الفضل الكوفي، وأظهر قرمطيته العملية فِي هذه الأبيات الثلاثة التي قدمتها لك:

إلَى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِي زِيِّ مُحْرِمِ
وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَمِ
وَإِلَّا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمَا
تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقًا بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدٍ
يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

وقد رأيت أنَّ جلاء القرامطة عَنْ الكوفة، وانهزامهم عَنْ العراق، وارتدادهم إلى البحرين، قد حمل الغلام على أن يجلو هُوَ أَيْضًا عَنْ الكوفة، لا إلى البحرين، بل إلى الشام بعد أن مرَّ ببغداد مرورًا يسيرًا، وأنا أعتقد أنَّ الفتى أخفى قرمطيته بعد انهزام القرامطة، وأعتقد كما قدمت أنه ذهب إلى الشام مغامرًا، وداعيًا إلى المذهب القرمطي، ولكنه تعلم الحذر والاحتياط، ومنذ وصوله إلى الشام يظهر انقسام نفسه بين هذين النوعين من الحياة: حياة خارجية يجاري فيها الناس ويداريهم، وحياة داخلية يبغض فيها الناس أشد البغض، ويمقتهم أشنع المقت، ويضمر لهم ضغينة لا حدَّ لها، وعداء لا هوادة فيه.

وكان المتنبي إذا ألمَّ بقومٍ من أهل البادية أو الحاضرة لم يُظهرهم من دخيلة نفسه على شيء، ولكنه مع ذلك ربما آنس من بعضهم ما يبعث فِي نفسه شيئًا من الأمل، فيلمِّح لهم تلميحًا شديد الغموض ببعض أمره ورأيه، ثم يرى من فتورهم أو قصورهم ما يرده إلى التحفظ والكتمان، كالذي رأيت فِي تلميحه لبعض الكلابيين بهاتين المقطوعتين:

إِذَا مَا شَرِبْتَ الْخَمْرَ صِرْفًا مُهَنَّأً   شَرِبْنَا الَّذِي مِنْ مِثْلِهِ شُرِبَ الكَرْمُ
أَلَا حَبَّذَا قَوْمٌ نَدَامَاهُمُ القَنَا   يُسَقُّونَهَا رِيًّا وَسَاقِيهِمُ الْعَزْمُ

* * *

لِأَحِبَّتِي أَنْ يَمْلَئُوا   بِالصَّافِيَاتِ الأَكْوُبَا
وَعَلَيْهِمُ أَنْ يَبْذِلُوا   وَعَلَيَّ أَلَّا أَشْرَبَا
حَتَّى تَكُونَ الْبَاتِرَا   تُ الْمُسْمِعَاتُ فَأَطْرَبَا

وكان المتنبي مبغضًا للخمر أشد البغض، ممتنعًا عنها أشد الامتناع، يرى أنَّ الإقبال عليها فضلًا عَنْ معاقرتها لا يلائم ما يملأ نفسه من الأمل والجد، ويظهر هَذَا فِي هاتين المقطوعتين، ويظهر فِي مقطوعة أخرى قالها لصديق له يعرف بأبي ضبيس، وهي:

أَلَذُّ مِنَ الْمُدَامِ الْخَنْدَرِيسِ   وَأَحْلَى مِنْ مُعَاطَاةِ الْكُئُوسِ
مُعَاطَاةُ الصَّفَائِحِ وَالعَوَالِي   وَإِقْحَامِي خَمِيسًا فِي خميسِ
فَمَوْتِي فِي الوَغَى عَيْشِي لِأَنِّي   رَأَيْتُ الْعَيْشَ فِي أَرَبِ النُّفُوسِ
وَلَوْ سُقِّيتُهَا بِيَدَيْ نَدِيمٍ   أُسَرُّ بِهِ لَكَانَ أَبَا ضُبَيْسِ

ويظهر كذلك فِي مقطوعتين أخريين قالهما لعليٍّ بن إبراهيم التنوخي، يقول فِي أولاهما:

إِذَا مَا الْكَأْسُ أَرْعَشَتِ الْيَدَيْنِ   صَحَوْتُ فَلَمْ تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنِي

ويقول فِي الأخرى:

مَرَتْكَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ صَافِيَةُ الْخَمْرِ وَهُنِّئْتَهَا مِنْ شَارِبٍ مُسْكِرِ السُّكْرِ

وقد احتفظ المتنبي بإعراضه عَنْ الخمر واقتصاده فِي اللذات حياته كلها، لم يخرج عَنْ هَذَا التحرج إلا كارهًا، كالذي كان بينه وبين صديق له حلف عليه بالطلاق ليشربن، فشرب وقال:

وَأَخٍ لَنَا بَعَثَ الطَّلَاقَ أَلِيَّةً لَأُعَلَّلَنَّ بِهَذِهِ الخُرْطُومِ
فَجَعَلْتُ رَدِّيَ عِرْسَهُ كَفَّارَةً مِنْ شُرْبِهَا وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَثِيمِ

كان المتنبي إذن يلمح برأيه ولا يصرح به ما أقام فِي شمال الشام، وربما ظهرت آراؤه فِي مدحه من حينٍ إلى حين، ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يستثمر هذه الآراء ويقويها وينضجها، وكانت الحياة نفسها تعينه على ذلك وتدفعه إِلَيْهِ دفعًا، فهذا الاضطراب الداخلي فِي هَذَا الإقليم، وهذه الأثرة التي تملأ نفوس الناس — ولا سيما السادة والأشراف — وهذا التنافس بين العباسيين والإخشيديين، وهذا البخل الأسود الذي كان يلقاه كلما مدح أميرًا أو شريفًا أو رجلًا من أوساط الناس، كل ذلك كان يصور له الحياة سوءًا كلها، ويصور له تفوقه وامتيازه وارتفاع نفسه عَنْ نفوس هؤلاء الطغام.

فلما انتهى الأمر به إلى مدح علي الحمداني، وكان لِدَةً له، ومكافئًا له فِي السن، ولم يبلغ منه شيئًا، امتلأت نفسه ضغنًا وحفيظة، ولعله سأل نفسه فِي هَذَا الوقت ما بال هَذَا الفتى الحدث يعظم شأنه ويرتفع أمره، ويقود الجند، ويغير على البادية والحاضرة، وأنا فِي هذه الحال من الخمول والضعة، لا أكاد أبلغ ما أقيم به أودي، مع أني أبذل فِي ذلك الجهد العنيف، وما هُوَ أقوم من الجهد العنيف، فأمدح من أزدري، وأثني على من أبغض، وأدعو بطول البقاء وتأييد الملك لمن لو استطعت لسحقته سحقًا؟

ولعل أبا سعيد المجيمرى لامه فِي نحو هَذَا الوقت، وحثه على أن يرحل بشعره إلى الملوك والأمراء وأشراف الناس، فلم يستطع أن يكتم ما كان يملأ نفسه من الضغن والحفيظة، فأجاب صاحبه بهذا الرجز المر الملتهب؛ لأنه يصور نفسًا مرة ملتهبة:

أَبَا سَعِيدٍ جَنِّبِ الْعِتَابَا فَرُبَّ رَاءٍ خطأً صَوَابَا

فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الْحُجَّابَا   وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدِّنَا الْبَوَّابَا
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ القِرْضَابَا   وَالذَّابِلَاتِ السُّمْرَ وَالْعِرابَا
تَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الحِجَابَا

وعلى كل حال فقد ترك شمال الشام يائسًا منه ومن أهله، والتمس فِي ملك الإخشيديين ما أعياه فِي ملك العباسيين، وليس من شكٍّ فِي أنَّ مقامه فِي اللاذقية قد قوَّى نفسه، وبعث فِي أمله حياة منعته من أن يبلغ من الحذر والاحتياط ما كان يبلغه من قبل.

وأنا أرجح أنَّ هؤلاء التنوخيين الذين اتصل بهم كانوا يشعرون بعربيتهم، وكانوا يرضون إن آل إليهم شيء من الحكم أو الجاه، ويسخطون إن زال عنهم ذلك وانتقل إلى منافسيهم الذين أشرنا إليهم فِي الفصل السابق، وكانوا من غير شك يتحدثون بما يشعرون به من رضًا أو سخط، وكان المتنبي يسمع منهم ويحفظ عنهم، ولعله تحدث إليهم ملمحًا أول الأمر، ثم كاشفًا بعض الحجب عَنْ نيته، ثم راجعًا إلى الاحتياط، ولكن رحلته إلى طبرية قضت على كل حذر، وأزالت عَنْ نيته كل ستار، فعاد إلى اللاذقية هائجًا مائجًا، وثائرًا مضطربًا؛ لأنه رأى من أمر الإخشيديين وعمالهم ما أحفظه، وظهر ذلك فِي ميميته التي تحدثنا عنها فِي الفصل السابق ظهورًا لا يحتمل شكًّا ولا جدالًا.

ومن يدري! لعل هؤلاء التنوخيين، ولعل أحدهم عليُّ بن إبراهيم خاصة، قد أظهروا رضًا عَنْ ثورة المتنبي وتشجيعًا لها فِي أحاديثهم أو فِي صنيعهم مع المتنبي.

ولكن المحقق ما ينبئنا به الديوان من أن بعض الناس أشفقوا على الشاب من هذه الصراحة التي ظهرت فِي مدحه للتنوخيين، ومن هذه الأحاديث الملتهبة التي كان يلقيها هنا وهناك فِي غير تحفظ، ومن هؤلاء أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل الذي نصح للمتنبي — فيما يظهر — بالحذر والاحتياط؛ فلم يسمع له وإنما أجابه بهذه الأبيات:

أَبَا عَبْدِ الْإِلَـهِ مُعَـاذُ إِنِّـي   خَفِيٌّ عَنْكَ فِي الْهَيْجا مَقَامِي
ذَكَرْت جَسِيمَ مَا طَلَبِي وَأَنَّا   نُخَاطِرُ فِيهِ بِالْمُهَجِ الجِسامِ
أَمِثْلِي تَأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنهُ   وَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ الْحِمَامِ
وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصًا   لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِي   وَلَا سَارَت وَفِي يَدِهَا زِمَامِي

إِذَا امْتَلأَتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي فَوَيْلٌ فِي التَيَقُّظِ وَالمَنَامِ

فِي اللاذقية عرف المتنبي حسد الحساد وكيد الكائدين؛ فقد ارتفع شأنه الفني، واستبق الناس إلى تضييفه وإيثاره بالخير أو إيثار أنفسهم بمدحه، ولقي من أمن الحياة ولينها ما لم يلق فِي شمال الشام، قد ظهر المنافسون له، ورأيت أنَّ قومًا نافسوه عند التنوخيين، وأنَّ منهم من لم يتردد فِي أن يصنع هجاء للحسين بن إسحاق التنوخي، ويضيفه إلى المتنبي فِي غيبته، ويضطر المتنبي إلى أن يدفع عَنْ نفسه عند الحسين.

وفي اللاذقية وجد المتنبي لذة المودة وصداقة الأصدقاء، فهذا معاذ بن إسماعيل يشفق عليه وينصح له بالحذر، وهذا علي بن إبراهيم التنوخي يمنحه وده، ولا يتمنى إلا أن يختص به نفسه ويتخذه نديمًا، ولكن آماله أبعد من هَذَا كله.

وقد أخذ الناس يلهجون به ويتهمونه فِي نسبه وفي رأيه، فقال هذه الأبيات التي أظنها قليلًا من كثير قد حذف:

أَنَا عَيْنُ المُسَوَّدِ الجَحْجَاحِ هَيَّجَتْنِي كِلَابُكُمْ بِالنُّبَاحِ
أَيَكُونُ الْهِجَانُ غَيْرَ هِجَانٍ أَمْ يَكُونُ الصُّرَاحُ غَيْرَ صُرَاحِ
جَهِلُونِي وَإِنْ عَمَرْتُ قَلِيلًا نَسَبَتْنِي لَهُمْ رُءوسُ الرِّمَاحِ

وكأن أعداء المتنبي وحساده قد مضوا فِي النعي عليه، وألحُّوا فِي التشهير به وظلوا يستحمقونه، فدفعوه بذلك إلى الثورة دفعًا، تدل على هَذَا لاميته التي أولها:

قِفَا تَرَيَا وَدْقِي فَهَاتَا المَخَايِلُ وَلَا تَخْشَيَا خُلْفًا لِمَا أَنَا قَائِلُ

والتي يقول فيها:

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُل مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى المُتَطَاوِلُ
وَمَا زِلْتُ طَوْدًا لَا تَزُولُ مَنَاكِبِي إلى أَنْ بَدَتْ لِلضَّيْمِ فِيَّ زَلَازِلُ
فَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلْقَلَ الْحَشَا قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ
إِذَا اللَّيْلُ وَارَانَا أَرَتْنَا خِفَافُهَا بِقَدْحِ الْحَصَى مَا لَا تُرِينَا الْمَشَاعِلُ

فهو إذن قد ارتحل عَنْ اللاذقية مغاضبًا فيما أظن، منذرًا بهذه الأبيات الخطرة:

أَلَا لَيْسَتِ الْحَاجَاتُ إِلَّا نُفُوسَكُمْ وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا السُّيُوفَ وَسَائِلُ
فَمَا وَرَدَتْ رُوحَ امْرِئٍ رُوحُهُ لَهُ وَلَا صَدَرَتْ عَنْ بَاخِلٍ وَهوَ بَاخِلُ
غَثَاثَةُ عَيْشِي أَنْ تَغَثَّ كَرَامَتِي وَلَيْسَ بِغَثٍّ أَنْ تَغَثَّ الْمَآكِلُ

وكان المتنبي كما رأيت شابًّا قوي الحس، دقيق الشعور، عنيف الطبع، حاد المزاج، فجعل فيما أعتقد — كلما ألح خصومه فِي الغض منه والنعي عليه — ازداد عنفًا وحدة، وتصريحًا بما كان يخفي من أمره ورأيه، حَتَّى قال من الشعر ما أخاف منه السلطان، ولا سيما إذا كان هَذَا الشعر قد روي وتناقلته الناس، ووقع فِي نفوس هؤلاء العرب المتحضرين والأعراب البادين موقع النار من الهشيم، كما كان ذلك منتظرًا، ويكفي أن تقرأ داليتَّه التي يقول فِي أولها:

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدٍ بِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الْخُدُودِ

لترى أنها كافيَة لتعرض الشَّاعِر لأشد الأخطار، فالشاعر فيها ثمل قد أسكره الغضب وملكت عليه الحفيظة أمره، فلم يستمع إلا لشيطانه ولم ينطق إلا عنه، ولم يكن شيطانه أقل منه سكرًا ولا انتشاء، فهو فِي القسم الأول من القصيدة نشوان يتغنى صباه ووطنه، ويستعيد أيامه الأولى، ولا يتردد أن يندفع إلى هَذَا البيت يقوله فِي وصف الحسان الكوفيات:

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

ثم يمضي حَتَّى يقول:

مَا مُقَامِي بأَرْضِ نَخْلَةَ[١٩] إِلَّا كَمُقَامِ المَسِيحِ بَيْنَ اليَهُودِ

[١٩] نحلة بالحاء. راجع معجم البلدان لياقوت.

ثم يصف نفسه الطامحة وأمله البعيد، وجِدَّه فِي تحقيق هَذَا الأمل، ويُعَرِّض بخصومه فِي هَذَا البيت تعريضًا شنيعًا:

لِسَرِيٍّ لِباسُهُ خَشِنُ القُطـْ ـنِ وَمَرْوِيُّ مَرْوَ لِبْسُ القُرُودِ

ثم يقول:

عِشْ عزيزًا أوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُودِ
فَرُءُوسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْـ ـظِ وَأَشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الْحَقُودِ
لَا كَمَا قَدْ حَيِيتَ غَيْرَ حَمِيدٍ وَإِذَا مُتَّ مُتَّ غَيْرَ فَقِيدِ
فَاطْلُبِ العِزَّ فِي لَظًى وَذَرِ الذُّ لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الخُلُودِ
يُقْتَلُ العاجِزُ الجَبَانُ وقَدْ يَعْـ ـجِزُ عَنْ قَطْعِ بُخْنُقِ المَوْلُودِ
وَيُوَقَّى الفَتَى المِخَشُّ وقَدْ خَوَّ ضَ فِي مَاءِ لَبَّةِ الصِّنْدِيدِ
لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخْرُ كَلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ وَعَوْذُ الجَانِي وَغَوْثُ الطَّرِيدِ
إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أَنَا تِرْبُ النَّدَى وَرَبُّ القَوَافِي وَسِمَامُ العِدَى وغَيْظُ الحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

فأنت ترى أنَّ المتنبي قد أثم فِي هذه القصيدة من وجوه: فهو يذكر حلاوة التوحيد فِي لهجة الساخر المستهزئ، وهو يشبه نفسه مرة بالمسيح، ومرة بصالح، ويشبه المسلمين الذين كان يعيش فيهم مرة باليهود، ومرة بثمود، وهو بعد هَذَا وذاك يعلن الثورة والخروج على النظام، ويُلقي ذلك فِي نفوس الناس بألفاظٍ ملتهبة، توشك أن تثير فيها اللهب، ثم هُوَ لا يقف عند هَذَا الحد، بل يتجاوزه إلى الجهر بالقرمطية الصريحة التي تجحد الصلوات الخمس، وتستحل دم الحجاج فِي الحرم، وذلك فِي ميميته التي أولها:

ضَيْفٌ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ السَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلًا مِنْهُ بِاللِّمَمِ

وَانْظر إِلَيْهِ كيف يقول:

لُمِ اللَّيَالِي التِي أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِي ... بِرِقَّةِ الْحَالِ وَاعْذِرْنِي وَلَا تَلُمِ
أَرَى أُنَاسًا وِمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ ... وَذِكْرَ جُودٍ وَمَحْصُولِي عَلَى كَلِمِ
وَرَبَّ مَالٍ فَقِيرًا مِنْ مُرُوءَتِهِ ... لَمْ يُثْرِ مِنْهَا كَمَا أَثْرَى مِنَ العَدَمِ
سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِه ... وَيَنْجَلِي خَبَرِي عَنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَاتَ مُصْطَبَرٍ ... فَالْآنَ أَقْحَمُ حَتَّى لَاتَ مُقْتَحَمِ
لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً ... وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
وَالطَّعْنُ يُحْرِقُهَا وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا ... حَتَى كَأَنَّ بِهَا ضَرْبًا مِنَ اللَّمَمِ
قَدْ كَلَّمَتْها الْعَوَالِي فَهْيَ كالحَةٌ ... كَأَنَّمَا الصَّابُ مَذْرُورٌ عَلَى اللُّجُمِ
بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظِرِي ... حَتَّى أَدَلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الخَدَمِ
شَيْخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ نافلةً ... وَيَسْتَحِلُّ دَمَ الحُجَّاجِ فِي الْحَرَمِ
وَكُلَّمَا نُطِحَتْ تَحْتَ العَجَاجِ بِهِ ... أُسْدُ الْكَتَائِبِ رَامَتْهُ وَلَم يَرِمِ
تُنْسِي الْبِلَادَ بُرُوقَ الجَوِّ بَارِقَتِي ... وتَكتَفي بِالدَّمِ الجَارِي عَنْ الدِّيَمِ
رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسِ وَاتَّرِكِي ... حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ والنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الْأَرْمَاحِ سَائِلَةً ... فَلَا دُعِيتُ ابْنَ أُمِّ المَجدِ والكَرَمِ
أَيَمْلِكُ المُلْكَ وَالْأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ ... وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ
مَنْ لَوْ رَآنِيَ مَاءً مَاتَ مِنْ ظمأ ... وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمِ
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَدًا ... وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ العُرْبِ وَالعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمُ ... وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ

ثم لا يقف أمر المتنبي عند هَذَا الحد، وهو فِي نفسه أبعد مما يطيق الدين والنظام، ولكنه يتجاوز كل حد ممكن فيقول:

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ... أَيَّ عَظِيمٍ أَتَّقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللهُ ... وَمَا لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقي

أترى أنَّ المتنبي محتاج بعد ذلك إلى أن يخرج بالفعل على السلطان فيؤلب الأعراب ويغير بهم على الحاضرة؛ أم ترى المتنبي فِي حاجة إلى أن يزعم أنه نبي ليثور به السلطان، فيأخذه أخذًا شديدًا ويلقيه فِي غيابة السجن؟!

لقد حبس الخلفاء والأمراء غير شاعر فِي القرون الأولى لأمور أيسر جدًّا من هذا، ولقد قتل الأثينيون سقراط لأمور ليست أشد مما تورط فيه المتنبي، فهو فِي لفظه مارقٌ من الدين، خارج على السلطان، منكر للنظام، زارٍ على الأمة كلها، وبعض هَذَا لا يبيح للسلطان سجنه فحسب، بل يبيح للسلطان دمه أيضًا.

وإذا اتفق القدماء أو اختلفوا فِي ثورة المتنبي، وفي طبيعة هذه الثورة، وفي مداها، وإذا ذهب المحدثون فِي ذلك مذهب القدماء، فإني أنا مطمئن إلى أن ما حفظ المتنبي من شعره كاف لدفعه إلى السجن، فكيف لو رأينا ما لم يحفظ المتنبي من هَذَا الشعر الملتهب؟! وما أشك فِي أنه ألغى منه أكثر مما أبقى.

سُجن المتنبي إذن فِي أواخر سنة ثلاث وعشرين أو أوائل سنة أربع وعشرين، فِي جريمة خطيرة من جرائم الرأي، قوامها الردة، والخروج على السلطان، والدعوة إلى تسليط السيف على المسلمين.

فلنُعرضْ عَنْ كل هذه الأساطير التي نُسجت حول سجنه، فهي إلى غلو خصومه ومبالغتهم، وإلى تعظيم الهين وتضخيم اليسير، واختراع القصص، أدنى منها إلى أي شيء آخر، وكان أبو العلاء يملي رسالة الغفران بعد مقتل المتنبي بنحو ستين سنة، فكان يشك فِي ذلك شكًّا ظاهرًا، ويروي بعض هذه الأحاديث الشعبية التي أثيرت حول سجن أبي الطيب.

وأنا لا أتردد فِي رفض ما يُروى من أنه ادَّعى النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها، وضلل فريقًا من خاصة الناس وعامتهم، فبايعوه واتبعوه، كما لا أتردد فِي رفض هَذَا السخف الذي ينبئنا بأن المتنبي زعم أن قرآنًا أُنزل عليه، وبأن بعض الناس قد حفظ هَذَا القرآن، فقد قيل مثل هَذَا عَنْ أبي العلاء، وروى بعض قرآنه الموهوم، وما ينبغي أن نجهل أنَّ الرأي العام فِي أوساط الشام وفي حمص خاصة كان خصمًا لأبي الطيب حين سجن، وأنَّ أبا الطيب بعد خروجه من السجن كان لا يكاد يستقر فِي مكان، حَتَّى يثير حول نفسه الحسد والبغض وألوان الخصومات، وحتى يدع هَذَا المكان

مغاضبًا لأهله أو هاربًا منهم: هرب من بدر بن عمار، وخرج من حلب مغاضبًا لسيف الدولة، وهرب من كافور، ولم يستطع أن يطيل الإقامة فِي بغداد حين عاد إلى العراق، بل تعرض فيها لسخط رجال السياسة والأدب معًا، ثم لم تخل إقامته عند عضد الدولة من خوفٍ وإشفاق، ثم لم يكد يصدر عَنْ عضد الدولة حَتَّى قتل فِي طريقه، ومن قبل ذلك فر من الكوفة فِي صباه، وخرج من بغداد خائفًا يترقب، ولم يستطع أن يدخل الكوفة ليرى جدَّته قبل أن تموت، فهو قد غاضب الناس جميعًا، وألب الدولة الإسلامية كلها على نفسه، فأي غرابة فِي أن يكبر من أمره ما صغر، ويعظم من شأنه ما هان!

ونحن نرى فِي هذه الأيام التي سهل فيها البحث والتقصي، وروقبت فيها الإذاعة ونشر الدعوة، ووُضعت فيها القوانين الصارمة لعقاب الذين يسبون الناس ويقذفونهم ويقولون فيهم غير الحق، ويحملونهم ما لم يحتملوا، ويضيفون إليهم ما لم يقولوا — نحن نرى فِي هذه الأيام كيف يُتهم الناس بما لم يقترفوا من الذنوب وكيف يحمل عليهم ما لم يحتملوا من الآثام، فكيف بعصر كعصر المتنبي، لم يعرف فيه مثل ما نعرف من النظام! على أن فِي هذه الأساطير التي نُسجت حول سجن أبي الطيب فكاهة ما أحسب أن لها أصلًا واقعًا، ولكنها مع ذلك رمزٌ صادق دقيق لهذا الطور من تفكير المتنبي وسيرته فِي الوقت الذي دُفع فيه إلى السجن.

فقد يقال: إنَّ أبا الطيب كان يزعم لبعض أتباعه أنَّ الحديث الذي كان يروى عَنْ النبي ﷺ ويقال فِي آخره: «غير أنه لا نبيَّ بعدي» إنما يجب أن يقرأ برفع النبي، على أنه خبر لمبتدأ هُوَ «لا»، وأنَّ المتنبي كان يسمي نفسه «لا»، فهذا تكلف رجل من النحويين أراد العبث والتندر، ولكن هَذَا الاسم المشتق من النفي الخالص الشامل، أشد الأسماء ملاءمة لحياة المتنبي العقلية والعملية فِي ذلك الوقت، فهو كان ينفي كل شيء: كان ينفي الدين والسلطان والنظام والناس، ولم يكن يثبت إلا نفسه، لم يكن قرمطيًّا فحسب، بل كان كذلك داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها.

وما أرى إلا أن الذين ألقوه فِي السجن قد أحسنوا إليه؛ لأنهم كفكفوا من غلوائه، وردوه عَنْ بعض هَذَا الجموح، واضطروه إلى أن يهدأ ويطمئن، ويفكر ويتدبر ويستقبل أمره فِي أناة واطمئنان.

(١١) شعره في السجن

ولم يحفظ لنا من شعر المتنبي منذ أخذ إلى أن أخرج من السجن إلا أقله، وهو شيء يسير جدًّا، والمحقق أن فتى كأبي الطيب غزير المادة، شديد الانفعال، قليل الصبر على ما يكره، أنشد شعرًا كثيرًا أثناء هذه المحنة، ولكنه لم يثبته ولم يحرص على أن يرويه للناس، فقد كان هَذَا الشعر قسمين: قسمٌ قاله المتنبي قبل أن تهدأ ثورته، ولم يكن من مصلحته أن يستبقيه أو يذيعه بعد أن تاب وجحد ماضيه، وقسم قاله بعد أن أحس الألم والذلة، وتاقت نفسه إلى الحرية، ولم يكن مما يلائم كبرياءه وكرامته أن يثبت هَذَا الشعر أو يذيع منه إلا أيسره وأهونه.

ومع ذلك فقد بقيت لنا نماذج من هذين النوعين، فأما النوع الأول فقد بقي لنا منه نموذجان:

أحدهما: هجاؤه للهاشمي الذي قيده وأسلمه إلى جند السلطان، وهو قوله:

زَعَمَ المُقِيمُ بِكُوتَكِينَ بِأَنهُ ... مِنْ آلِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ
فَأَجَبْتُهُ مُذْ صِرْتَ مِنْ أَبْنَائِهم ... صَارَتْ قُيُودُهُمُ مِنَ الصَّفْصَافِ

فالشاعر فِي هذين البيتين، كما ترى، يسخر من هَذَا الذي أسلمه وقيده سخرية لاذعة تدل على أنه مَا زَالَ من حدة الثورة بحيث لا يستطيع أن يقدر بشاعة ما هُوَ مقبلٌ عليه.

والنموذج الآخر: هذه الأبيات التي قالها لرجل يعرف بأبي دُلَف، برَّه فِي السجن وكان يغري به السلطان، وهي:

أَهْوِنْ بِطُولِ الثَّوَاءِ وَالتَّلَفِ ... وَالسِّجْنِ وَالقَيْدِ يَا أَبَا دُلَفِ
غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بِي ... وَالْجُوعُ يُرْضِي الْأُسُودَ بِالجِيَفِ
كُنْ أَيُّهَا السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ فَقَدْ ... وَطَّنْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ
لَوْ كَانَ سُكْنَايَ فِيكَ مَنْقَصَةً ... لَمْ يَكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدَفِ

ويجب أن يكون المتنبي قد قال هذه الأبيات قبل أن يطول عهده بالسجن، فهو مَا زَالَ متحفظًا بكبريائه، ولعله كان لا يزال محتفظًا بآرائه، معتزًّا بها، موطنًا نفسه على

الموت فِي سبيلها «ولكن السجن طال عليه وثقل، وأحاطت به الآلام والهموم وكاد ييأس، ثم أدركته العلة فتعرض للهلاك، والله يجعل للناس من كل حرج فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا.

فهذا لؤلؤ الغوري والي الإخشيد على حمص يُستدعى من ولايته، وهذا إسحاق بن كيغلغ يُرَدُّ إلى حمص واليًا بعد أن كان قد عُزل عنها، وهذا فتانا اليائس يستشعر شيئًا من الرجاء، ويأخذ فِي التوسل والاستعطاف والمدح، ولدينا من هَذَا الشعر نماذج ثلاثة: أولها هذه المقطوعة البائية التي لا يزيد فيها المتنبي على الاستعطاف والتوبة، وهي:

بِيَدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ — لَا لِشَيءٍ إِلَّا لِأَنِّي غَرِيبُ
أَوْ لأُمٍّ لَهَا إِذَا ذَكَرَتْنِي — دَمُ قَلْبٍ بِدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ
إِنْ أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتُكَ أَخْطَأْ — تُ فَإِنِّي عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
عَائِبٌ عَابَنِي لَدَيْكَ وَمِنْهُ — خُلِقَت فِي ذَوِي الْعُيُوبِ الْعُيُوبُ

فهو كما ترى ذليل مستكين، يذكر غربته وَجدَّته النائية، ويتوب من خطأ إنْ كان قد تورط فيه، وينكر هَذَا الخطأ.

وهذا البيت الأخير واضح فِي أنه لم يؤخذ متلبسًا بالجريمة، كما يقول رجال القانون، أو لم يؤخذ ثائرًا ثورة مادية، وإنما سعى به ساع فنقل إلى السلطان ما كان يقول من الشعر.

وكأن الأمير أعرض عنه أو أبطأ فِي الاستجابة له فاستعطفه بالدالية المشهورة:

أَيَا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الْخُدُودِ — وَقَدَّ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودِ

وهو فِي هذه القصيدة ناسِب، مادح، شاكٍ، مستعطِف، ولكني لا أقف منها إلا عند الأبيات الأخيرة التي يدافع الشَّاعِر فيها عَنْ نفسه، وينكر ما اتهم به من الخروج على السلطان، ويعترف بأنه هَمَّ ولم يفعل، ويزعم للسلطان أن لا عقاب على الإرادة، وإنما العقاب على الفعل:

تُعَجِّلُ فِي وُجُوبَ الْحُدُودِ — وَحَدِّي قُبَيْلَ وُجُوبِ السُّجُودِ

والشاعر هنا مبالغ يزعم أنه لم يبلغ الحلم، ولم يستوجب الحد، مع أن من المحقق أنه كان فِي الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين.

وَقِيلَ عَدَوْتَ عَلَى الْعَالَمِينَ بَيْنَ وِلَادِي وَبَيْنَ الْقُعُودِ
فَمَا لَكَ تَقْبَلُ زُورَ الْكَلَامِ وَقَدْرُ الشَّهَادَةِ قَدْرُ الشُّهُودِ
فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ وَلَا تَعْبَأَنَّ بِمَحْكِ الْيَهُودِ

وماحكُ اليهود هَذَا عندي هُوَ كما قدَّمت ذلك الذي كان ينافس التنوخيين العرب، ويسعى بينهم بالبغضاء، والذي ذمه المتنبي حين مدح التنوخيين، ونفى أن يكون بعضهم قد شمت ببعض.

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى أَرَدْتُ وَدَعْوَى فَعَلْتُ بِشَأْوٍ بَعِيدِ

والشاعر فِي هذه القصيدة كما هُوَ فِي الأبيات السابقة ذليل ضارع مستعطف، ولكنه منكر للذنب الذي يحمل عليه أشد الإنكار.

وقد سمع الأمير له هذه المرة، ولعله سمع لبعض الشافعين فيه، ولعله أراد أن ينقذ سجينًا حبسه سلفه، فجمع له فيما يقال جماعة من أصحاب الجاه والشرف والدين واستتابه، فتاب وأشهد على نفسه أنه جحد ما كان من أمره وعاد إلى سبيل المسلمين.

ويظهر أنَّ عفو هَذَا الأمير التركي عَنْ المتنبي الشاب الذي نَهَكه السجن وأضناه، قد ملأ قلب الفتى سرورًا ورضا، وأثار فِي نفسه الأمل أيضًا، فمدحه بالرائية التي يقول فِي أولها:

حَاشَى الرَّقِيبَ فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُهُ وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانْهَلَّتْ بَوَادِرُهُ

ولعله كان يرجو أن ينال بهذه القصيدة وأمثالها حظوة عند الأمير، ما دام قد نال بالقصيدة الدالية عطف الأمير وعفوه، ولكن الأمير أبى أن يستقبله أو يسمع منه، وتقدم إِلَيْهِ فِي أن يترك الإقليم قانعًا بسلامته وحياته، فخرج يستقبل حياة جديدة ليست أقل من حياته الأولى بؤسًا وضنكًا وشقاء وبيعًا للشعر فِي سوق الكساد.

(١٢) شعره بعد خروجه من السجن

ليست أقل من حياته الأولى بؤسًا، ولكنها تخالف حياته الأولى ﻓِﻲ جوهرها، فقد كان ﻓِﻲ حياته الأولى شقيًّا بالأمل، وهو ﻓِﻲ حياته الثانية شقي باليأس، وقد كان ﻓِﻲ حياته الأولى يتحرق شوقًا إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال، وهو ﻓِﻲ حياته الثانية يؤثر العافية وما يكاد يظفر بها، ويبتغي الراحة وما يكاد ينتهي إليها، وقد كان ﻓِﻲ حياته الأولى شديد الثقة بنفسه، عظيم الإيمان بعزمه، وهو ﻓِﻲ حياته الثانية شاكٌّ ﻓِﻲ نفسه أشد الشك، قانط من عزمه أشنع القنوط، وقد كان ﻓِﻲ حياته الأولى ساخطًا على ماضيه، متبرِّمًا بحاضره، طامعًا ﻓِﻲ مستقبل باسم فيه الرضا وتحقيق الآمال، وهو ﻓِﻲ هذه الحياة الثانية نادِم على ماضيه الذي جحده، ملتاع على مستقبله الذي يئس منه، ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق، ولا ينبغي أن تظن بي الإطناب والإسهاب والإلحاح فيما لا يحتاج إلى إلحاح، والإطالة فيما لا ينبغي الإطالة فيه؛ فإن هذه الحالة النفسية أبلغ الأحوال تأثيرًا ﻓِﻲ نفس الشَّاعِر الحساس، وأشدها إنضاجًا لهذه النفس، وهي من غير شك أخصب الأحوال التي تمر بنفس الشاعر؛ لأنها تنضجها وتشد أزرها، وتعلمها احتمال المكروه، وتعلمها كذلك تذوق الألم والتفريق بين أنواعه المختلفة، واستعذابه مهما يكن ممضًّا، وتهيئة الشَّاعِر الصحيح للنبوغ الصحيح.

ولكنها تفعل هَذَا كله سرًّا ومن وراء حجاب، تعمل ﻓِﻲ النفس الخفية أكثر مما تعمل ﻓِﻲ النفس الظاهرة، وتؤثر ﻓِﻲ الضمير أكثر مما تؤثر فيما يشهد الشَّاعِر من أمر عقله وقلبه وملكاته المختلفة. حَتَّى إذا آن الأوان وسنحت الفرصة، وتهيأت الظروف، ظهرت الآثار القيمة الخصبة لما يلقى الشَّاعِر من الألم والسقم والضيق.

ومهما يكن من شيء فإن المتنبي كان ﻓِﻲ شغل عَنْ ضميره وسريرة نفسه ودخيلة قلبه، حين خرج من السجن، واضطر إلى مغادرة الإقليم، بهذه المصاعب العاجلة السخيفة التي تعترض فتًى يائسًا بائسًا قد حُرِم العون وفَقدَ الصديق، ونظر فإذا هُوَ وحيد ﻓِﻲ الحياة ليس له من يفكر فيه أو يرثي له أو يعطف عليه، إلا جدَّته تلك المقيمة ﻓِﻲ الكوفة، والتي انقطعت بينها وبينه الأسباب.

وهذه المصاعب التي تعترض له ليست مصاعب معنوية تأتيه من العزلة والوحدة، ومن افتقاد الصديق فحسب، ولكنها مصاعب مادية أيضًا، وهي أشد ما يلقى الشَّاعِر من المصاعب سخفًا وأبلغها ﻓِﻲ نفسه أثرًا.

فهو غريبٌ مشرد، لا يكاد يستقر ﻓِﻲ مكان ﺣَﺘﱠﻰ يزعجه عنه الخوف والفزع، وهو فقير معدم لا يجد ما يُرضي به حاجة جسمه إلى الطعام والشراب واللباس، فضلًا عما يستعين به على الفراغ الذي يمكنه من أن يرضي حاجة عقله وقلبه وعواطفه، ويستقبل الفتى أمره مفكرًا متدبرًا، فإذا ﻫُﻮَ مضطر قبل كل شيء إلى أن يرحل ﻋَﻦْ هذه الأرض التي لا مقام له فيها: أرض الإخشيديين؛ فهو لا يستطيع أن يقيم ﻓِﻲ حمص وما يجاورها من البلاد، وهو لا يستطيع أن يعود إلى اللاذقية إشفاقًا على أهلها وإشفاقًا منهم، وهو لا يستطيع أن يعود إلى طبرية التي خرج منها مغاضبًا لأهلها، ذامًّا لهم ﻓِﻲ شعر قد سارت به الركبان، وهو لا يستطيع أن يدنو من مركز السلطان الإخشيدي بعد أن نفته أطراف ﻫَﺬَا السلطان، فليس له بد إذن من أن يعود إلى شمال الشام، ﻫَﺬَا الذي كرهه وضاق به وفرَّ منه حريصًا على ألَّا يعود إليه.

وهو يعود إلى شمال الشام ليصنع فيه ماذا؟ ليستأنف فيه تلك البغيضة التي سئمها، وظن أنه قد خلص منها، حياة التكسب بالشعر عند قوم لا يُقدِّرون الشعر ولا يذوقون له طعمًا، وعند قوم لا يقدرهم ﻫُﻮَ ولا يذوق لهم طعمًا، وإنما يحتقرهم ويزدريهم أشد الاحتقار وأعظم الازدراء.

ليته يستطيع أن يجاوز شمال الشام ﻫَﺬَا إلى العراق، ليستأنف الحياة ﻓِﻲ الكوفة حيث جدته وموطنه، أو ﻓِﻲ بغداد حيث الحياة العقلية الخصبة التي تبعث الخصب ﻓِﻲ العقول والقلوب، ولكن من له بالعراق وقد تقطعت بينه وبين العراق الأسباب! وفيم يعود إلى الكوفة بائسًا معدمًا وقد خرج منها يبتغي الأمل والغنى! وفيم يعود إلى بغداد وقد أعجله الأمل والتماس الغنى ﻋَﻦْ الإقامة ﻓِﻲ بغداد! ليقصد إذن إلى شمال الشام، وليستأنف فيه حياته البائسة المضطربة، ولينتظر فيه ما قد تتكشف عنه الأيام؛ فالحياة ﻓِﻲ ﻫَﺬَا العصر بعيدة كل البعد ﻋَﻦْ الاستقامة والاطراد، ومن يدري! لعله يظفر ﻓِﻲ شمال الشام بما لم يظفر به من قبل، ومن يدري لعل الأمور أن تتغير، وإذا ﻫُﻮَ يعود إلى أرض الإخشيد وقد زال عنها ملك الإخشيد.

ولسنا نستطيع أن نوقت الشعر الذي قاله المتنبي ﻓِﻲ ﻫَﺬَا الطور المظلم من أطوار حياته، ولكنا نستطيع على كل حال أنْ نسلك ﻓِﻲ توقيته طريقًا كالتي سلكناها ﻓِﻲ توقيت ما قال من الشعر ﻓِﻲ الطور الذي سبق ما ألمَّ به من الكارثة، فطبيعة الأشياء تقضي بأن يكون الشَّاعِر قد انتفع بالتجربة، وتعلَّم الحذر والاحتياط، أو عاد إلى ما كان يألف من الحذر والاحتياط، وطبيعة الأشياء تقضي بأن يُخفِي الشَّاعِر ما ألم به من مكروه،

وما أدركه من خيبة، وما تعرض له من خطر، وإذن فلن يجهر بقرمطيته وقد رأى ما جرته القرمطية عليه من شر، وإذن فلن يسرف فِي وصف بأسه وشجاعته ونجدته بعد هذه الخيبة التي بلا مرارتها، وإذن فلن يلم بالبادية ولن يمدح أهلها، بعد أن ذاق من البادية وأهلها ما ذاق، ولكنه على كل حال شاعر قد امتُحن فِي نفسه وفنه وأمله، وهو مهما يتكلف من الاحتياط، عاجز عَنْ أن يُخفي ما تركه هَذَا كله فِي نفسه من المرارة.

وليس بشاعر إذا لم يستطع أن يشكو ما قاسى ويتغنى ما وجد دون أن يفضح سره، أو يعلن حقيقة أمره إلى الناس، وإذن فيمتاز شعر الخيبة هَذَا بكثيرٍ جدًّا من الاعتدال فِي الأمل، والرضا بالقليل، والاقتصاد فِي وصف الحرب أو فِي وصف نفسه خائضًا غمار الحرب، وتجنب القرمطية العملية والعقلية، ثم سيمتاز بهذا الحزن المظلم الذي لا نكاد نحققه ولا نشخصه، ولكننا نحسه مع ذلك غامضًا ظاهرًا مكتومًا مكظومًا، وهو مع هَذَا منبعث فِي شعره وفي مقدمات قصائده خاصة، والشاعر يستطيع أن يشكو الزمان ومصائب الدهر، ونوائب الحدثان، ولؤم الناس، وما أفسد أخلاقهم من المكر والغدر، ومن الجبن والنفاق، ففي هَذَا كله منفذ لهذا الهم الذي يغلي فِي صدره، ولهذا الحزن الذي يمزق قلبه تمزيقًا.

واقرأ معي هذه الأبيات التي قالها حين مر بقنِّسرين فسمع زئير الأسد، والتي لا تخلو من تأثر بما سبق إِلَيْهِ الشعراء القدماء، ولا سيما امرؤ القيس[20] والفرزدق[21] من مناجاة الذئاب والأسود:

---

[20] انظر قوله فِي المعلقة:

وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذئْبُ يَعْوِي كالخَلِيْعِ الْمُعَيَّلِ

وما يليه.

[21] انظر نونيته المشهورة التي يقول فيها:

تَعَالَ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونني نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْب يَصْطَحِبَانِ

وانظر قصته حين هرب من زياد وقصد إلى الحجاز.
(نقائض جرير والفرزدق ص٦٠٨ وما يليها — طبع ليدن).

أَجَارُكِ يَا أُسْدَ الفَرَادِيسِ مُكْرَمُ   فَتَسْكُنَ نَفْسِي أَمْ مُهَانٌ فَمُسْلَمُ
وَرَائِـي وَقُدَّامِـي عُـدَاةٌ كَـثِـيرَةٌ   أُحَاذِرُ مِنْ لِصٍّ وَمِنْكِ وَمِنْهُمُ
فَهَلْ لَكِ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ   فَإِنِّي بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ
إذن لَأَتَاكِ الرِّزْقُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ   وَأَثْرَيْتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وَأَغْنَمُ

فهل أحسست فِي البيت الثاني ما أحسه أنا من امتلاء قلب الشَّاعِر بالوحدة والعزلة والفراغ، إنْ صح أنْ تمتلئ القلوب بهذه الأشياء؟ وهل رأيت الفتى كما أراه فِي هَذَا البيت وحيدًا شريدًا فِي فضاء الأرض الواسع، وقد أطبقت عليه ظلمة الليل العريض، وقد انصرف الفتى عَنْ عدو وهو مقبل على عدو وهو يسمع زئير الأسد ويكاد يسمع قُطَّاع الطريق، ويكاد يرى أشخاص هؤلاء اللصوص الذين يأخذون السبيل على المجتمعين، فكيف بهذا الشريد الطريد؟ وهل أحسست فِي هذين البيتين الأخيرين ما أحسه أنا من هَذَا الندم اللاذع والحسرة الممضَّة، ومن حزن الفتى؛ لأنه لم يجد بين الناس من يعينه على تحقيق آماله، فإذا هُوَ يود لو وجده بين هذه الأسود الزائرة الكاسرة؟ أسمعت الأسود لغناء هَذَا الحزن؟ لست أدري، ولكن المحقق أنها لم تحفل به، ولم تستجب له، ولم تمضِ بينها وبينه هَذَا الحلف الذي كان يتمناه عليها. وحسبه أنها قد تركت له طريقة لم تعرض له ولم تعتد عليه.

والشاعر ينتهي إلى شمال الشام، فيقيم فِي حلب إقامة غير آمن ولا مطمئن؛ لأن حلب فِي ذلك الوقت كانت موضع النزاع بين الإخشيديين والعباسيين، فيرحل عنها إلى أنطاكية، وهناك يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس، ولعل من خير ما قال فِي أنطاكية، هاتين القصيدتين اللتين مدح بهما المغيث بن عليّ العجلي، واللتين أراهما من شعره بعد الكارثة خلافًا لما يرى الأستاذ بلاشير.

يقول المتنبي فِي مطلع القصيدة الأولى:

دَمْعٌ جَرَى فَقَضَى فِي الرَّبْعِ مَا وَجَبَا   لِأَهْـلِـهِ وَشَـفَـى أَنَّـى وَلَا كَـرَبَـا

ويقول فِي آخرها وهو يصور ما بقي فِي نفس الشَّاعِر من حقد وحفيظة وغيظ لم يخمدْ بعدُ:

لَمَّا أَقَمْتَ بأنطاكيَّة اخْتَلَفَتْ ... إِلَيَّ بِالخَبَرِ الرُّكْبَانُ فِي حَلَبَا
فَسِرْتُ نَحْوكَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ ... أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ الْفَقْرَ وَالْأَدَبَا
أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا ... لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحَرْبَ وَالِدَةً ... وَالسَّمْهَرِيَّ أَخًا وَالْمَشْرَفِيَّ أَبَا
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا ... حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرَبَا
قُحٍّ يَكَادُ صَهِيلُ الْخَيْلِ يَقْذِفُهُ ... عَنْ سَرْجِهِ مَرَحًا بِالْعِزِّ أَوْ طَرَبَا
فَالمَوْتُ أَعْذَرُ لِي وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِي ... وَالْبرُّ أَوْسَعُ وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

أما القصيدة الأخرى، فالقسم الأول منها أبلغ ما صور به المتنبي فِي هَذَا الطور من حياته رأيه فِي الزمان والناس، وسخطه على الحياة والأحياء، ولابد من رواية هَذَا القسم كله؛ لأنه يُغني عَنْ كل شرح أو تفسير:

فُؤادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدامُ ... وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ
وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمُ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
أَرَانِبُ غَيْرَ أَنَّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ
بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ الْقَتْلُ فِيهَا ... وَمَا أَقْرَانُهَا إِلَّا الطَّعَامُ
وَخَيْلٍ لَا يَخِرُّ لَهَا طَعِينٌ ... كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسِهَا ثُمَامُ
خَلِيلُكَ أَنْتَ لَا مَنْ قُلْتَ خِلِّي ... وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلَامُ
وَلَوَ حِيزَ الْحِفاظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ ... تَجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الْحُسَامُ
وَشِبْهُ الشَّيءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ ... وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ
وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلَّا ذُو مَحَلٍّ ... تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ
وَلَوْ لَمْ يَرْعَ إِلَّا مُسْتَحِقٌّ ... لِرُتْبَتِهِ أَسَامَهُمُ الْمُسَامُ
وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ... ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامُ
إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السُّكْرَ وَالشَّيْـ ... ـبُ هَمًّا فَالْحَيَاةُ هِيَ الْحِمَامُ

وَمَـا كُـلٌّ بِـمَـعْـذُورٍ بِـبُـخْـلٍ وَلَا كُـلٌّ عَـلَـى بُـخْـلٍ يُـلَامُ
وَلَم أرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَامُ
بِأَرْضٍ مَا اشْتَهَيْتَ رَأَيْتَ فِيهَا فَلَيْسَ يَفُوتُهَا إِلَّا الْكِرَامُ
فَهَلَّا كَانَ نَقْصُ الأَهْلِ فِيهَا وَكَانَ لِأَهْلِهَا مِنْهَا التَّمَامُ

وتستطيع أن تُلحق بهذه القصيدة قصيدة أخرى تشبهها فِي الحزن والمرارة وشكوى الزمان، وهي عندي من شعر هَذَا الطور، وإن خيَّل الديوان وظن كثير من الناس أنها متأخرة قيلت بعد انصراف الشَّاعِر عَنْ بدر بن عمار، وهي القصيدة التي يمدح بها أبا عبد الله محمد بن عبيد الله بن محمد الخطيب الخصيبيَّ، وهو يومئذ يتقلد القضاء بأنطاكية، وأولها:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وكذلك القصيدة المشهورة التي يمدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي، والتي أولها:

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي القُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

والأخرى التي يمدح بها أخاه أبا سهل سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي، وأولها:

قَدْ عَلَّمَ البَيْنُ مِنَّا البَيْنَ أَجْفَانَا تَدْمَى وَأَلَّفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

والقصيدة التي يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران، وأولها:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

ومن هَذَا الشعر أَيْضًا فائيته التي يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي والتي مطلعها:

لِجِنِّيَّةٍ أَمْ غَادَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ   لِوَحْشِيَّةٍ لَا مَا لِوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ

والبائية التي يمدح بها علي بن منصور الحاجب، ويقول فِي أولها:

بِأَبِي الشُّمُوسُ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا   اللَّابِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِبَا

والأخرى التي يمدح بها عمر بن سليمان الشرابيَّ، ويقول فيها:

نَرَى عِظَمًا بِالبَيْنِ وَالصَّدُّ أَعْظَمُ   وَنَتَّهِمُ الْوَاشِينَ وَالدَّمْعُ مِنْهُمُ

والتي يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب، وأولها:

أَرَكَائِبَ الْأَحْبَابِ إِنَّ الْأَدْمُعَا   تَطِسُ الْخُدُودَ كَمَا تَطِسْنَ اليَرْمَعَا

وأنت تستطيع أن تقرأ هَذَا الشعر كله فستجد فِي قراءته من السأم والملل شيئًا كثيرًا، يلائم ما كان فِي نفس الشَّاعِر من السأم والملل حين كان ينشئه وينشده، فهو مدح متصل متشابه معاد، لا تجديد فيه ولا تغير، ولا صدق فيه ولا إخلاص، إنما هُوَ شعر يباع، ويجهد الشَّاعِر فِي تزيين سلعته وتحسينها، فيبلغ من ذلك بعض ما يريد حينًا، ويعجز عنه فِي أكثر الأحيان.

وربما قسم الشَّاعِر القصيدة بينه وبين ممدوحه قسمة عدلًا أو قسمة فيها شيء من الجور، فاتخذ لنفسه الشطر الأول يشكو فيه، ويذم الزمان والناس صراحة، أو يرمز فيه بالغزل والنسيب إلى هذه الشكوى المرة المتصلة.

والحق أنَّ شعر أبي الطيب لم يكد يرقى فِي هذه الأعوام التي جاءت بعد خروجه من السجن إلا قليلًا، فقد استوثق الشَّاعِر من صناعته لكثرة المرانة، واستطاع أنْ يذل الألفاظ، وإنْ عجز عَنْ أنْ يستذل المعاني وقد أحسن التفكير فِي الدهر وصروفه، واستطاع أنْ يزن الأمور وزنًا حسنًا، وأنْ يسند تشاؤمه القديم إلى العقل والتجربة والاختبار، وأن يأتي فِي ذلك بنغمات قوية مشجية باقية عامة، تبلغ قلوب الناس جميعًا، فتثير فيها

الحزن، وقد تنتهي بها إلى القنوط، ولكن الشَّاعِر آخر الأمر لم يضف إلى فنه القديم شيئًا فضلًا عَنْ أن يضيف إلى الشعر لونًا لم يسبقه إِلَيْهِ غيره من الشعراء الذين تقدموه، لا من حيث الألفاظ والمعاني والأساليب ولا من حيث الأوزان والقوافي والموسيقى، إنما هُوَ شاعر مقلد، ينهج نهج المتقدمين، ونهج أبي تمام منهم خاصة، فإذا ظهرت شخصيته من حين إلى حين، فإنما تظهر فِي أوقات العنف الذي ليس بعده عنف، أو فِي أوقات الحزن الذي ليس وراءه حزن، فما الذي كان ينقص هَذَا الفتى ليبلغ ما هُوَ أهل له من التفوق الذي لا يحتمل شكًّا، والنبوغ الذي لا يتعرض لخلاف؟ كان ينقصه فيما أرى شيئان:

أحدهما: حياة راضية تشحذ العزم وتحيي الأمل، وقد رأينا أنَّ شعره وثب وثبة بعيدةً حين انتهى إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين، فضمن لين العيش ورجا تحقيق الأمل، فقال فِي هَذَا الوقت أجمل ما قال من الشعر بين صباه وبين الخامسة والعشرين.

والآخر: بيئة مثقفة، قوية الثقافة، رشيدة بصيرة بالأدب قادرة على النقد، عالمة بألوان الكلام، وهذه البيئة لم تتح للمتنبي أثناء إقامته الأولى والثانية فِي شمال الشام، ولعلها لم تتح له أَيْضًا أثناء إقامته فِي أواسط الشام، ولعله استغنى عنها وقتًا ما بكثرة ما كان يقرأ من الكتب ويستظهر من علم القدماء وأدبهم، ولكنه كان على كل حال ناقد نفسه وناصحها ومرشدها، وكان فِي حاجة إلى أن يأتيه النقد والنصح والإرشاد من قوم غيره يقدرهم ويحسب لهم فِي الأدب حسابًا.

ولم يكن للبيئة العربية فِي الشام ذلك الوقت حظ ممتاز من الثقافة الأدبية والعلمية وأكبر الظن أنَّ هذه البيئة كانت تنقسم قسمين: أحدهما بدوي، وهو إلى الجهل والغلظة أقرب منه إلى الثقافة واللين، والآخر حضري، وهو ليِّن العيش، ولكنه غليظ العقل، قليل الحظ جدًّا من العلم.

وإنما كان المتنبي محتاجًا إلى البيئة المصرية التي نشأ فيها فن أبي تمام، وإلى الشعر الإسلامي منذ العصر الأموي إلى أواخر القرن الثالث.

وقد ظهر فِي الشام شاعرٌ كأبي تمام، ولكنك علمت أنَّ شعره نشأ فِي مصر ونضج فِي العراق، وظهر فِي الشام شاعر كالبحتري، ولكنك تعلم أنَّ الذي أنضج شعر البحتري، إنما هُوَ اتصاله بأبي تمام، ثم ارتحاله إلى العراق.

فأما المتنبي فقد نشأ شعره فِي العراق، وحاول أن ينضج فِي الشام فأدركه البطء، ودبَّ إِلَيْهِ كثير من الفساد، وظهر فيه تكلف يمقته الذوق العربي الصريح، ولا نجده

حَتَّى عند أشد الشعراء تكلفًا، وهو أبو تمام؛ ذلك لأن المتنبي قد نشأ فِي غير مدرسة، وتعلَّم فِي غير معلم، ولم يأخذ ثقافته وأدبه عَنْ الأساتذة والنقاد، وإنما أخذها عَنْ الكتب والصحف، وكان ينشد الجهال وأشباه الجهال، فيسمع منهم إعجابًا كثيرًا مصدره الجهل، ويأخذ منهم مالًا قليلًا مصدره البخل، فيشتد إعجابه بنفسه لما يسمع من الثناء وما يرى من الإعجاب، ويشتد حنقه على الناس لما يرى من البخل وما يقاسي من الحرمان.

وأنا أعلم أنَّ اضطراب الخلافة فِي بغداد، وتسلط الترك على الدولة قد غض من أمر الشعر وقصر من همم الشعراء، وأنَّ بغداد لم تكن فِي القرن الرابع غنية بالشعراء المجيدين — كما كانت فِي القرن الثالث والثاني — ولكني أعلم مع ذلك أنَّ بغداد خاصة وأمصار العراق عامة كانت لا تزال قلب الدولة من الناحية الأدبية، إن كان ذلك قد أخطأها من الناحية السياسية.

ولست أشك فِي أنَّ المتنبي لو قام فِي العراق وجْه حياته لأسرع إلى النبوغ، ولاتخذ شعره لونًا آخر، ولبرئ من كثير من العيوب التي أنكرت عليه، ولاجتنب كثيرًا من فساد اللفظ، ولارتفع عَنْ هذه المبالغات السخيفة التي سيعاب شعره بها آخر الدهر، والأمر لا يقف عند المتنبي وحده، فقد أصبح المتنبي كما تعلم إمامًا للشعراء، فأخذ الناس عنه فنه بما فيه من خير وشر، وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه فِي الشام مصدرًا لكثير من الضعف الذي ألم بشعره هو، ثم بشعر الذين قلدوه.

ومهما يكن من شيء فقد استقبل المتنبي الخامسة والعشرين من عمره، وهو مضطرب فِي شمال الشام، يبيع شعره بيع الكساد كما يقول، ولكنه على كل حال قد عرف كيف يصبر ويحتمل، وكأن الزمان الذي كان المتنبي يذمه ويشكو منه قد رحمه ورق له، وأراد أن يرفه عليه شيئًا، وأن يتيح لفنه فرصة يثب فيها إلى الأمام.

فِي هَذَا الوقت اضطرب الأمر بين العباسيين والإخشيديين، وأقبل ابن رائق على قسمٍ عظيم من سوريا الجنوبية، وجعل ابن رائق على حربه فِي طبرية بدر بن عمارٍ الأسدي، وهناك عاد إلى المتنبي شيء من الأمل ورغب فِي أن يعود إلى تلك الأرض التي لم يكن له فيها بعد زلته تلك، فترك شمال الشام وانتهى إلى طبرية واتصل ببدر بن عمار، وعند بدر بن عمار وجد الأمرين اللذين كان يحتاج إليهما: وجد الحياة اللينة الهادئة، ووجد البيئة المثقفة الناقدة، فلم يلبث أن أحس أثر الأمرين جميعًا، وإن وثب فنه فِي أشهر قليلة، فبلغ من الرقيِّ ما لم يبلغ بعضه فِي الأعوام الثلاثة أو الأربعة التي أقامها فِي شمال الشام.

الكتاب الثاني

في ظل الأمراء

(١) مع الأوراجي

ولم يتصل المتنبي ببدر مباشرة ولا فجأة أول الأمر، وإنما سعى فِي ذلك وجدَّ وابتغى إِلَيْهِ الوسيلة فيما يظهر لي، والديوان لا ينبئنا فِي صراحة، والرواة لا ينبئوننا كذلك كيف سعى إلى بدر، وكيف انتهى إليه، ولكن قصيدة فِي الديوان لا يعرف تاريخها توشك أن تدلنا على ما نحتاج إِلَيْهِ من ذلك، وهي هذه الهمزية التي مدح بها أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب الذي كان يذهب — فيما يقول الديوان وكما سنرى من القصيدة — مذهب التصوف، والذي كان له شأن قبل ذلك فِي قصة الحلاج، فقد يخيل إليَّ، بل أكاد أرجح أَنَّ المتنبي اتخذ هَذَا الرجل وسيلة إلى بدر بن عمار، ومن يدري! لعله كان يريد أن يتخذ بدر بن عمار وسيلة إلى مولاه ابن رائق، وأَنْ يتخذ ابن رائق نفسه وسيلة إلى قصر الخلافة فِي بغداد، ولكن الأسباب تقطعت به ولما يبلغ من ذلك إلا بعض ما كان يريد.

هذه القصيدة تنبئنا بأن الشَّاعِر قد أقبل يمدح أبا علي الأوراجي من بعيد، وقد جاز إِلَيْهِ جبال لبنان فِي شيء غير قليل من المشقة والجهد، فأكبر الظن أَنَّ الأوراجي هَذَا كان فِي ذلك الوقت متصلًا بعمل من أعمال ابن رائق قريبًا من بدر فِي طبرية أو بعيدًا عنه بعض الشيء فِي دمشق.

فأقبل المتنبي من شمال الشام إلى جنوبها بعد أن جلت عنه جنود الإخشيد، حَتَّى انتهى إلى صاحبه هَذَا فمدحه بقصيدتين.

إحداهما هذه الهمزية التي يجب أن نقف عندها وقفة قصيرة، والأخرى أرجوزة طردية على نحو أراجيز أبي نُوَاس قالها مستجيبًا لممدوحه حين طلب إِلَيْهِ ذلك، وأثبتها

فِي الديوان مفاخرًا بها، ومفاخرًا بأنه قد قالها فِي سرعة توشك أن تكون ارتجالًا، وقد نتحدث عنها فِي غير هَذَا الموضع من هذه الفصول.

وللهمزية التي نحن بإزائها فيما أرى مكانة خاصة من شعر المتنبي، فهي القصيدة الوحيدة التي يعمد فيها الشَّاعِر إلى المذهب الرمزي ليرضي ممدوحه الذي كان يذهب مذهب التصوف، وهي من هذه الجهة قيمة؛ لأنها تبين عَنْ علم المتنبي، فِي الخامسة والعشرين من عمره، بمذاهب المتصوفة فِي الكلام ومنهجهم فِي الرمز والإيماء، ولأنها تظهر لنا الشَّاعِر الفتى وقد ملك ناصية الفن حقًّا، واستطاع أن يصرفه كما يشاء ويهوى دون أن يجد منه مقاومة وامتناعًا، ولأنها بعد هَذَا وذاك تكشف لنا عَنْ براعة المتنبي، لا فِي هَذَا النحو من التكلف الفني الذي كان مألوفًا فِي ذلك العصر والذي كان يعتمد قبل كل شيء على أوجه البديع، بل فِي تكلف آخر لم يكن مألوفًا إلا عند المتصوفة والباطنية الذين يقصدون بالألفاظ والمعاني غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر من عامة الناس وخاصتهم.

والظريف أنَّ هَذَا التكلف لم يفسد على المتنبي شعره فِي هذه القصيدة، وإنما أسبغ عليه جمالًا غريبًا لا نجده فِي شعره العادي، ومصدر هَذَا الجمال الغريب ما حاوله المتنبي من الملاءمة بين جهدين: جهد العقل، وجهد الفن.

وأنت تستطيع أن تقرأ غزل هذه القصيدة فتستحسن فيه هذين الجهدين معًا:

أَمِنَ ازْدِيَارَكِ فِي الدُّجَى الرُّقَبَاءُ   إِذْ حَيْثُ أَنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ

وينبغي أن تغفر للمتنبي هَذَا الجمع بين ظرفي الزمان والمكان فِي أول الشطر الثاني، فهو قد أتعب النحويين تحليلًا وتعليلًا، ولكنه مع ذلك ظاهر المعنى، فالمتنبي لا يزيد على أن يقول لصاحبته: إنَّ الرقباء مطمئنون إلى أنك لن تزوريني إذا أظلم الليل؛ لأن وجهك يضئ الظلمة فَيَنم عنك؛ لأنكِ ضياءٌ حيث كنتِ، فالمعنى ظاهر ولكن صيغته تُعمِّيه بعض الشيء، المعنى ظاهر، ولكن جهد الشَّاعِر فِي استنباطه والتعبير عنه ظاهر أيضًا، وأنت لا تلوم المتنبي ولا تعتب عليه إذا تكلفتَ شيئًا من الجهد فِي فهم هَذَا البيت؛ لأنك تحمد عاقبة الجهد، وترى أنَّ من حق الشَّاعِر الذي تعب فِي استنباط المعنى وأدائه أنْ يكلفك شيئًا من التعب فِي فهمه والوصول إليه، ما دام المعنى آخر الأمر قيمًا خليقًا بما بذلت من الجهد، فنحن هنا فِي بيئة أخرى، هذه البيئة التي يحسن أبو تمام والمتنبي خلقها، والتي توجد تعاونًا واشتراكًا بين الشَّاعِر والقارئ أو المستمع إليه، وإنما تخلق

هذه البيئة حين يُعنى الشَّاعِر بمعانيه، ويصدر فيما ينشئ عَنْ عقله وفنه من جهة، وعن احترامه لقارئه وسامعه من جهة أخرى، وانتقل إلى ما بعد هَذَا البيت:

قَلَقُ الْمَلِيحَةِ وِهْيَ مِسْكٌ هَتْكُها وَمَسِيرُهَا فِي اللَّيْلِ وَهْيَ ذُكَاءُ
أَسَفِي عَلَى أَسَفِي الذِي دَلَّهْتِنِي عَنْ عِلْمِهِ فَبِهِ عَلَيَّ خَفَاءُ
وَشَكِيَّتِي فَقْدُ السَّقَامِ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ

فالبيت الثاني توضيح وتفصيل وإطناب للبيت الأول، ولكن فيه تعميمًا ليس فِي ذلك البيت، فالمليحة قلقة فيما تدبر من أمرها؛ لأنها مسك ينم عليها نشرها، وشمس يفضحها ضوءها وإن سرت بليل، وتصورت أنت هَذَا الطباق الذي يأتيه من سُرى الشمس فِي الليل، فإذا تجاوزت هَذَا المعنى فانظر إلى هَذَا البيت الثالث الذي ذهب الشَّاعِر فيه مذهب المتصوفة الصريح، حين يلوون الألفاظ عَنْ أساليبها الطبيعية الظاهرة، فالشاعر يأسف على أسفه الذي هُوَ محقق، ولكنه لا يعلم به؛ لأن صاحبته قد دلهته عنه وأذهلته، بما يحدث فِي نفسه من أثر، والشاعر يؤكد لنا هَذَا المعنى تأكيدًا فِي البيت الرابع الذي ينبئنا فيه بأنه لا يشكو السقام، وإنما يشكو فقد السقام، ذلك أنه كان يحس السقم حين كان له جسم يمسه السقم وتلم به الآلام، فأما وقد أفنى الحب جسمه وأعضاءه فهو لا يشكو سقمًا ولا ألمًا، وإنما يشكو شيئًا أبلغ من السقم والألم، وهو العدم الذي يمنعه أن يحس سقمًا وألمًا، وتصور أنت شاعرًا يجد نفسه ويشعر بها، ويعلم أنه معدوم ويشكو من هَذَا العدم، ولكن لا تنس أن شاعرنا يقدم هَذَا الكلام بين يدي مدحه لرجل من المتصوفة، فهو يصطنع له مذهب المتصوفة فِي الكلام والتفكير أيضًا:

مَثَّلَتِ عَيْنَكِ فِي حَشَايَ جِرَاحَةً فَتَشَابَهَا كِلْتَاهُمَا نَجْلَاءُ
نَفَذَتْ عَلَيَّ السَّابِرِيَّ وَرُبَّمَا تَنْدَقُّ فِيهِ الصَّعْدَةُ السَّمْرَاءُ

وانظر إلى براعة الشَّاعِر وقدرته على العبث بالألفاظ واتخاذ هَذَا العبث وسيلة إلى شعر لا يخلو من جمال، فالناس يقولون: عين نجلاء، وهم يقولون طعنة نجلاء، فماذا يمنع المتنبي أن يشتق من هَذَا الاشتراك بين العين والطعنة فِي «النجل» الذي هُوَ السعة، شبهًا بينهما، فيجعل عين حبيبته فِي حشاه؛ لأن الطعنة التي مسته بها واسعة نجلاء

كالعين التي حملت إِلَيْهِ هذه الطعنة، ثم هُوَ يحقق هَذَا التشبيه تحقيقًا بالبيت الأخير، فيزعم أنَّ عين حبيبته قد شقت عنه درعه ونفذت إلى قلبه، ودرعه مع ذلك صلبة محكمة تندق فيها الصعدة السمراء، فأصل المعنى كما ترى مألوف، ولكن التعبير عنه جديد، وتصوره على هَذَا النحو طريف يخيل إليك أَنَّ الشَّاعِر قد ابتكره ابتكارًا:

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَا زُوحِمَتْ   وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَنَي الْجَوْزَاءُ
وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَاذِرٌ   أَلَّا تَرَانِي مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ
شِيَمُ اللَّيَالِي أَنْ تُشَكِّكَ نَاقَتِي   صَدْرِي بِهَا أَفْضَى أَمِ الْبَيْدَاءُ
فَتَبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِدًا فِي نِيِّهَا   إِسْآدَهَا فِي الْمَهْمَهِ الْإِنْضَاءُ
أَنْسَاعُهَا مَمْغُوطَةٌ وَخِفَافُهَا   مَنْكُوحَةٌ وَطَرِيقُهَا عَذْرَاءُ
يَتَلَوَّنُ الْخِرِّيتُ مِنَ خَوْفِ التَّوَى   فِيهَا كَمَا يَتَلَوَّنُ الْحِرْبَاءُ

والشاعر كما ترى فِي هذه الأبيات يفخر بنفسه مقتصدًا فِي الفخر، ولكنه اقتصادٌ لا ينبغي أن يخدعنا عَنْ امتلاء الفتى بنفسه، فهو اقتصادٌ فِي الألفاظ لا فِي المعاني ... فالشاعر صخرة تزحم من يزاحمها، والشاعر نجم، بل هُوَ الجوزاء بين الشعراء، فإذا لم يفطن الأغبياء والجهال لمكانه فهو عاذرٌ لهم، وهل على الأعمى حرج ألا يراه!

ولكن انظر إلى تصوير الشَّاعِر لهمه البعيد وأمله العريض وصدره الواسع كيف ذهب فيه هَذَا المذهب اللطيف، فأشرك ناقته فِي التفكير، وأشرك الليل فِي العمل: وجعلنا بإزاء حركة معقدة ونشاط متصل، فهو بعيد الهم، واسع الصدر، عريض الأمل، جاد فيما يبتغي، والليالي مخلفة لظنونه، مخيبة لآماله، ولكنها لا تبلغ من جهده وصدره ولا تحد من نشاطه وجده، فهو يكلف ناقته من الجهد والعناء ما يلائم هذه الخصومة المتصلة بينه وبين الزمان، ويشق الأمر على ناقته ويعظم الخطب وتشتد المحنة، فهي تريد أن تفهم ما يلم بها، ولن تخرج من حيرتها، وهي تسائل فِي كثير من الشك: أيهما أفضى بها: هذه البيداء التي لا تنتهي، أم صدر صاحبها هَذَا الذي لا يعرف لهمه حدًّا ينتهي إليه، والناقة مع ذلك ماضية فِي قطع البيد واجتيابها مُضي الهزال فِي أثناء شحمها، وقِفْ عند هذا الإسآد الذي تعمد الشَّاعِر تكراره، فجاء به مضارعًا ومصدرًا واسم فاعل قصدًا إلى الإغراب والإلتواء بالمعنى؛ ليلائم بين لفظه ومعناه، وبين مقامه من هَذَا الرجل المتصوف الذي يمدحه.

بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ ... شُمُّ الْجِبَالِ وَمِثْلُهُنَّ رَجَاءُ
وَعِقَابُ لُبْنَانٍ وَكَيْفَ بِقَطْعِهَا ... وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ
لَبَسَ الثُّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي ... فَكَأَنَّهَا بِبَيَاضِهَا سَوْدَاءُ
وَكَذَا الْكَرِيمُ إِذَا أَقَامَ بِبَلْدَةٍ ... سَالَ النُّضَارُ بِهَا وَقَامَ الْمَاءُ
جَمَدَ القِطَارُ وَلَوْ رَأَتْهُ كَمَا تَرَى ... بُهِتَتْ فَلَمْ تَتَبَجَّسِ الْأَنْوَاءُ

وأنت ترى من هذه الأبيات أنَّ الشَّاعِر حريص على ألا يدع المذهب القديم الذي ألفه الشعراء، فيذكر طريقه إلى ممدوحه، ولكنه على احتفاظه بهذا الشكل التقليدي يغير الأسلوب والموضوع تغييرًا، فانظر إِلَيْهِ كيف يخلص إلى ممدوحه هَذَا الخلوص العجيب، بأن يجعل بينه وبين أبي علي جبالًا تشبهه فِي الضخامة والارتفاع، وفي الثبات والاستقرار، وفي الصعوبة والامتناع، فمن شأنها أن تُبعده عنه، ولكن الشَّاعِر يجعل بينه وبين أبي علي رجاء يشبه هذه الجبال فِي الضخامة والعظم والسعة والقوة، فمن شأنه أن يقرِّبه منه، وأي جبال مهما تعظم تستطيع أن تستعصي على هَذَا الرجاء العريض العنيف الذي لا حد لسعته ولا لقوته!

ثم انظر إلى وصفه الموجز لصعوبة لبنان وما ينبث فيها من العقاب، وما يجمد على هَذَا العقاب من الثلج الذي ينتشر بياضه حَتَّى يضلل الشَّاعِر عَنْ مسالكه تضليلًا، فكأنه سواد الليل.

وما أريد أن أمضي على هَذَا النحو فِي تحليل القصيدة كلها، وإن كانت القصيدة كلها تعجبني، ولكني أدع لك قراءة الشطر الأول من مدحه لأبي عليٍّ ومشاركتي فِي الرضا والإعجاب به، والاعتراف بأنه كان كغيره من مدح المتنبي فِي جوهره وأصله، فإنه ممتاز فِي أسلوبه، ومذهب الشَّاعِر فِي العناية به، والتأنق فِي ذاته، ولكني مضطر أن أقرأ معك هذه الأبيات التي يختم الشَّاعِر بها قصيدته:

لَعَمَمْتَ حَتَّى الْمُدْنُ مِنْكَ مِلَاءُ ... وَلَفُتَّ حَتَّى ذَا الثَّنَاءُ لَفَاءُ
وَلَجُدْتَ حَتَّى كِدْتَ تَبْخَلُ حَائِلًا ... لِلْمُنْتَهَى وَمِنَ السُّرُورِ بُكَاءُ
أَبْدَأْتَ شَيْئًا لَيْسَ يُعْرَفُ بَدْؤُهُ ... وَأَعَدْتَ حَتَّى أُنْكِرَ الْإِبْدَاءُ
فَالفَخْرُ عَنْ تَقْصِيرِهِ بِكَ نَاكِبٌ ... وَالْمَجْدُ مِنْ أَنْ يُسْتَزَادَ بَرَاءُ

فَـإِذَا سُـئِـلْـتَ فَـلَا لأَنَّـكَ مُـحْـوِجٌ   وَإِذَا كُـتِـمْـتَ وَشَـتْ بِـكَ الْآلَاءُ
وَإِذَا مُـدِحْـتَ فَـلَا لِـتَـكـسِـبَ رِفْـعَـةً   لِـلـشَّـاكِـرِيـنَ عَـلَـى الْإِلَـهِ ثَـنَـاءُ
وَإِذَا مُـطِـرْتَ فَـلَا لِأَنَّـكَ مُـجْـدِبٌ   يُـسْـقَـى الْـخَـصِـيبُ وَتُـمْـطَرُ الدَّأْمَاءُ
لَـمْ تَـحْـكِ نَـائِـلَـكَ السَّـحَـابُ وَإِنَّـمَـا   حُـمَّـتْ بِـهِ فَـصَـبِـيـبُـهَـا الرُّحَـضَـاءُ
لَـمْ تَـلْـقَ هَـذَا الْـوَجْـهَ شَـمْـسُ نَـهَـارِنَـا   إِلَّا بِـوَجْـهٍ لَـيْـسَ فِـيـهِ حَـيَـاءُ
فَـبِـأَيِّـمَـا قَـدَمٍ سَـعَـيْـتَ إِلـى الـعُـلَـى   أُدُمُ الْـهِـلَالِ لِأَخْـمَـصَـيْـكَ حِـذَاءُ
وَلَـكَ الـزَّمَـانُ مِـنَ الـزَّمَـانِ وِقَـايَـةٌ   وَلَـكَ الـحِـمَـامُ مِـنَ الـحِـمَـامِ فِـدَاءُ
لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذْ مِنْكَ هُوْ   عَـقِـمَـتْ بِـمَـوْلِـدِ نَـسْـلِـهَـا حَـوَّاءُ

وما أراك فِي حاجة إلى أن أدلك على هذه المبالغات التي أسرف الشَّاعِر فيها إسرافًا شديدًا كعهده حين يبالغ، ولا إلى أن أدلك على تعمده اصطناع مذاهب الصوفية واستعارته ألفاظهم ومعانيهم، واضطراره من أجل هَذَا كله إلى أن يحمِّل ألفاظه أعباءً ثقالًا كما فِي هَذَا البيت:

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذْ مِنْكَ هُوْ   عَـقِـمَـتْ بِـمَـوْلِـدِ نَـسْـلِـهَـا حَـوَّاءُ

ولكنك توافقني فيما أظن أنَّ المتنبي قد جاوز فِي هذه القصيدة طوره الذي رأيناه فيه قبل إنشائها حين كان مضطربًا فِي شمال الشام يبيع شعره فِي سوق الكساد: تجاوز هَذَا الطور إلى طورٍ جديدٍ وثب إِلَيْهِ وثوبًا، ووثب إِلَيْهِ فجأة وعلى غير انتظار أو قل دفع إِلَيْهِ دفعًا: دفعه إِلَيْهِ انهزام الإخشيديين الذين لقي فِي ظلمهم ما لقي من المحن، وذاق فِي ظلمهم مرارة الأسر والسجن والحرمان، ورجوع الأمر فِي الشام إلى عربي مهما يكن أمره ومذهبه، فليس تركيًّا ولا ذنجيًّا كالإخشيد وابن كيغلغ وكافور، ولا شك فِي أنَّ هَذَا الأمل القوي الذي ملأ نفس المتنبي وقلبه قد رد إِلَيْهِ الثقة بفنه إن لم يكن رد إِلَيْهِ الثقة بنفسه، فهو مطمئن منذ الآن إلى أنه لن يبيع شعره فِي سوق الكساد، وإذا لم تعد إِلَيْهِ الثقة بنفسه قائدًا أو زعيمًا أو سيدًا عظيمًا، فلا أقل من أنَّ الثقة قد عادت إِلَيْهِ بنفسه شاعرًا بارعًا نابغًا مقربًا إلى الأمراء، ثم إلى الملوك، ثم من الخليفة، من يدري!

وقد رأيت كيف أثر اتصاله بالتنوخيين فِي فنه، فوثب به من طور إلى طور، فكيف به الآن وهو يرجو أنْ يتصل بمن لا يقاس إِلَيْهِ التنوخيون قوة وبأسًا، وثروةً وجاهًا، وقربًا من الملوك والخلفاء، ومهما يكن من شيء فقد غُلِب المتنبي على أمره: غلبه فنه،

وغلبته سُنَّة هَذَا الفن، كان يظن ويرجو أن يكون رجلًا مستقلًا له رياسة وزعامة وسلطان، وكان يظن ﻓِﻲ أول أمره أن يصلح بثورته كثيرًا من شئون الحياة ونظم الاجتماع، ثم كان يظن بعد ذلك أن يتخذ الثورة وسيلة إلى الحكم والسلطان، إذا لم يستطع أن يتخذها وسيلة إلى الإصلاح.

ولكن التجربة علمته أنه لم يُخلقْ لهذا، وإنما خُلق ليسلك طريق الشعراء من قبله، فيمدح الطغام، ثم أوساط الناس، ثم أشرافهم، ثم من يدري! لعله يصل إلى القصر.

غلبه فنه وغلبته طبيعة الشاعر، وانهزم المتنبي المصلح، وانهزم المتنبي الطموح إلى الاستقلال، ولم يبق من كل تلك الآمال والمطامع إلا شاعر يلتمس الثروة والغنى، ويجدُّ ﻓِﻲ سبيل اللذة المعتدلة والهدوء، وقد يقوى طمعه، وقد تحدثه نفسه بالطموح إلى شيء من السلطان يومًا، ولكنه على كل حال لن يفكر ﻓِﻲ الاستقلال، ولن يتصور الحياة إلا ﻓِﻲ ظل رجل عظيم من هؤلاء الذين كان يذمهم ويشهر بهم، والذين سيذمهم ويشهر بهم أَيْضًا فيما سيستقبل من أيامه.

كان كبر نفس المتنبي ﻓِﻲ شبابه خداعًا وضلالًا، لم يلبث أنْ زال عنه حين تعرض للخطر الصحيح، وسيبقى من كبر المتنبي هذا، وسيبقى من رغبة المتنبي ﻓِﻲ الإصلاح وسخطه على الناس، وانتقاضه على المألوف من نظم الحياة، كلام كثير لا يخلو من قوة وروعة وجمال، ولكنه كلام لا أكثر ولا أقل.

ولست أدري أكان الأوراجي هَذَا قريبًا أم بعيدًا من بدر بن عمار، ولكن المتنبي أقام معه حينًا على كل حال، كما تدل على ذلك طرديته التي أشرنا إِلَيْهَا آنفًا، ثم اتصل من طريق الأوراجي هَذَا فيما أرى ببدر، فلا تسل عن فرحه ومرحه، ولا عن ابتهاجه وامتلاء نفسه بالغبطة والرضا، ولا تسل عن ارتفاع فنه وانحطاط نفسه، إذا لم يكن بُدٌّ من أنْ نقلده مرة فنصطنع الطباق.

(٢) عند بدر بن عمَّار

ومع ذلك فبدر هَذَا الذي يُقبل عليه المتنبي وقد امتلأ قلبه بالإقبال عليه بهجة وسرورًا يعجز عن إخفائهما فيما سترى من شعره، هُوَ الذي هجاه المتنبي نفسه قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة، حين وليَ على حلب، فأقبل إسحاق بن كيغلغ من قبل الإخشيد، فأزعجه عنها وردَّ إِلَيْهَا وإليها السابق، وذلك حين يقول المتنبي ﻓِﻲ الدالية التي استعطف بها ابن كيغلغ وسأله فيها أن يعفو عنه:

رَمَى حَلَبًا بِنَوَاصِي الْخُيُولِ   وَسُمْرٍ يُرِقْنَ دَمًا فِي الصَّعِيدِ
وَبِيضٍ مُسَافِرَةٍ مَا يُقِمْـ   ـنَ لَا فِي الرِّقَابِ وَلَا فِي الْغُمُودِ
يَقُدْنَ الفَنَاءَ غَدَاةَ اللِّقَاءِ   إلى كُلِّ جَيْشٍ كَثِيرِ الْعَدِيدِ
فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ الْخَرْشَنِيُّ   كَشَاءٍ أَحَسَّ بِزَأْرِ الْأُسُودِ
يَرَوْنَ مِنَ الذُّعْرِ صَوْتَ الرِّيَاحِ   صَهِيلَ الْجِيَادِ وَخَفْقَ الْبُنُودِ

فقد كان بدر وأصحابه إذن غنمًا تشفق من زئير الأسود، وكانوا هرابًا تروعهم أصوات الرياح، فيسمعون فيها صهيل الجياد وخفق البنود.

فأما سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة حين دارت الدائرة على الإخشيديين فِي هَذَا القسم من بلاد الشام، وحين أتيحت لبدر ولاية طبرية، وأتيح للمتنبي أن يتصل به، فانظر كيف يستقبله المتنبي وكيف يتحدث عنه:

أَحُلْمًا نَرَى أَمْ زَمَانًا جَدِيدَا   أَمِ الْخَلْقُ فِي شَخْصِ حَيٍّ أُعِيدَا
تَجَلَّى لَنَا فَأَضَأْنَا بِهِ   كَأَنَّا نُجُومٌ لَقِينَ سُعُودَا
رَأَيْنَا بِبَدْرٍ وَآبَائِهِ   لِبَدْرٍ وَلُودًا وَبَدْرًا وَلِيدَا

فالحياة كما ترى فِي ظل بدر من الروعة والجلال ومن البهجة والجمال، بحيث تخلط الأمر على الشاعر، فيخيل إِلَيْهِ مرة أنها حلم، ويخيل إِلَيْهِ مرة أخرى أَنَّ الزمان قد تجدد، ويخيل إِلَيْهِ مرة ثالثة أَنَّ الله قد سمع لأبي نُوَاس، فجمع الخلق كله فِي شخصٍ واحد، وهو يوضح هَذَا كله ويحمله بهذا البيت الثاني الذي يزعم فيه أن بدرًا تجلى له وللناس، فاكتسبوا منه ضوءهم وبهاءهم كأنهم النجوم قد لاقت سعودًا.

وتستطيع أن تقول: إِنَّ هَذَا تلون الشعراء وتقلبهم، كما تتلون الحياة، وكما تتقلب صروف الأيام، وما أخالفك فِي ذلك، وما أنكر عليه منه شيئًا، وإنما ألاحظ أن صاحبنا شاعر قبل كل شيء، يغلبه فنه وطبيعته الشاعرة المشبهة لطبيعة الشعراء المعاصرين له على ما ظهر فِي صباه وشبابه من القوة والأيد، ومن شدة البأس وصعوبة المراس والطموح إلى جلائل الأعمال.

فالذين يرون هَذَا الاضطراب فِي حياة الشَّاعِر الفتى ويحسون انهزام المصلح الفيلسوف، وصاحب الحزم والعزم، أما الشَّاعِر الذي يكسب حياته بالمدح الكاذب والثناء الباطل، وينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها، ثم ينظرون

إِلَيْهِ على رغم ذلك كما ينظرون إلى المصلح الفيلسوف، وينتظرن منه على رغم ذلك ما ينتظرون من المصلح الفيلسوف، يكلفون أنفسهم عناءً لا يُغني، ويكلفون العلم شططًا لا يستطيع العلم له احتمالًا، لقد ملك الفرح بلقاء بدر على المتنبي أمره، كأنه المسافر قد أحرقه الظمأ، حَتَّى كاد يشرف على الهلاك، ثم رأى الماء فأقبل عليه مندفعًا، لا ينظر وراءه ولا يفكر فيما قد يتعرض له بعد أن يروي غلته، ويشفي صداه، وكذلك اندفع المتنبي فِي مدح بدر بهذه القصيدة الدالية التي أراها أولى مدائحه لهذا الأمير، والتي أعجل فيها الشَّاعِر عن المقدمة والتمهيد، فلم ينسب ولم يتغن وإنما هجم على المدح هجومًا فِي غير تحفظٍ ولا احتياط، وما أرى أنه قد جدد فِي فن المدح شيئًا، أو أحدث فيه ما لم يسبقه إِلَيْهِ الشعراء المادحون، ولكني أحس فِي هذه القصيدة قوة قوية مشتقة من أمل الشَّاعِر ونشاطه، ومن حدة نفسه وتهالكه على الراحة بعد التعب، وعلى الرضا بعد السخط، وعلى الغنى بعد الفقر، وعلى الأمن والهدوء بعد الخوف والإشفاق.

وهذه القوة تفيض على القصيدة رونقًا يُجري فِي أبياتها شيئًا من الإشراق المبتهج الذي يحببها إليك، ويجذبك إليها، وإن لم تجد فيها غناء، وهي تفيض على ألفاظ القصيدة جزالة لا تجحد، ورصانة ليس فيها شك، وما أرى إلا أن ما كان يملأ نفس الشَّاعِر من فرح وأمل ونشاط، هُوَ الذي دفعه إلى هَذَا البحر المتقارب الذي يلائم اضطراب النفس بالأمل القوي حين تضطرب بالأمل القوي، وغليان النفس بالحزن المضطرم حين تغلي بالحزن المضطرم.

واقرأ معي هذه الأبيات فسترى هَذَا كله واضحًا فيها أشد الوضوح:

طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَرْكِ الذِي ... رَضِينا لَهُ فَتَرَكْنَا السُّجُودَا
أَمِيرٌ أَمِيرٌ عَلَيْهِ النَّدَى ... جَوَادٌ بَخِيلٌ بِأَنْ لَا يَجُودَا
يُحَدَّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهًا ... كَأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودَا
وَيُقْدِمُ إلا عَلَى أَنْ يَفِرَّ ... وَيَقْدِرُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَزِيدَا

فانظر إلى الشَّاعِر كيف يؤثر الإيجاز فِي أبياته ويفر من التفصيل فرارًا، يضمن كل بيت معنى مستقلًا، وقد يضمن البيت معنيين يستقل بكل واحد منهما شطر من الشطرين، كأنما الشَّاعِر عجلٌ يريد أن يغلب الأمير على التفكير والروية، فهو يرميه رميًا سريعًا جدًّا بهذه الأزهار المتلاحقة التي ليس بينها أناة ولا أمل، حَتَّى يبهر الأمير ويعجله عن أن ينظر فِي هذه الأزهار نظر الممتحن المتخير، أو كأنه يريد أن يدفنه فِي

هذه الأزهار، فهو يلح عليه بها إلحاحًا حَتَّى يضطره إلى أن يقفه، وأن يقول له: حسبك فقد أرضيت وأربيت.

ولسنا نحن مُعجلين عن التفكير والروية، ولسنا نخاف من الشَّاعِر أن يدفننا فِي أزهاره هذه، فقد ذبلت هذه الأزهار بعد أن مضى عليها أكثر من عشرة قرون ونحن إذن ننظر فيها على نحو من الأناة والمهل، يكشف لنا عن نفس الشَّاعِر الذي صاغها ووهبها لهذا الأمير.

ونحن إذا نظرنا فِي هذه الأزهار، دلتنا على أنَّ الشَّاعِر كان يريد أن يبهر ممدوحه من جهة، وكان صادقًا فِي تصوير ما يملأ نفسه ويملكها من الفرح والمرح والسرور، فهو يصطنع المبالغة، ولكنه لا يتكلفها ليخدع بها الممدوح عن نفسه وماله، وإنما تصدر عنه فِي غير تكلف؛ لأنها تصور نفسه الراضية المبتهجة الآملة، كان يريد أن يسجد للأمير، ولكن الأمير كره أن يُعبد من دون الله، فأرضاه الشَّاعِر بترك السجود له، ولو أنَّ بدرًا طغى على نفسه وعلى الناس، وخرج عن طوره، ورضي من المتنبي وأشباهه أن يسجدوا له، لما تردد المتنبي فيما رأى، ولما كره أن يتقرب إِلَيْهِ بالسجود وأن يخرج له عن هذه الكبرياء التي صورته لنا فِي شبابه عزيزًا أبيًّا لا يقبل الضيم، وسنرى أنَّ حياة المتنبي منذ ذلك الوقت ليست إلا سلسلة متصلة من بذل هذه الكبرياء، للسادة والقادة والأمراء، ثم البكاء عليها بعد أن يبذلها ويفرط فيها، وسنرى أنَّ المتنبي لم يخرج لبدر وأشباهه عن كبريائه وحدها، بل خرج لهم كذلك عن أشياء كثيرة أخرى ليست أقل من الكبرياء خطرًا عند الرجل الكريم.

والمتنبي يرى أنَّ بدرًا هُوَ الأمير كل الأمير، لا يؤمر عليه إلا الندي، ويرى أنه الجواد كل الجواد، لا يبخل على الناس إلا بالبخل، ويرى أنه إذا مُدح كره المدح وضاق به، كأنه يحسد نفسه، ويرى أنه يُقدم على كل شيء إلا الفرار، ويقدر على كل شيء إلا على أن يزيد حظه من الفضيلة؛ لأنه قد بلغ أقصاها الذي لا مزيد عليه.

والشاعر يمضي على هَذَا النحو إلى آخر القصيدة: معان قوية تستمد قوتها من المبالغة والطباق، ومتلاحقة يدفع بعضها بعضًا، وتحملها إلى أُذُن الممدوح ألفاظ خفيفة سريعة كأن لها أجنحة تشق بها الهواء، وهي مع ذلك متينة رصينة لا تؤذي السمع ولا تنبو عن الطبع، فإذا بلغ المتنبي رضا ممدوحه، وأخذ من ماله حَتَّى اكتفى وأمن بعد خوفه، واستراح بعد جهد، وتغطى، كما يقول أبو نواس، من دهره بظل جناحه، ثابت إِلَيْهِ نفسه وعاد إِلَيْهِ رشده، وتقدم فِي مدحه هادئًا مطمئنًّا ومفكرًا مرويًا.

ويجب أن نعتدل ونقتصد حين نذكر تفكير المتنبي وترويته، فهو لا يفكر ولا يروي إلا فِي فنه، فأما فِي طبيعة الأشياء، وأما فيما يحسن وما لا يحسن، وأما فيما يقال وما لا يقال، فالمتنبي لا يعرف تروية ولا تفكيرًا، وإنما هُوَ إذا أقبل على بدر بالمدح بعد هذه القصيدة سلك طريقه المألوف، واصطنع الأناة والمهل، فقدم النسيب والغناء بين يدي المدح والثناء، ولم يندفع بمعانيه وألفاظه اندفاع السيل المنحدر من القمة العالية إلى القاع السحيق، وإنما سار بها سيرًا يختلف سرعة وبطئًا، ولكنه معتدل على كل حال، وهو غير مُعجل عن نسيبه حين ينسب، ولا عن تشبيهه حين يشبه، ولا عن وصفه حين يصف، وهذا لا يمنعه من المبالغة والإسراف، بل قد يدفعه إليهما دفعًا.

فانظر إلى هذه القصيدة التي مدح بها بدرًا، وقد أراد الطبيب أنْ يفصده فغلظ عليه وآذاه ذلك بعض الشيء، فسترى أنه قد عاد فيها إلى مذهبه ومذهب غيره من الشعراء، فقدَّم بين يدي المدح بهذا الغزل المصنوع الذي يظهر فيه جهد العقل والفن أكثر مما تظهر فيه حرارة العاطفة وقوة الشعور، ثم تغنى بعد ذلك بشيء يسير من أمره ومن خُلقه، وكأن صوابه قد ثاب إليه، وكأنه يسترد من نفسه بعض ما أعطى، فهو يتحدث بكثرة تنقله وبأنه إذا أنكر قومًا زال عنهم، وبأن أرض الله واسعة وفيها للكريم مضطرب، كما قال القدماء، ثم هُوَ بعد ذلك يمضي فِي مدح بدر، حَتَّى يصل إلى خطأ الطبيب، فانظر إِلَيْهِ كيف يصور هَذَا الخطأ فِي هَذَا التكلف الذي قد لا يخلو من سماحة تخفيها جزالة الألفاظ ورصانتها:

لَمْ تُبْقِ إِلَّا قَلِيلَ عَافِيَةٍ	قَدْ وَفَدَتْ تَجْتَدِيكَهَا الْعِلَلُ
عُذْرُ الْمَلُومَيْنِ فِيكَ أَنَّهُمَا	آسٍ جَبَانٌ وَمِبْضَعٌ بَطَلُ
مَدَدْتَ فِي رَاحَةِ الطَّبِيبِ يَدًا	فَمَا دَرَى كَيْفَ يُقطَعُ الأَمَلُ
إِنْ يَكُنِ الْبَضْعُ ضَرَّ بَاطِنَهَا	فَرُبَّمَا ضَرَّ ظَهْرَهَا القُبَلُ
يَشُقُّ فِي عِرْقِهَا الْفِصَادُ وَلَا	يَشُقُّ فِي عِرْقِ جُودِهَا العَذَلُ
خَامَرَهُ إِذْ مَدَدْتَهَا جَزَعٌ	كَأَنَّهُ مِنْ حَذَاقَةٍ عَجِلُ
جَازَ حُدُودَ اجْتِهَادِهِ فَأَتَى	غَيْرَ اجْتِهَادٍ لِأُمِّهِ الْهَبَلُ
أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الـ	ـطَّبْعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ
إِرْثِ لَهَا إِنَّهَا بِمَا مَلَكَتْ	وَبِالَّذِي قَدْ أَسَلْتَ تَنْهَمِلُ
مِثْلُكَ يَا بَدْرُ لَا يَكُونُ وَلَا	تَصْلُحُ إِلَّا لِمِثْلِكَ الدُّوَلُ

أما أنا فلا أرى فِي هَذَا الكلام جمالًا ولا حُسنًا، وإنما أرى فيه صنعة ثقيلة، وتكلفًا بغيضًا، وسماجة يخفيها الفن ويسبغ عليها زينة كاذبة، وحيلة باطلة، وليس يعدل ما فِي هَذَا الكلام من السماجة الخفية إلا هذه السماجة الظاهرة فِي بيت آخر من هذه القصيدة يسبق هذه الأبيات، وهو قوله:

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةُ يَا لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلُ

وما أشك فِي أنَّ المتنبي كان معجبًا بهذا البيت، وما أشك فِي أنه أنشده مُقطِّعًا له، واقفًا عند كل جزء من أجزائه وقد ملأه التيه والغرور، وما أشك فِي أنَّ إعجاب «بدر» بهذا البيت لم يكن أقل من إعجاب المتنبي، وما أرتاب فِي أنَّ كثيرًا من الناس يعجبون به ويغلون فيه، كما فعل المادح والممدوح، ولكني لا أدري لماذا يخيل إليَّ أنَّ هَذَا البيت يصور أسمج ما كان فِي المتنبي حين كان ينشد بين يدي ممدوحيه من هذه الخيلاء التي لا تمثل إلا ذلة وضعة وضعفًا وسخفًا.

على أن أجود ما قال المتنبي فِي «بدر» عندي هي لاميته، التي يصف فيها ما كان بين بدر وبين الأسد من صراع ينتصر فيه بدر، فالمتنبي قد صور الأسد المصارع المدافع فِي هذه القصيدة، وصور هَذَا الصراع والدفاع تصويرًا رائعًا بارعًا، بذَّ فيه نفسه، وفاق فيه طاقته، وخرج فيه عن طوره المألوف.

وأكاد أعدُّ هذه القصيدة من آيات المتنبي، بل أنا أعدها من هذه الآيات، ولا سيما هَذَا القسم الوصفي منها، لولا أنَّ فيها سخفًا سخيفًا ورطته فيه المبالغة وردته إلى بعض ما كان يهذي به فِي شبابه مما ينحرف عن الدين فِي غير روية ولا تفكير ولا غناء فلسفي، فقد يُحتمل من الشَّاعِر أو المفكر أن ينحرف عما يألف الناس وعما يحبون ويؤثرون حين يدعوه إلى ذلك لون من ألوان الجمال، أو يغريه بذلك فن من فنون التفكير أو رأي من الآراء الفلسفية، فأما أن يتجاوز القصد وينحرف عن المألوف، لا لشيء إلا ليزيد فِي تملق ممدوحه، ويزيد بذلك حظه من الجائزة، فهذا هُوَ الصغار الذي لا ترضاه إلا النفس الصغيرة، وهذا السخف الذي دُفع إِلَيْهِ المتنبي فِي هذه القصيدة هُوَ قوله:

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مُقَسَّمًا فِي النَاسِ مَا بَعَثَ الْإِلَهُ رَسُولَا

لَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمُ مَا أَنْزَلَ الـ ـفُرْقَانَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَا

أفتراه طمع فِي أن يستهوي بدرًا إلى قرمطيته القديمة؟ من يدري! ولكننا نتجاوز له عن هَذَا السخف فِي سبيل هَذَا الوصف الرائع الذي لا بُدَّ من روايته؛ لأنه أجمل من أن يهمل:

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرتَ الصَّارِمَ المَصْقُولَا
وَقَعَتْ عَلَى الْأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ نُضِدَت بِهَا هَامُ الرِّفَاقِ تُلُولَا
وَرْدٌ إِذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةَ شَارِبًا وَرَدَ الْفُرَاتَ زَئِيرُهُ وَالنِّيلَا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوَارِسِ لَابِسٌ فِي غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلَا
مَا قُوبِلَت عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنَّتَا تَحْتَ الدُجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
فِي وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلَا
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلى يَافُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلَا
وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزَمْجِرُ نَفْسُهُ عَنْهَا لِشِدَّةِ غَيْظِهِ مَشْغُولَا
قَصُرَت مَخَافَتُهُ الخُطَا فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الكَمِيُّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا
أَلْفَى فَرِيسَتَهُ وَبَرْبَرَ دُونَهَا وَقَرُبْتَ قُرْبًا خَالَهُ تَطْفِيلَا
فَتَشَابَهُ الْخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ وَتَخَالَفَا فِي بَذْلِكَ المَأْكُولَا
أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا مَتْنًا أَزَلَّ وَسَاعِدًا مَفْتُولَا
فِي سَرْجِ ظَامِئَةِ الفُصُوصِ طِمِرَّةٍ يَأْبَى تَفَرُّدُهَا لَهَا التَمْثِيلَا
نَيَّالَةِ الطَلَبَاتِ لَوْلَا أَنَّهَا تُعْطِي مَكَانَ لِجَامِهَا مَا نِيلَا
تَنْدَى سَوَالِفُهَا إِذَا اسْتَحْضَرْتَهَا وَيُظَنُّ عَقْدُ عِنَانِهَا مَحْلُولَا
مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّولَا
وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ يَبْغِي إِلى مَا فِي الْحَضِيضِ سَبِيلَا
وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَادَّنَى لَا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجَلِيلَ جَلِيلَا
أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدنيئة تَارِكٌ فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الكَثِيرَ قَلِيلَا
وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلَا
سَبَقَ الْتِقَاءَكَهُ بِوَثْبَةِ هَاجِمٍ لَوْ لَمْ تُصَادِمْهُ لَجَازَكَ مِيلَا

خَـذَلَـتْـهُ قُـوَّتُـهُ وَقَـدْ كَـافَـحْـتَـهُ ... فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلَا
قَـبَـضَـتْ مَـنِـيَّـتُـهُ يَـدَيْـهِ وَعُـنْـقَـهُ ... فَـكَـأَنَّـمَـا صَـادَفْـتَـهُ مَـغْـلُـولَا
سَـمِـعَ ابْـنُ عَـمَّـتِـهِ بِـهِ وَبِـحَـالِـهِ ... فَنَجَا يُهَرْوِلُ أَمْسِ مِنْكَ مَهُولَا
وَأَمَـرُّ مِـمَّـا فَـرَّ مِـنْـهُ فِـرَارُهُ ... وَكَـقَـتْـلِـهِ أَنْ لَا يَـمُـوتَ قَـتِـيـلَا

فهذا كلام يكفي أن تنظر فيه نظرًا سريعًا لتحس ما فيه من جمال وروعة، وترى فيه فتوة وقوة، ما أرى إلا أن الشَّاعِر قد استعارهما من نفسه، وخلعهما على ممدوحه، لا لأني أجحد بلاء ابن عمار حين ردَّ الأسد عن نفسه بالسوط، بل لأني أحس روح الشَّاعِر يجري فِي هَذَا الكلام قويًّا فتيًّا مستجمعًا قوته وفتوته، كأحسن ما استجمعهما فِي شعره كله، وأنت تستطيع أن تقدر ما فِي هَذَا الكلام من جزالة تلائم ما فيه من سهولة ويسر، وأن تقدر ما وفق له الشَّاعِر أحسن توفيق من وصف الناس، والفرس، والليث، وما كان بين الخصمين من صراع، ثم من الجمع بين وصفه المادي، ووصفه المعنوي النفسي لليث، إن صح هَذَا التعبير ثم من حديث هَذَا الأسد الآخر الذي جعله ابن عمه الأسد القتيل، فقد سمع بما ألم بابن خاله، ففر وآثر العافية لنفسه.

وأنت معجب كذلك بهذه الأبيات التي ينثر الشَّاعِر فيها حكمًا وأمثالًا أثناء هَذَا الوصف الرائع، لا لأن هذه الحكم والأمثال طريفة فِي نفسها، فهي مما ألف الناس؛ بل لأن موقعها أثناء هَذَا الوصف لا يخلو من الطرافة، فالناس إنما يفلسفون ويضربون الأمثال حين يتحدثون عن بلاء الإنسان وما يحدث له من الخطوب، فإذا تحدثوا عن بلاء الحيوان وما يعرض له من الأمر، فقلما يفلسفون؛ لأن الحيوان نفسه لا يفلسف ولا يروي، ذلك إلى أنَّ مكان هذه الحِكَم والأمثال يُشيع فِي الوصف عناءً يخرجه عن أن يكون وصفًا عاديًّا، كما يخرجه عن أن يكون مدحًا عاديًّا.

ولسنا نعرف دقائق حياة المتنبي عند بدر، ولكننا نقدر أنَّ هَذَا الشعر الرائع قد أرضى بدرًا كل الرضا، وأثار فِي نفوس حاشيته شيئًا من الحسد، لم تلبث آثاره أن ظهرت واضحة كل الوضوح، وقد أشار إِلَيْهَا المتنبي نفسه فِي هذه اللامية الأخرى التي مدح بها بدرًا، والتي يقول فيها:

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالَا ... وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لَا الْجِمَالَا

فهو ينسب فِي أول هذه القصيدة نسيبًا مصنوعًا كعهده منذ أقام عند بدر، ثم ينتقل من هَذَا النسيب إلى غناء يذكر فيه نفسه، ولا شك فِي أنه يعرض فيه بحاله الخاصة، ويكاد ينبئنا بأنه سيضطر إلى الرحيل عن بدر، وذلك حيث يقول:

كَأَنَّ الْحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الْوِصَالَا
كَذَا الدُّنْيَا عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلِي صُرُوفٌ لَمْ يُدِمْنَ عَلَيْهِ حَالَا
أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَا
أَلِفْتُ تَرَحُّلِي وَجَعَلْتُ أَرْضِي قُتُودِي وَالْغُرَيْرِيَّ الْجُلَالَا
فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُقَامًا وَلَا أَزْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالَا
عَلَى قَلَقٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتِي أُوَجِّهُهَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالَا

وكأنه أشفق أنْ يُفهم عنه هَذَا التعريض على وجهه، وأنْ يُشعرَ بما يدبِّر فِي نفسه، فجعل هَذَا البيت الأخير تخلصًا إلى صاحبه، ورغم أنه يوجه هذه الريح إلى بدر، ثم يمضي فِي مدح بدر حَتَّى يصل إلى هذين البيتين اللذين سيتمثلهما فِي بغداد بعد أكثر من خمس وعشرين سنة، حين يلح عليه شعراء العراق بالهجاء، فيسأله أصحابه أن يرد عليهم، فيزعم أنه سبق إلى الرد عليهم فِي شبابه حين قال:

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الداءَ الْعُضَالَا
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

وقد أضاف ابن رائق السواحل إلى عمل بدر، فهنأه المتنبي بمقطوعة تجدها فِي الديوان، ولكن بدرًا حين سافر إلى السواحل ليتسلم ما أضيف إِلَيْهِ من الأقاليم، لم يصحبه المتنبي فِي سفره هذا، وانتهز خصومه هذه الفرصة فأغروا به الأمير وحرضوه عليه، وكأن إغراءهم وتحريضهم قد وقع من نفس بدر موقعًا، فنحن نرى المتنبي يمدحه بعد عودته ويعتذر إِلَيْهِ من هَذَا القعود، بل يستغفره هَذَا الذنب فِي قصيدة نونية ليست فِي نفسها شيئًا، ولعل روحًا من السماجة يجري فيها خفيًّا حينًا وظاهرًا حينًا آخر، ولكنَّا نروي منها هذه الأبيات التي يصرح فيها بذكر حساده وخصومه:

فَطَنَ الفُؤادُ لِمَا أَتَيْتُ إلى النَّوَى وَلِمَا تَرَكْتُ مَخَافَةً أَنْ تَفْطِنَا

أَضْحَى فِرَاقُكَ لِي عَلَيْهِ عُقُوبَةً ... لَيْسَ الَّذِي قَاسَيْتُ مِنْهُ هَيِّنَا
فَاغْفِرْ فِدًى لَكَ وَاحْبُنِي مِنْ بَعْدِهَا ... لِتَخُصَّنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا
وَانْهَ الْمُشِيرَ عَلَيكَ فِيَّ بِضَلَّةٍ ... فَالْحُرُّ مُمْتَحَنٌ بِأَوْلَادِ الزِّنَى
وَإِذَا الْفَتَى طَرَحَ الكَلَامَ مُعَرِّضًا ... فِي مَجْلِسٍ أَخذَ الكَلَامَ الَّذْ عَنَى
وَمَكَايِدُ السُّفَهَاءِ وَاقِعَةٌ بِهِمْ ... وَعَدَاوَةُ الشُّعَرَاءِ بِئْسَ الْمُقْتَنَى
لُعِنَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئِيمِ فَإِنَّهَا ... ضَيْفٌ يَجُرُّ مِنَ النَّدَامَةِ ضَيْفَنَا
غَضَبُ الحَسُودِ إِذَا لَقِيتُكَ رَاضِيًا ... رُزْءٌ أَخَفُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يُوزَنَا

(٣) إزعاجه عن بدر

فما الذي هاج الحساد على المتنبي حَتَّى وشوا به عند بدر، وأخذوا يفسدون ما بينهما؟ أهو ما قدمناه من أنَّ المتنبي قد برع فِي مدح بدر حَتَّى أرضاه، ومن أنَّ بدرًا قد جدَّ فِي إعطاء المتنبي حَتَّى أرضاه أيضًا، فنشأ عن هَذَا ما ينشأ عادةً فِي نفوس المقربين من الأمراء وأصحاب السلطان، حتى انتهى بهم الأمر إلى الكيد لهذا الشَّاعِر الطارئ، الذي صرف عنهم الأمير شيئًا، وهم حراص على أن يخلو لهم وجهه؟ ليس من شك فِي أنَّ شيئًا من هَذَا قد هاج حسد الحساد على المتنبي، وقد نستطيع أن نضيف إلى هَذَا ما يلائم طبيعة البيئة العراقية التي انتقلت مع بدرٍ إلى طبرية، فقد كانت هذه البيئة ماهرة فِي الكيد حقًّا، تعيش فيه كما يعيش السمك فِي الماء، وتفسد حياتها إن خرجت من الكيد أو اضطرت إلى شيء من الصراحة والنقاء، وأيسر نظرة وأعجلها فِي حياة القصر البغدادي، تُقنعنا بأن الكيد كان قوام الحياة حول الأمراء وأصحاب المناصب فِي ذلك العصر، فليس غريبًا إذن أن يشقى المتنبي بهؤلاء الكائدين، وألا يطول ابتهاجه بالإقامة عند هَذَا الأمير الذي كان يقدر أنه سيلقى عنده الأمن والهدوء وتحقيق الآمال، ولكن يجب أنْ نلاحظ شيئين، بل أشياء:

الأول: أنَّ المتنبي كان مفتونًا بنفسه، يظهر ذلك فِي شعره وحديثه وسيرته، ويستعلي على أصحابه عند الأمير.

الثاني: أنَّ المتنبي لم يألف قبل ذلك الوقت معاشرة السلطان ولا حياة القصور، وإنما ألم بشيء يسير جدًّا من ذلك مع التنوخيين فِي اللاذقية، ثم صرفته عنه المحنة، ثم

عاش مشردًا يكسب حياته بمدح أوساط الناس وبالتنقل فِي البادية، فلما اتصل ببدر استقبل حياةً لم يكن قد هُيِّئ لها، فلم يحسن تعرف ما يحتاج إِلَيْهِ الأمير من شاعره، وليس أدل على ذلك من قعوده عن مصاحبة الأمير فِي سفره إلى الإقليم الذي أضيف إليه، والذي هنأه به المتنبي نفسه.

والثالث: أنَّ الأمير قد أخلص فِي حب المتنبي وإيثاره بالخير واصطفائه لنفسه، حَتَّى ألغى الحجاب بينه وبينه، واستطاع المتنبي أن يدخل عليه وقد حجب نفسه عن الناس،[1] ثم اشترك المتنبي معه فِي لهوه وعبثه ومجونه، ونحن نرى من الديوان أنَّ صاحبنا لم يكن نديمًا يحسن المنادمة، فهو كان يمتنع على الأمير إذا طلب إِلَيْهِ الشرب، ولا يستجيب له إلا كارهًا، وهو كان يظهر من ذم الخمر والانصراف عنها ما لا يُرضي فتى ماجنًا لاهيًا من فتيان العراق، وكان المتنبي يأتي ذلك فِي صراحة لا تعرف التحرج، ثم إذا ألح الأمير عليه فِي الشرب شرب حَتَّى سكر، وحتى ذهل عما يأتي وعما يقول.

فليس غريبًا أن يثقل هَذَا منه على الأمير، وأن تنتهز حاشية الأمير الفرصة فتضيف كيدًا إلى كيد، وكان المتنبي إذا خلا إلى الأمير فِي ساعات لهوه أكثر من ارتجال الشعر لحاجة ولغير حاجة، يريد أن يبهر الأمير ويسحره، ويستعلي على حاشيته وندمائه، حَتَّى ظنت به الظنون، وحتى زعم ابن كروَّس للأمير أنه يصنع هَذَا الشعر ويهيئه قبل أن يحضر المجلس، فامتحنه بدر فِي القصة المعروفة[2] التي تحدثنا بأنه أحضر لعبة تمثل فتاة قد وقفت على رجل ورفعت رجلها الأخرى وهي تدار على لولب، فإذا وقفت بحذاء أحد من المجلس نقرها فدارت عنه إلى غيره، فقال فيها المتنبي شعرًا كثيرًا لا يملك قارئه إلا أن يفكر فِي أحاديث «هوفمان».

وثبت لبدر ولابن كروَّس أنَّ المتنبي يرتجل حقًّا، وكان المتنبي خليقًا أن يكتفي بهذا، ولكنه سجل انتصاره تسجيلًا، وكذلك لم يكن المتنبي يحسن احتمال ما يلقي من الدعابة فضلًا عن الكيد، فكان ذلك يُحفظ خصومه، ويزيدهم مكرًا به وحنقًا عليه.

[1] انظر الواحدي ص٢٣٨.

[2] انظر الواحدي ص٢٤٣.

وقد أكره المتنبي على الشرب ليلة، فشرب حَتَّى سكر وذهل عن نفسه، فلما أصبح غدا على الأمير، فعرض عليه الشراب، فقال هذه الأبيات التي تصور غلظته وخشونة طبعه، وأنه إن صلح للمدح وللمدح الرائع، فهو أغلظ روحًا وأجفى طبعًا من أن يصلح لمنادمة الأمراء من أهل العراق:

وَجَدْتُ الْمُدَامَةَ غَلَّابَةً تُهَيِّجُ لِلْقَلْبِ أَشْوَاقَهُ
تُسِيءُ مِنَ الْمَرْءِ تَأْدِيبَهُ وَلَكِنْ تُحَسِنُ أَخْلَاقَهُ
وَأَنْفَسُ مَا لِلْفَتَى لُبُّهُ وَذُو اللب يَكْرَهُ إِنْفَاقَهُ
وَقَدْ مُتُّ أَمْسِ بِهَا مَوْتَةً وَلَا يَشْتَهِي الْمَوْتَ مَنْ ذاقَهُ

تقصير فِي خدمة الأمير حين يجد الجد، وقصور عن خدمة الأمير فِي أوقات اللهو، وجهل بحياة القصور، وامتلاء بالنفس، وازدراء للأشباه والنظراء، ومن يدري! لعل لسان المتنبي لم يكن يستقر فِي فمه إذا خلا إلى من كان يظنهم أصدقاءه وأصفياءه، فإذا أضفت إلى هَذَا كله كيد رجال القصور، لم تجد غرابة فِي أن يفسد الأمير على المتنبي كل الفساد، وفي أن يتغير عليه قلب بدر، ويعجز هُوَ عن إصلاح أمره، وينظر فإذا هُوَ معرض للغضب ثم للخطر، وإذا هُوَ مخيَّر بين هَذَا الشر، وبين شر آخر كان يظن أنه قد استراح منه إلى آخر الدهر، وهو الفرار.

(٤) فِراره من بدر

وقد فر من جوار «بدر» فلم يُبعدْ أول الأمر، وإنما نزل فِي جبل جَرَش[٣] على صديق له يُعرف بأبي الحسن علي بن أحمد الخراساني، ومدحه بقصيدة أقل ما تدل عليه شيئان: أحدهما أنَّ هذه المحنة الجديدة إن نالت من نفسه فإنها لم تنل من فنه بحال من الأحوال، فالشاعر مالك لأمره كله كعهده فِي أحسن أوقات الرضا والأمن عند بدر، لم يضعف فنه ولم يمسه شيء من هَذَا الفتور، بل من هَذَا الانحلال الذي أدركه بعد أن انجلت عنه محنة السجن، ومعنى هَذَا أنَّ فن الشَّاعِر كان قد نضج واستحصد، وانتهى إلى حيث لا تُفسده المحن، ولا تزيده المصائب إلا قوة ونضجًا واستحصادًا.

[٣] انظر معجم البلدان لياقوت.

وهذا هُوَ الذي يحملني على أن أخالف بعض الذين أرَّخوا المتنبي من المحدثين ولا سيما الأستاذ بلاشير، فأردُّ بعض القصائد التي قالها فِي مدح جماعة من الأنطاكيين إلى عهد ضعفه وفتوره ذاك قبل أن يلحق ببدر، وسنرى حين نتبع المتنبي فِي طريقه كلها، أن المحن قد تُضعف عزمه وتؤثر فِي نفسه، ولكنها لن تبلغ من فنه إلا مرة أو مرتين، وسنجد لذلك علله الصحيحة التي ليس بينها وبين المحن صلة، وإنما هي متصلة بنفس الشَّاعِر أو بالموضوع الذي سيعالجه على غير استعداد للقول فيه، فهذه القصيدة التي نحن بإزائها متقنة كل الإتقان، تصور الشَّاعِر محتفظًا بسلطانه الفني، وقدرته على تصريف الألفاظ والمعاني كما يريد.

والشيء الثاني الذي تدل عليه هذه القصيدة أن نفس الشَّاعِر قد أوذيت حقًّا بهذه المحنة الجديدة، وأوذيت فِي أعماقها، فالشاعر محزون، وربما كانت هذه الكلمة أضعف من أن تؤدي ما كان يجد الشَّاعِر من الألم بعد خيبة أمله فِي بدرٍ.

وإن شئت فقل: إنَّ الشَّاعِر فِي هَذَا الوقت كان يجمع فِي نفسه بين خصلتين متناقضتين، أو بين خصال متناقضة: فهو قد أحس الذل وانكسرت له نفسه، واحتمل ما لم يتعود أن يحتمل من الضيم، وهو يجد لذلك لذعًا أليمًا لا يكاد يطيقه، ثم هُوَ يحس كأن نفسه الأولى قد ثابت إليه، وكأن عزمه القديم قد راجعه، وكأن شيئًا يناجيه من أعماق شبابه الماضي، يدفعه إلى أن يثور آبيًا للضيْم نابيًا على الذين أرادوا أن يضيموه، وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن صغائر الأمور، وأنها أكرم عليه وأشرف عند الناس من أن تطمئن إلى ما أريد بها من الذلة والهوان.

ثم هُوَ بعد هَذَا كله لم ينس التجربة القديمة، ولم يغب عنه أثرها فيه وانهزامه لها، فهو فِي حاجة إلى كثير من الحذر والاحتياط، والمهل والأناة، لا يكاد يهم بالوعيد والنذير حَتَّى يثوب إلى رشده، ولذا هُوَ يحول هَذَا الوعيد والنذير عن وجهه، ويجعله أداة شعرية يتخلص بها إلى ممدوحه ليس غير، والشاعر فِي هذه القصيدة مشغول النفس بهذا الحزن الذي يملأ قلبه عن النسيب والغزل وتكلف الصنعة الفنية، فهو إذا أراد أن يمدح لم يقدم بين يدي المدح إلا هَذَا الغناء الذي يصور هذه الخصال التي حدثتك عنها آنفًا.

واقرأ معي هذه الأبيات التي يتغنى الشَّاعِر فيها بآلامه وخيبة آماله، فسترى أنَّ أول ما يتغنى به من ذلك، إنما هُوَ الذل الذي أحسه، والندم الذي يحرق قلبه؛ لأنه رضي هَذَا الذل وأقام عليه:

لَا افْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ   مُدْرِكٍ أَوْ مُحَارِبٍ لَا يَنَامُ
لَيْسَ عَزْمًا مَا مَرَّضَ المَرْءُ فِيهِ   لَيْسَ هَمًّا مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلَامُ
وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيـ   ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ

كأنه حين أراد أن ينشئ هذه القصيدة استوحى شيطان الشعر، فأحس أنَّ هَذَا الشيطان يريد أن يدفعه إلى الفخر، وأن يوحي إِلَيْهِ منه ألوانًا كما تعوَّد أن يفعل، ولكن الشَّاعِر لا يرى نفسه أهلًا للفخر ولا خليقًا به بعد أن ذاق من الذل ما ذاق، واحتمل من الضيم ما احتمل، فهو يمتنع على شيطانه ويأبى أن يتلقى عنه هَذَا الوحي الذي لا يلائم حاله، ولا يصور ما يجد فِي نفسه، إنما الفخر لمن يأبى الضيم ويمتنع على الذل منتصرًا على المحن والخطوب، قد ضحى فِي هذه المقاومة بالراحة والنوم، وآثر الجهاد والسهاد، وما فعلتُ من ذلك شيئًا وإنما انهزمت للمحنة حين أَلَمَّتْ بي، وآثرت الراحة حين أتيحت لي، وأنا أحس من نفسي عزمًا ماضيًا وهمًّا بعيدًا، ولكن ما هَذَا العزم الذي يقصر صاحبه عن إنفاذه، وما هَذَا الهم الذي يرتد عنه صاحبه لأول ما يعرض له من العقبات!

كلا! إني أحسُ فِي نفسي حاجة إلى شيء غير الفخر: أحس فِي نفسي أَلَمًا، وفي جسمي سقمًا، وأكاد أندفع إلى أن أشكو وأبكي، لا إلى أن أفاخر وأكاثر، لقد احتملت الأذى، ورأيت من كان يجنيه عليَّ ويُلحقه بي، فلم أدفع الأذى عن نفسي، ولم آخذ من جانبه بحقي، وإنما أذعنت واستكنت، وآثرت الخضوع والاستسلام.

والشاعر فِي هَذَا الكلام صادق اللهجة حقًّا، تُحس فِي شعره أنَّ فؤاده ينفطر أَلَمًا، وأن صدره يغلي غيظًا وحنقًا:

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ   رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الْحِمَامُ
كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ   حُجَّةٌ لاجِئ إِلَيْهَا اللِّئَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ   مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

وكأن شيطانه قد جعل يعزيه ويسليه، ويهون عليه احتمال الخطب، فزعم له أنه لم يحتمل ما احتمل، ولم يرض ما رضي إلا ليبلغ ما كان يتوق إلى بلوغه من الثروة والأمن وخفض العيش، وكأن شيطانه جعل يذكره بأنه كثيرًا ما أنكر أن ينعم الجاهلون ويشقى العاقلون، ثم يتحدث إِلَيْهِ بأن النعمة قد أتيحت له، فسعى إِلَيْهَا واشتراها بثمنها، فهو يجيبه بهذا البيت:

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الْحِمَامُ

فإذا عجز شيطانه عن إقناعه من هَذِهِ الطريق، سلك إلى إقناعه طريقًا أخرى، فزين له أنه لم يرض ذلًا ولم يقبل ضيمًا، وإنما صبر وغفر وآثر العفو والحلم، ولكن هَذَا الباطل لا يخدع الشَّاعِر نفسه، ولا يشغله عما يملأ قلبه من ندم ولوعة، فهو يعلم حق العلم أنه لم يؤثر عفوًا ولا حلمًا، وإنَّما كان عاجزًا عن أن ينتقم لنفسه، ولن يكون الرضا حلمًا حَتَّى تصحبه القدرة على الجهل، ولن يكون الإغضاء عفوًا حَتَّى تصحبه القدرة على البطش:

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إِلَيْهَا اللِّئَامُ

كلا! إنَّ النفس لم تصغر علي إلى هَذَا الحدِّ، وإني لم أيأس منها بعد، وإنما أنا أجد بقية من الأمل وفضلًا من الرجاء، لست أحس الألم لما أدركني من مساءة، لو كانت نفسي هينة لسهل عليها احتمال الهُون، كما أنَّ الميت لا يؤذيه ما يلحق جسمه من جراح.

ثم يثب الشَّاعِر من هَذَا الضعف والانحلال، ومن هَذَا اللوم الذي كان يغمر نفسه به، إلى شيء جديد من الأمل والنشاط، بل إلى أكثر من الأمل والنشاط، فقد فُتح له باب الرجاء، واستيقن أنه ما دام لم يرض الذل ولم يحتمله راضيًا به غير متألم له، فهو خليق أنْ يعرف نفسه، وأنْ يسلك طريقه إلى المجد، فقد يكبو الجواد ولكنه ينهض من كبوته، وصاحبنا لا ينهض، وإنما يثب وثوبًا، وإذا هُوَ يسترد كبرياءه كلها، وإذا هُوَ يطاول الزمان ويغالب الدهر، وإذا هُوَ ينتهي من ذلك إلى سخفه الماضي وضلاله القديم:

ضَاقَ ذَرْعًا بِأَنْ أَضِيقَ بِهِ ذَرْ عًا زَمَانِي وَاسْتَكْرَمَتْنِي الْكِرَامُ
وَاقِفًا تَحْتَ أَخْمَصَيْ قَدْرِ نَفْسِي وَاقِفًا تَحْتَ أَخْمَصَيَّ الأَنَامُ

وما دام قد استرد كبرياءه كلها، وبدت له نفسه كما يراها، فهو أعظم وأكرم وأشد بأسًا، وأمضى عزمًا، من أن يقر على ما أريد عليه من الهوان، وإذا هُوَ يندفع إلى الوعيد كعهده قبل أن يجاوز العشرين:

أَقَرَارًا أَلَذُّ فَوْقَ شَرَارٍ وَمَرَامًا أَبْغِي وَظُلْمِي يُرَامُ
دُونَ أَنْ يَشْرَقَ الْحِجَازُ وَنَجْدٌ وَالْعِرَاقَانِ بِالْقَنَا وَالشَّامُ

ولكن بقية من عقل له أو لشيطانه ترده إلى الصواب، وتحمله على الحذر والاحتياط، وإذا هُوَ يعدل بهذا الوعيد المخيف إلى المدح فيقول:

شَرِقَ الْجَوُّ بِالْغُبَارِ إِذَا سَا رَ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ القَمْقَامُ

وكأنه قد أحسَّ أن بدرًا يجدُّ فِي طلبه مغيظًا من هَذَا الهرب، أو مغيظًا من هذه القصيدة التي انتهت إليه.

ومن يدري! لعل بدرًا لم يطلبه ولم يحفل به، وإنما لعب الخوف بنفسه فظن أنه مطارد مطلوب، فلم يُطل المقام عند صاحبه، ولم ينعم عنده بأمنٍ ولا راحة، وإنما أعجل حَتَّى عن وداعه واستئذانه فِي الرحيل عنه، ففر وقال معتذرًا:

لَا تُنْكِرَنَّ رَحِيلِي عَنْكَ فِي عَجَلٍ فَإِنَّنِي لِرَحِيلِي غَيْرُ مُخْتَارِ
وَرُبَّمَا فَارَقَ الْإِنْسَانُ مُهْجَتَهُ يَوْمَ الْوَغَى غَيْرَ قَالٍ خَشْيَةَ الْعَارِ
وَقَدْ مُنِيتُ بِحُسَّادٍ أُحَارِبُهُمْ فَاجْعَلْ نَدَاكَ عَلَيْهِم بَعْضَ أَنْصَارِي

ومهما يكن من شيء فقد دفع أبو الطيب إلى تلك الحياة البغيضة التي اصطلى آلامها ثلاثة أعوام أو أربعة قبل أن يتصل ببدر، فهو الآن مشرد، ينتقل فِي البادية خائفًا من السلطان، لا يستطيع أن يدنو من أرض الإخشيديين وقد كان بينه وبينهم ما انتهى به إلى سجن حمص، وقد كان منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر بن عمار، ولا يستطيع أن يدنو من أرض ابن رائق فِي الشام وأعالي الفرات وهو طريد بدر، وبدر كما رأيت أثير

عند ابن رائق مقرَّب إليه، فليس له إذن أن يهيم فِي البادية مخفيًا نفسه على البدو، وأنْ يستتر فِي الحاضرة إنْ ألم بها منكرًا نفسه على الحضر، قد لفظته الأرض، وضاقت به الدنيا، وهو يصور لنا هَذَا أجمل تصوير وأروعه، كما يصور لنا سخطه على الذين جنوا عليه هذه المحنة الثانية، وذلك فِي رائيته التي يقول فيها:

عَذِيرِي مِنْ عَذارَى مِنْ أُمُورِ سَكَنَّ جَوَانِحِي بَدَلَ الْخُدُورِ
وَمُبْتَسِمَاتِ هَيْجَاوَاتِ عَصرٍ عَنِ الْأَسْيَافِ لَيْسَ عَنِ الثُّغُورِ
رَكِبْتُ مُشَمِّرًا قَدَمِي إِلَيْهَا وَكُلَّ عُذَافِرٍ قَلِقِ الضُّفُورِ
أَوَانًا فِي بُيُوتِ الْبَدْوِ رَحْلِي وَآونَةً عَلَى قَتَدِ البَعِيرِ
أُعَرِّضُ لِلرِّمَاحِ الصُّمِّ نَحْرِي وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ
وَأَسْرِي فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ وَحْدِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ
فَقُلْ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا عَلَى تَعَبِي بِهَا شَرْوَى نَقِيرِ
وَنَفْسٍ لَا تُجِيبُ إلى خَسِيسٍ وَعَيْنٍ لَا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ
وَكَفٍّ لَا تُنَازِعُ مَنْ أَتَانِي يُنَازِعُنِي سِوَى شَرَفِي وَخِيرِي
وَقِلةِ نَاصِرٍ جُوزِيتَ عَنِي بِشَرٍّ مِنْكَ يَا شَرَّ الدُهورِ
عَدُوِّي كُلُّ شَيءٍ فِيكَ حَتَّى لَخِلْتُ الْأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدُورِ
فلَوْ أَنِّي حُسِدْتُ عَلَى نَفِيسٍ لَجُدْتُ بِهِ لِذِي الْجَدِّ الْعَثُورِ
وَلكِنِّي حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِي وَمَا خَيْرُ الحَيَاةِ بِلَا سُرُورِ

فأنت ترى فِي هذه القصيدة اعترافه بالخيبة، واستسلامه للمحنة، وضيق نفسه بما يلقى من الشر، ويأسه من تحقيق الأمل، ولكنه مع ذلك حفيظ على كرامته، حريص على عزته، لا يريد أن ينزل عن شرفه مهما يكن من أحداث، ثم هُوَ يعدل إلى خصمه ابن كروَّس فيهجوه بهذه الأبيات اللاذعة:

فَيَابْنَ كَرَوَّسٍ يَا نِصْفَ أَعَمَى وَإِنْ تَفخَرْ فَيَا نِصْفَ البَصِيرِ
تُعَادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لُكْنٍ وَتُبْغِضُنا لِأَنَّا غَيْرُ عُورِ
فلَوْ كُنْتَ امرأ يُهْجَى هَجَوْنَا ولكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ

(٥) عودته إلى الاضطراب

فماذا صنع المتنبي أثناء هَذَا الهرب؟ ولم يلبث مستخفيًا؟

لم يصنع شيئًا ذا خطر فيما يظهر، وإنما كان يلتمس النجاة، فإذا ظفر بها التمس الأمن، وكان فِي أثناء ذلك كثير الرجوع إلى نفسه، ممعنَ التفكير فيما امتلأت حياته به من البؤس والشدة والشقاء.

وما أكاد أشك فِي أنَّ هذه المحنة الثانية قد أثارت فِي نفسه ندمًا شديدًا على ما أظهر من ضعفٍ وخور، ولعلها أحيت فِي نفسه حنينًا إلى الشباب، وإلى ما كان فِي الشباب من هذه النزعات القرمطية التي إنْ جرَّت عليه محنًا وجشمته أهوالًا، فقد كانت تشعره بالعزة والأنفة، وتجعل لحياته وآلامه غاية سامية وغرضًا شريفًا.

ومن يدري! لعل هَذَا كله قد رده أو كاد يرده إلى قرمطيته الأولى، ومهما يكن من شيء فأنا أرجح أنه فِي أثناء هَذَا الاضطراب فكر فِي وطنه الأول غير مرة، وعرض له خيال جدته تلك التي طال بُعده عنها وفراقه لها، وما أرى إلا أن هيامه فِي الأرض واضطرابه فِي البوادي قد دفعاه إلى العراق، وأنه همّ أن يدخل الكوفة للقاء جدته فلم يستطع، لتلك الأسباب الغامضة التي ساءلنا عنها فِي بدء هَذَا الحديث فانحدر إلى بغداد فيما تقول القصة، أو لم ينحدر إِلَيْهَا فِي أغلب الظن، ولكنه كتب إلى جدته على كل حال؛ لأنه هُوَ ينبئها بذلك فِي قصيدته.

كتب إِلَيْهَا ينبئها بمقدمة أو بعجزه عن دخول الكوفة، ويستقدمها للقائه، فلما انتهى كتابه إلى هذه الشيخة البائسة فرحت به، فقتلها الفرح، أو فرحت به فأخذت تقبله وتلح فِي تقبيله باكية، ودموعها تنهمل على الكتاب فتذيب المداد، ولعل المداد هُوَ الذي قتلها.

ومهما يكن من شيء فقد انتهى إلى المتنبي موت جدته، فرثاها بهذه القصيدة التي روينا لك طرفًا منها فيما مضى، والتي تصورت كما رأيت، وكما تستطيع أن ترى من إعادة النظر فيها، قرمطيًّا غاليًا فِي قرمطيَّته، كأنه قد عاد إليها، وكاد يتورط فيها لولا أنْ هتفت به تجربته الأولى، فأعادت إِلَيْهِ الحذر والاحتياط، وأنا أستغفر عشاق المتنبي والمؤمنين بشجاعته وإقامته إنْ قلت: إنَّ المتنبي لم يصور أحدًا كما صور نفسه فِي هَذَا البيت المشهور:

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطعْنَ وَحْدَهُ وَالنزَالَا

على أنَّ الزمان الذي أسرف المتنبي فِي ذمه قد أشفق على أبي الطيب من محنته هذه الثانية، وكره له أنْ يتورط فِي اليأس فيندفع إلى مثل ما اندفع له فِي محنته الأولى، فلم يكد يمضي فِي هربه عامًا أو بعض عام، حَتَّى تغير وجه السياسة فِي بلاد الشام، وفُتح للهارب المستخفي باب من أبواب الفرج، فهذا ابن رائق فِي أواسط سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، قد ترك الشام وعاد إلى بغداد، وتركها معه بدر بن عمار، ورُفع الحرج الثقيل عن المتنبي، وأصبح يستطيع أن يتنفس فِي شيء من الحرية والأمن، فإلى أين ذهب؟ وماذا صنع؟ سؤال لا نظفر له بجواب واضح فيما بين أيدينا من شعر المتنبي، ولا فيما تحدث به الرواة.

على أنَّ سنة ثلاثين وثلاثمائة لا تكاد تتقدم حَتَّى يُقتل ابن رائق، يقتله ناصر الدولة أخو صديقه ومولاه بعد حين، سيف الدين الحمداني، هناك ينهض الإخشيد لاسترجاع الشام، وهناك يظهر المتنبي فِي غير إسراف فِي التحفظ، وأكبر الظن أنه لم يظهر ولم يدخل مدن الشام جهرة، ولم ينشر فيها شعره مستظلًّا بظل الإخشيديين إلا بعد أنْ سعى فِي ذلك فأطال السعي، وجدّ فِي ذلك فأمعن فِي الجدِّ، ونحن نراه يتقرب بشعره إلى عمال الدولة الإخشيدية وأصحاب المناصب المدنية والعسكرية فيها، وما أظن إلا أنه قد قال فِي هذه المدة شعرًا كثيرًا مختلفًا، تقرب به إلى أشخاص كثيرين مختلفين أيضًا، ولكنه ألغاه فيما بعدُ إلغاءً، مبتغيًا مرضاة سيف الدولة كما يظن بلاشير، أو مستخذيًا من كثرة ما فيه من الاستعطاف الذي لم يكن يلائم مجده حين كان يملي شعره فِي حلب، أو فِي الفسطاط، أو فِي بغداد، على أنَّ ديوانه يحفظ لنا شيئًا من هذا الشعر الذي تقرب به إلى عمال الإخشيديين ونحن نذكر من هَذَا الشعر قصائد خمسًا، هي على كل حال من جيد شعره وأرقاه، الأولى: رائيته المشهورة التي يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي، ولعله كان عاملًا للإخشيديين على أنطاكية، والتي مطلعها:

أُطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدهْرُ وَحِيدًا وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ

وهي كما ترى بريئة من النسيب، فإذا مضيت فِي قراءتها رأيت الفخر الجزل الذي يصور غرورًا وفنونًا أكثر مما يصور شجاعة وحزمًا، ولكني أقف من هذه القصيدة عند هذين البيتين اللذين يصل فيهما المتنبي إلى موسيقى تعجبني، ولعلها تعجبك، وهما قوله:

وَيَوْمٍ وَصَلْنَاهُ بِلَيْلٍ كَأَنَّمَا   عَلَى أُفْقِهِ مِنْ بَرْقِهِ حُلَلٌ حُمْرُ
وَلَيْلٍ وَصَلْنَاهُ بِيَوْمٍ كَأنمَا   عَلَى مَتْنِهِ مِنْ دَجْنِهِ حُلَلٌ خُضْرُ

وأقف كذلك عند هَذَا البيت الذي أرى فيه تعريضًا بالمستأثرين بالأمر فِي العراق:

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتُهَا   وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ

وهؤلاء السلاطين هم أهل الجور الذين أنذرهم فِي بيت مضى من هذه القصيدة، وهو قوله:

عَلَيَّ لِأَهْلِ الْجَوْرِ كُلُّ طِمِرَّةٍ   عَلَيْها غُلَامٌ مِلْءُ حَيْزُومِهِ غِمْرُ

أما القصيدة الثانية فبائيته التي يمدح بها علي بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي، والتي أولها:

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَّاقٌ ضُرُوبَا   فَأَعْذَرُهُمْ أَشَفُّهُمْ حَبِيبَا

وكان هَذَا الرجل — فيما أرجح — من رجال الحرب، والديوان ينبئنا بأنه كان يحسن رمي النشاب، وأحب أن تقف من هذه القصيدة عند مقدمتها، فهي تنقسم إلى قسمين:

أحدهما وهو القسم الأول: يصف الحرب وقتل الأعداء وصفًا رائعًا، وما أرى إلا أنه يشير إلى انتصار الإخشيديين على أصحاب ابن رائق وطردهم عن بلاد الشام.

والقسم الثاني: من المقدمة غناء حزين يذكر فيه المتنبي سوء حاله النفسية وضيقه بالحساد وبغضه للحياة؛ لأنهم يشاركونه فيها، وهو فِي هَذَا الغناء يصف الليل ونجومه أجمل وصف وأروعه وأرقاه.

والقصيدة الثالثة داليته التي مدح بها هَذَا الرجل نفسه، والتي مطلعها:

أَقَلُّ فعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ   وَذَا الْجِدُّ فِيهِ نِلْتُ أَوْ لَمْ أَنَلْ جَدُّ

وما أرى إلا أنه قد احتذى بهذه القصيدة دالية الحطيئة:

أَلَا طَرَقَتْنَا بَعْدَمَا هَجَعُوا هِندُ وَقَدْ سِرْنَ خَمْسًا وَاتْلَأَبَّ بِنَا نَجْدُ

فأحسنَ الاحتذاءَ والتقليدَ، والشاعر فِي هذه القصيدة كعهده فِي أيام الراحة والأمن، معجب بنفسه كل الإعجاب، ساخط على الناس كل السخط، واقرأ هذه الأبيات التي تصور سخطه على الناس بل غلوه فِي هَذَا السخط، والتي هي من أجمل شعر المتنبي لألوان التشاؤم التي ستنبثُّ فيما سيقول من الشعر إلى أن يموت:

أَذُمُّ إلى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ فَأَعْلَمُهُم فَدْمٌ وَأَحْزَمُهُم وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُم كَلْبٌ وَأَبْصَرُهُم عَمٍ وَأَسْهَدُهُم فَهْدٌ وَأَشْجَعُهُم قِرْدُ
وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

أما القصيدة الرابعة فالزائية التي مدح بها أبا بكر علي بن صالح الروذباريَّ، ولعله كان عامل الإخشيد على دمشق، ومطلعها:

كَفِرنْدِي فِرنْدُ سَيْفِي الْجُرَازِ لَذَّةُ الْعَيْنِ عُدةٌ لِلْبِرَازِ

ويقال — ويقبل بلاشير هَذَا القول[٤] — إنَّ المتنبي قد ظفر بما كان يريد، فلقي محمدًا الإخشيد فِي دمشق، وأخذ جوائزه، وظن أنه قد انتهى إلى تحقيق أمله، ولكن الأيام كذَّبت ظنه، فمات الإخشيد فِي دمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، قبل أن يتم اتصال شاعرنا به، والذي أثار هَذَا القول فيما يظهر أبيات رويت فِي الصبح المنبي من قصيدة زعموا أنَّ المتنبي رثى بها الإخشيد، وهي:

هُوَ الزَّمَانُ مُشِتٌّ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا
إِنْ شِئْتَ مُتْ أَسَفًا أَوْ فَابْقَ مُضْطَرِبًا قَدْ حَلَّ مَا كُنْتَ تَخْشَاهُ وَقَدْ وَقَعَا

[٤] بلاشير R. Blachére ص١١٠.

لَـوْ كَـانَ مُـمْـتَـنِـعٌ تُـغْـنِـيـهِ مَـنْـعَـتُـهُ   لَمْ يَصْنَعِ الدَّهْرُ بِالْإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا

ولم يرو صاحب الصبح من القصيدة إلا هذه الأبيات، أما أنا فأرجح أنَّ المتنبي لم يلقَ الإخشيد، ولم يطمع فِي لقائه، فقد كان همه فِي ذلك العصر أيسر من هَذَا وأهون، ولو قد لقي الإخشيد لما قصر فِي ذكر ذلك والافتخار به، والموازنة بين الإخشيد وبين مولاه كافور، ولا سيما حين غضب على كافور، وأنا أرى أنَّ هذه القصيدة الزائية قد قيلت فِي وقت متأخر شيئًا، كما سترى.

أما القصيدة الخامسة، فالدالية التي يمدح بها الحسين بن علي الهمداني فيما يقول الديوان،[٥] أو المري الخراساني فيما يستظهر بلاشير،[٦] وفيما يفهم من القصيدة نفسها، وأولها:

لَقَدْ حَازَنِي وَجْدٌ بِمَنْ حَازَهُ بُعْدُ   فَيَا لَيْتَنِي بُعْدٌ وَيَا لَيْتَهُ وَجْدُ

وإذًا فقد جعل المتنبي يتقرب شيئًا فشيئًا إلى عمال الإخشيديين فِي شمال الشام، وهؤلاء يقبلون مدحه ويجيزونه ويقربونه إلى أمثالهم فِي الجنوب، حَتَّى انتهى إلى عامل دمشق ثم إلى الحسين بن علي هذا، ولعله كان فِي طبرية أو قريبًا منها حيث كان أبوه، وانتهى آخر الأمر إلى أمير من أمراء الإخشيديين كان يقيم فِي الرملة عاملًا عليها ومتوليًا فِي أكبر الظن لفلسطين، فألقى عصاه واستقرت به النوى عند هَذَا الشاب، وهو قريب من مصر، ولكنه بعيد عنها: قريب من مصر يمدح عمالها وبعض أمرائها، ولكنه بعيد عنها لم يمدح صاحبها أنوجور، ولا وصيها كافور، وقد انتهى المتنبي إلى الرملة، وظفر بحماية هَذَا الأمير الشاب وهو فِي الثانية والثلاثين من عمره.

وقد لقي أهوالًا وهمومًا ثقالًا، وآن له أنْ يستريح.

---

[٥] انظر الواحدي ص٣١٠.

[٦] انظر بلاشير R. Blachére ص١٠٠، ١٠١، ١١٠ وانظر كذلك معجم البلدان لياقوت مادة جرش.

(٦) عند ابن طُغْج

على أنه لم يسترح وقتًا طويلًا؛ فقد انتهى إلى أبي محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فِي الرملة فِي أوائل سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فِي أكبر الظن، ورحل عنه فِي هذه السنة نفسها بعد أن أقام عنده أشهرًا، وما أرتاب فِي أن نفسه منَّته أن يتجاوز الرملة إلى مصر، ثم إلى الفسطاط، وأن يتصل هنالك بالملك أو بالوصي، وما أرتاب فِي أنه كان خليقًا أن يحاول ذلك وينفذه، لولا أنَّ الأمور السياسية قد جرت على ما حبب إِلَيْهِ الانصراف عن مصر والرجوع إلى شمال الشام.

فلننظر قبل كل شيء هذه الميمية التي مدح بها الأمير الإخشيدي الشاب، فهي من جياد قصائده، وهي فِي الوقت نفسه تصور لنا تردده بين مصر والشام تصويرًا إن يكن بعيدًا فإنه مع ذلك واضحٌ جليٌّ.

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: نسيب مصنوع متكلف، كأكثر ما رأينا وما سنرى من نسيب المتنبي، والتكلف ظاهر لا فِي معناه وحده بل فِي معناه ولفظه أيضًا، ويكفي أنْ تقرأ المطلع لتحس التكلف اللفظي والمعنوي:

أَنَا لَائِمِي إِنْ كُنْتُ وَقْتَ اللوَائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فانظر إلى هذه الألف التي أثبتها فِي الضمير أول البيت ليقيم الوزن، وانظر إلى هَذَا الحذف الذي اصطنعه بين المضاف والمضاف إِلَيْهِ فِي آخر الشطر الأول ليقيم الوزن أيضًا، فقد كان حقه أن يقول:

إِنْ كُنْتُ وَقْتَ لَوْمِ اللوَائِمِ

والشاعر يذهب مذهب أبي تمام فِي هذه الملاءمة اللفظية بين «لائم» و«اللوائم»، وبين «علمت» و«المعالم»، ولكنه يعجز عن أنْ يبلغ ما كان يبلغه أبو تمام من العذوبة اللفظية التي تحبب إلى السامع والقارئ هَذَا الفن البديع، وأنت واجد هَذَا التكلف الظاهر فيما يلي المطلع من الأبيات، بل أنت واجد فيها ذوقًا غليظًا يصنع الحب والغرام صنعًا، ويريد أنْ يُكره أذواق الناس على قبول ما يصنع، ولكن قف عند هذين البيتين اللذين وجدا من يعجب بهما إعجابًا شديدًا:

حِسَانُ التَّثَنِّي يَنْقُشُ الْوَشْيُ مِثْلَهُ إِذَا مِسْنَ فِي أَجْسَامِهن النَّوَاعِمِ
ويَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِي وُشِّحَتْ بِالمَبْاسِمِ

فما رأيك فِي هذه الأجسام التي رقت أبشارها، وأسرفت فِي الرقة حَتَّى إن الوشي لينقش فيها حين تتثنى أو تميس؟ وما رأيك فِي هذه التراقي التي كأنها حُليت بالثغور لا لشيء إلا لأن بين الأسنان التي تبسم عنها الثغور وبين الحلي الذي تحمله الصدور شبهًا في الرونق والصفاء؟ أما أنا فلا أرى فِي هَذَا التشبيه إلا إغرابًا ينتهي إلى السماجة.

أما القسم الثاني من القصيدة: فهو غناء أدنى إلى الفخر، وقد ألف المتنبي هَذَا النوع من الغناء والفخر، حَتَّى أصبح من الحق عليك أن تألفه، وألا ترى فِي ذكر المتنبي للحرب والبأس إلا وسيلة شعرية رأى المتنبي أنها تعجب الناس وتلائم حياة أهل الشام — كما تلائم ميله وطبيعته — فأسرف فيها إسرافًا شديدًا، ولكن قف عند هذه الأبيات:

فَمَالِي وَلِلدُّنْيَا! طِلَابِي نُجُومهَا وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الْأَرَاقِمِ
مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَه إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الْحِلْمِ طُرْقُ المَظَالِمِ
وَأَنْ تَرِدَ الْمَاءَ الذِي شَطْرُهُ دَمٌ فَتُسْقَى إِذَا لَمْ يُسْقَ مَنْ لَمْ يُزَاحِمِ

فأنت واجد فيها طبيعة المتنبي كلها التي سيصورها شعره إلى آخر ديوانه: جوع وأحاديث — كما يقول المثل — وفلسفة فِي الهواء ليس وراءها طائل ولا غناء.

ويمضي الشَّاعِر حَتَّى يبلغ صاحبه، فيمدحه مدحًا لا بأس به، ليس خيرًا ولا شرًّا مما ألفناه من مدحه للذين مدحهم، غير بدر بن عمار، حَتَّى يصل إلى وصف الجيش فيحسن إحسانًا ظاهرًا فن المتقدمين، وما أرى إلا أَنَّ تأثير بَشار فيه ظاهر جدًّا، وذلك قوله:

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ القَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ البَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ فَوْقَهُ مِنَ اللَّمْعِ فِي حَافَاتِهِ وَالهَمَاهِمِ

ثم اقرأ هذه الأبيات الثلاثة:

أَرَى دُونَ مَا بَيْنَ الفُرَاتِ وَبَرْقَةٍ ضِرَابًا يُمشِّي الْخَيلَ فَوْقَ الجَمَاجِمِ
وَطَعْنَ غَطَارِيفٍ كَأَنَّ أَكُفَّهُمْ عَرَفْنَ الرُّدَيْنِيَّاتِ قَبْلَ الْمَعَاصِمِ
حَمَتْهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ سُيُوفُ بَنِي طُغْجَ بْنِ جُفٍّ الْقَمَاقِمِ

فإن لها خطرها، فالمتنبي يشير فيها إلى ما كان من محاولة سيف الدولة أن يغير على جنوب الشام منتهزًا موت الإخشيد، لينقض ما كان قد تم بينهما من الصلح، وما كان من نهوض كافور لرده عن ملك الإخشيديين، وإلزامه الحدود التي تم عليها الصلح مع الإخشيد، وما أتردد فِي أنَّ المتنبي كان ينتظر عاقبة هذه الحرب بين كافور وسيف الدولة، ليمضي إلى مصر، أو ليرجع إلى شمال الشام، ولعله كان يقدر أنَّ كافورًا لن يكتفي بإكراه سيف الدولة على رعاية الصلح، بل سينتهز الفرصة ليسترد شمال الشام، ويمحق الحمداني محقًا، ولو قد فعل لما أبطأ المتنبي عن اللحاق ومحاولة الانقطاع إليه، ولكن كافورًا لم يزد على أنْ حمى المعاهدة، واضطر سيف الدولة إلى رعايتها، واحتفظ بالحدود التي أقرها الإخشيد.

وإذن فقد استقرت فِي شمال الشام دولة عربية يظهر أنها قوية شديدة البأس، مستقرها حلب لن يستطيع أولو الأمر فِي بغداد أنْ يصلوا إِلَيْهَا لمكان ناصر الدولة فِي الموصل، فالمتنبي متردد الآن بين الفسطاط حيث كافور الأسود وأنوجور التركي، وبين حلب حيث الملك العربي الفتى، وحيث البيئة العربية الخالصة، وقد أنفق المتنبي وقته عند هَذَا الأمير الإخشيدي الشاب فِي الرملة، منتظرًا ومتفكرًا، وكأنه قد انتفع بما لقي عند بدر بن عمار من المحنة، وتعلم شيئًا من حياة القصور ومعاشرة الأمراء، فهو ينادم الأمير الشاب منادمة الشَّاعِر الفطن اللبق، الذي يعرف هوى سيده فيسبق إليه، والذي يحسن التملق ويسرف في المدح، وينزل عند رغبة مولاه، يقول الشعر حين تدعو الحاجة إلى قوله، وحين لا تدعو إِلَيْهِ حاجة، يكره الخمر ولكنه يشربها إذا قال له سيده: بحقي لتشربن هَذَا الكأس، ثم لا يتحرج أن يقول هَذَا الشعر الذي قد يرضي الأمير الشاب، ولكنه يُغضب الله ويغضُّ من المروءة:

سَقَانِي الْخَمْرَ قَوْلُكَ لِي بِحَقِّي وَوُدٌّ لَمْ تَشُبْهُ لِي بِمَذْقِ

يَمِينًا لَوْ حَلَفْتَ وَأَنْتَ نَاءٍ عَلَى قَتْلِي بِهَا لَضَرَبْتُ عُنْقِي

ثم يأخذ الكأس ويقول:

حُيِّيْتَ مِنْ قَسَمٍ وَأَفْدِي مُقْسِمًا أَمْسَى الْأَنَامُ لَهُ مُجِلًّا مُعْظِمًا
وَإِذَا طَلَبْتُ رضا الْأَمِيرِ بِشُرْبِهَا وَأَخَذْتُهَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ الْأَحْرَمَا

ولم يقصر المتنبي فِي خدمة سيده الجديد، فهو يغدو عليه مع الصبح، ويروح إِلَيْهِ مع المساء، ينادمه إذا استقر، ويصحبه إذا انتقل إلى مكان قريب أو بعيد، ويحدثه ويحدث أصحابه بما يسليهم ويرضيهم، وبما يفزعهم ويزعجهم أحيانًا، كالذي كان حين حدثهم عما رأى من إغارة القرامطة على الكوفة فِي صباه، فجزع الناس لهول ما سمعوا، فقال المتنبي هذه الأبيات التي تدل على أنه لم يصدف عن القرمطية إلا كارهًا:

أَبَاعِثَ كُلِّ مَكْرُمَةٍ طَمُوحِ وَفَارِسَ كُلِّ سَلْهَبَةٍ سَبُوحِ
وَطَاعِنَ كُلِّ نَجْلَاءٍ غَمُوسٍ وَعَاصِيَ كُلِّ عَذَّالٍ نَصِيحِ
سَقَانِي اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ يَوْمًا دَمَ الأعداءِ مِنْ جوْفِ الجُرُوحِ

وكأن المتنبي قد اكتفي بهذه المنادمة، وما كان يرتجل فيها من هَذَا المدح القصير، ولكن الأمير كان يريد قصائد طوالا كالميمية، فعاتب المتنبي فِي إعراضه عن مدحه، ولم ينشط المتنبي لهذا المدح، فاعتذر إِلَيْهِ بهذه الأبيات:

تَرْكُ مَدْحِيكَ كَالْهِجَاءِ لِنَفْسِي وَقَلِيلٌ لَكَ الْمَدِيحُ الْكَثِيرُ
غَيْرَ أَنِّي تَرَكْتُ مُقْتَضَبَ الشِّعْـ ـرِ لِأَمْرٍ مِثْلِي بِهِ مَعْذُورُ
وَسَجَايَاكَ مَادِحَاتُكَ لَا لَفْـ ـظِي وَجُودٌ عَلَى كَلَامِي يُغِيرُ
فَسَقَى اللهُ مَنْ أُحِبُّ بِكَفَّيْـ ـكَ وَأَسْقَاكَ أَيُّهَذَا الْأَمِيرُ

وكان قريبًا من هَذَا الأمير الشاب رجل من أشراف العلويين يعرف بأبي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي، وكان أثيرًا عند الأمير، وكان يرغب فِي أن يمدحه المتنبي ولا يبلغ من ذلك ما يريد، فتوسط له الأمير عند الشاعر، وقبل الشَّاعِر بعد

امتناع، وهي فيما نرى أول مرة يحس المتنبي فيها أنه قد عظم فِي أعين الناس وفي أنفسهم، وقد مدح هَذَا العلوي بالبائية التي مطلعها:

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهْوَ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ   وَرُدُّوا رُقَادِي فَهْوَ لَحْظُ الْحَبَائِبِ

والتي لا أقف منها إلا عند قوله:

أَتَـانِـي وَعِـيـدُ الْأَدْعِـيَـاءِ وَأَنَّـهُـمْ   أَعَدُّوا لِيَ السُّودَانَ فِي كَفْرَ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهمْ   فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ
إِلَيَّ لَعَمْرِي قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ   كَأَني عَجِيبٌ فِي عُيُونِ الْعَجَائِبِ

وهؤلاء الأدعياء هم الذين عرَّض بهم فِي ميميته التي حللناها آنفًا حيث يقول:

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً   بِـهَا عَلَـوِيٌّ جَدُّهُ غَيْـرَ هَـاشِـمِ
بَلَا اللهُ حُسَّادَ الْأَمِيرِ بِحِلْمِهِ   وَأَجْلَسَهُ مِنْهُمْ مَكَانَ العَمْائِمِ

وكأن هَذَا العلوي وأصحابه كانوا فِي طبرية، وكأنهم شيعة للفاطميين يُخفون بغضهم للإخشيد، وكأنهم كرهوا من المتنبي قرمطيته القديمة وقصده إلى الإخشيدي فِي ذلك الوقت، فأرادوا أن يصدوه عن الرملة، وأرصدوا له السودان ليردوه أو ليقتلوه.

وأقف كذلك من هذه البائية عند هَذَا الشعر الذي يصور استهانة المتنبي بالدين، وتلونه فِي الرأي، وذلك قوله:

وَأَبْـهَـرُ آيَـاتِ الـتِّـهَـامِـيِّ أَنَّـهُ   أَبُوكَ وَأَجْدَى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ

وواضح أن أبهر آيات النبي إنما هُوَ القرآن لا أُبُوَّته للعلويين، ولا تقف عند تمحل الشراح لهذا البيت، فإنه اعتذار لا غناء فيه، ثم يقول:

إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ   فَمَاذَا الَّذِي يُغْنِي كِرَامُ الْمَنَاصِبِ
وَمَـا قَرُبَتْ أَشْبَـاهُ قَوْمٍ أَبَاعِدٍ   وَلَا بَـعُـدَتْ أَشْبَـاهُ قَوْمٍ أَقَـارِبِ

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ   فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

وفي هَذَا الكلام تعريض ظاهر بالفاطميين، ثم يقول:

هُوَ ابْنُ رَسُولِ اللهِ وَابْنُ وَصِيِّهِ   وَشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ التَّجَارِبِ

وقد عاد المتنبي هنا شيعة علويًّا كما كان فِي بغداد حين مدح فِي صباه محمد بن عبيد الله العلوي بداليته التي وصفناها فِي أول هَذَا الحديث.

فالمذهب السياسية والدينية عند المتنبي وسيلة لا غاية كما ترى، وفي أثناء هَذَا الوقت كله استقر الأمر بين كافور وسيف الدولة على الصلح الذي أمضاه الإخشيد قبل أن يموت، واستقر رأي المتنبي على أن يعود إلى البيئة العربية فِي شمال الشام، بعد أن كان يبغض هذه البيئة أشد البغض، ولا يعود إِلَيْهَا ولا يقيم فيها إلا كارهًا، وقد استأذن أميره الشاب فِي الرحيل فأذن له، وانصرف المتنبي مودعًا إياه بقصيدة لم يحفظ الديوان منها إلا هذه الأبيات:

مَاذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الْوَامِقِ الْكَمِدِ   هَذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ
إِذَا السَّحَابُ زَفَتْهُ الرِّيحُ مُرْتَفِعًا   فَلَا عَدَا الرَّمْلَةَ الْبَيْضَاءَ مِنْ بَلَدِ
وَيَا فِرَاقَ الْأَمِيرِ الرَّحْبِ مَنْزِلُهُ   إِنْ أَنْتَ فَارَقْتَنَا يَوْمًا فَلَا تَعُدِ

(٧) عَوْدٌ إلى شمال الشام

مضى المتنبي من الرملة حَتَّى انتهى إلى طرابلس فِي طريقه إلى شمال الشام، وما كان يقدر أنه سيلقى فِي هذه المدينة ما يُؤخر سفره إلى حيث يريد، وما كان يقدر بنوع خاص طبيعة هَذَا العائق الذي سيمسكه فِي طرابلس حينًا، وهو الآن فِي الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره، واختلفت عليه أحداث وخطوب منذ خرج من السجن لم ينتصر عليها وإنما انتصرت عليه، ولكني حدثتك، وما أنت فِي حاجة إلى هَذَا الحديث، بأن الذي انهزم فِي المتنبي ليست طبيعته الخالصة، وإنما هي طبيعة تكلفها الشَّاعِر وخدعه عنها لفظه وغروره، فأما طبيعته الخاصة وهي طبيعة الشَّاعِر المتهيئ للنبوغ، فقد انتصرت من غير شك، وكان ما حدث له فِي طرابلس دليلًا واضحًا على أَنَّ انتصارها كان عظيمًا

وفوزها كان مبينًا حقًّا، وأنت تذكر أنه حين خرج من السجن مدح إسحاق بن كيغلغ والي حمص للإخشيد ومُخرجهُ من السجن بقصيدته الرائية التي يقول فيها:

حَاشَى الرَّقِيبَ فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُهُ وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانْهَلتْ بَوَادِرُهُ

ولم يستطع أن ينشدها إياها فيما يقول الديوان؛ لأن الأمير كره ذلك، وتقدم إِلَيْهِ فِي أن يبرح الأرض كما رجحنا، فقد كان إسحاق بن كيغلغ هَذَا ما يزال على ولايته حين مر المتنبي بطرابلس، كان قد انتقل إِلَيْهَا من حمص ليبعد مستقره بعض البعد عن الحدود بين الإخشيديين والحمدانيين، فلما انتهى المتنبي إلى طرابلس وعرف مكانه، رغب فِي أن يمدحه كما مدح غيره من عمال الإخشيديين وقوادهم وأمراءهم، ونظر المتنبي فإذا هَذَا الأمير الذي كان يرغب عن شعره منذ اثنتي عشرة سنة يرغب فِي شعره الآن، فلا تسل عن كبرياء الشاعر، وما امتلأت نفسه به من الزهو والغرور وإذا هُوَ يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذي رغب فيه، ويحتال الأمير فِي ذلك فلا يوفق، وتشق عليه هذه الإهانة، فيمسك الشَّاعِر فِي طرابلس لا يلقيه فِي السجن ولا يخلي بينه وبين السفر، وإنما يمسكه سجينًا كالطليق، وطليقًا كالسجين، ولسنا ندري كم أقام المتنبي على هذه الحال فِي طرابلس، ولكن الظاهر أنه تغفل العيون التي أرصدت له، ففرَّ من المدينة لا يقصد إلى الشمال مخافة أن يُطلب فيُؤخذ، بل يقصد إلى الجنوب مشرقًا، وهو آمن أنْ يُطلب من هذه الناحية، وإذا هُوَ فِي دمشق بعد حين. ويخيل إليَّ أنه كان يريد الأمن والعافية أثناء إقامته فِي دمشق، حَتَّى تتاح له الفرصة فيستأنف رحلته إلى الشمال، وأنه من أجل هَذَا استجار بعلي بن صالح الروذباري والي دمشق، ومدحه بالزائية التي ذكرناها آنفًا وهذه الزائية خليقة أنْ نقف عندها حينًا؛ لأنها تستحق شيئًا ولو قليلًا من التأمل والتفكير، وحسبي أنْ ألفتك من أمرها إلى ثلاثة أشياء:

الأول والثاني منهما مشتركان بينها وبين أمثالها من هذه القصائد التي اختار لها المتنبي هذه القوافي الصعبة النادرة، كذاليته فِي مدح مساور بن محمد الرومي، وقد مرت بك، وكشينيته فِي مدح أبي العشائر وستراها بعد حين.

والثالث مقصور عليها، ولكن له خطره فِي تصوير التزام المتنبي لرأيه حين يأمر ويستغني، وتضحيته بهذا الرأي حين يخاف أو يطمع أو يحتاج، فأما الأمر الأول من هذه الأمور الثلاثة، فهو أنَّ صعوبة القافية وامتناعها يكلفان الشَّاعِر شططًا، ويضطرانه إلى أنْ يصطنع ألفاظًا ليست من لغة الشعر في شيء، وإنما هي إلى العامية

المبتذلة أدنى منها إلى لغة الشعراء، ولكن ندرة القافية تضطر الشَّاعِر إلى اصطناعها فيتورط فِي ذلك لا مستخذيًا منه ولا مستشعرًا خجلًا أو حياءً.

وانظر إلى هَذَا البيت:

حَمَلَتْهُ حَمَائِلُ الدَّهْرِ حَتَّى هِيَ مُحْتَاجَةٌ إلى خَرَّازِ

وإلى قافيته المبتذلة، وانظر كذلك إلى هَذَا البيت:

شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ المَعَالِي عَنْ حِسَانِ الوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ

فهل تعرف أسمج من هذه القافية وأصفق من هَذَا الطباق؟ وانظر أَيْضًا هَذَا البيت:

تَقْضَمُ الجَمْرَ وَالْحَدِيدَ الْأَعَادِي دُونَهُ قَضْمَ سُكَّرِ الْأَهْوَازِ

فلولا القافية وتحكمها فِي الشَّاعِر وامتناعها عليه ما احتاج هَذَا البيت إلى سكر الأهواز.

والأمر الثاني: أنَّ احتياج الشَّاعِر إلى القوافي يستعبده للقافية، ويُكرهه على أنْ يستعبد الشعر ومعانيه للقافية أيضًا، فهو يجمع الألفاظ التي تصلح قافية زائية أو ذالية أو شينية، فإذا اجتمع له منها ما أراد، نظم قصيدته على الزاي أو على الذال أو على الشين، وقد يُضطر إلى معنى من المعاني، لا لشيء إلا ليضع فِي آخر البيت كلمة من الكلمات تصلح قافية، وانظر إلى هَذَا البيت:

سَلَّهُ الركْضُ بَعْدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ فَتَصَدَّى لِلْغَيْثِ أَهْلُ الْحِجَازِ

فلولا أنه محتاج إلى أنْ يقيم بيته على الحجاز لما ذكر نجدا، ولما نظم البيت كله، وانظر كذلك إلى هَذَا البيت:

مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لَدَيْهِ يَضَعُ الثَّوْبَ فِي يَدَيْ بَزَّازِ

فقد جعل ممدوحه ملكًا وبزازًا، لا لشيء إلا أنه لا يريد أن تفلت منه هذه الكلمة المبتذلة، وانظر أَيْضًا إلى هَذَا البيت:

وَيَرَى أَنَّهُ الْبَصِيرُ بِهَذَا وَهْوَ فِي الْعُمْيِ ضَائِعُ الْعُكَّازِ

فالمعنى فِي هَذَا البيت كله يتبع العكاز ولا يستدعيه، ولست أدري أين قرأت أَنَّ فكتور هوجو كان يجمع القوافي ويهيئها قبل أَنْ ينظم شعره، ولكن الشيء الذي لا شك فيه أَنَّ ذوق فكتور هوجو كان يأبى عليه أَنْ يذل للقافية حَتَّى يتورط فِي الابتذال، وما أظن إلا أَنَّ الشعراء جميعًا يستعرضون ما قد يتهيَّأ لهم من القوافي، ليختاروا منها لا ليُحكِّموها فِي أنفسهم وفي أذواق الناس.

ولعلي قصصت فِي غير هَذَا الكتاب ما رأيته من المرحوم زكي باشا حين كان يضع مقدمته لكتاب التاج، وكان يريد السجع، فانتهى إلى كلمة «المذكور» أو «المشهور» لا أدري، ولم يجد لها مقابلًا فالتمسه وأطال التماسه، فلما أعياه ذلك قرأ باب الراء كله من القاموس المحيط.

كذلك أو قريبًا من ذلك صنع المتنبي فِي هذه القصائد التي آثر فيها القوافي النادرة، وكذلك أو قريبًا من ذلك صنع الصولي[٧] فيما كان يُحدث من الشعر لمولاه الراضي فِي هَذَا العصر نفسه؛ أي أوائل القرن الرابع، وأنت واجد من ذلك فِي كتاب الأوراق ما يرضيك ويغيظك معًا.

أما الأمر الثالث، فأشد من هذين الأمرين خطرًا، فقد مدح المتنبي قبل هَذَا الرجل جماعة من غير العرب، ولكنه كان يتجنب التعرض لمدح أجناسهم الأجنبية ويكتفي بمدح أشخاصهم، فإن تجاوز أشخاصهم، لم يعدُ ما لآبائهم من سابقة فِي الإسلام وفي ظل الدولة العربية، أما فِي هذه القصيدة فالمتنبي الذي اتخذ العربية لنفسه مذهبًا سياسيًّا وفلسفيًّا، يخرج عن مألوفه، فيمدح هَذَا الرجل الفارسي، ويمدح الفرس، ويرقى بمدحه إلى الفرس قبل الإسلام، وانظر إِلَيْهِ كيف يقول:

---

[٧] انظر وصف الصولي لعلاقته بالراضي فِي القسم الثاني من كتاب الأوراق.

لَيْسَ كُلُّ السَّرَاةِ بِالرُّوذَبَارِيِّ   وَلَا كُلُّ مَا يَطِيرُ بِبَازِ
فَارِسيٌّ لَهُ مِنَ الْمَجْدِ تَاجٌ   كَانَ مِنْ جَوْهَرٍ عَلَى أَبْرَوَازِ
نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيفٍ   وَلَوَ انِّي لَهُ إِلى الشَّمْسِ عَازِ
شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ المَعَالِي   عَنْ حِسَانِ الوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ

إلى أن يقول:

بِكَ أَضْحَى شَبَا الْأَسِنَّةِ عِنْدِي   كَشَبَا أَسْوُقِ الْجَرَادِ النَّوَازِي
وَانْثَنَى عَنِّيَ الرُّدَيْنِيُّ حَتَّى   دَارَ دَوْرَ الْحُرُوفِ فِي هَوَّازِ
وَبِآبَائِكَ الْكِرَامِ التَّأَسِّي   وَالتَّسَلِّي عَمَّنْ مَضَى وَالتَّعَازِي
تَرَكُوا الْأَرْضَ بَعْدَمَا ذَلَّلُوهَا   وَمَشَتْ تَحْتَهُمْ بِلَا مِهْمَازِ

فالمتنبي هنا شُعوبي صريح، لولا أننا نعرف أنه شاعر ساخر بالناس وبممدوحه خاصة، أو بأكثرهم على أقل تقدير.

وفي دمشق هجا المتنبي إسحاق بن كيغلغ بميميته اللاذعة المشهورة[٨] والتي أولها:

لِهَوَى القُلُوبِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ   عَرَضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّى أَسْلَمُ

وفي دمشق عرف المتنبي أنَّ إسحاق خرج للقاء الروم وتوعده، فقال فيه الأبيات التي أولها:

أَتَانِي كَلَامُ الْجَاهِلِ ابْنِ كَيَغْلَغٍ   يَجُوبُ حُزُونًا بَيْنَنَا وَسُهُولَا

[٨] وقد قال: إنه أنشأ هذه القصيدة في طرابلس وتركها عند صديق له، وكلفه أنْ يذيعها بعد أنْ يهرب ويبلغ مأمنه، (انظر الواحدي ص٣٣٩).

ثم بلغه أنَّ غلمان إسحاق عَدَوَا عليه فقتلوه، فقال الأبيات التي أولها:

قَالُوا لَنَا مَاتَ إِسْحَاقٌ فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الدَّوَاءُ الَّذِي يَشْفِي مِنَ الحُمُقِ

وقد أعرضُ لهذا الهجاء فِي غير هَذَا الموضع، فحسبنا الآن أنْ نلاحظ أنه يدل على أنَّ عداوة المتنبي كانت باقية قاسية يعجز الموت نفسه عن محوها.

ولسنا ندري كم أقام المتنبي فِي دمشق، ولكن المحقق أنه خرج منها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بعد مقتل ابن كيغلغ قاصدًا إلى أنطاكية، والديوان ينبئنا بأنه نزل ببعلبك، فأكرمه حاكمها علي بن عسكر، وخلع عليه وأجازه وطمع فِي مدحه، ولكن المتنبي لم يزد على أنْ قال له هذه الأبيات:

رَوِينَا يَابن عَسْكَرٍ الْهُمَامَا وَلَمْ يَتْرُكْ نَدَاكَ لَنَا هُيَامَا
وَصَارَ أَحَبُّ مَا تُهْدِي إِلَيْنَا لِغَيْرِ قِلًى وَدَاعَكَ وَالسَّلَامَا
وَلَمْ نَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ الْمَوَالِي وَلَمْ نَذْمُمْ أَيَادِيَكَ الْجِسَامَا
وَلَكِنَّ الْغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الغَمَامَا

وما أظن إلا أنَّ هَذَا البيت الأخير يصور ملل المتنبي وتبرمه، لا بالعطاء؛ فقد كان أحرص من أن يتبرم بالعطاء، بل بهذا الإلحاح عليه فِي طلب المديح، وقد مضى المتنبي من بعلبك حَتَّى جاوز حدود الإخشيديين ودخل أرض الحمدانيين فاستقبل حياة جديدة، مخالفة كل المخالفة لما ألف وما ألفنا من حياته.

وهو الآن فِي الثالثة والثلاثين من عمره وقد أصبح شاعرًا عظيمًا يتحدث الناس به وبشعره فِي شمال الشام وجنوبها، وفي مصر عند الإخشيديين، وفي العراق عند العباسيين والبويهيين.

وهو يعرف هذه الشهرة ويقدرها ويغالي بها، فلا يمدح إلا من يريد أنْ يمدح، وقد يمتنع على قوم ربما ود فِي يوم من الأيام لو استمعوا له أو التفتوا إليه، ولعلك تلاحظ أنَّ ظاهرة قد اطردت فِي حياة هَذَا الشاعر، فهو لم يستطع أنْ يرقى بفنه إلا فِي ظل حامٍ يحميه ويعطف عليه، وهو لم يستطع أن يعيش عيشة الشَّاعِر المنتج المرتقي بفنه شيئًا فشيئًا إلا فِي كنف الأشراف والسادة والأمراء، كأنه النبت الطفيلي لا ينمو ولا يزهر إلا فِي ظل الشجر الضخام المرتفعة فِي السماء.

وَثَبَ فنه وثبته الأولى فِي اللاذقية عند التنوخيين، ثم وثب وثبته الثانية فِي طبرية عند بدر بن عمار، ثم استمسك واحتفظ بقوته أثناء المحنة الثانية، ولكنه أزهر ونما وتضوَّع نشره فِي ظل الإخشيدي الشاب، وها هُوَ ذا الآن يتجاوز هؤلاء الأمراء والحكام الصغار إلى أمير خطير، هُوَ سيف الدولة، ولكنه لا يبلغ سيف الدولة فجأة، وإنما يتوسل إِلَيْهِ بابن عمه أبي العشائر فِي أنطاكية، فلنتبعه فِي هذه المدينة لنرى ماذا يصنع فيها، وأي وسيلة يبتغي إلى إرضاء هَذَا الحاكم ليرقى على أكتافه إلى سيف الدولة.

(٨) عند أبي العشائر

ويظهر أنه لم يرحل من دمشق حين أراد الرحيل وحين أمنت له الطرق، وإنما تأخر فيها عن رضا واختيار، لا عن سخط وإكراه، فقد بلغه فيما يُظَنُّ أَنَّ حال أبي العشائر فِي أنطاكية ليس على ما يحب، وأنه قد انهزم لبعض المغيرين عليه وتعرض للخطر، فلبث هُوَ فِي دمشق يريد أن يعلم على من تدور الدائرة، كما انتظر فِي الرملة يريد أن يعرف عاقبة الحرب بين سيف الدولة وكافور.

ودارت الدائرة على عدو أبي العشائر، فكرَّ هَذَا بعد الهزيمة منتصرًا، وانتهت أخبار فوزه إلى المتنبي، فخف من دمشق، وقد أعد فيها أولى مدائحه لهذا الحاكم، وكأنه فِي ذلك الوقت كان مشغوفًا بشوارد القوافي، فآثر لقصيدته قافية الشين، وخضع فيها لمثل ما خضع له فِي زائيته التي مدح فيها الروذباري من الذل والصغار أمام تحكم القافية الصعبة، ولست فِي حاجة إلى أَنْ أدلك على مظاهر هَذَا فِي هذه القصيدة، فحسبك ما قلت من ذلك فِي القصيدة الماضية، وأنت واجد فِي الشينية للقراءة الأولى من ذلك ما تشتهي وما لا تشتهي.

ومطلع هذه القصيدة غريب لا يخلو من «حأحأة» و«شأشأة» ثقيلتين مصدرهما تحكم القافية هذا، وهو قوله:

مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِ حَشَاهُ لِي بِحَرِّ حَشَايَ حَاشِ

ومن يدري! لعل المتنبي وبعض المعجبين به كانوا يجدون فِي هذه الحأحأة والشأشأة جمالًا وظرفًا، والله يهب حسن الذوق لمن يشاء، ولست أقف من هذه القصيدة إلا عند قوله:

أَتَى نَبَأُ الْأَمِيرِ فَقِيلَ كَرُّوا ... فَقُلْتُ نَعَمْ وَلَوْ لَحَقُوا بِشَاشِ
يَقُودُهُمُ إلى الْهَيْجَا لَجُوجٌ ... يَسِنُّ قِتَالُهُ وَالكَرُّ نَاشِي
وَأَسْرَجْتُ الْكُمَيْتَ فَنَاقَلَتْ بِي ... عَلَى إِعْقَاقِهَا وَعَلَى غِشَاشِي

فالمتنبي يتكثر فِي هذه الأبيات ويزعم أنه لما علم بِكَرِّ الأمير أسرع إِلَيْهِ يشاركه فِي حسن البلاء، وأكبر الظن أنه كان خائفًا أَنْ يبلغ أبا العشائر منهزمًا، فلما علم بانتصاره خف إليه، وقد وصل المتنبي عند أبي العشائر وهو مكبر لنفسه مستشعر عظمته وتفوقه على الشعراء، وهو من أجل ذلك يهاجم، ولا ينتظر أَنْ يضطر إلى الدفاع، فانظر إلى قوله:

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي ... وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

ومدح المتنبي أبا العشائر بعد أَنْ استقر عنده بقافيته المشهورة التي أولها:

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ ... تَحْسَبُ الدمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي

وفِي هَذَا البيت مظهر من جمال تبدو فيه صنعة وتكلف، ولكن اقرأ ما بعده فسترى تكلُّفًا لا يطاق:

كَيْفَ تَرْثَي الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ ... رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِها غَيْرَ رَاقِي

وما أرى إلا أنك تضيق مثلي بهذا التكلف المرذول الذي يظهر فِي هَذَا اللفظ المعقد الرث كأنه نسج العنكبوت، ثم يقول:

أَنْتِ مِنَّا فَتَنْتِ نَفْسَكِ لَكِنَّـ ... ـكِ عُوفِيتِ مِنْ ضَنًى وَاشْتِيَاقِ

ولم يكفه ما مضى من سخف حَتَّى أمعن فِي السخف الجديد، فيجعل صاحبته تعشق نفسها، ولكنها لا تشكو ألم العشق؛ لأنها ظافرة من نفسها بما تريد من الوصال، ثم يقول:

حُلْتِ دُونَ المَزَارِ فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْ تِ لَحَالَ النُّحُولُ دُونَ العِنَاقِ

وهو رجوع إلى المعنى الذي استخرجه فِي صباه ورجع إِلَيْهِ كثيرًا بعد ذلك، وهو قوله:

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ لَوَلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

وانظر إلى هَذَا البيت الذي يخاطب فيه ممدوحه، والذي تتحكم القافية فيه تحكمًا ثقيلًا:

لَوْ تَنَكَّرْتَ فِي الْمَكَرِّ لِقَوْمٍ حَلَفُوا أَنَّكَ ابْنُهُ بِالطَّلَاقِ

ولكن قف عند هذه الأبيات، فسيعجبك ما فيها من حكمة، وسيلفتك ما فيها من فخرٍ:

إِلْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْـ ـفُسِ أَنَّ الْحِمَامَ مُرُّ الْمَذَاقِ
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ
كَمْ ثَرَاءٍ فَرَّجْتَ بِالرُّمْحِ عَنْهُ كَانَ مِنْ بُخْلِ أَهْلِهِ فِي وِثَاقِ
وَالْغِنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحٌ قَدْرَ قُبْحِ الكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ
لَيْسَ قَوْلِي فِي شَمْسِ فِعْلك كَالشَّمْـ ـسِ وَلَكِنْ كَالشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ
شَاعِرُ الْمَجْدِ خِدْنُهُ شَاعِرُ اللَّفْـ ـظِ كِلَانا رَبُّ المَعَانِي الدِّقَاقِ
لَمْ تَزَلْ تَسْمَعُ المَدِيحَ وَلَكِنَّ صَهِيلَ الجِيَادِ غَيْرُ النُّهَاقِ

واحفظ قوله «شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ»، فإن هَذَا المعنى نواة — إن صح هَذَا التعبير — ستنبت وتنمو وتعطي شعرًا كثيرًا مختلفًا ألوانه حين يتصل المتنبي بسيف الدولة.

وليس من شك فِي أنَّ تعريضه بالشعراء، ثم تصريه بذمهم والغض منهم فِي البيت الذي رويناه آنفًا، حين جعل نفسه جوادًا، وجعلهم حميرًا، قد هاج الشعراء عليه وأغراهم بالكيد له، فلم يَنُوا عن ذلك ولم يقصِّروا فيه، ولكن المتنبي لم ينهزم لهم ولم يفر منهم، كما فعل مع الذين كادوا له عند بدر بن عمار، وإنما ثبت لهم وألح فِي الهجوم عليهم، وكان يرى أنَّ هذه الموقعة حاسمة بينه وبين الدهر الذي يخاصمه، فهو إنْ انهزم رُد إلى شقاء متصل، وإنْ انتصر بلغ ما أمَّله من الوصول إلى سيف الدولة، وقد تم له الانتصار بهذه القصيدة الرائعة التي هي أروع ما قال فِي أبي العشائر، والتي روينا لك بعضها فِي أول هَذَا الكتاب، ومطلعها:

لَا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلَا طَلَلَهْ   أَولَ حَيٍّ فِرَاقُكُمْ قَتَلَهْ

والمضي فِي قراءة هذه القصيدة يُقنعك بأن المتنبي كان يتمثل حين أنشأها لامية الأعشى التي أولها:

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا   وَإِنَّ فِي السَّفْرِ إِذْ مَضَوْا مَهلا

والغزل فِي أول القصيدة حلو يبلغ النفوس على ما فيه من تكلف غير مملول، فإذا فرغ منه وثب إلى الدفاع عن نفسه والفخر بها فِي شعر مرَّ لاذع مسكت للخصم.

ولست فِي حاجة إلى أنْ أعيد روايته، فقد رويته فيما مضى من هَذَا الحديث ثم يصل إلى أبي العشائر فيمدحه مدحًا عذبًا شائقًا متينًا يصلح للغناء، وقلما يصلح مدح المتنبي للغناء قبل وصوله إلى سيف الدولة، وانظر إلى قوله:

مَالِي لَا أَمْدَحُ الْحُسَيْنَ وَلَا   أَبْذُلُ مِ الْوُدِّ مِثْلَ ما بَذَلَهْ
أَأَخْفَتْ الْعَيْنُ عِنْدَهُ أَثَرًا   أَمْ بَلَغَ الْكَيْذُبَانُ مَا أَمَلَهْ

ثم انظر إلى قوله:

قَدْ هَذَّبَتْ فَهْمَهُ الفَقاهَةُ لِي   وَهَذَّبَتْ شِعْرِيَ الفَصَاحَةُ لَهْ
فَصِرْتُ كَالسَّيْفِ حَامِدًا يَدَهُ   لَا يَحْمَدُ السَّيْفُ كُلَّ مَنْ حَمَلَهْ

وأنا أختار للمتنبي فِي أبي العشائر كلمتين أخريين يقول فِي إحداهما:

النَاسُ مَا لَمْ يَرَوْكَ أَشْبَاهُ　　وَالدَّهْرُ لَفْظٌ وأنتَ مَعْناهُ

ويقول فِي الأخرى:

لَامَ أُنَاسٌ أَبَا الْعَشَائِرِ فِي　　جُودِ يَدَيْهِ بِالْعَيْنِ وَالْوَرَقِ

وللمتنبي فِي أبي العشائر مقطوعات كثيرة أخرى فِي موضوعات مختلفة، فقد سار الشَّاعِر مع هَذَا الأمير سيرته مع علي بن إبراهيم التنوخي، وبدر بن عمار، والحسن بن عبيد الله الإخشيدي، فكان نديمًا سريعًا إلى قول الشعر، مسرفًا فِي الارتجال، مطيعًا لمولاه، يقول حين يريده على القول وحين لا يريده عليه.

وله كلمة أخرى قالها معاتبًا لأبي العشائر حين أرصد له نفرًا من غلمانه ليقتلوه فأفلت منهم، ولكن أوان الحديث عن هذه الكلمة لم يأن بعد، وأنا أرجح أنَّ أبا الطيب قد وصل إلى أبي العشائر فِي أواخر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فأتمها عنده، وأقام معه وجهًا من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، حَتَّى قدم سيف الدولة أنطاكية فِي جمادى الأولى من هذه السنة، فمدحه واتصل به وانتقل معه إلى حلب.

الكتاب الثالث

في ظل سيف الدولة

(١) شعر المتنبي في سيف الدولة

وقد صحب المتنبي سيف الدولة تسع سنين أو ما يقرب من تسع سنين، مدحه فِي جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين بالميمية التي أولها:

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ   بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

وأنشده لآخر مرة سنة خمس وأربعين الميمية التي أولها:

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ   مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

ومدحه كالمودع له سنة خمس وأربعين أَيْضًا بالأبيات التي أولها:

أَيَا رَامِيًا يُصْمِي فُؤَادَ مَرَامِهِ   تُرَبِّي عِدَاهُ رِيشَهَا لِسِهَامِهِ

ولم ينشده إياها، وإنما أرسلها إِلَيْهِ حين انصرف من حلب مغاضبًا، وقد أظهر الذهاب إلى إقطاع له قريبًا من معرة النعمان، وكأنه لم يمدحه بهذا الشعر إلا ليخدعه عما أزمع من الهرب، وليكف الطلب عن نفسه، ولم تكن القصيدة التي مدحه بها فِي أنطاكية سنة سبع وثلاثين أول شعر قاله فيه، فقد رأيت أنه مدحه فِي عهد الشباب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بميمية أولها:

ذِكْرُ الصِّبَا وَمَرَاتِعِ الْآرَامِ   جَلَبَتْ حِمَامي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

ولم يختم المتنبي شعره فِي سيف الدولة حين أنشده أو حين ودَّعه سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، بل ذكره فِي مصر تصريحًا حينًا وتعريضًا حينًا آخر، ثم مدحه فِي الكوفة ورثى أخته، وكان آخر ما مدحه به البائية التي أولها:

فَهِمْتُ الكتابَ أَبَرَّ الْكُتُبْ   فَسَمْعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَب

أرسلها إِلَيْهِ من الكوفة فِي ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فهو إذن قد عرفه فِي الثامنة عشرة من عمره ومدحه فِي الثامنة والأربعين من عمره، عرفه عن بعد فمدحه عن بعد، ثم عاشره وفارقه ومدحه عن بعد أيضًا.

وليس من الإسراف فِي شيء أنْ يقال: إنَّ للمتنبي فِي سيف الدولة ديوانًا خاصًّا يمكن أنْ يستقل بنفسه، وهو إنْ جُمع فِي سِفْر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبي وأروعه وأحقه بالبقاء، بل من أجمل الشعر العربي كله وأروعه وأحقه بالبقاء، وقد مدح المتنبي عددًا ضخمًا من أشراف الناس وأوساطهم، ثم اتصل بالأمراء والحكام، ثم اتصل بعد ذلك بالممتازين من أمراء الدولة الإسلامية فِي الشرق والغرب، ووفق للإجادة وللروعة أحيانًا فِي كثير مما قال فِي هؤلاء الناس.

ولكن شعره فِي سيف الدولة ممتاز بما لم يمتز به سائر شعره: امتاز بالكثرة؛ فالديوان يحفظ لنا من قول المتنبي فِي سيف الدولة نيفًا وثمانين قصيدة ومقطوعة، وهو مقدار ضخم لم يجتمع فيما أظن لشاعر من الشعراء القدماء فِي خليفة أو ملك أو أمير، ولم يجتمع للمتنبي نفسه فِي أحد من ممدوحيه غير سيف الدولة، وليس فِي ذلك شيء من الغرابة؛ فقد انقطع المتنبي لسيف الدولة تسعة أعوام كاملة لم يمدح أثناءها أحدًا غيره، ولم يقل أثناءها شعرًا إلا وهو يتمثل سيف الدولة، فيتحدث عنه ويتحدث.

وقد انقطع جماعة من كبار الشعراء المتقدمين منذ العصر الجاهلي إلى عصر المتنبي، لجماعة من الخلفاء وأشراف الناس، ولكنهم لم يقفوا أنفسهم على هؤلاء الخلفاء والأشراف كما فعل المتنبي مع سيف الدولة، وكما كان يفعل مع غيره من الأمراء والأشراف الذين حموه وأظلوه.

فلم يشغل زهير بهرم عن غيره، ولم يشغل به عن الشعر الخالص، ولم يشغل الحطيئة بعلقمة بن عُلاثَة، ولا بالزبْرِقان، ولا بالوليد بن عقبة عن غيرهم من الذين

كان يتناولهم بالمدح أو بالهجا، وقد انقطع الأخطل ليزيد بن معاوية، ولكنه كان يقول الشعر ِفي غير يزيد، وانقطع لعبد الملك بن مروان، ولكنه كان يقول ِفي غير عبد الملك بن مروان، ومن قبل ذلك انقطع النابغة للنعمان، ثم ِفي أيام الأخطل فرغ جرير للحجاج دهرًا، وفرغ الفرزدق لسليمان بن عبد الملك حينًا، وانقطع الكميت لبني هاشم، وانقطع السيد الحميري لهم أيضًا، واتصل بشار بجماعة من الخلفاء، واتصل أبو نواس بجماعة منهم كذلك، وانقطع للأمين أثناء خلافته، وانقطع مروان بن أبي حفصة للمهدي والرشيد، وأكثر البحتري شعره ِفي المتوكل، ولكن واحدًا من هؤلاء أو من غير هؤلاء لم يقف حياته الفنية وغير الفنية تسعة أعوام كاملة على مولاه، وإنما كانوا يُصْفون سادتهم وحماتهم بعناية خاصة، ولكنهم يبيحون لأنفسهم أن يمدحوا غيرهم من جهة، ويبيحون لأنفسهم أن يقولوا ِفي غير المدح من جهة أخرى.

والرواة يتحدثون بما كان من انقطاع جرير للحجاج وإغراقه ِفي مدحه، حَتَّى كره ذلك عبد الملك، فأعرض عن جرير ولم يسمع له إلا بعد سعي وشفاعة وإلحاح.

والرواة يروون هَذَا على أنه من الأشياء النادرة، وذلك يدل من غير شك على أَنَّ انقطاع الشَّاعِر لخليفة أو عامل أو أمير ِفي القرون الثلاثة الأولى لم يكن معناه نزول الشَّاعِر لمولاه عن نفسه وشخصيته وحريته كما فعل المتنبي غير مرة ِفي حياته، وكما فعل مع سيف الدولة بنوع خاص، وتعليل هَذَا يسير فيما يظهر إذا لاحظنا تغير الحياة السياسية والاقتصادية، وما نشأ عن هَذَا التغير من التنافس العنيف بين الأمراء والحكام ِفي القرن الرابع، فقد كان هذا التنافس يقوم على أَنْ يؤثر كل أمير أو حاكم نفسه ودولته بالخير، وبكل ما من شأنه نشر الدعوة لهما والإشادة بذكرهما، فلم يكن من اليسير لشاعر من الشعراء أَنْ يمدح أميرين أو حاكمين إلا أن يكون أحدهما ظلًّا للآخر ومتصلًا به، بحيث يكون مدحه وسيلة لا غاية وسببًا لا غرضًا.

ولو أَنَّ المتنبي همَّ يمدح أحد غير سيف الدولة ِفي أثناء اتصاله به ِفي حلب، أو بمدح أحد غير كافور ِفي أثناء اتصاله به ِفي الفسطاط، لما كانت عاقبة ذلك عليه إلا وبالًا ونكرًا.

فلنلاحظ هذه الظاهرة ِفي نفسها؛ فقد ينتهي بنا درسها واستقصاؤها إلى نتائج قيمة ِفي تحقيق التاريخ الأدبي لهذا العصر، ولنلاحظ هذه الظاهرة بالقياس إلى شخصية المتنبي؛ فهي تقفنا على أخص ما يمتاز به هَذَا الرجل من التناقض الغريب بين رأيه ِفي نفسه وسيرته بين الناس، فهو قد كان ِفي شبابه لا يطمح إلا إلى الحرية، ولا يطمع

إلا فِي الاستقلال، وهو قد ألقى نفسه فِي السجن، وعرَّض نفسه للموت فِي سبيل حريته واستقلاله، ولكنه لم يكن يظفر برعاية أمير من الأمراء أو سيد من السادة، إلا نزل عن نفسه، وضحى فِي سبيله بهذه الحرية وذلك الاستقلال، وأغرب من هَذَا أَنَّ سيف الدولة لم يشغل المتنبي عن غيره من الأمراء والملوك فحسب، وإنما شغله أَيْضًا عن الشعر الخالص، فقد رأيت أَنَّ غير المتنبي من فحول الشعراء لم يكونوا يفنون أنفسهم وفنهم فِي سادتهم وحماتهم، وقد كان رجل كأبي نواس يستطيع أَنْ ينقطع للأمين، ولكنه مع ذلك يقول فِي الخمر أو فِي الوصف أو فِي الهجاء أو فِي غير ذلك من فنون الشعر، كانت له حياته يتصرف فيها كما يحب، فأما المتنبي فإنه لا يعرض لفن من فنون الشعر، ولا يلم بلون من ألوان الكلام، إلا إذا كان متصلًا بسيف الدولة اتصالًا قريبًا، وهو قد فعل هَذَا نفسه حين اتصل ببدر بن عمار، وكاد يفعل ذلك حين اتصل بالأمير الإخشيدي الشاب فِي الرملة، لولا أَنْ ألح عليه الأمير نفسه فِي مدح صديقه العلوي، ولما انقطع لكافور بعد انقطاعه لسيف الدولة، وقف شعره عليه أثناء اتصاله به، ولم يمدح فاتكًا إلا بعد مشقة وجهد واستئذان فيما يقال: ولو إنه رضي عن كافور رضاه عن سيف الدولة، لما فكر فِي فاتك، ولما فكر فِي الشعر الخالص الذي لا يتصل بشخص كافور، فهذا كله يدلنا على أَنَّ المتنبي كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية، وعلى أنه كان عبدًا للطمع والمال، لا للجمال والفن.

ويمتاز شعر المتنبي فِي سيف الدولة بشيء آخر غير الكثرة هُوَ التنوع، فمع أَنَّ سيف الدولة هُوَ الموضوع الذي يدور حوله شعر المتنبي أثناء هذه الأعوام التسعة، فقد كان هَذَا الشعر مختلف الأنواع والألوان والفنون، ولم يكن هَذَا الاختلاف ناشئًا عن رغبة الشَّاعِر فِي التنويع والافتنان، وإنما كان ناشئًا عن أَنَّ حياة سيف الدولة نفسه كانت مختلفة الأنحاء والوجوه، فقد كان سيف الدولة أميرًا عربيًّا، شريف الأصل، كريم النسب، جواد اليد، بعيد الهمة، وهو من أجل هَذَا يتقاضى المتنبي مدحه، كما يمدح أمراء العرب الذين يتصفون بهذه الصفات.

وكان سيف الدولة مجاهدًا يناضل عن الإسلام، ويحمي ثغور المسلمين من قبل الروم، وكانت له مع هؤلاء مواقع حسن بلاؤه فيها منتصرًا ومنهزمًا؛ فكان من هذه الناحية يتقاضى المتنبي مدحه كما يُمْدح المجاهدون والحامون للثغور والزائدون عن حوزة الدين، وكان سيف الدولة أميرًا ينافس أمراء آخرين، ينافس قومًا فِي العراق، وقومًا فِي مصر، فكان يتقاضى المتنبي أَنْ يمدحه مدحًا يقدمه على منافسيه، وكانت

لسيف الدولة رعية بدوية قليلة الشعور بحب النظام، شديدة النقص للسلطان القوي، كثيرة الجنوح إلى الشغب والخروج والانتقاض، وكان سيف الدولة يردها إلى الطاعة، ويأخذها بالإذعان، فكان يتقاضى المتنبي أنْ يمدحه كما يمدح الأمير الذي يأخذ رعيته بالحزم والعزم، ويحملها على الشدة، وحينًا إلى اللين، وكان سيف الدولة صاحب دعابة ولهو، وصاحب ترف ونعيم حين تسمح له السلم بالاستمتاع من ذلك بحظ قليل أو كثير، فكان يتقاضى المتنبي أنْ يكون له نديمًا مواتيًا، يصرف شعره على ما تقتضيه المنادمة من اختلاف ألوان الحياة واختلاف ألوان القول، ثم كان سيف الدولة بعد ذلك يكبر المتنبي ويؤثره ويختصه بما لا يختص به غيره من ندمائه وشعرائه والعاملين فِي قصره والمختلفين إليه، فكان ذلك يثير حسدًا وكيدًا، وكانت غطرسة المتنبي تزيد هَذَا الكيد وذلك الحسد تلظِّيًا واضطرامًا.

وكان سيف الدولة يفي للمتنبي ما وسعه الوفاء، ولكنه كان كغيره من الأمراء، يسمع للوشاة، ويميل إلى الكائدين، فكان المتنبي مضطرًّا إلى أنْ يدافع عن نفسه بالعتاب والاستعطاف وهجاء الخصوم والمنافسين، ثم كان سيف الدولة رجلًا من الناس تمتحنه الأيام بما تمتحن به الناس جميعًا من فقد الأبناء والأقرباء والأحباء، فلم يكن بُدٌّ للمتنبي من أنْ يعزِّيه ويرثي له من تستأثر به المنية من دونه.

وإذن فقد كان فِي تنوع هذه الحياة التي كان يحياها سيف الدولة تنوع للشعر الذي كان يقوله أبو الطيب فيه، ونشأ عن ذلك أنَّ سيف الدولة قد شغل المتنبي بنفسه عن كل شيء، وعن كل إنسان، ولكنه أتاح له أنْ يلمّ بطائفة من الفنون الشعرية، لم يكن ليلم بها لو أنه قصر نفسه على المدح الخالص، فما نفقده من حرية المتنبي فِي فنه تعوِّضه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة، إن صح هَذَا التعبير.

ونحن إذن نستطيع أنْ نعتبر هذه الأعوام التي قضاها المتنبي عند سيف الدولة خير أعوامه، وأخصبها وأغناها وأكثرها حظًّا من الإنتاج المختلف المتنوع.

وخصلة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبي فِي هَذَا الطور، وهي أنه قد استطاع، لا أنْ ينشئ فنًّا جديدًا من فنون الشعر، بل أنْ يُنمي فنًّا من هذه الفنون ويقويه، ويكثر القول الجيد فيه، حَتَّى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما يجعله فنًّا قائمًا بنفسه.

أريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين والروم، فمن الحمق أنْ يقول قائل أو يظن ظان أنَّ أبا الطيب قد ابتكر هَذَا الفن أو خرج به عما ألف القدماء، فوصفُ الجهاد بين المسلمين والروم قديم منذ كان الجهاد بين المسلمين والروم، وقد امتاز جماعة من

الشعراء فِي هَذَا الوصف، ويكفي أَنْ نذكر ما قاله أبو تمام، وما قاله البحتري، ولكن أبا تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبي لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ له، ولم يقفوا عليه أكثر جهدهم كما وقف عليه أكثر جهده، ثم هم لم يشتركوا فِي الجهاد كما اشترك فيه المتنبي، ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبي، ولم ينعموا كما نعم المتنبي، ولم يشقوا كما شقي المتنبي، بما كانت هذه المواقع تعقب من انتصار أو اندحار، فهم كانوا يقولون الشعر فِي وصف هَذَا الجهاد متأثرين بفنهم وحده، أو قل بفنهم وأملهم، وكان المتنبي يقول متأثرًا بما يرى قبل كل شيء، ثم بالفن والأمل بعد ذلك.

ومن هنا تفهم السبب فيما تحسه من تأثر خاص حين تقرأ وصف المتنبي لهذا الجهاد بين المسلمين والروم: تأثر لا تجده حين تقرأ ما كان يقوله أبو تمام للمعتصم أو البحتري للمتوكل.

فأنت تجد عند هَذَا وذاك فنًّا وجمالًا، ولكنك تجد فنًّا وجمالًا لا يكادان يخلوان من الحرارة والنشاط.

فإذا قرأت وصف المتنبي لهذا الجهاد وجدت فيه نارًا تضطرم، ولا تكاد تمس قلبك حَتَّى تشيع فيه، وإذا قلبك يضطرم أَيْضًا حماسة ونشاطًا.

ومصدر هَذَا أَنَّ المتنبي فِي هَذَا الوصف لم يكن يصدر عن مدح سيف الدولة والرغبة فِي إرضائه وإثارة إعجابه بنفسه وإعجاب الناس به، كما كان يفعل أبو تمام والبحتري، وإنما هُوَ يصدر عن هَذَا ويصدر معه عما كان يثور فِي نفسه من العواطف، وما كان يدور فِي رأسه من الخواطر حين كان يشهد الموقعة ويتبع العدو منتصرًا أو يولي أمامه منهزمًا. وكان يصدر مع هَذَا وذاك عن انفعالات المسلمين التي كانت تثور حوله أثناء الاستعداد للحرب، وأثناء الاشتراك فِي المعركة، وبعد الانتصار أو الفرار.

ثم كان المتنبي يصدر بعد هَذَا كله عن هَذَا الانفعال الآخر الذي كان يشهده حين كان يثور فِي نفس العدو منهزمًا ومنتصرًا، فقد كان المتنبي يمدح سيف الدولة من غير شك بهذا الشعر، ولكنه لم يكن يصور سيف الدولة وحده، وإنما كان يصور معه نفسه، ويصور جماعة المسلمين المجاهدين، ويصور جماعة الروم أيضًا.

ومن هنا نجد فِي وصف المتنبي لحروب سيف الدولة عند الثغور فتوة عربية اجتماعية، إنْ صح هَذَا الوصف، وترى هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع فِي وصف المتنبي حية قوية مضطربة شديدة الاضطراب، كأنها الكهربا لا تكاد تتصل بهذا الشعر

حَتَّى ينتقل إليك ما صوَّر فيه المتنبي من حياة هؤلاء المجاهدين، وما كان يملؤها من نشاط فيه الأمل والابتهاج، وفيه الاكتئاب والابتئاس، وفيه الثقة بالنفس والإيمان بالحق والارتفاع عن صغائر الأمور دائمًا.

ونحن نستطيع أنْ نفهم عجز الأستاذ بلاشير عن أنْ يذوق جمال هَذَا الفن من شعر المتنبي، وأنْ نعلله وإن لم يكن فِي حاجة إلى هَذَا التعليل، فجنسية الأستاذ واختلاف مزاجه وطبعه، وأخشى أنْ أذكر دينه أيضًا، كل هَذَا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلًا ضئيلًا، وربما جعله تأثرًا عكسيًّا، وربما دفع الأستاذ إلى الغض من هَذَا الشعر، والازدراء له،[١] أما نحن فإن هَذَا الشعر يثير فِي نفوسنا عواطف أخرى، ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الأستاذ بلاشير وأمثاله من العلماء الأوربيين.

وقد يقال: إنَّ المتنبي أغرق وأسرف، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغي، وأضاف إِلَيْهَا من الخطر أكثر مما تستحق، وأعرض عن تصوير الهزيمة، ولم يُعنَ إلا بتصوير الانتصار، ولكن يجب أن نتفق، فلم يكن المتنبي مؤرخًا ولا محققًا، وإنما كان شاعرًا، وشاعرًا ليس غير، أستغفر الله، بل كان شاعرًا يشترك فِي الجهاد، يذوق لذته ويشقى بآلامه، فالذين يطالبون هَذَا الشَّاعِر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع، يسرفون عليه، ويسرفون على أنفسهم، ويسرفون على الشعر نفسه، وأين كانت تقع حرب طروادة التي وصفت الإلياذة طورًا من أطوارها من هذه الحروب التي شهدها المتنبي ووصفها تسعة أعوام كاملة! أفيعاب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان، أم يحمد من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات والأفراد التي اشتركت فِي هذه الحرب أبدع تصوير وأروعه؟

وبعدُ، فهل من الحق أنَّ المتنبي أسرف كل الإسراف، وتكثَّر حين كان يجب الاقتصاد؟ يجب أنْ نلاحظ أنَّ معظم البلاد الإسلامية فِي ذلك الوقت كانت منصرفة إلى نفسها، مشغولة بأمورها الخاصة عن هذه الثغور الرومية، وأنَّ هَذَا القسم من شمال سوريا والجزيرة كان وحده الناهض بحماية هذه الثغور، ينهض بذلك على ضآلته

[١] وأنا فِي الوقت نفسه أخالف صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام أشد الخلاف فيما ذهب إِلَيْهِ من تقديم هَذَا الفن من شعر المتنبي على الشعر القصصي القديم كله، فهذا غلو لا سبيل إلى قبوله مع ما هُوَ محقق من انقطاع أسباب الموازنة بين شعر المتنبي هَذَا وقصص الهند واليونان والرومان.

(راجع كتاب ذكرى أبي الطيب، للدكتور عبد الوهاب عزام.)

وقلة مصادره المالية والعسكرية، وينهض بذلك نهوضًا حسنًا يلقى فيه النصر، ويلقى فيه الهزيمة أحيانًا، ولكن أمام أي قوة كان هَذَا القسم من شمال سوريا يثبت أثناء هَذَا الجهاد المتصل العنيف؟ أمام الإمبراطورية البيزنطية الضخمة التي مهما يكن من أمرها، فليس من الممكن أنْ نفكر فِي الموازنة بينها وبين هَذَا الطرف الصغير اليسير من أطراف المسلمين.

فإذا نظر أبو الطيب فرأى دولة ضخمة كالدولة الإسلامية ساهية لاهية، مشغولة بما يفسد حياتها من اللهو والعبث ومن الخصومة والاضطراب، ورأى فتًى عربيًّا قد ثبت مع من حوله من هؤلاء العرب الذين أقصوا عن ملكهم ورُدُّوا عن سلطانهم لهذه الإمبراطورية الضخمة، فحمى منها الثغور وذادها عن حوزة الإسلام، واقتحم عليها ملكها حَتَّى أبعد فِي الغارة أحيانًا — إذا نظر المتنبي فرأى هَذَا كله، وامتلأت نفسه به إعجابًا وتيهًا فتغناه أروع غناء وأبقاه، أيمكن أنْ يوصف بأنه مسرف متكثر يتجاوز الحق ويفسد التاريخ؟! كلا! إنه لا يتجاوز الحق ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين.

ولنعد إلى ما أخذنا فيه نقول: إنَّ المتنبي إذن لم ينشئ بشعره فِي وصف الجهاد بين المسلمين والروم فنًّا جديدًا، وإنما ارتقى بهذا الفن حَتَّى انتهى به إلى أقصى ما كان قد قدر له من كمال، وأنت تشعر بهذا شعورًا قويًّا واضحًا حين تقرأ شعر المتنبي وشعر أبي فراس فِي وصف هَذَا الجهاد، فكلا الشاعرين قد شهد المواقع واشترك فيها وذاق لذاتها وآلامها، ثم وصف ما تركت فِي نفسه وفي نفس غيره من الأثر، ولكنك واجد فِي وصف المتنبي قوة وفتوة ونشاطًا وعنفًا، لا تجدها فِي شعر أبي فراس الذي ظهرت فيه دقة الحس ورقة العاطفة، فهو لا يخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة العنيفة التي كان يحياها هؤلاء العرب من المسلمين، فِي ذلك الوقت، ولعله يلائم الترف الذي كان يشمل القصرين فِي أوقات السلم، قصر سيف الدولة فِي حلب، وقصر أبي فراس نفسه فِي منبج، أنت واجد حين تقرأ هذين الشاعرين، فرق ما بين القوة التي ترتفع بك إلى أقصى ما تستطيع أن تبلغ من أمل وثقة وعنف، والضعف الذي ينحط بك إلى الحضيض، ولكنه يحتفظ بك معلقًا فِي الهواء، لا تبلغ الأرض فتمشي عليها، ولا تبلغ أعلى الجو فتحلق فيه تحليق النسر.

على أني أخشى أنْ يخدع القارئون لهذا الفن من فنون المتنبي عن أنفسهم بعض الشيء، فيظنوا أنَّ هَذَا الفن هُوَ القصص، كما نجده فِي الإلياذة وأشباهها من آيات الشعر

القصصي القديم والحديث، وقد خدع الأستاذ بلاشير نفسه عن هَذَا الشعر وعن الشعر الحماسي كله، فسماه قصصًا، والواقع أنَّ فِي شعر هَذَا المتنبي كثيرًا من مميزات الشعر القصصي، فيه قوة المعنى، وفيه جزالة اللفظ، وفيه روعة الوصف للحرب وأهوالها وبلاء الأبطال فيها، وفيه الإشادة بنفس الجماعة وما ترتقي إِلَيْهِ حين تبلى فتحسن البلاء، وحين تمتحن فتحسن احتمال المحنة، ولكن فيه عنصرًا يميزه من الشعر القصصي ويرده إلى الغناء ردًّا قويًّا ويلزمه مكانه من الشعر العربي المألوف، وهو أنَّ الشَّاعِر لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة، وإنما هُوَ يذكرها دائمًا حَتَّى حين يغرق فِي وصف سيف الدولة، أو حين يغرق فِي وصف الحرب والمحاربين، فشخصية المتنبي ظاهرة قوية فِي شعره الرومي، لا يستطيع القارئ وإنْ بعد العهد بينه وبين الشَّاعِر أنْ ينساها أو يعرض عنها، وإنما هي تفرض نفسها عليه فرضًا، وقد لا يكتفي المتنبي بحضور شخصيته فِي ذهنه وفي ذهن سامعيه وقارئيه، فإذا هُوَ يذكرها تصريحًا ويحدث عنها فِي غير لبس ولا التواء، وأخص ما يمتاز به الشعر الغنائي من الشعر القصصي هُوَ هَذَا العنصر بالضبط، هَذَا العنصر الذي يمثل الشَّاعِر أمامك فِي كل لحظة، ويقنعك بأن الشَّاعِر لا يصف وإنما يتغنى، فإذا وصف فوصفه أداة من أدوات الغناء ووسيلة من وسائله، فليس شعر المتنبي فِي وصف الجهاد بين المسلمين والروم قصصًا، وإنْ اشتمل على كثير من مميزات القصص، ولكنه غناء؛ لأنه يشتمل على أخص مميزات الغناء.

ومن هنا يخطئ من يوازن بينه وبين شعر الإلياذة فِي غير تحفظ ولا احتياط، ومن هنا يخطئ كذلك من يزعم أنَّ المتنبي قد أدخل فِي الشعر العربي فنًّا لم يكن فيه، وهو الفن القصصي، فالمتنبي لم يزد على أنْ أخذ فن الحماسة القديم فنماه وقواه حَتَّى انتهى به إلى أرقى أطواره.

وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبي فِي هَذَا الطور أيضًا، وهي أنه قد وثب بشعره حين اتصل بسيف الدولة وثبته الأخيرة التي رفعته إلى الأوج وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العرب، لا لأنه استحدث فنًّا جديدًا، فقليل من شعراء العرب من استحدث فنًّا جديدًا، وقد كان ذلك فِي صدر الإسلام وفي أول أيام العباسيين، ولا لأنه قد جدد من أوزان الشعر وقوافيه ما قدم وطال عليه العهد، ولا لأنه قد أضاف إلى هذه الأوزان وزنًا لم يكن معروفًا من قبل، فليس للمتنبي فِي شيء من هَذَا حظ ما؛ بل لأنه ملك ناصية الفن حقًّا، وجعل يتصرف بألفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول، وأثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها، وأصبح مرآة لنفسه لا لأبي تمام ولا

للبحتري، وأصبحنا نستطيع أنْ نقرأ القصيدة من شعره، فنقول: إنها قصيدته هُوَ لم يتأثر بها هَذَا الشَّاعِر أو ذاك، على حين كنا قبل هَذَا الطور من أطواره، نقرأ القصيدة من شعره فنحس وراءها المثل الذي احتذاه، والنموذج الذي اتبعه، فمرة نحس أبا تمام، ومرة نحس البحتري، وحينًا نلمح الحطيئة، وحينًا نلمح الأعشى، وربما خيل لنا أننا نرى زهيرًا، ولست أذهب فِي هَذَا الكلام مذهب القدماء من خصوم المتنبي، حين كانوا يزعمون أنه أخذ هَذَا المعنى من هَذَا الشَّاعِر أو أخذ هَذَا اللفظ من ذاك، وإنما أذهب مذهبًا آخر، وهو أنَّ المتنبي كان أحيانًا يجعل الشَّاعِر القديم أمامه، أو يجعل قصيدة بعينها من قصائد شاعر بعينه أمامه حين ينظم هذه القصيدة أو تلك، فيظهر أثر هَذَا فِي شعره، أراد ذلك أم لم يرد، ويظهر هَذَا الأثر شائعًا فِي الوزن والقافية، وفي اللفظ والمعنى، وفي روح القصيدة، إنْ جاز لنا أنْ نستعمل هَذَا اللفظ، بحيث تحس هَذَا الأثر، ولا تكاد تحصره أو تحدده أو تدل عليه. فأنت حين تقرأ داليته التي أولها:

أَقَل فَعَالِي بَلْه أَكْثَرَهُ مَجْدُ

لا تذكر الحطيئة أثناء قراءة الأبيات الأولى، فما أكثر الشعر العربي الذي يقوم على وزن كهذا الوزن، وقافية كهذه القافية، ولكنك لا تكاد تمضي فِي قراءة القصيدة حَتَّى تفرض عليك دالية الحطيئة فرضًا، وكذلك الأمر فِي لاميته التي أولها:

لَا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلَا طَلَلَهْ

متكلفة الغزل على جمال فيه، محتفظة بشخصية المتنبي فِي أولها وفي وسطها وفي آخرها، ولكن امض فِي قراءة القصيدة فستتراءى لك على كره منك لامية الأعشى، وستقرأ قوله:

وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

فلا تملك نفسك أنْ تذكر قول الأعشى فِي لاميته:

والشيءُ حَيْثُ مَا جُعِلَا

فإذا بلغنا طور المتنبي عند سيف الدولة، وقد أنفق الشَّاعِر فِي صحبة هَذَا الأمير عامًا أو عامين، وشهد بلاء الأمير، وتأثر بالحياة معه مقيمًا وظاعنًا، فإن هذه الظاهرة تستخفي من شعره استخفاءً تامًّا، وإذن أنت تستطيع أنْ تقول: إنه أخذ هَذَا المعنى أو هَذَا اللفظ من هَذَا الشَّاعِر أو ذاك، ولكنك لا تستطيع أنْ تقول: إنه تأثر فِي هذه القصيدة، قصيدة هَذَا الشَّاعِر أو ذاك.

لفظ المتنبي إذن فِي هَذَا الطول جزل، لا يستطيع المتنبي أنْ يبلغ به جزالةً أجزل مما وصل إليه، ومعناه فخم دقيق مستقيم إلى أقصى ما يستطيع الشَّاعِر أنْ يبلغ من الفخامة والدقة والاستقامة.

وللمتنبي فِي هَذَا الطور عيوبه اللفظية والمعنوية التي لا تأتيه من تقليد غيره، أو لا تأتيه من تعمد التقليد، إنْ أردت دقة التعبير، وإنما تأتيه من تكوين نفسه وذوقه وطبعه ومزاجه الخاص: أدبر عقله وشعوره وحسه على هَذَا النحو، فأدبر تعبيره على هَذَا النحو نفسه أيضًا.

ونحن بعد أنْ يترك المتنبي سيف الدولة نستطيع أنْ نلاحظ فِي شعره هَذَا الشعور أو ذاك وهذا الحس أو ذاك، ولكننا لن نستطيع أنْ نلاحظ أنَّ شعره قد ارتقى أو نما أو تجاوز الطور الذي انتهى إِلَيْهِ فِي حلب، وسنلاحظ أنَّ الناحية الغنائية تقوى جدًّا فِي شعره بعد مفارقة سيف الدولة؛ لأنه سيفرغ لنفسه على نحو ما، وسنلاحظ أَيْضًا أنه قد يقصر عما تعود أن يبلغ من الآماد، وقد يضعف شعره، وقد يصبح تكلفًا وتصنعًا، ولكنه لن يتجاوز الرقي الذي بلغه فِي هَذَا الطور.

وواضح أنَّ رقي شعر المتنبي فِي هَذَا الطور من أطوار حياته ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها، فالبيئة نفسها كانت تقتضي أحد أمرين: فإما أنْ يرقى المتنبي ويعلو حَتَّى يمتاز من خصومه ومنافسيه، وإما أنْ يظل حيث كان حين اتصل بسيف الدولة، فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الشعراء.

ولعلك لا تنس ما لاحظناه من أنَّ رقي شعر المتنبي حين لحق ببدر بن عمار، كان نتيجة لأسباب، من أهمها هذه البيئة العراقية الناقدة التي لم يظفر بها المتنبي قبل ذلك، فالبيئة التي كانت تحيط به عند سيف الدولة كانت أرقى جدًّا من البيئة التي أحاطت به عند بدر بن عمار، كانت أرقى، وكانت أشد تنوعًا واختلافًا، ولست فِي حاجة إلى أنْ أصف لك البيئة التي أحاطت بسيف الدولة فِي حلب، فقد كثر كلام الناس فِي وصفها حَتَّى أصبح الوقوف عندها إطالة وإملالًا، وإنما ألاحظ أنَّ بيئة بدر

بن عمار كانت بيئة ضئيلة ضيقة تلائم سلطان هَذَا العامل اليسير وما كان يستطيع أن يمنح من المال، وتلائم فِي الوقت نفسه ضآلة عمله وخضوعه لسلطان أمير آخر هُوَ ابن رائق الذي كان يتلقى سلطانه من بغداد، فأما بيئة سيف الدولة فقد كانت تلائم ما كان لهذا الأمير من سلطان مستقل بالفعل، له كل مميزات القوة والثروة والغنى، سلطان لا يتلقّاه صاحبه من بغداد، وإنما يستمده من سيفه ومن بلائه فِي قتال الروم والثبات للإخشيديين، سلطان ينافس به صاحبه أصحاب السلطان فِي بغداد وفي الفسطاط، ويبيح للمتنبي — كما سنرى — أنْ يُعرِّض بالخليفة حينًا، ويصرح بمهاجمته حينًا آخر، سلطان يشبه إذن سلطان بغداد، ويكاد يمتاز منه، بل يمتاز منه بأنه سلطان عربي خالص لا يتسلط عليه الأعجمي ولا يتأثر بالذوق الأجنبي، وما أظنك فِي حاجة إلى أنْ ألفتك إلى أنَّ حال السلطان فِي بغداد كانت سيئة كل السوء فِي هَذَا العصر بالقياس إلى ما تحتاج إِلَيْهِ الحياة الأدبية من التقوية والتنمية والتشجيع، فقد كان الخليفة معسرًا أشد الإعسار فِي أكثر الأوقات، ويكفي أنْ تقرأ كتاب الأوراق للصولي لترى مع كثير من الألم والحزن كيف كان الراضي يعتذر بضيق ذات اليد عن إرضاء حاجة شعرائه وندمائه إلى العطاء، وكان السلطان الفعلي وما يتبعه من الثراء الفعلي إلى جماعة من قادة الأتراك، ثم إلى هَذَا الأمير الديلمي وحاشيته، وواضح جدًّا أنَّ هؤلاء الأتراك والديلم مهما يكن من حبهم للشهرة وحرصهم على المنافسة ورغبتهم فِي تشجيع العلم والأدب، فقد كان لهم من ذوقهم الأجنبي ومن تعصبهم على العرب ومن شعوبيتهم بوجهٍ عام، ما يحول بينهم وبين الفراغ للحياة الأدبية العربية الخالصة، على نحو ما كانت الحال عليه فِي بغداد قبل ضعف الخلفاء وفساد الأمر فِي قصر الخلافة.

وربما كان استعداد السلطان لتشجيع الأدب وحمايته فِي مصر خيرًا من استعداده فِي بغداد، ولكن السلطان على كل حال كان إلى جماعة من الأجانب، من الأتراك والروم والسودان، فهم كانوا يحمون الأدب ويشجعونه؛ لأن طبيعة الحياة كانت تقتضي ذلك، ولأن المنافسة السياسية كانت تفرضه، فأما فِي حلب فقد كان الأمر مختلفًا كل الاختلاف، الأمير عربي متعصب للعرب، مبغض للشعوبية، والبيئة من حوله عربية طامحة إلى المجد، حانقة على الغاصبين فِي العراق ومصر، والذوق عربي قد ورث حب الأدب عامة، وحب الشعر خاصة، عن هذه البادية العربية التي كانت ما تزال حوله تمده وتغذوه، وليست الحاجة إلى المنافسة أقل منها فِي بغداد أو الفسطاط، ولعلها أكثر منها، ثم لم تكن هذه الدولة السورية فقيرة ولا معسرة، وإنما كانت ضخمة الثروة ظاهرة الغنى، وليس من شك فِي أنها كانت تكسب من حرب الروم أكثر مما تنفق فيها.

فلا غرابة فِي أنْ تزدهر الحياة العقلية والأدبية فجأة حول هَذَا الأمير العربي الفتى، وفي أنْ يسرع إِلَيْهِ العلماء والأدباء والشعراء يلتمسون فضله وحمايته، فيجدون عنده ما يلتمسون وفوق ما يلتمسون، ولعله كان يدعوهم إِلَيْهِ ويرغبهم فِي جواره ترغيبًا.

وأنا أعلم أنَّ هذه النهضة العقلية والأدبية لم تكن طبيعية ولا متوطنة فِي سوريا الشمالية، وقد رأينا فِي صدر هَذَا الحديث أنَّ البيئة العربية فِي شمال سوريا كانت جاهلة فِي شباب المتنبي، وأنَّ جهلها قد أثَّر فِي شعر المتنبي آثارًا ظاهرة نكاد نلمسها بأيدينا، إنما طرأت هذه النهضة على سوريا الشمالية طروءًا وظهرت فيها فجأة حين نهض فيها هَذَا الفتى العربي، فازدحم حوله الكُتَّاب والشعراء والعلماء والفلاسفة.

ولم يكن اتصال هذه الدولة الناشئة بالروم فِي غير انقطاع ليضعف من هذه النهضة أو ليحد آفاقها، وإنما كان خليقًا أنْ يزيدها قوة، بما يثير من نشاط فِي النفوس، وبما يحدث من اختلاط مستمر بين العرب والروم أثناء الحرب والسلم؛ لكثرة ما كان يقع فِي إسار المسلمين من الروم، ومن كان يقع فِي إسار الروم من المسلمين.

ولست أزعم أنَّ حلب كانت فِي ذلك الوقت أرقى من بغداد، أو أنها كانت تعدل بغداد فِي حظها من الحضارة والترف العقلي والمادي، فهذا مخالف لطبيعة الأشياء، وليس من المعقول أنْ تشبه مدينة نهضت فجأة بمدينة هي مستقر النهضة الإسلامية منذ عهد بعيد، كانت فيها آثار الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والمعتضد، وكانت عاصمة مادية ومعنوية لهذه الدولة الضخمة، وهي الآن قد فقدت سلطانها المادي، ولكن سلطانها المعنوي ما يزال قويًّا بعيد الصوت فِي الآفاق.

ولكن ليس من شك فِي أنَّ شاعرنا قد لقي فِي حلب بيئة لم يلق مثلها من قبل، فيها غذاء لعقله، وإرهاف لحسه، وتقوية لشعوره، وفيها قبل كل شيء وبعد كل شيء ملاحظة متصلة، ونقد مستمر، وحسد وكيد، وتنافس فِي الظفر برضا الأمير.

وإذن فمن الحق على المتنبي لنفسه أنْ يعنى بفنه أشد العناية وأدقها، وأنْ ينتفع بكل ما حوله لتصبح هذه العناية خصبة منتجة حقًّا، وقد فعل المتنبي من غير شك، فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة، وظهرت آثار هَذَا كله فِي شعره الذي قاله فِي هَذَا الطور.

(٢) بيئة سيف الدولة

وكانت ثقافة سيف الدولة نفسه واسعة عميقة فيما يظهر؛ فقد كان على احتفاظه بكثير من خصال البداوة أبعد الناس عن حياة البدوي الجاهل الذي لا يعرف الشجاعة والبأس والكرم والجود، وكانت بيئته الخاصة التي نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة فِي العلم والأدب، والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت مسيطرة فِي بغداد.

فهو لم يخرج من البادية فجأة، وإنما سبقت أسرته إلى شيء غير قليل من المجد، وشاركت فِي الحياة السياسية، ونهضت ببعض المناصب العامة، ثم انحازت إلى فكرة القومية من جهة، وتأثرت بالطمع وحب النفس من جهة أخرى، ففكرت فِي الاستقلال، وسعت إليه، وظفرت به، وأيسر النتائج لهذا أنها أخذت بأسباب الترف، وعاشت عيشة المتسلطين، ولم ترسل أبناءها هملًا بغير تربية ولا تثقيف، وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين، علمتهم ما لم يكن بُدٌّ من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال، وثقافة سيف الدولة تظهر فِي أحاديثه ومحاوراته ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال فِي مجلسه من الصواب والخطأ، ومن الجيد والرديء، ورغبته فِي أنْ تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، وفي أنْ تتفرغ فيها الثقافات، فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب.

وما كان الرجل يصنع هَذَا عن جهل، ولا عن غرور، ولا عن رغبة فِي المنافسة للمنافسة من حيث هي، بل عن بصيرة وحسن رأي، وعلم بما يأتي وما يدع، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة فِي نشر الدعوة، وإعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أبهة وجلال.

وكانت مجالس سيف الدولة فِي أوقات السلم كمجالس أمثاله من الأمراء وأصحاب السلطان، مدارس يتثقف فيها الجاهل، ويتهذب فيها ذو الطبع الغليظ، وتشتد فيها عناية كل واحد من الذين يشتركون فيها ويختلفون إِلَيْهَا بأن يعظم حظه من الثقافة، ويزداد علمه سعة وعمقًا، ويزداد طبعه رقةً وتهذيبًا، ويزداد لسانه مرونة ولباقة، ولعل سيف الدولة نفسه كان أشد الناس انتفاعًا بهذه المدرسة، واستفادةً مما يُلقى فيها من العلم ويدار فيها من الحديث، فكانت ثقافته تزداد وعلمه ينمو من يوم إلى يوم، ولست أستبعد أنْ يكون سيف الدولة قد أضاف إلى مشاركته فِي الثقافة الشائعة

لوقته، مشاركة فيما هُوَ أعمق من هذه الثقافة وأدنى إلى الجد، فما أظن فِي أنه حمى الفارابي، ويسَّر له أسباب الحياة لمجرد الرغبة فِي الفخر والتكثر، وما أستبعد أنْ يكون سيف الدولة قد ألمَّ شيئًا باليونانية وثقافة اليونانيين، لاتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشئون اليونان، فمن الحق على الشَّاعِر الذي يريد أنْ ينقطع لأمير كهذا الأمير، ويشارك فِي مجلس كمجلس سيف الدولة، أنْ يهيئ نفسه لذلك أحسن تهيئة، ويعدها له أقوى إعداد.

والرواة يحدثوننا، والديوان يحدثنا، بأن المتنبي قد جد فِي ذلك فأحسن الجد، وأتيح له فِي ذلك أحسن التوفيق، فلم يكن المتنبي كما عرفت صاحب مجون ولهو، ولم يكن محبًّا للراحة والفراغ، فلا غرابة فِي أنْ تتحدث الأخبار بأنه كان كثير القراءة، يطيل مصاحبة الكتب، حَتَّى يمضي عليه فِي ذلك أكثر الليل.

وإذن فلم يكن رقي شعر المتنبي فِي هَذَا الطور شيئًا مفاجئًا، ولا أثرًا من آثار المصادفة، وإنما كان شيئًا طبيعيًّا، ونتيجة لازمة لهذه الحياة الجديدة التي انغمس فيها، ولما كان قد ركب فِي طبعه من ذكاء القلب، ونفاذ البصيرة، وحدَّة الذهن، وقوة العقل والشعور معًا.

رُكب طبعه على هَذَا النحو، ووجد عند سيف الدولة راحة من الجهد، وفراغًا للجد من الأمر، وصادف بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة، وأميرًا ليس أقل من هذه البيئة خصبًا ولا ذكاءً ولا ثقافةً ولا ميلًا إلى النقد، فلم يكن له بد من أنْ يلائم بين نفسه وبين هذه البيئة، ومن أنْ يجعل نفسه خليقًا بصحبة هَذَا الأمير، فإذا أضفت إلى ذلك نشاط الأمير الذي لا يفتر، وحسن بلائه فِي سبيل المجد، وحسن جهاده فِي حماية الإسلام والمسلمين، وحسن سخائه بالمال، لم تنكر من هذه الوثبة التي وثبها المتنبي فِي هَذَا الطور من حياته قليلًا ولا كثيرًا.

(٣) مدح المتنبي لسيف الدولة

وكان شعر المتنبي كما رأيت متنوعًا كحياة الأمير الذي انقطع له، فوقف نفسه وجهده على مدحه والإشادة به والثناء عليه، وما أحتاج إلى أنْ أتكلف ما كنت أتكلفه من قبل فِي توقيت القصائد والمقطوعات وتاريخها، فالديوان يكفينا هذه المهمة، فهو يوقت هذه القصائد ويؤرخها، ولا يكاد يهمل إلا توقيت المقطوعات القصار وتأريخها؛ لأنها فيما يظهر كانت متصلة منتشرة فِي الأعوام التي اصطحب فيها الشَّاعِر والأمير، فلم يكن

فِي توقيتها وتأريخها كبير عناء، وما أحتاج كذلك إلى تأريخ حياة سيف الدولة، فإني لا أريد الحديث عن هَذَا الأمير ولا تصوير سيرته، بل أنا لا أعرض له إلا من حيث الحاجة إِلَيْهِ فِي تصوير حياة المتنبي والحديث عن شعره، ولم يقصر المؤرخون القدماء والمحدثون فِي إنصاف هَذَا الأمير وتصوير ما كان يمتاز به من قوة، أو ما كان يعنيه من ضعف وتقصير.

وما أحتاج كذلك إلى أنْ أتعمق فِي درس كل الشعر الذي قاله المتنبي فِي سيف الدولة، فإن هَذَا شيء يطول ويوشك ألا ينقضي، وما أشد حاجتي إلى أنْ أفرغ من هَذَا الحديث، وأدع المتنبي وحياته إلى موضوع آخر من هذه الموضوعات الكثيرة التي أنا مشغوف بقراءتها والكتابة فيها، فحسبك وحسبك أنْ نقف وقفات قصارًا عند نماذج مختلفة من هذه الفنون التي طرقها المتنبي فيما قال من الشعر لسيف الدولة، على أنْ تكون هذه النماذج التي نلم بها مغنية عما لا ندرسه ولا نقول فيه.

ولننظر قبل كل شيء إلى المدح الخالص الذي قاله المتنبي فِي سيف الدولة، والذي اشترك فيه سيف الدولة مع غيره من الأمراء الممدوحين، أو اشترك فيه المتنبي مع غيره من المادحين.

ولنختر أول ما قاله المتنبي فِي مدح سيف الدولة من الشعر حين اتصل به فِي أنطاكية سنة سبع وثلاثين، فنحن نلاحظ أنه أكثر من قوله الشعر فِي سيف الدولة أثناء هذه السنة الأولى، فقد مدحه فِي أنطاكية نفسها بقصائد ثلاث، إحداها هذه الميمية التي سنطيل الوقوف عندها شيئًا، والأخريان قالهما حين عزم سيف الدولة على الرحيل، وحين أخذ فيه، ثم ماتت أم سيف الدولة فرثاها، ثم أسر ابن سيف الدولة واستنقذه الأمير، وقال المتنبي فِي ذلك شعرًا، ثم تعرض أخو سيف الدولة لخطر من قِبَل البويهيين، وهمَّ سيف الدولة بنصره، فقال المتنبي فِي ذلك شعرًا، ثم أراد الأمير شاعره على أنْ يصحبه فِي هذه الحملة التي همَّ بها، فقال المتنبي فِي ذلك شعرًا، ومن المحقق أنَّ أسبابًا عارضة لم يحدثها المتنبي قد دعته إلى الإكثار من قول الشعر فِي هَذَا العام أو فيما بقى من هَذَا العام، ولكن من المحقق أَيْضًا أننا نحس فِي هَذَا الشعر كله، ولا سيما فِي القسم الأول منه، أنَّ المتنبي كان حريصًا كل الحرص على أن يرضي أميره ويظفر بمودته واصطناعه وإياه، وأنه قد ظفر من ذلك بما كان يريد، فأصبح شاعرًا رسميًّا، وأصبح الأمير حريصًا على صحبته، يهم بالسفر فيدعوه إلى مرافقته.

فلننظر إذن فِي بعض هَذَا الشعر، ولنختر منه الآن هذه القصائد الثلاث التي قالها المتنبي لأميره بمجرد أنْ أتصل به فِي أنطاكية، حين كان الأمل وحده هُوَ الذي يدفعه

إلى المدح والثناء، والنظرة السريعة ﻓِﻲ القصيدة الأولى تترك ﻓِﻲ أنفسنا أثرًا غريبًا، فالفرق عظيم جدًّا بين لهجة الشَّاعِر فيها ولهجته ﻓِﻲ القصيدة الأولى التي مدح بها بدر بن عمار، كان مدحه لبدر بن عمار كما رأيت مندفعًا شديد الاندفاع لا يكاد يملك نفسه، ولا يسيطر على ما يثور فيها من عواطف الفرح والابتهاج، وكان كما رأيت يلائم بين شعوره وشعره، فيصطنع البحر المتقارب الذي ينحدر به انحدارًا، ويصور إسراعه إلى الأمير، واندفاعه إلى هذه الواحة الخضراء التي لاحت له ﻓِﻲ صحراء مجدبة.

أما ميميته الأولى ﻓِﻲ سيف الدولة، فلا تصور اندفاعًا ولا إسراعًا، وإنما تصور أناة ومهلًا وتعمدًا لطول الروية والإمعان ﻓِﻲ التفكير، وأنا أقدِّر أنَّ المتنبي كان ﻓِﻲ الخامسة والعشرين حين اتصل ببدر بن عمار، وكان ﻓِﻲ الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف الدولة، وأنا أقدر أثر الشباب ﻓِﻲ ذلك الاندفاع، وأثر الكهولة ﻓِﻲ هذه الأناة، بل أنا أقدر أَيْضًا أنَّ المتنبي كان بائسًا يائسًا حين أتيح له الاتصال ببدر، وأنه كان راضيًا مطمئنًّا حين اتصل بسيف الدولة، بل أنا أقدر بعد هذا وذاك أنَّ المتنبي كان قليل الشهرة، ضئيل الحظ من نباهة الذكر حين اتصل ببدر بن عمار، وكان بعيد الصوت مرتفع المكانة حين اتصل بسيف الدولة.

وكل هَذَا كاف لتعليل اندفاعه ﻓِﻲ طبرية، وأناته ﻓِﻲ أنطاكية، ولكني لا أستبعد مع هَذَا أنْ تكون تجربة المتنبي عند بدر قد علمته الاحتياط حين يتصل بالملوك والأمراء، وألقت ﻓِﻲ روعه أنَّ الخير أنْ يصطنع الأناة والروية، فلا يلقى بين يدي ممدوحيه بنفسه كلها وأمله كله، وإنما يعطيهم من ذلك بمقدار، ويدخر لنفسه منه ما قد ينفعه حين يحتاج إليه، بل أنا أرجح أنَّ تجربة المتنبي عند بدر وعند غيره من الناس قد علمته ألا يكشف عن نفسه كلها لأحد، وأنْ يقسم حماسته قسمين، ويحتفظ لنفسه بأحدهما، ويجعل الآخر مادة يأخذ منها ليعطي ممدوحيه.

ومهما يكن من شيء فقد كان للمتنبي حين أقبل على سيف الدولة ﻓِﻲ أنطاكية مظهران متناقضان: فأما أحدهما فمظهر الأناة والحذر، وأما الآخر فمظهر الحرص على إرضاء أميره العظيم.

وشيء ثالث لا بُدَّ من تقديره فيما أظن، وهو أنَّ المتنبي قد حقق ﻓِﻲ نفسه الفرق بين ممدوحه الجديد وممدوحيه السابقين، وحقق ﻓِﻲ نفسه الفرق بين البيئة التي كانت تحيط بسيف الدولة والبيئات التي كانت تحيط بممدوحيه الآخرين، فأقدم على مدح سيف الدولة والتحدث إلى بيئته، لا ﻓِﻲ شيء من الأناة والحذر فحسب بل ﻓِﻲ شيء من التهيب والإشفاق أيضًا.

وما أرى إلا أنه استعد لمقامه هَذَا بين يدي سيف الدولة وأصحابه، فأحسن الاستعداد وأطاله، وتقدم إلى فنه أن يمده بكل ما يملك من قوة وخصب وغناء، وحرص على أن تكون قصيدته الأولى لهذا الأمير خليقة بمقامه الأول بين يديه، وعلى أن يقرأ أصحاب الأمير وندماؤه هذه القصيدة أو يسمعوها، فإذا هم مضطرون إلى أن يقدروها ويحسبوا لصاحبها حسابًا، ويعترفوا بأن الشَّاعِر وشعره خليقان حقًّا بالعناية والتفكير.

من أجل هَذَا كله كظم المتنبي عواطفه، وأخضع آماله وأهواءه لنظام دقيق شديد حقًّا، وادخر إرسال نفسه على سجيتها، لمواقف ومقاومات أخرى حين تزول الكلفة بينه وبين الأمير، وحين تؤمن له البيئة الجديدة بنباهة الذكر وارتفاع الشأن والمهارة فِي الفن، وإذن فليصطنع المتنبي لهذا المقام الخطير ما يلائمه من فخامة الوزن وضخامة القافية، وجزالة اللفظ، ودقة المعنى وارتفاعه أيضًا.

وأنت واجد هذه الخصال كلها فِي هذه القصيدة الميمية، ويكفي أن تقرأ مطلعها لتعرف أن الشَّاعِر قد تعمده تعمدًا، وقصد إِلَيْهِ مع سبق الإصرار — كما يقول أصحاب القانون — لا لشيء إلا ليبهر ويسحر ويصدم السامعين، ويفرض عليهم نفسه، ويكرههم على الاعتراف بأن هَذَا الشَّاعِر الجديد ليس شاعرًا ما، ليس أول مقبل كما يقول الفرنسيون، وإنما هُوَ شاعر يعرف كيف يدير رأيه فِي رأسه، وكيف يدير لسانه فِي فمه، وكيف يقول البيت من الشعر، فيكلف سامعيه وقارئيه كثيرًا من الجهد والعناء ليفهموه ثم ليذوقوه، ولن يقنعني أحد بأن المتنبي قد أرسل نفسه على سجيتها فِي هَذَا البيت، وقاله فِي غير تكلف وتعمد، والمتنبي عندي أعقل وأذكى وأعلم بالشعر، وأبرع فيه من أن يندفع إلى هَذَا البيت اندفاع الذي لا يعلم ما يأتي وما يدع، وإنما أراد المتنبي أن يُعَنِّيَ خصومه الذين عرفهم أو افترضهم، وأن يكلفهم التفكير فِي تفسير هَذَا اللغز الذي استفتح به قصيدته، أو هذه الألغاز التي مضى فيها أثناء القسم الأول من هذه القصيدة:

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْع أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ   بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن المتنبي أراد أن يعبر عما فِي نفسه، فلم يجد وسيلة إلى هَذَا التعبير إلا هَذَا البيت الذي اشتد فيه الالتواء والتعقيد؟!

ولنلاحظ أن المعنى الذي قصد إِلَيْهِ متكلَّف فِي نفسه،لم يصدر عن نفس سمحة مرسلة مع طبعها، وإنما صدر عن شاعر يريد أن يأتي بشيء جديد، لم يتعود الناس والمثقفون منهم خاصة أن يسمعوه، يريد أن يفجأ سامعيه، ويأتيهم بشيء لا عهد لهم به، فمتى سمع الناس تشبيه وفاء الأصدقاء بربع الأحباء؟ وأي علاقة بين هذين الطرفين من أطراف التشبيه؟ وإذن فهذا المعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب، ولا بد للشاعر من أن يتأنق فِي لفظه كما تأنق فِي معناه، ولا بد من أن تكون الغرابة مظهر هَذَا التأنق اللفظي، كما كانت الغرابة مظهر ذلك التأنق المعنوي، وما دام قد شبه الوفاء بالربع، فليفسر هَذَا التشبيه بما يزيده غرابة وطرافة وإمعانًا فِي البعد عن المألوف، فكما أنَّ الربع يكون أشجى للنفس وأبلغ فِي إثارة الحزن كلما أمعن فِي الدروس وامِّحَاء الآثار والدنو من البلى، فوفاء صاحبيه أشد إثارة للحزن كلما ضعف وقل وتضاءلت آثاره، والمتنبي يؤدي هَذَا المعنى الغريب فِي تعقيد قد قصد إِلَيْهِ وتكلفه، فهو كان يريد أن يقول: وفاؤكما بمساعدتي كالربع أشجاه طاسمه، فأخر الجار والمجرور عمدًا، وأخبر عن المبتدأ قبل أنْ يتم وصفه بهذا الجار والمجرور، ثم لماذا اصطنع كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة الشائعة المألوفة وهي الطامس؟ أتراه فعل ذلك لأن القافية أعيته وهو لم يأخذ بعدُ فِي القصيدة؟ كلا؟ هُوَ أقدر على اللفظ والقافية من ذلك، ولكنه تعمد الإغراب، وتعمد أنْ يثير حاجة النحويين إلى الاستطلاع والبحث، وأنْ ينبئهم بأنهم إنْ كانوا ريحًا فقد لاقوا إعصارًا، وأنهم سيجدونه حين يذكرون الغريب ويخوضون فِي حل المشكلات النحوية واللغوية.

ثم اقرأ البيت الثاني:

وَمَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ　　أَعَقُّ خَلِيلَيْهِ الصَّفِيَّيْنِ لَائِمُهْ

فالشاعر لم يقلع بعد عن التكلف والرغبة فِي الإغراب، يعمد إلي ذلك فِي معناه ثم يعمد إِلَيْهِ فِي لفظه أيضًا، فانظر أولًا إلى هَذَا الفصل الذي تعمده «وما أنا إلا عاشق»، ثم يقطع الحديث ليستأنف تصوير شأن العاشق على نحو طريف فِي الشعر يألفه أصحاب المنطق أكثر مما يألفه الشعراء: «كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه»، وهذا النحو الملتوي من الأخبار عن هَذَا العاشق قد تعمده الشَّاعِر ليثير استطلاع النحويين وينبئهم بمكانه من القدرة على تصريف الكلام، وأي صعوبة كان يجدها الشَّاعِر لو أراد أن

يؤدي هَذَا المعنى على نحو مألوف، فقال: كل عاشق يسوءه أصفى أخلائه ويعقه بلومه والزراية عليه، ثم يقول المتنبي:

وقَدْ يَتَزَيَّا بِالْهَوَى غَيْرُ أَهْلِهِ وَيَسْتَصْحِبُ الْإِنْسَانُ مَنْ لَا يُلَائِمُهْ

وكأنه قد رحم سامعيه وقارئيه، وأراد أنْ يُريحهم من هَذَا الإغراب ويرفه عليهم بعض الترفيه، فألقى عليهم هَذَا البيت مثلين سائرين يؤديهما فِي أعذب لفظ وأوجزه، وأشده إمعانًا فِي الاستقامة والاعتدال، حَتَّى يدهش سامعيه من أنْ يكون قائل هَذَا البيت السهل الجزل الصحيح المستقيم، هُوَ قائل ذينك البيتين الممعنين فِي العسر والغرابة والالتواء.

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يستأنف فيهما الحديث استئنافًا، كأنه قد قطعه مع أنه لم يقطعه، فهو مَا زَالَ يتحدث إلى صاحبيه، وهو يزعم لهما أنه سيقف بالأطلال، وسيطيل فيها الوقوف، وسينظر إلى الآثار وسيمعن فِي النظر إِلَيْهَا برغم بخلهما عليه بالإسعاد وتعريضهما له باللوم، ولكن انظر كيف يؤدي هَذَا المعنى فيعدل عن الخبر إلى الإنشاء، وعن النبأ إلى الدعاء، وانظر إلى قوله: «بليت بلى الأطلال» ولائم بينه وبين قوله لصاحبيه: «وفاؤكما كالربع»، ثم انظر إلى الشطر الثاني من هذا البيت، واستحضر ما سمعت وعلمت من عناية القدماء به وإكثارهم القول فيه، وقل لنفسك ما قلته لك آنفًا: إنَّ الشَّاعِر لم يقصد إلا أنْ يفجأ سامعيه ويبهرهم بالإغراب فِي المعاني والألفاظ:

بَلِيتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ

وقد أرضى الشَّاعِر حاجته إلى الإغراب ومفاجأة السامعين به، وأحس أنه قد ملأ نفوسهم إعجابًا به وتهيبًا له، فصور ذلك تصويرًا جميلًا رائعًا لا يخلو من التحدي فِي هَذَا البيت الجميل الرائع:

كَئِيبًا تَوَقَّانِي الْعَوَاذِلُ فِي الْهَوَى كَمَا يَتَوَقَّى رَيِّضَ الْخَيْلِ حَازِمُهْ

فهو إذن عاشق عنيف فِي عشقه، محب خشن فِي حبه، لا يحفل بتقصير صاحبيه عن إعانته، ولا بإلحاحهما فِي لومه، وهو شديد على عواذله حَتَّى إنهن ليتوقينه ويجتنبن

عذله، ولا يدنون منه إلا حذرات مشفقات مترفقات كما يدنو الحازم من الفرس الجموح الشموس ليدير عليه الحزام، أتراه يصور نفسه لسيف الدولة، ويعطيه فكرة عن أخلاق هَذَا الشَّاعِر الذي يقف الآن بين يديه مادحًا ويريد أن يكون أثيرًا عنده ومقصورًا عليه؟ أتراه ينذر أصحاب سيف الدولة هؤلاء الشعراء والأدباء وينبئهم بأنه ليس من اليسر والسهولة بحيث ينتظرون أو يرجون، وإنما هُوَ فرس جامح عنيف؟ كلا الأمرين ممكن، ولكن هناك شيئًا محققًا لا شك فيه، وهو أَنَّ الشَّاعِر برغم حرصه على الاتصال بسيف الدولة لا يلقي نفسه عليه إلقاء، ولا يظهر التهالك على القرب منه، وإنما هُوَ — كما قدمت — يدنو حذرًا محتاطًا مشترطًا لنفسه، وهذا يفسر ما رواه القدماء من أنه لم يتصل بسيف الدولة إلا بعد أنْ احتاط واشترط لنفسه ما لم يتعود الشعراء أنْ يشترطوه على الأمراء.

ولست أدري أصحيح ما روى الرواة من هذه الشروط أم هُوَ متكلف منحول؟ ولكن الذي ليس فيه شك عندي هُوَ أَنَّ المتنبي أقدم على مدح سيف الدولة فِي شيء من العزة لم يألفه حين كان يمدح غيره من الأمراء والرؤساء.

ثم انظر إِلَيْهِ كيف ينحرف عن صديقيه المقصرين فِي الوفاء له، وعن عواذله المشفقات من القرب منه، إلى صاحبته التي تعذِّبه وتضنيه، فيتحدث إِلَيْهَا فِي لهجة يريدها على أنْ تكون لهجة غناء وحنين، فلا يكاد يبلغ ذلك؛ لأن فِي نفسه بقية من قوة، وفضلًا من عنف، وحاجة إلى التكلف والإغراب:

قِفِي تَغْرَمِ الْأُولَى مِنْ اللَّحْظِ مُهْجَتِي بِثَانِيَةٍ وَالْمُتْلِفُ الشَّيْءَ غَارِمُهْ

أتراه يريد أنْ يبهر الفقهاء من أصحاب سيف الدولة كما بهر النحاة واللغويين؟ وإلا فما هذه القضية الفقهية التي صورها فِي هَذَا البيت: فزعم أَنَّ صاحبته قد أضاعت عليه مهجته بالنظرة الأولى، فلابد من أنْ تردها عليه بالنظرة الثانية؛ لأن من القضايا المسلمة عند الفقهاء أَنَّ المتلف الشيء غارمه، ولكنه لا يطيل فِي مداعبة الفقهاء كما أطال فِي مخاشنة اللغويين والأدباء، وإنما يندفع إلى الغناء الهين اليسير، فيبلغه فِي غير مشقة ولا جهد، بل يبلغه فِي شيء من العذوبة والظرف فِي هَذَا البيت على أقل تقدير:

سَقَاكِ وَحَيَّانَا بِكِ اللهِ إِنَّمَا عَلَى الْعِيسِ نَوْرٌ وَالْخُدُورُ كَمَائِمُهْ

واقرأ هَذَا البيت الآخر، فليس هُوَ أقل من سابقه ظرفًا، وإنْ كان معناه قريبًا كل القرب مألوفًا كل الإلف، وإنْ كان الشطر الثاني منه لا يخلو من تأنق فِي اللفظ ما أشك فِي أنه يداعب به فريقًا من أصحاب سيف الدولة:

وَمَا حَاجَةُ الْأَظْعَانِ حَوْلَكِ فِي الدُّجَى   إلـى قَـمَـر مَـا وَاجِـدٌ لَـكِ عَـادِمُـهْ

وما أرى إلا أنه قد قصد بهذا الطباق بين الوجود والعدم إلى مداعبة المتكلمين، كما قصد بالإتلاف والغرم إلى مداعبة الفقهاء، فهذه الأبيات وحدها، إنْ صح فهمي لها وتفسيري لما قصد إِلَيْهِ المتنبي بها، تصور لنا الحاشية التي كانت تصحب سيف الدولة وتحضر مجلسه، حين أنشده المتنبي هذه الميمية فِي أنطاكية.

على أنَّ الشَّاعِر لم يقف عند هؤلاء الناس وحدهم من أصحاب سيف الدولة، وإنما أراد أن يرضي فريقًا آخرين ليسوا من أصحاب النحو واللغة، ولا من أهل الفقه والدين، ولا من رجال الفلسفة والكلام، وإنما هم من أهل البادية وأصحاب الحرب والمشغوفين بالجمال والبأس معًا، والمحتفظين بالسنة البدوية القديمة فِي سيرتهم العملية والعقلية جميعًا، فانظر إِلَيْهِ كيف عاد إلى المألوف من سنة امرئ القيس والفرزدق وابن أبي ربيعة، فِي وصف صاحبته، وما يدل عليها من الطيب، وما يقوم دونها من البأس والسلاح:

حَبِيبٌ كَأَنَّ الْحُسْنَ كَانَ يُحِبُّه   فَآثَرَهُ أَوْ جَارَ فِي الْحُسْنِ قَاسِمُهْ
تَحُولُ رِمَاح الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ   وَتُسْبَى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرائِمُهْ
وَيُضْحِي غُبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سُتورِهِ   وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمُلَازِمُهْ

ثم يعود الشَّاعِر إلى نفسه بعد أن فرغ من الناس، فيستأنف ما ألف من الغناء الفلسفي الذي يصوره — فيما يذكر — من شدة الدهر عليه وحسن احتماله لهذه الشدة وصبره على ما يلقى من المكروه، وفي إرسال الأمثال السائرة والحِكَم الشائعة التي تجد النفس راحة فيها حين تقولها وحين تسمعها.

وقِفْ وقفة خاصة عند هَذَا البيت، فلست أدري لماذا أجد فيه حلاوة مرة لا آخر لها، إنْ جاز مثل هَذَا القول، وهذا البيت عندي هُوَ خير ما فِي القسم الأول من القصيدة:

فَلَا يَتَّهِمْنِي الْكَاشِحُونَ فِإِنَّنِي رَعَيْتُ الرَّدَى حَتَّى حَلَتْ لِي عَلَاقِمه

وقد فرغ المتنبي من الناس وفرغ من الأشياء ومن الزمان، وفرغ من نفسه إنْ كان يستطيع أنْ يفرغ من نفسه، وانتهى إلى سيف الدولة، فماذا قال له؟ لا شك أنه شهد استعداد المدينة لاستقبال الأمير قبل مقدمه بزمن بعيد، ورأى هذه الفازة أو هَذَا السرادق الذي نصب ليستقبل الأمير فيه وفود المرحبين به والمهنئين له بما أحرز من فوز وظفر، ولا شك فِي أنَّ هذه الفازة قد أعجبته وراقته وراعه ما صور عليها من المناظر التي تمثل الحياة والأحياء، وتمثل الحرب والسلم أيضًا، ولا شك فِي أنَّ هذه الخيمة كانت بعض الغنائم التي أخذت من الروم، فليصفها المتنبي، وليجعل وصفها أول سبيل يسلكه إلى مدح سيف الدولة.

والخطأ كل الخطأ أنْ يظن قارئو هَذَا الوصف لما كان على الخيمة من تصاوير، أنَّ المتنبي قد ارتجل هَذَا الوصف ارتجالًا، فليس فِي هذه القصيدة شيء مرتجل، وإنما هي قصيدة مصنوعة قد هيئت للأمير قبل مقدمه، ولا شك فِي أنَّ المتنبي قد اختلف إلى هذه الخيمة التي نصبت قبل مقدم الأمير، فرأى ما كان عليها من الصور وتفكر فيه، ثم قال فيه ما قال.

والخطأ كل الخطأ أَيْضًا أنْ يظن ظان أنَّ المتنبي قد ابتكر هَذَا الوصف وجاء به من عند نفسه، فالشعراء قد سبقوا إلى وصف الصور منذ عهد بعيد، والناس كلهم يذكرون وصف أبي نواس للكئوس العسجدية التي صُوِّر كسرى فِي قرارتها، وصوِّرت فِي جنباتها مهًا تذريها بالقسيِّ الفوارس، ثم ملئت بالخمر الممزوجة بالماء:

فَلِلْخَمْرِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

والناس كلهم يذكرون أَيْضًا وصف البحتري لما كان على الإيوان من تصاوير قد برع الفن فِي تصويرها وإشاعة الحياة والنشاط فيها، حتى:

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ء لَهُمْ بَيْنَهُم إِشَارَةُ خُرْسِ

يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى   تَتَقَرَّاهُمُ يَدَايَ بِلَمْسِ

وقد ألمَّ المتنبي نفسه فِي شبابه بوصف الصور التي صُوِّرت على الخيام، ولكنه ألم بهذا الوصف إلمامًا سريعًا جدًّا حين قال فِي نونيته التي يمدح بها بدر بن عمار ويعتذر فيها إليه:

سَلَكَتْ تَمَاثِيلَ الْقِبَابِ الْجِنُّ مِنْ   شَوْقٍ بِهَا فَأَدَرْنَ فِيكَ الْأَعْيُنَا

ولست أرتاب فِي أنَّ الشَّاعِر قد استحضر وصف القدماء للصور والتماثيل حين وصف هذه الخيمة التي ضربت لسيف الدولة، وانتفع بهذا الوصف فِي كثير من المعاني التي ألم بها، ولكن ذلك لم يضعف من شخصيته ولم يغض من فنه؛ لأنه احتفظ فِي هَذَا الوصف بروحه القوي ولفظه الجزل، واستغل عظمة سيف الدولة والخصومة القائمة بينه وبين الروم.

ومذهب المتنبي فِي هَذَا الوصف يسير لا جهد فيه ولا عناء، أو قل لا يظهر فيه الجهد ولا العناء، وهو مذهب مأخوذ عن القدماء أيضًا، قد سلك فيه الشَّاعِر طريق الشعراء من قبله، يرى صور الرياض فيقول: إنها رياض لم ينشئها السحاب، ويرى صور عقود الدر فيقول: إنه در لم يثقبه ثاقب ولم ينظمه ناظم، وهو مذهب القدماء حين كانوا يقولون: إنَّ عيون الحسان سهام لم يرشها رائش، وإنها مرضى ولكنها صحاح:

صَوَّبْنَ حِينَ أَرَدْنَ أَنْ يَرْمِينَنِي   نَبْلًا بِلَا رِيشٍ وَلَا بِقِدَاحِ
وَرَمَيْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ بِأَعْيُنٍ   مَرْضَى مُخَالِطُهَا السقَام صِحَاح

فإظهار الاختلاف بين الحقائق المحكية والصور الحاكية، وإظهار التشابه الدقيق بين هذه الحقائق وهذه الصور، هَذَا التشابه الذي ينشأ من دقة الصنعة وبراعة الفنان، هما سبيل المتنبي ومذهبه إلى إجادته الفنية فِي هَذَا الوصف، وظاهر أنه مذهب يسير قد كان يبهر القدماء ويخلبهم، ولكنه إنْ أرضانا فهو يثير على ثغورنا ابتسامًا فيه كثير من الحب لهذه السذاجة والعطف على أصحابها، ثم للمتنبي مذهب آخر مأخوذ من القدماء أخذًا هُوَ إشاعة الحياة فِي صور الأحياء، فهذه الوحوش التي تتحارب حينًا

وتتسالم حينًا آخر حين تعبث الريح بالخيمة، تُذكِّر جدًّا بالجيوش التي كان يزجيها كسرى تحت الدرَفْس فِي شعر البحتري، لولا أنَّ صور البحتري كانت تستمد حياتها ونشاطها من قوة الفنان لا من تحريك الريح لجدران الإيوان،كما كانت تحرك خيمة سيف الدولة؛ لأن جدران الإيوان كانت أثبت من أنْ تهزها الريح، ولأن صور الإيوان كانت أنشط من أنْ تحتاج إلى معونة خارجية لتخيل إليك أنَّ الحياة شائعة فيها، فشخصية المتنبي فِي هَذَا الوصف لا تأتي من معناه، وإنما تأتي من هذا اللفظ الضخم الذي تشيع فيه القوة والجزالة، ثم من تصوير سيف الدولة عظيمًا مهيبًا يذلُّ أمامه ملك الروم، وتضطر الملوك إلى أنْ تقبل البساط بين يديه؛ لأن أعناقها تتقاصر عن تقبيل كمه أو لثم يديه، فإذا فرغ المتنبي من وصف هذه الخيمة وتصوير عظمة الأمير وهيبته وهو يستقبل فيها الوفود، خلص الأمير نفسه، فوصفه مطلقًا لا تحصره خيمة ولا يحتويه مكان، فانظر إلى هَذَا البيت:

لَهُ عَسْكَرَا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى　　　بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُه

فالمعني الذي ألم به الشَّاعِر قديم بعيد العهد بالقدم، لم يبتكره الشَّاعِر من عند نفسه، وإنما سبق إِلَيْهِ النابغة[2] فِي مدح الغسانيين، وسبق إِلَيْهِ أبو نوّاس[3] فِي مدح

---

[2] قال النابغة:

إذا ما غزو بالجيشِ حلقَ فوقهمْ　　　عَصائبُ طَيرٍ تَهتَدي بعَصائبِ
يُصاحِبْنَهُمْ حَتَّى يُغِرْنَ مُغارَهم　　　مِنَ الضّارياتِ بالدِّماءِ الضوارب
تراهن خلفَ القوْم خُزْرًا عُيُونُها،　　　جُلوسَ الشيوخِ فِي ثيابِ المرانِبِ
جوَانِحَ قد أيْقَن أنَّ قَبِيلَهُ　　　إذا ما التقى الجمعانِ أول غالب

(انظر قصيدته المشهورة: كليني لهم يا أميمة ناصب.)

[3] قال أبو نواس:

تَتَأيا الطيْرُ غُدْوَتَهُ　　　ثِقَةً بِالشبعِ مِنْ جَزَرِهْ

(انظر قصيدته: أيها المنتاب من عفره.)

بعض الأمراء العباسيين، ولكن شخصية المتنبي مع ذلك ممتازة من شخصيتي هذين الشاعرين وغيرهما من الذين ألموا بهذا المعنى مجملين أو وقفوا عنده مفصِّلين، ذلك أنَّ القدماء كانوا يزعمون أنَّ سباع الطير قد عرفت حسن بلاء الممدوحين فِي الحرب، فهي تتبعهم لتأكل ممن يقتلون، وهذا المعنى نفسه لم يبتكره الشعراء، وإنما سبقت إِلَيْهِ البلاغة الشعبية حين كان العرب فِي جاهليتهم يزعمون أنَّ الضباع تتباشر بالحرب لما ستنجلي عنه من جيف القتلى، وذلك قول الشنفري:

لَا تَدْفِنُونِي إِنَّ دَفْنِي مُحَرَّمٌ   عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرِ

فمن تباشر الضباع بالحرب تباشرت طير الشعراء بها أيضًا، ثم عرفت الأبطال الذين يحسنون البلاء فيها، فتبعتهم ثقة بأنها ستجد من صرعاهم ما يكفل لها الغذاء.

أما المتنبي فإنه قد انتفع بهذا كله، ولكنه لم يجعل طير سيف الدولة طفيلية تتبعه لتعيش، وإنما جعلها بعض جنوده، فهي تتبعه محاربة لا متطفلة، وليس هَذَا هُوَ المهم، على أنه فِي نفسه قيم، بل المهم أنَّ المتنبي قد جعل للأمير جيشين، جيشًا فِي الأرض تحمله الخيل، وجيشًا فِي السماء يحمله الجو، ومن قبل سيف الدولة لم يتأمر الخلفاء والملوك والأمراء على جيوش تطير فِي الجو، فالفكرة نفسها جديدة، والصورة التي تثيرها هذه الفكرة طريفة، والعظمة التي يخرج بها الممدوح منهما رائعة وشخصية المتنبي لا تضعف ولا تتضاءل أمام الفحول الذين سبقوه، ولكنها تثبت لهم وتقوى عليهم، وكذلك الأمر فِي البيت الذي يأتي بعد هَذَا بقليل:

سَحَابٌ مِنَ العِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا   سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ

فالمعنى فِي هَذَا البيت هُوَ المعنى نفسه فِي البيت الذي سبقه، ولكن التصوير فيه يبلغ بالمتنبي أرفع ما يستطيع أنْ يسمو إِلَيْهِ من الروعة والجمال الفني المخيف، أترى إلى هذه السحاب من العقبان تسعى تحتها سحاب من الجيش، أترى إلى العدو وقد رأى هذه السحب التي يركب بعضها بعضًا، ويدفع بعضها بعضًا، وتزدحم بها الأرض والجو معًا، ثم لا تقف براعة المتنبي عند هذا، ولكنه يقلب الأوضاع المألوفة فِي عرف الناس، فإذا السحب العليا تستسقي ما دونها من السحب، وقد ألف الناس أنْ يستسقي الأسفل الأعلى، فإذا الأعلى هنا يستسقي الأسفل، والصوارم هي التي تسقي السحب

العليا بما تريق لها من الدماء، قل: إنَّ المتنبي لم يبتكر أصل المعنى، فلن ينازعك فِي ذلك أحد، ولكن لا تنازع أنت فِي أنه قد ألم بهذا المعنى القديم اليسير فاستثمره أحسن استثمار، وارتفع به إلى جوهر الشعر، واستطاع أنْ يروع سامعيه وقارئيه بالتعبير والتصوير جميعًا.

ودع هذين البيتين، واقرأ معي هذين البيتين الآخرين، فسترى فيهما جمالًا يأتيهما أكثره من اللفظ وأقله من المعنى، وسترى فيهما جزالة حلوة يذوقها الذين يحبون النحو ويألفون ما فيه من العلل والتأويل:

فَقَدْ مَلَّ ضَوءُ الصُّبحِ مِمَّا تُغِيرُهُ وَمَلَّ سَوَادُ اللَيْلِ مِمَّا تُزَاحِمه
ومَلَّ الْقَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورَهُ وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْد مِمَّا تُلاطِمُه

فهذا الفعل الذي يتكرر أربع مرات ويضيف الملل إلى الصبح، وإلى الليل، وإلى الرماح، وإلى السيوف، يروع السامع ويكرهه على أنْ يتبع الشَّاعِر فِي شيء من الدهش والنشاط، فما تعود الناس أنْ يجدوا من الصبح والليل والرماح والسيوف مللًا أو سأمًا، وأنت فِي غير حاجة إلى أنْ أنبهك إلى جزالة اللفظ وضخامته، ولكن انظر إلى قوله:

فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبحِ مِمَّا تُغِيرُهُ

يريد مما تغير فيه. وإلى قوله:

وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تُلَاطِمُهْ

يريد مما تلاطم به، فإلغاء حرف الجر ووصل الضمير بالفعل مباشرة وبغير وساطة — كما يقولون — مذهب من مذاهب الفصحاء من الأعراب له جمال حلو يذوقه الذين يحسنون علل النحو ويجيدون تخريج الكلام، وإذا لم تكذبني الذاكرة فِي هَذَا المكان الأجنبي البعيد عن المراجع والكتب، فقد استحسن المبرد[٤] قول الشَّاعِر القديم:

[٤] الكامل للمبرد ص٢١ (طبع ليبزج).

تَحِنُّ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِن صَبَابَة   وَأُخْفِي الذِي لَوْلَا الْأَسَى لَقَضَانِي

يريد لقضى عليَّ، فألغى الحرف ووصل الضمير.

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يطغى فيهما المتنبي على شعراء سيف الدولة، الذين كانوا يمدحونه قبل أن يعرف المتنبي طغيانًا عظيمًا:

غَضِبْتُ لَهُ لما رأيتُ صِفَاتِهِ   بِلَا وَاصِفٍ وَالشعرُ تَهذِي طَمَاطِمُه
وكنتُ إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا بَعِيدَةً   سَرَيتُ فَكُنْتُ السِّرَّ وَالليل كَاتِمُهْ

أترى إِلَيْهِ وقد أحس أنَّ الشعراء سيمكرون به، ويكيدون له حين يضيقون بمقدمه على الأمير ومكانه عنده، فآثر أنْ يبدأ بالهجوم، وبالهجوم الصريح الذي لا كيد فيه ولا التواء، فهو قد سمع بسيف الدولة وصفاته الغرِّ حين كان بعيدًا عنه شديد البعد، ومعنى هَذَا أنَّ شهرة سيف الدولة قد طبقت الآفاق، ونظر المتنبي فلم يجد لهذه الصفات واصفًا يلائم ما هي أهل له من العظمة والجلال، وإنما سمع شعرًا سخيفًا يهذي به المتشاعرون الذين لا يحسنون العربية، ولا يجيدون التصرف بفصيح الكلام، فغضب لهذه الصفات الغر التي لا تجد واصفًا، ولهذا الأمير الماجد الذي لا يجد شاعرًا يلائم مجده، فأقبل من مكان بعيد جدًّا، ولكنه أقبل مستخفيًا لا يحسه أحد ولا يشعر به أحد، كأنه السر الذي طوى الليل عليه ضميره طيًّا، ثم ظهر فجأة بين يدي الأمير فأنشده فأرضاه وبهر من حوله، وأفحم الذين تعودوا أن ينطقوا بين يديه، هُوَ الشمس التي تخفي الكواكب، وهو النسر الذي يلتهم صغار الطير، والمعنى كما ترى قديم قد أكثر فيه الفرزدق وجرير والأخطل، ولكن الصورة التي صاغه فيها المتنبي ساحرة باهرة من جهة، ومحنقة مثيرة للسخط من جهة أخرى.

فهذا السر الذي يكتمه الليل جميل، وهذا الاعتداد بالنفس والازدراء لغيره من الشعراء خليق أنْ يحفظ الصدور ويملأها ضغينة وحقدًا، وقد فعل، ولكن المتنبي آثر أنْ يكون مهاجمًا على أنْ يكون مدافعًا، وقد جرب موقف الدفاع عند بدر بن عمار فلم يغن عنه شيئًا، فليجرب عند سيف الدولة خطة الهجوم، وقد أغنت عنه، فاستطاع أنْ ينعم بالحياة فِي ظله تسعة أعوام.

لم يمض المتنبي فِي مدح الأمير ويسلك إلى هَذَا المدح مذهبًا يظهر لنا يسيرًا كل اليسر، ولكنه فيما أظن كان طريفًا فِي عصره كل الطرافة، فالأمير يلقب سيف الدولة،

فما يمنع المتنبي أنْ يجعله سيفًا، ويضيف إِلَيْهِ ما يضاف إلى السيف حينًا، ويرفعه عن المألوف من صفات السيف حينًا آخر؟! فالمجد هُوَ الذي سل سيف الدولة، والخليفة هُوَ الذي تقلد هَذَا السيف، والله هُوَ الذي أخذ بقائمه وجعل يضرب به الأعداء، والسيوف تقطع حينًا وتنبو آخر، ولكن سيف الدولة قاطع دائمًا، والسيوف تقطع الأجسام وتضرب الهام، ولكن سيف الدولة أكبر من الهام والأجسام، فهو يقطع شدائد الدهر ولزبات الزمان.

واقرأ هذين البيتين وانظر إلى الجمال الذي يأتي فيهما من حسن الملاءمة والمتابعة بين الطباق والمبالغة:

تُـحَـارِبُـهُ الأَعـداء وَهْـيَ عَـبِـيـدُهُ　　وَتَـدَّخِـر الأَمـوالَ وَهْـيَ غَـنَـائِـمـهْ
ويستكبرون الدَّهرَ والدهرُ دُونهُ　　ويَسْتَعْظِمونَ المَوتَ والموتُ خادمُهْ

وما أرى إلا أنَّ المتنبي قد بهر وراع وملأ القلوب والأسماع بهذه القصيدة الفذة، ولكن هَذَا شيء، والوصول إلى قلب سيف الدولة شيء آخر، فليس سيف الدولة يكفيه أنْ يمدح برائع الشعر وبارع القصيد، ولكنه ملك يحتاج إلى أنْ يشعر بأن أتباعه وصنائعه خدم له لا يكبرون أنفسهم ولا يسرفون فِي المغالاة بها، كما يفعل المتنبي أو كما فعل فِي هذه القصيدة.

وإذا كان المتنبي قد بهر سيف الدولة فهو محتاج إلى أنْ يبلغ حبه ورضاه، وقد بلغ من ذلك ما كان يريد، فيما أرجح، بالقصيدتين اللتين مدحه بهما حين همَّ بالرحيل وحين أخذ فيه، فالمتنبي فِي هاتين القصيدتين مخالف كل المخالفة للمتنبي الذي رأيناه فِي هذه الميمية: هُوَ خادم من خدم الأمير، ورجل من رجال القصر قوام حياته الذلة والملق، ولست أريد أنْ أطيل بتحليل هاتين القصيدتين فهما أيسر وأهون وأوضح من أنْ تحتاجا إلى تحليل، ولكن اقرأ هَذَا الشعر واقرنه إلى ما قرأت فِي الميمية، فسترى براعة المتنبي فِي الكبرياء حين يريد الكبرياء، وفي الذل حين يحتاج إلى أنْ يكون ذليلًا:

لَيْتَ أَنَّا إِذَا ارْتَحَلْتَ لَكَ الْخَيْـ　　ـلُ وَأَنَّا إِذَا نَزَلْت الْخِيَامُ

وما رأيك فِي هَذَا الشَّاعِر العظيم الذي يفاخر الشعراء ويستعلي عليهم، ويسرف فِي الكبرياء والخيلاء، يتمنى أنْ يكون فرسًا يحمل الأمير إذا سار، أو خيمة تظل الأمير إذا

أقام؟ ولكن لا ينبغي أنْ ننسى أنَّ المتنبي منافس ومنافس ﻓِﻲ رضا الأمير، وأنَّ الذلة والملق أقرب الطرق وأيسرها إلى بلوغ هَذَا الرضا.

فأنت ترى ﻓِﻲ آخر الأمر أنَّ المدح الخالص الذي أقبل به المتنبي على سيف الدولة ليس شيئًا فذًّا مبتكرًا معجزًا إنْ قسته إلى ما كان الفحول يمدحون به الخلفاء والأمراء، ولكنه ليس مدحًا ساقطًا زريًّا متهالكًا ككثير من المدح الذي كان يقوله المتنبي نفسه لغير سيف الدولة من الناس، ولعله خليق أنْ يكون كغيره من مدح الفحول ﻓِﻲ القرن الأول والثاني، وهو من غير شك أرفع وأبرع وأرقى مما تعوَّد الشعراء المعاصرون أنْ يعرضوه على الأمراء والرؤساء وعلى سيف الدولة نفسه، فلا غرابة ﻓِﻲ أنْ يحس الأمير أنه يسمع مدحًا جديدًا لم يتعود سماعه من قبل، وكانت شهرة المتنبي قد سبقته إلى الأمير، وهذا المتنبي نفسه قد أقبل مادحًا مجيدًا للمدح، متملِّقًا بارعًا ﻓِﻲ التملق.

فليصطنعه الأمير لنفسه، وليتخذه شاعرًا يستعلي به على الملوك والأمراء.

(٤) رثاؤه لأقارب سيف الدولة وخاصته

وقد ألمت بسيف الدولة أحداث امتحن بها ﻓِﻲ نفر من أقربائه وخاصته، ولم يكن بدٌّ للمتنبي من أنْ يقول ﻓِﻲ ذلك شعرًا، نهوضًا بما يجب أنْ ينهض به شاعر القصر من العزاء والرثاء، ووفاءً بما يجب أنْ يفي به الصديق للصديق من حقوق المودَّة والحب والإخاء، فقد ماتت أم سيف الدولة ﻓِﻲ السنة التي اتصل به المتنبي فيها، فرثاها الشَّاعِر باللامية التي مطلعها:

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّة وَالعَوَالِي وَتَقْتُلنا المنونُ بِلَا قِتَالِ

وفي أوائل سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وفي شهر صفر بالضبط، مات لسيف الدولة طفل، هُوَ أبو الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة، فرثاه المتنبي باللامية التي مطلعها:

بَنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فِي الرَّمْلِ وَهَذَا الذِي يُضْنِي كَذَاكَ الذِي يُبلِي

وفي هذه السنة نفسها مات ابن عم لسيف الدولة كان عاملا له على حمص، وهو أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان، وسنعود إلى ذكره بعد حين، فرثاه المتنبي بالدالية التي يقول فِي أولها:

مَا سَدِكَتْ عِلَّةٌ بموْلودِ أَكرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بْنِ داوُودِ

وفي رمضان من سنة أربعين وثلاثمائة فقد سيف الدولة خادمه وقائده التركي يماك، فعزَّاه المتنبي بالبائية التي أولها:

لَا يُحْزِنِ اللهُ الْأَمِيرَ فَإِنَّنِي لَآخُذُ مِنْ حَالَاتِهِ بِنَصِيبِ

وفي رمضان من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ماتت أخت سيف الدولة الصغرى، فعزّاه عنها المتنبي باللامية التي يقول فيها:

إِنْ يَكُن صَبْر ذِي الرَّزيئَةِ فَضْلًا فَـكُـنِ الأَفْـضَـل الأَعَـزَّ الأَجَـلَّا

ثم فارق الشَّاعِر أميره، واختلفت بينهما الخطوب، ومضت على ذلك أعوام حَتَّى كانت سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، فماتت أخت سيف الدولة الكبرى خولة التي كانت تعرف بست الناس، والمتنبي حينئذ فِي الكوفة، فأنفذ إلى الأمير مرثيته البائية التي أولها:

يَا أخْت خَيْرِ أَخٍ يا بِنتَ خَيرِ أَبِ كِنَايَةً بِهِمَا عَن أَشرَفِ النَّسَبِ

فقد قال المتنبي إذن لسيف الدولة مراثي ستًّا، رثي فيها أمه وابنه وأختيه وابن عمه وخادمه التركي، وهذه القصائد أكثر ما قال المتنبي فِي هَذَا الفن من فنون الشعر، فقد رأيناه قبل ذلك يرثي جدته، ويرثي بعض التنوخيين على لسان قومه، وسنراه بعد ذلك يقول رثاء آخر ولكنه قليل، ولكن هذه القصائد إنْ كانت لا تخلو من جيد الشعر ورائعه، فليست هي خير ما قال المتنبي فِي الرثاء، ومصدر ذلك فيما يظهر أنَّ المتنبي قال أكثرها أداء للواجب ونهوضًا بالحق، لا استجابة للعاطفة، ولا إعرابًا عن الضمير، فهو قد لجأ فيها إلى فنه وعقله أكثر مما صدر فيها عن قلبه وشعوره، ومن هنا نحس

فيها كثيرًا من البرد، فإن لم يكن برد فنحن نحس فيها الفتور، لا نكاد نستثني منها إلا القصيدة التي رثى فيها خولة ست الناس بعد أنْ طال فراقه للأمير، واشتد حنينه إليه، وألمت به وبالأمير خطوب جعلت كل واحد منهما فِي حاجة إلى صاحبه، ولعل التجارب التي امتحن بها المتنبي بعد فراقه لسيف الدولة، ولعل تقدم سنه وطول تفكيره فِي الحياة والأحياء! لعل هَذَا كله قد أثر فِي هذه القصيدة الأخيرة، فأشاع فيها حزنًا أيسر ما يوصف به أنه كان عميقًا حقًّا.

ونحن فِي حاجة إلى أنْ نقف عند بعض هَذَا الشعر وقفات قصيرة، لا لشيء إلا لنتبين المذهب الفني الذي اصطنعه المتنبي فِي هَذَا الرثاء، ولنلاحظ قبل كل شيء ظاهرتين نجدهما فِي هَذَا الرثاء:

إحداهما: تفيض عليه شيئًا من قوة وتشيع فيه حظًّا من حرارة، وتجعله خليقًا أنْ يبعث الحزن ويدعو إلى الروية والتفكير، وهي اعتماد المتنبي فِي هَذَا الرثاء على عقله وعلى عقله الفلسفي خاصة، والتجاء المتنبي إلى كثير من الحكمة الشائعة فِي الأمم على اختلاف البيئات والعصور، ومهارته فِي صوغ هذه الحكم صوغًا قوامه الدقة والإيجاز معًا، ثم إرسالها أمثالًا سائرة تصلح لتعزية الناس وأخذهم بالصبر والإذعان فِي كل زمان ومكان.

والظاهرة الأخرى: كانت تنفع المتنبي فِي حياته الواقعة، وكانت ترضي الأمير حين كان يستمع لهذا الرثاء، ولكنها فِي حقيقة الأمر تفسد الرثاء على الشَّاعِر إفسادًا وتصور قصور الشَّاعِر وعجزه ونضوب قريحته، وهي مدحه المستمر للأمير، واتخاذ الرثاء وسيلة إلى هَذَا المدح، فهذه الظاهرة تُلقي فِي رُوعك أنَّ الشَّاعِر لم يصدر فِي رثائه عن حزن ولا عن ألم، ولم يصطنع فِي رثائه لهجة صادقة، وإنما أدى واجبًا لم يكن له بدٌّ من أدائه، وكان يضيق بأداء هَذَا الواجب أحيانًا، فيستعين عليه بهذا المدح الذي يتملق الأمير ويلهيه عما يكون فِي رثائه من القصور أو التقصير، ونحن ننظر قبل كل شيء فِي رثاء المتنبي لأم الأمير سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، وما أظن إلا أنك ستوافقني على أنَّ الشَّاعِر اعتمد على فنه أكثر مما اعتمد على أي شيء آخر، وتأنق فِي هذه القصيدة تأنقًا خاصًّا؛ لأنه كان حديث العهد بالأمير، حريصًا على أنْ يرضيه، ويتمكن من نفسه، ويقهر حساده ومنافسيه.

وأول هذه القصيدة فلسفة عامة، يعتمد فيها الشَّاعِر على هَذَا اليأس الشائع الذي ألفه الناس حين يفكرون فِي قسوة الموت وشموله، وأنه لا محيد عنه ولا وقاء منه، وليس فِي هَذَا الكلام شيء جديد إلا صيغته، وهذا الروح الحزين الشاحب الذي يترقرق فيه؛ وذلك حيث يقول:

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ وَمَا يُنْجِين مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَم يَعْشَقِ الدُّنيا قَدِيمًا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إلى وِصَالِ
نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

فإذا فرغ المتنبي من هَذَا الكلام العام الذي لاحظ له من شخصية ولا من ابتكار، تغني نفسه وما ألمَّ به من المحن، وما تتابع عليه من الخطوب، وما تلقى به هذه المحن والخطوب من حسن الصبر والاحتمال، فِي هذين البيتين اللذين شاعا، وامتلأت بهما النفوس، وانطلقت بهما الألسنة، حَتَّى خرجا أو كادا يخرجان عن ملك المتنبي، وأصبحا ملكًا أو ترجمانًا عن كل من ألحت عليه الأحداث، وتتابعت عليه الأرزاء والخطوب، وهما قوله:

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

ومع ذلك فأصل المعنى الذي قصد إِلَيْهِ الشَّاعِر شائعٌ مألوف لا طرافة فيه ولا ابتكار، فكل الناس يحس إذا كثرت الأحداث عليه أنه قد استفاد من ذلك تجربةً وصبرًا، ومرن على احتمال الآلام والأرزاء، وإنما الطرافة فِي هذه الصورة التي عرض المتنبي فيها هَذَا المعنى حين جعل الأرزاء التي ألحت عليه نبالًا قد ثبتت فِي قلبه ودارت حوله، حَتَّى أصبحت له غشاء ووقاء، وحتى أصبح قلبه بمأمن من أن تبلغه النبال الطارئة إذا رُمي بها؛ لأنه فِي درع من النبال الأولى، فالأرزاء تفلُّ الأرزاء، والنصال تتكسر على النصال.

ولست أدري لماذا لا يبلغ هَذَا التصوير من نفسي شيئًا، ولا أرى فيه إلا براعة شاعر، ومهارة فنان قد واتته طبيعته، واستجابت له ألفاظه، فجاء بصورة ربما تروق ولكنها لا تبلغ القلب ولا تؤثر فِي النفس، وربما كانت هذه الألفاظ التي تذكر بالحرب وتصورها قد أشاعت فِي هذين البيتين من القوة والفتوة والجلد، ما حببهما إلى الناس حين تلح عليهم النوائب، وتأخذهم الأرزاء من كل مكان، وحين يحتاجون إلى الشجاعة والتحدي، وتكلف الرجولة، والثبات للخطوب، على أنَّ المتنبي لم يكد يحاول إتمام هَذَا المعنى حَتَّى قصر به لفظه، فتورَّط فِي شيء من الاضطراب يثقل احتماله، ويثقل التمثل به أيضًا، وذلك قوله:

وَهَانَ فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا ... لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي

وقد كان نفس المتنبي فِي هَذَا الغناء قصيرًا، فلم يستطع أنْ يتعمق النفوس ولا أنْ يثير أشجانها.

ثم انظر إِلَيْهِ حين وصل إلى الفقيدة التي أراد أن يرثيها كيف ضعف وتهالك وأدركه الخور والفتور، فلم يصنع شيئًا ولم يأت بجديد، وذلك قوله:

وَهَذَا أَوَّلُ النَاعِينَ طُرًّا ... لِأَوَّلِ مَيْتَةٍ فِي ذَا الْجَلَالِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ لَم يَفْجَعْ بِنَفْسٍ ... وَلَمْ يَخْطُرْ لِمَخْلُوقٍ بِبَالِ
صَلَاةُ اللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ ... عَلَى الْوَجْهِ الْمُكَفَّنِ بِالْجَمَالِ

فالبيت الأول من هذه الأبيات على يسر معناه وسهولته، وقرب مأخذه وابتذاله بين الناس جميعًا، غامض لا يخلو من سخف، والبيت الثاني منها محتمل على ابتذاله، فأما البيت الثالث فقد أحس القدماء سماجته، وما أظن المحدثين أقل لهذه السماجة إحساسًا، وهي سماجة تأتي فِي اللفظ، وتأتي من المعنى جميعًا، ولعلها كذلك تأتي من العجز عن إقامة الوزن والاضطرار إلى لفظ «خالقنا» وصفًا لله لا لينزهه عما لا يليق به، ولا ليبسط سلطانه على ما قد يشك الناس فِي أنَّ سلطانه شامل له مبسوط عليه، بل ليقيم وزن البيت ليس غير، ثم انظر إلى قوله:

فَإِنَّ لَهُ بِبَطْنِ الْأَرْضِ شَخْصًا ... جَدِيدًا ذِكْرُنَاهُ وَهْوَ بَالِي

فأنت واجد فيه سماجة لفظية فِي قوله «ذكرناه»، فهذا الكلام إنْ أقره النحو لا يقبله الشعر، وأنت واجد كذلك سماجة معنوية فِي هَذَا الطباق بين الجديد والبالي، فما كان ينبغي لشاعر يعزّي الأمير عن أمه أن يتعجل ذكر البلى، ولا أنْ يلم به، وحسبه من فقد الأمير أمه داعيًا إلى الحزن اللاذع والألم الممض، والشاعر يعزي، فما يحسن به أنْ يذكر البلى والانحلال، وما إلى ذلك من الأعراض التي تلم بأجسام الموتى، والتي لا يحب الأحياء أنْ يتمثلوها.

ولست أطيل التعليق على ما فِي هذه القصيدة من الرثاء، فكله فاتر أو قريب من الفتور، ولكن انظر إلى هَذَا البيت:

وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا   قُبَيْلَ الْفَقْدِ مَفْقُودَ المِثَالِ

فما رأيك فِي هذه الفأفأة، وفِي هذه القفقفة، وفِي هذه الدأدأة؟ ثم ما رأيك فِي هَذَا الجهد العنيف الذي يتكلفه الشَّاعِر ويفرض علينا أنْ نتكلفه، ليؤدي هُوَ ونفهم نحن معنى مبتذلا لا خطر له ولا غناء فيه؟ فالشاعر لا يزيد على أنْ يقول: إنَّ أم الأمير لم يكن لها نظير فِي حياتها، ففقدها من أجل ذلك أفجع الفقد وأشده أذى، والمعنى أيسر كما ترى من أنْ يتكلف لفهمه وأدائه هَذَا العناء، على أنَّ المتنبي يثب من هَذَا البيت السخيف إلى هذين البيتين اللذين يروع معناهما وإنْ أدرك لفظهما شيء من التقصير، وهما قوله:

يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا ويمشي   أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبَّلَةِ النَّوَاحِي   كَحِيلٌ بِالْجَنَادِلِ وَالرِّمَالِ

وما أراني فِي حاجة إلى أن أنبهك إلى أنَّ هذين البيتين قد أثرا فِي التشاؤم العلائي، وما نشأ عنه من فلسفة تأثيرًا بعيدًا عميقًا، ولكن أي فرق فِي الأداء، فاقرأ هذين البيتين، ثم اقرأ دالية أبي العلاء، وانظر كيف استطاع شاعر المعرة أنْ يستغل هَذَا المعنى وبصورة فِي أروع الشعر:

صَاحِ هَذِى قُبُورُنا تَمْلأُ الرَّحْـ   ـبَ فَأَيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـْ   أَرْضِ إلا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْـ ـدُ هَـوَانُ الْآبَـاءِ وَالْأَجْـدادِ

وهل أنا فِي حاجة إلى أنْ أقف بك عند هذين البيتين اللذين طارت شهرتهما فِي الآفاق، وهما قوله فِي آخر القصيدة:

رَأَيْتُكَ فِي الذِينَ أَرَى مُلُوكًا كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِ
فَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

وفي البيت الأول عندي تعريض بأصحاب الملك فِي الفسطاط وبغداد، والبيت الثاني ليس جديدًا، وإنما سبق المتنبي نفسه إِلَيْهِ قبل أن يتصل بسيف الدولة، فلما اتصل به نزل له عنه ونقله إليه، وذلك قوله:

وَمَا أَنَا مِنْهُم بِالْعَيْشِ فِيهِم وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

والمتنبي على كل حال حر فِي أن يسرق نفسه ويكرر معناه. وليس رثاء المتنبي لابن سيف الدولة خيرًا من رثائه لأمه، وإنما هُوَ كلام متكلف يظهر فيه الجهد، وتبدو فيه السماجة بين حين وحين، وتحس وأنت تقرؤه أنَّ الشَّاعِر عيال على الذين سبقوه من الشعراء، وعلى أبي تمام خاصة، ولن أقف بك فِي هَذَا الرثاء لذلك الطفل إلا على أربعة أبيات، فِي اثنين منها عاد المتنبي إلى ذوقه المريض، فذكر الأب بما سيصيب ابنه من البلى والانحلال، وذلك قوله:

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فِي الرَّمْلِ وَهَذَا الذِي يُضْنِي كَذَاكَ الذِي يُبْلِي

وقوله ملحا فِي هَذَا المعنى:

أَيَفْطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إلى الْأَكْلِ

وأما البيتان الآخران، فقد وثب فيهما إلى معنى فلسفي رائع، فتح به لأبي العلاء بابًا من الشعر أتى فيه بالأعاجيب، وأكبر الظن أنَّ المتنبي قد ظفر بهذا المعنى فِي بعض قراءته الفلسفية، وذلك حيث يقول:

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزمَانَ وَصَرْفَهُ   تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ
وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَن تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ   حَيَاة وَأَنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إلى النسلِ

ونمرُّ مسرعين برثاء المتنبي لخادم سيف الدولة وقائده التركي، فليس فيه ما يحتاج إلى الوقوف عنده، لولا أنَّ المتنبي يتركنا نشعر بأنه يرثي هَذَا التركي على كره منه، فهو مضطر إلى إرضاء الأمير، ولو خلى بينه وبين حريته لأعرض عن هَذَا الرثاء. فانظر إِلَيْهِ كيف يقول:

لَأَبْقَى يَمَاكٌ فِي حَشَايَ صَبَابَةً   إلى كُلُّ تُرْكِيِّ النِّجَارِ جَلِيبِ
وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ   وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضيِّقٍ بِنَجِيبِ

فهذا الخادم التركي فذ بين الترك، ومع ذلك خليق ألا يجزع الأمير عليه؛ لأنه سيجد عوضًا منه فِي العرب النزارية:

وَإِنَّ الذِي أَمْسَتْ نِزَارُ عَبِيدَهُ   غَنيُّ عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لِغَرِيبِ

ومع ذلك فما أريد أنْ أدع هذه القصيدة دون أنْ أثبت هذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبي أَيْضًا بابًا من أبواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر أبي العلاء:

سُبِقْنا إلى الدُّنيا فلو عاش أهلُها   مُنعنا بها من جيئة وذُهُوبِ
تملَّكها الآتي تملك سالب   وفارقها الماضي فراق سليب

ولما رثي المتنبي أخت سيف الدولة الصغرى، عزَّاه ببقاء أخته الكبرى فقال:

قَاسَمَتْكَ الْمَنُونُ شَخْصَيْنِ جَوْرًا   جَعَلَ القِسْمُ نَفْسَهُ فِيهِ عَدْلَا
فَإِذَا قِسْتَ مَا أَخَذْنَ بِمَا أَغْـ   ـدَرْنَ سَرَّى عَنِ الْفُؤَادِ وَسَلَّى

وَتَـيَـقَّـنْـتَ أَنَّ حَـظَّـكَ أَوْفَـى   وَتَـبَـيَّـنْـتَ أَنَّ جَـدَّكَ أَعْـلَـى

وسنرى أنه ذكر هَذَا المعنى واستدرك رأيه فيه حين رثى أخته الكبرى سنة اثنتين وخمسين، ولكن لا ندع هذه القصيدة دون أنْ نلاحظ أنها من أجزل ما قال المتنبي لسيف الدولة من رثاء، ودون أنْ نرى هذه الأبيات التي تصور أحسن تصوير علم المتنبي بطبائع الناس، وحرصهم على الحياة، وتفتح لأبي العلاء بابًا من أبواب الفلسفة والتفكير، وذلك قوله:

وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْـ   ـسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَـ   ـلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلَّا
آلَـة الْـعَـيْـشِ صِـحَّـةٌ وَشَـبَـابٌ   فَـإِذَا وَلَّـيَـا عَـنِ الـمَـرْءِ وَلَّـى
أَبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَب الدُّنْـ   ـيَا فَيَالَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلَا
فَكَفَتْ كَوْنَ فُرْحَة تُورِثُ الْغَـ   ـمَّ وَخِلٍّ يُغَادِر الوَجْدَ خِلَّا
وَهْيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا تَحْـ   ـفَظُ عَهْدًا وَلا تُتَمِّمُ وَصْلَا
كُل دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا   وَبِفَكِّ الْيَدَيْن عَنْهَا تُخَلَّى
شِيَمُ الغَانِيَاتِ فِيهَا فَمَا أَدْ   رِي لِذَا أَنَّث اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا

وليس من شك فِي أَنَّ أجمل ما قال المتنبي من رثاءٍ لسيف الدولة، إنما هي القصيدة الأخيرة التي رثى بها أخته خولة، ومصدر ذلك — كما قدمنا — ما تصوره هذه القصيدة من الحب الذي امتحنه الدهر فثبت للامتحان، ومن هَذَا الحنين المتصل بين الصديقين، وما أرى أَنَّ هذه القصيدة تدل على صلة قريبة أو بعيدة، أو على شبه صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبي وهذه الفقيدة، وكل ما يمكن أن يفهم منها أَنَّ الشَّاعِر يتحدث بأن هذه الفقيدة برَّته وأحسنت إِلَيْهِ عن بعد، كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب، وقد يكون هَذَا حقًّا، وقد يكون كلام شاعر، والفرق عظيم على كل حال بينه وبين رأي من رأى أن قد كان بين الشَّاعِر وبينها حب أو ما يشبه الحب.[٥]

[٥] انظر: المتنبي، لمحمود أفندي شاكر (المقتطف ج١ مجلد ٨٨ ص١٣٠).

وأول هذه القصيدة شعر مألوف تأنق فيه الشاعر، وقصد به إلى المدح أكثر مما قصد به إلى الرثاء، وذلك قوله:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَن أَشْرَفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَيْ مُؤَبَّنَةً ... وَمَنْ يَصِفْكِ فَقد سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

وبيتان آخران قد أحسن الشَّاعِر فيهما الملاءمة بين مدح الأحياء ورثاء الموتى كل الإحسان، وهما قوله:

غَدَرْتَ يَا مَوْتُ كَمْ أَفْنَيْتَ مِن عَدَدٍ ... بِمَنْ أَصَبْتَ وَكَمْ أَسْكَتَّ مِنْ لَجَبِ
وَكَمْ صَحِبْتَ أَخَاهَا فِي مُنَازَلَةٍ ... وَكَم سَأَلْتَ فَلَم يَبْخَلْ وَلَم تَخِبِ

فرائعٌ حقًّا لوم الموت على هَذَا الغدر القبيح الذي تورَّط فيه حين خان الصديق وعقَّ المحسن إليه، فكم صحب الموت سيف الدولة فِي الحروب، وكم جاد سيف الدولة على الموت بما كان يريد من نفوس، فكان من الحق عليه ألا يخون صديقه هَذَا الجواد الوفي الذي لم يبخل عليه بنفس ولم يخيب له أملًا.

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أودعهما الشَّاعِر كل ما كان قلبه يستطيع أنْ يحتمل من حزن ودهش وجزع، فامتلآ روعة وجمالا، حَتَّى سارا مسير الأمثال فِي حياة المتنبي نفسه، إنْ صح ما يقول الرواة:

طَوَى الجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِي إِلى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا ... شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِي

ونحن نفهم أنْ يشرق المتنبي بالدمع، ونعجز عن أنْ نفهم كيف يشرق الدمع بالمتنبي، ولكنها نفثة المصدور وصيحة المحزون، تنطقه بغير الصواب أحيانًا.

وهل ترى أروع فِي تصوير العطف على الصديق والرفق به والحنين إِلَيْهِ من قوله:

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ الليلِ مُذْ نُعِيَتْ ... فَكَيْف لَيْلُ فَتَى الْفِتْيَانِ فِي حَلَبِ

ثم انظر كيف يدفع عن نفسه سوء الظن به، ويؤكد اشتراكه فِي الحزن واللوعة وسفك الدمع، وبأرق اللفظ وأعذبه وأبرعه فِي تصوير الألم والوفاء:

يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِي غَيْرُ مُلْتَهِبٍ ... وَأَنَّ دَمْع جُفُونِي غَيْرُ مُنْسَكِبِ
بَلَى وَحُرْمَةِ مَنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً ... لِحُرْمَةِ المَجْد وَالقُصَّادِ وَالْأَدَبِ
وَمَنْ مَضَتْ غَيْر مَوْرُوثٍ خَلَائِقُهَا ... وَإِنْ مَضَتْ يَدُها مَوْرُوثَة النَّشَبِ

ويعجبني من وصفه للفقيدة قوله:

وَإِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنْثَى لَقَدْ خُلِقَتْ ... كَرِيمَةً غَيْرَ أُنْثَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ

وهو عندي خيرٌ من قوله فِي أم سيف الدولة:

وَلوْ كَانَ النساء كَمَنْ فَقَدْنَا ... لَفُضِّلَت النِساءُ عَلَى الرجالِ
وما التأنِيثُ لاسم الشمسِ عيبٌ ... وَلَا التَّذكِيرُ فضلُ للهِلالِ

ففي هذين البيتين تكلف وتأنق يخرجان التفكير عن طوره فِي وقت ينبغي أنْ تسترسل فيه النفس مع الحزن، وألا تشغل عنه بوضع الدعاوى وإقامة الأدلة عليها.

وقد يعجب الناس إعجابًا شديدًا بهذين البيتين، ولكني أراهما كلامًا من كلام الشعراء، ولعل مصدر الإعجاب بهما جمال اللفظ ليس غير، وهما قوله:

فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشمْسَينِ غَائِبَةٌ ... وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشمْسَينِ لَم تَغِبِ
وَلَيْتَ عَيْنَ التي آبَ النهَارُ بِهَا ... فِدَاء عَيْنِ التي زَالَتْ وَلَمْ تَؤبِ

ثم ذكر المتنبي عزاءه لسيف الدولة عن أخته الصغرى ببقاء أخته الكبرى منذ ثماني سنين، فاستدرك رأيه فِي هذه التعزية، فقال:

قد كان قَاسَمَكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهُما ... فَعاش دُرُّهُما الْمَفْدِيُّ بِالذَّهَبِ
وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَتْرُوكِ تَارِكُهُ ... إِنا لَنَغْفُلُ والأَيامُ فِي الطَّلَبِ

مَا كَانَ أَقْصَر وَقتًا كَانَ بَيْنَهُمَا　　كأنهُ الوقتُ بَينَ الْوِرْدِ وَالْقَرَبِ

ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة إلى فلسفة مظلمة حزينة أقل ما يقال فيها: إنها تصوِّر شكه فِي خلود النفس، وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين، وإحساسه التعب من هَذَا الشك والارتياب، وتفتح بابًا فلسفيًّا آخر لشعر أبي العلاء.

وأحب أنْ تلاحظ أنَّ المتنبي يصطنع فِي هذه الأبيات لغة أصحاب الكلام أكثر مما يصطنع لغة الشعراء، وسيقلده أبو العلاء فِي هَذَا النحو من التعبير، كما يذهب مذهبه فِي هَذَا النحو من التفكير.

وأحب أنْ ألاحظ آخر الأمر أنَّ البيت الذي يختم المتنبي به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس الفلسفي المهلك الذي يؤذن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز والإعياء، وهذا كله حيث يقول:

تَخَالَفَ الناسُ حَتَّى لَا اتِّفَاقَ لَهُمْ　　إلا عَلَى شَجَب وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالمَةً　　وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ　　أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ

فأنت ترى من درس هَذَا الرثاء كله أنَّ المتنبي لم يبتكر فِي هَذَا الفن شيئًا عند سيف الدولة، ولعله انتهى بين حين وحين إلى معنى غريب أو فكرة قيمة، ولكن رثاءه على كل حال عادي دون المتوسط، وخير ما فيه هذه الإلمامات القصيرة ببعض الآراء الفلسفية، التي كانت بذورًا صالحة لفلسفة أبي العلاء.

(٥) وصفه لحروب سيف الدولة الداخلية

وقال المتنبي لسيف الدولة قصائد خمسًا، يصف فيها ما كان من اضطراب البادية عليه، وما كان من رَدَّه هذه البادية إلى الهدوء والنظام بالقوة حَتَّى تذعن له، ثم بالعفو والحلم حَتَّى تأمن له القلوب وتخلص فِي حبه النفوس.

وقد عرضنا لواحدة من هذه القصائد الخمس فيما مضى من هَذَا الحديث، وهي الميمية التي مدحه بها حين كانا شابين فِي الثامنة عشرة من عمرهما ولم ينشده إياها، وذلك حين أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس وبني ضَبةَ، وأولها:

ذِكَر الـصِّـبـا ومَـرَاتـع الآرامِ   جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حمَامِي

ولسنا فِي حاجة إلى أنْ نعيد القول فِي هذه القصيدة، ولم يكد يتصل المتنبي بسيف الدولة حَتَّى خرجت جماعة من القرامطة فِي السماوة، فأغاروا على حمص وأخذوا عامل سيف الدولة عليها، وهو ابن عمه أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان، وأبوا أنْ يردُّوه إلا أنْ يأخذوا من أخيه فداءًا عظيمًا، فأطمعوا فِي الفداء كسبًا للوقت، ونهض إليهم سيف الدولة فأوقع بهم، واستنقذ منهم ابن عمه الأسير، ولكنه استنقذه جريحًا، فلم يلبث أنْ مات، ورثاه المتنبي كما علمت.

وقد قال المتنبي فِي هذه الواقعة لاميته التي أولها:

إلامَ طَـمَـاعِـيَـة الـعـاذِلِ   ولا رَأيَ فِي الحُبِّ للعاقل

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة أحدث بنو كلاب حدثًا وارتحلوا، فلحقهم سيف الدولة وردَّهم إلى الطاعة، ثم شملهم بعفوه، فقال المتنبي فِي ذلك بائيته التي أولها:

بِغَيْرِكَ رَاعِيًا عَبِث الذئَابُ   وَغَيْرَكَ صَارِمًا ثَلَمَ الضرَابُ

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة فِي أغلب الظن تجمعت قبائل من قيس وثارت على ملك سيف الدولة، فنهض لها الأمير، وتتبعها حَتَّى لحقها عند تدمر، فصنع بها صنيعه بكلاب، ولم يشهد المتنبي هذه الواقعة، ولكنه قال فيها قصيدتين، أولاهما القافية التي أولها:

تَذَكَّرتُ مَا بَينَ العُذَيبِ وبارِقِ   مَجَرَّ عَوالينا وَمَجْرى السَّوَابِقِ

وكأن هذه القصيدة لم تشف نفس سيف الدولة، فوصف القصة لشاعره، وتقدَّم إِلَيْهِ أن يستأنف القول فيها، فقال الرائية التي أولها:

طِوالُ قَنًا تُطَاعِنها قصارُ   وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحارُ

وأيسر ما يستخلص من هذه القصائد الأربع أنَّ الحياة الداخلية فِي ملك سيف الدولة لم تكن كلها أمنًا ولا هدوءًا، وإنما كانت تضطرب وتفسد من حين إلى حين، وليس من شك فِي أنَّ أهل البادية قد أحدثوا أحداثًا أخرى لم يصفها المتنبي؛ لأنها لم تكن ذات خطر، ولأن سيف الدولة لم ينهض بنفسه لقمعها، ومعنى هَذَا كله أنَّ ما كان سيف الدولة يلقاه من المشقة ويحتمله من الجهد ويظهره من حسن البلاء فِي جهاد الروم، لم يكن ليردَّ عنه كيد الذين كانوا يكيدون له من وراء ظهره فِي الحاضرة والبادية جميعًا، والذين يدرسون تاريخ هَذَا العصر درسًا مفصلًا دقيقًا يعلمون أنَّ أثرة الملوك والأمراء وتنافسهم فِي السيادة والقوة، قد تجاوزا فِي ذلك الوقت كل حد معقول حَتَّى تغلبا أو كادا يتغلبان على الشعور الإسلامي الخالص، فضلًا عن اجتماع الرأي على مذهبٍ بعينه من المذاهب الإسلامية.

فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أنْ يعين الروم على خصمه سرًّا أو جهرًا برغم أنه كخصمه مسلم، وأنَّ الروم عدو له ولهذا الخصم، وكان من هؤلاء الملوك من لا يكره أنْ يعين القرامطة على خصمه سرًّا أو جهرًا برغم أنه متفق مع خصمه فِي بغض النظام القرمطي والفساد القرمطي فِي السياسة والدين جميعًا.

ومن هَذَا كله نفهم المذهب الفني الذي قصد إِلَيْهِ المتنبي فِي هذه القصائد الأربع، فهو من جهة يعيب الثائرين على الأمير، ويظهر ألمه لتمرُّدهم عليه، ومحاولتهم بهذا التمرد أنْ يصرفوه عن جهاد الروم، وهو من جهة أخرى يمدح الأمير بالبأس والحزم اللذين يصطنعهما فِي تأديب هؤلاء الثائرين وردِّهم إلى الطاعة وتوقير السلطان والنظام، ثم يمدحه بالحلم والعفو اللذين يصطنعهما لتأليف القلوب والاحتفاظ بهؤلاء العرب الذين هم قوَّته على عدوِّه المنافسين له من المسلمين، ومادته فِي حرب عدوه المخاصمين له من الروم.

ونحن نقف وقفة قصيرة عند لاميته التي قالها فِي ثورة القرامطة بعامل الأمير فِي حمص، لنرى كيف تحول المتنبي عن مذهبه الذي كان يراه فِي الشباب، وأخذ يذم الآن ما كان يحمده أمس، ويحرِّض الأمير على قوم لم يزيدوا على أنْ ساروا سيرته التي دفعته إلى السجن، ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره، وأنت إذا قرأت هذه القصيدة معجب بما وفق له المتنبي فيها من البراعة الأدبية والسياسية معًا، فهو فِي القسم الأول من هذه القصيدة ناسب متكلف على عهده فِي النسيب، ولكنه تكلف خفي جدًّا نكاد نحسه فِي المعنى، ولا نحسه فِي اللفظ بحال من الأحوال، وغزله فِي هَذَا القسم حلو حقًّا

يصلح للغناء، بل هُوَ غناء خالص ليس فيه شك، فإذا فرغ من هَذَا الغزل الرقيق الجميل خلص إلى أبي وائل أسير القرامطة من أهل بادية السماوة وتغيرت لهجته، فإذا هُوَ شاعرٌ بدويٌّ خالصٌ، تجد فِي شعره جزالة اللفظ البدوي دون أنْ تلقى غلظة أو خشونة أو شططًا، وأنت لا تجد هذه الجزالة فِي اللفظ وحده، ولكنك تجدها فِي المعنى أيضًا، فالشاعر يصف الخيل ومسيرها فِي طلب العدو وما قطعت إِلَيْهِ من طريق، ثم يصف إيقاعها بالعدو وظهورها عليه، وانهزام العدو أمامها، ثم يهزأ بهذا العدو فِي لباقة ورشاقة تجمعان خفة الحاضرة إلى رصانة البادية، وقد اصطنع الشَّاعِر هَذَا الوزن السريع المتحدر، وزن المتقارب الذي يلائم اندفاع الخيل وإسراعها فِي طلب العدو، وما يكون بينها وبينه من كرٍّ وفرٍّ، ومن إقدام وإحجام، ويلائم كذلك إسراع الأمير إلى نجدة ابن عمه واستنقاذه من يد العدو.

وكم كنت أحب أنْ أقف عند ما فِي هذه القضية من جمال الغناء فِي أولها، ومن جمال الوصف فِي سائرها، ولكن هَذَا يطول، فلنقف عند بعض أبياتها لنرى ما أشرت إِلَيْهِ من انحراف المتنبي فِي سهولة عن رأيه القديم واستهزائه بالذين يرون ما كان يرى ويفعلون ما همَّ أنْ يفعل، ثم رجوعه بعد هَذَا كله إلى شيء من الحسرة والحزن لما يصيب أصحاب الهم البعيد من إخفاق قبل أنْ يبلغوا ما هموا به، فانظر إلى قوله:

فَلُقِّينَ كُلَّ رُدَيْنِيَّةٍ وَمَصْبوحَةٍ لَبَنَ الشائِلِ
وَجَيْشَ إِمَام عَلَى نَاقَةٍ صَحِيحِ الإِمامةِ فِي البَاطِلِ

وانظر إلى قوله:

خُذُوا مَا أَتَاكُمْ بِهِ وَاعْذِرُوا فَإِنَّ الْغَنِيمَةَ فِي الْعَاجِلِ
وَإِنْ كَانَ أَعْجَبَكُم عَامُكم فَعُودَوا إلى حِمْصَ فِي قابل
فَإِنَّ الحُسَامَ الخَضِيبَ الذِي قُتِلتُم بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ

ثم يعود إلى الاستهزاء بزعيم هؤلاء القرامطة فيقول:

وإِنِي لأعْجَبُ مِنْ آمِلٍ قِتَالًا بِكُمٍّ عَلَى بَازِلِ
أَقَالَ لَهُ اللهُ لاَ تَلْقَهُمْ بِمَاضٍ عَلَى فَرَسٍ حَائِلِ

إِذَا مَا ضَرَبْتَ بِهِ هَامَةً　　　بَرَاهَا وَغَنَّاكَ في الكاهِلِ

وانظر إلى هذيْن البيتيْن الآتيين، فما أشك فِي أنَّ المتنبي يذكر فيهما نفسه وأشباهه من المغامرين:

وَلَـيْـسَ بِـأَوَّلِ ذِي هِـمَّـةٍ　　　دَعَـتْـهُ لِـمَا لَـيْسَ بِـالـنَّـائِـلِ
يُـشَـمِّـرُ لِـلُّـجِّ عـن سَـاقِـهِ　　　وَيَغْمُرُهُ الموجُ فِي الساحِلِ

وانظر إلى هَذَا البيت، فإنه عندي تعريض بل تصريح باتهام بغداد بالإعانة على سيف الدولة، وما أستبعد أنْ تكون السياسة البغدادية هي التي أغرت هؤلاء القرامطة بالشام ليفسدوا فيها الأمر على الحمدانيين والإخشيديين معًا، كما ستفعل بعد ذلك لتفسد الأمر على الفاطميين، ولكن المتنبي حريص حذر فِي هَذَا التعريض أو التصريح، وما أرى إلا أنه يستمد حرصه وحذره من سيف الدولة نفسه.

وانظر إِلَيْهِ كيف يعزِّي الأمير فِي آخر القصيدة عن خيانة الخائفين، وغدر الغادرين، وكيد الكائدين له من أهل العراق:

فَـهـنَّـأَكَ الـنَّـصْـرَ مُـعْـطِـيـكَـهُ　　　وأرضـاهُ سَـعْـيُـكَ فِـي الآجِـلِ
فَذِي الدارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ　　　وَأَخْـدَعُ مِـنْ كَـفَّـةِ الـحـابِـلِ
تَفَانَى الرِجَالُ عَلَى حُبِّها　　　وَمَا يَحْصُلونَ عَلَى طائِلِ

وفِي هذين البيتين الأخيرين بذرة من بذور الفلسفة العلائية، وهذه القصيدة عندي من أجود شعر المتنبي، وهي من القصائد النادرة التي تحلو فيها روح الشاعر، ويخف ظله على القارئين والسامعين، وما أرتاب فِي أنها ضمنت له حب سيف الدولة؛ لأنه وجد فيها جمال الفن، وقوة الوصف وذكاء القلب، واللباقة السياسية التي تمكنه من أنْ يغيظ الخصوم دون أنْ يضطر إلى الحرج.

وليست البائية التي قالها المتنبي لسيف الدولة حين أدَّب الكلابيين بأقل جودة وروعة ورشاقة ولباقة من هذه اللامية، فقد وفق فيها المتنبي أحسن التوفيق للملاءمة بين جزالة اللفظ وسهولته، وبين دقة المعنى وبراعته، وأحسن اختيار الوزن فعمد إلى الوافر، وهو كما تعلم يسير سهل سريع لا يكاد يتأنَّى فيه الوقوف، وليس أقل من المتقارب ملاءمة للسير السريع اليسير فِي الفضاء الواسع السهل الذي لا تقوم فيه الجبال

ولا تنبث فيه العقبات، ولا يريد من المغير إلا أن يجد ﻓِﻲ الطلب ويخلي الأعنة للخيل، فإذا انتهى إلى المطلوبين أخذهم بهجوم لا عسر فيه من طبيعة الأرض، ولا مشقة فيه تحتاج إلى أناة أو مهل، وإنما هو الانقضاض على العدو كما تنقضُّ الصاعقة، والاندفاع إِلَيْهِ كما يندفع السيل، ثم الظفر به كأن لم تكن حرب ولا قتال.

وقد أعرض المتنبي ﻓِﻲ هذه القصيدة عن الغزل والغناء؛ لأن نشاط الحرب ﻓِﻲ هذه الموقعة البدوية الخالصة كان قد ملأ قلبه من جهة، ولأن هذه القصيدة الحماسية غناء كلها من جهة أخرى، فالشاعر يصف بأس الأمير وسطوته وإسراعه إلى قمع الثورة وتأديب الجناة، ويصف إمعان الثائرين ﻓِﻲ الهرب، وإمعان السلطان ﻓِﻲ الطلب، وهو ﻓِﻲ هَذَا كله يصطنع لغة الحماسة والفخر، كما تعوَّد القدماء من شعر البادية أَنْ يصنعوها، لولا أنَّ ﻓِﻲ هذه اللغة روحًا عذبًا سهلًا يدنيها من الحضارة ولا ينأى بها مع ذلك من البداوة، فإذا ظفر الأمير بهؤلاء الثائرين فأسر الرجال وسبى النساء وأتاحت له القدرة أَنْ يبطش بالأسرى والسبايا، عاد بالعفو على هؤلاء البائسين فرد إليهم الحرية والحياة، وعاد بالرحمة والكرامة على هؤلاء البائسات فردهنَّ إلى أوليائهن لم يمسسهن أذى، ولم يلحق بهن السباء مكروهًا؛ فهن يعدن إلى أوليائهن حرائر قد ظفرن من كرم الأمير بالزينة والنعيم والطيب، وأي عار ﻓِﻲ أَنْ يقعن ﻓِﻲ أيدي الأمير، وهنَّ إنما يخرجن من يد وليٍّ كريم ليقعن ﻓِﻲ يد ولي كريم، لهن الأمن والحصانة عند هذا، كما كان لهن الأمن والحصانة عند أولئك.

والمتنبي يؤدي هذه المعاني كلها ﻓِﻲ لفظ رشيق ليس فيه التصريح المؤذي ولا التعريض المريب، وإنما هُوَ الحديث يملؤه الصفو والطهر والبراءة من كل ما يؤذي النفوس، ثم يصل المتنبي إلى الاستعطاف، فيذكر الأمير بمكان هؤلاء الناس منه ﻓِﻲ النسب، ونفعهم له حين تشتد الخطوب، وهو لبقٌ حقًّا يلحُّ ﻓِﻲ الاستعطاف، حَتَّى يظهرهم كلابًا أذلة خاضعين لسلطان هَذَا الأمير العظيم، ثم يعود عليهم بالفخر فيظهرهم أعزة قاهرين لغيره من الأمراء لو قصد إليهم، فهو يرضي حاجة كلاب إلى العفو، كما يرضي حاجتها إلى الكرامة، وهو يرضي حاجة سيف الدولة إلى الحلم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه وشدته، وهو ﻓِﻲ أثناء هَذَا كله لا يقصر ﻓِﻲ التعريض الرفيق جدًّا بالذين شبُّوا هذه الثورة وأضلوا هؤلاء الثائرين، واقرأ هذه الأبيات:

تَرَفَّقْ أَيُّهَا المَوْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ

وَإِنَّهمُ عَبِيدُك حَيثُ كَانوا إِذَا تَدْعُو لِحَادِثَةٍ أَجَابوا
وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمُ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبَتْ عَليهِمْ وَهَجْرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمُ عِقَابُ

ثم اقرأ هذه الأبيات:

وَلَوْ غَيْر الْأَمِيرِ غَزَا كِلابًا ثَنَاهُ عَنْ شُمُوسِهم ضَبَابُ
وَلَاقَى دُونَ ثَأْيِهمُ طِعَانًا يُلَاقِي عِنْدَهُ الذئْبَ الْغُرَابُ
وَخَيْلًا تغتذى رِيحَ الْمَوَامِي وَيَكْفِيهَا مِنَ المَاءِ السَّرَابُ

واقرأ بين هذه الأبيات وتلك تعريضه بالكائدين فِي هَذَا البيت:

وجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِه العَذابُ

وأنت تذكر أن قد كان للمتنبي عهد بالكلابيين فِي صباه، فقد نزل بهم ومدح سيدًا من ساداتهم بمنبج حين أقبل من العراق، وشهد مجالس لهوهم أيضًا، فلست أستبعد أنْ يكون المتنبي قد وفى لهؤلاء الناس، وعرف إحسانهم إليه، وبرَّهم به، فجزى خيرًا بخير، وإحسانًا بإحسان.

لست أقف من القافية التي قالها فِي ثورة المتألبين من قيس إلا عند القسم الأول منها؛ لأن فيه حنينًا، لا أقول إلى وطنه الذي وُلد فيه، ولكن إلى البادية العراقية التي ذهب إِلَيْهَا فِي صباه، فأقام فيها حينًا، ثم عاد إلى الكوفة، ولهذا الحنين عندي خطره؛ لأنه يرجح ما أفترضه من أنَّ البيئة البدوية التي ارتحل إِلَيْهَا فِي ذلك العهد وأقام فيها كانت بيئة قرمطية، فاقرأ هذه الأبيات:

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيْب وبارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السوابِقِ
وَصُحبةَ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهم بفَضْلات ما قد كَسَّرُوا فِي المفارِقِ
وليلًا تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تحتَه كَأَنَّ ثَراها عَنْبرٌ فِي المَرَافِقِ

واقرأ هذه الأبيات التي يحدث فيها الطباق والتقسيم ظرفًا خفيف الدعابة، محببًا إلى الذوق والسمع جميعًا:

سَقَتْنِي بِهَا القُطْرُبُّلِيَّ مَليحَةٌ   عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَعْدِهَا ضَوْءُ صَادِقِ
سُهَادٌ لِأَجْفَانٍ وَشَمْسٌ لِنَاظِرٍ   وسُقْمٌ لِأَبْدَانٍ وَمِسْكٌ لِنَاشِقِ
وَأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ   عَفِيفٍ وَيَهوَى جِسْمَهُ كُلُّ فاسقِ

ولهذا البيت الأخير خاصةً قيمته؛ لأنه يصور طرفًا من رأي المتنبي فِي لون من ألوان الإثم كان الشعراء يتهالكون عليه، ويسرفون فيه، ويتنافسون فِي وصفه منذ فتح لهم بابه أبو نواس ومعاصروه، وهو اللهو بالغلمان.

فلم يكن المتنبي يكره — فيما يظهر من هَذَا البيت — أنْ يجد الأنس عند الشباب من الغلمان إذا اجتمع لهم الجمال والأدب، ولكنه كان يرتفع عما دون ذلك من الإثم، ولعل هَذَا يعلل إعراض المتنبي عما يسمونه الغزل المذكر فِي شعره.

وقف كذلك عند هذين البيتين اللذين يصوران أسف الشَّاعِر لاشتغال الأمير بثورة البادية عن حرب الروم:

فما حَرَمُوا بِالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحةً   وَلَكِنْ كَفَاهَا البَرُّ قَطْعَ الشواهقِ
ولا شَغَلوا صُمَّ الْقَنَا بِقُلُوبِهِم   عَنِ الرِّكْزِ لَكِنْ عَنْ قُلُوبِ الدَّمَاسقِ

ولا تدع القصيدة دون أنْ تقرأ هذه الأبيات التي يروعك الشَّاعِر فيها بتصوير الخضوع والطاعة وتأثيرهما فِي نفس سيف الدولة حين تقدمت بهما نمير مؤثرة لهما على الثورة والخروج:

لَوَفْدُ نُمَيْرٍ كَانَ أَرْشَدَ منهمُ   وقد طَرَدُوا الْأَظْعَانَ طَرْدَ الْوَسَائِقِ
أَعَدُّوا رِمَاحًا مِنْ خُضُوعٍ فَطَاعَنُوا   بِهَا الْجَيْشَ حَتَّى رَدَّ غَرْبَ الفَيَالِقِ
فَلَمْ أَرَ أَرْمَى مِنْهُ غَيْرَ مُخَاتِلٍ   وَأَسْرَى إلى الْأَعْدَاءِ غَير مُسَارِقِ
تُصِيبُ المَجَانِيقُ الْعِظَامُ بِكَفِّهِ   دَقَائِقَ قَد أَعْيَتْ قِسِيَّ الْبَنَادِقِ

والرائية التي قالها المتنبي فِي هذه الثورة نفسها رائعة خليقة بالتحليل، مستوجبة للإعجاب كالبائية، ولكني لا أقف عندها تجنُّبًا للإطالة وكراهةً للإعادة، وإنما أحب أنْ تقرأ هذين البيتين لترى إلحاح المتنبي فِي الأسف لتحوُّل الأمير مضطرًّا عن قتال عدوه من الروم إلى قتال أوليائه من العرب:

وَكُنْتَ السَّيفَ قائمُهُ إلَيهِم   وَفِي الْأَعْدَاءِ حَدُّكَ والغِرارُ
فَأَمْسَت بِالبُدَيَّةِ شَفْرَتَاهُ   وَأَمْسَى خَلْفَ قَائِمِهِ الحِيَارُ

وأحب أنْ تقرأ أَيْضًا هذين البيتين اللذين يرفق الشَّاعِر فيهما أجمل الرفق حين يريد أنْ يُهوِّن على المنهزمين ما أدركهم من الهزيمة أمام الأمير:

بَنُو كَعْبٍ وَمَا أَثَّرْتَ فِيهِمْ   يَدٌ لَمْ يُدْمِهَا إلا السِّوارُ
بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ وَنَقْصٌ   وَفِيهَا مِنْ جَلَالَتِهِ افتخارُ

(٦) وصفه لحروب سيف الدولة الخارجية

ولما اتصل المتنبي بسيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة لم يعرض لما كان بينه وبين الروم من حرب إلا لمامًا؛ لأنه لم يكن قد شهد مواقعه مع الروم من جهة، ولأن هذه المواقع لم تكن ملهمة للفخر والحماسة من جهة أخرى، فقد انهزم المسلمون للروم فِي تلك السنة، وغلب هؤلاء على حصن الحدَث فدمروه.

فقنع المتنبي إذن فِي مدحه الأمير بالتعريض والإلمام اليسير، حَتَّى إذا كانت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة شهد المتنبي مع سيف الدولة غزوه للروم، وكانت هذه الموقعة خطيرة حقًّا، فقد انتصر فيها سيف الدولة انتصارًا مؤزرًا أول الأمر، فاقتحم الحدود، وأمعن فِي بلاد الروم حَتَّى أبعد وملأ يديه من الغنيمة، ثم استحالت إلى هزيمة، فقد صعب القفول على الغزاة، أثقلتهم الغنائم والأسرى، ولصق بهم العدوُّ، وأخذ عليهم الطرق، وأبلى سيف الدولة فِي الدفاع عن المسلمين بلاءً حسنًا، ولكنه لم يبلغ من التوفيق ما كان به خليقًا، فتفرق عنه أصحابه، ولم ينج هُوَ إلا بعد جهد، وقال المتنبي فِي هذه الموقعة قصيدتين: أولاهما الجيمية التي قالها حين عرض الأمير جيشه قبل الهجوم، وأولها:

لِهَذَا الْيَوْم بَعْدَ غَدٍ أَرِيجُ وَنَارٌ فِي الْعَدُوِّ لَهَا أَجِيجُ

والأخرى العينية التي قالها بعد الهزيمة يُسلي بها الأمير، وينذر بها الروم، وأولها:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا الناسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثوا شَجُعُوا

وفي سنة أربعين وثلاثمائة نهض سيف الدولة للقاء الروم، وكانت نيته أن يغسل عن المسلمين وعن نفسه وضر الهزيمة التي أصابتهم فِي العام الماضي، فتهيأ للزحف من المكان نفسه الذي عرض فيه الجيش سنة تسع وثلاثين، ولكن المسلمين علموا أَنَّ جيش العدو ضخم كثير العدد فهابوه، وتقدم الأمير إلى الشَّاعِر أَنْ يثبت قلوبهم ويحرضهم على القتال، فقال نونيته التي أولها:

نَزُورُ دِيَارًا مَا نُحِبُّ لَهَا مَغْنَى وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سَاكِنِهَا الإِذْنَا

وأنشدها المتنبي لا بين يدي الأمير وحده، بل أمام جماعة المسلمين، فرد إلى قلوبهم الثقة وأثار فيهم الحماسة، ثم اندفع بهم سيف الدولة كأنه السيل، فأكتسح العدو أمامه اكتساحًا، وأمعن فِي الغزو، وكان يريد أن يصل إلى خَرشنة، ولكن الشتاء أقبل وسقط الثلج، فلم يستطع الأمير أَنْ يتقدم، فعاد بجيشه مظفرًا هذه المرة، ولم يستطع الروم أَنْ يضايقوه، ولا أَنْ يأخذوا عليه الطريق، فقال المتنبي فِي ذلك داليته التي أولها:

عَوَاذِلُ ذَاتِ الْخَالِ فِيَّ حَوَاسِدُ وَإِنَّ ضَجِيعَ الخَوْدِ منِّي لَمَاجِدُ

وفي أوائل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة زحف سيف الدولة على مَرْعَش فأزال عنها الروم وأقام حصنها، وعاد مظفرًا فقال المتنبي فِي ذلك بائيته التي أولها:

فَدَيْناكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا فَإِنكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ والغَرْبَا

وقد كثر الأسرى من الروم عند سيف الدولة، وكثر أسرى المسلمين عند الروم، وأقبل رسول ملك الروم فِي آخر هذه السنة يَسفر فِي الفداء، فاستقبله سيف الدولة فِي حفل فخم يريد أن يُلقي به الرعب فِي نفسه، وجاء غلمان الأمير بلبؤة مقتولة فألقوها فِي طريق السفراء ومن حولها أشبالها أحياء، وأقبل المتنبي لينشد قصيدته التي أعدها للحفل، فلما رأى اللبؤة وأشبالها ارتجل هذه الأبيات الثلاثة:

لَقِيتَ العُفاةَ بِآمَالِها وزُرْتَ العُداةَ بِآجَالِهَا
وأَقْبَلَتِ الرُّومُ تمشِي إلَيْـ ـك بين الليوثِ وأشبالها
إذا رأتِ الأسدَ مَسْبِيَّة فأيْنَ تَفِرُّ بِأطْفالِهَا

ثم قام بين يدي الأمير، فأنشد القافية التي هيأها لهذا المقام، ومطلعها:

لعَينَيْكِ ما يَلْقَى الفؤاد وما لقِي وللْحُبِّ ما لم يَبقَ منِّي وما بَقِي

وفي سنة اثنتين وأربعين عبر سيف الدولة الفرات، وزحف من عنتاب على بلاد الروم، فاجتاز الحدود، وأمعن حَتَّى أغار على مَلطيةَ، ثم عاد مظفرًا غانمًا بعد خطوب أحسن فيها البلاء، فلما انتهى إلى آمد بلغه أنَّ الروم قد أغاروا على أنطاكية، فخفَّ إليهم وأغذَّ فِي السير حَتَّى لحقهم قافلين عند مرعش، فأوقع بهم وغنم منهم، وأسر قسطنطين ابن قائدهم برداس فوكاس وعاد موفورًا، فقال المتنبي فِي ذلك لاميته التي أولها:

لَيالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوالٌ ولَيْلُ العَاشِقِين طَوِيلُ

وفي سنة ثلاث وأربعين أقبل سفراء الروم، وأدخلوا على سيف الدولة فِي حفل فخم، فأنشد المتنبي فيه رائيته التي يقول فيها:

ظُلْمٌ لذا اليَوْمِ وَصْفٌ قبلَ رُؤيتِه لا يَصْدُقُ الوَصْفُ حَتَّى يَصْدق النَّظرُ

وكأنه لم يعلم بما كان السفراء يحملون فِي هذه السفارة، فلما انتهى الحفل عرف أنهم كانوا يسعون فِي هدنة، فقال لاميته التي مطلعها:

دُرُوعٌ لمَلْكِ الرُّوم هَذِي الرسائِلُ   يَرُدُّ بِهَا عن نَفْسِهِ ويُشَاغِلُ

وفي هذه السنة نفسها نهض سيف الدولة بعد فراغه من ثورة الكلابيين إلى حصن الحدث، وكان المسلمون قد انهزموا عنه للروم سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة — كما قدمنا — فأراد سيف الدولة فِي هذه السنة أنْ يستردَّه ويقيمه، وعلم الروم بمسيره إليه، فأسرعوا فِي جيش ضخم اشتركت فيه أمم مختلفة ليردُّوه عنه، ولكن سيف الدولة سبقهم إليه، على أنه لم يكد يستقر حَتَّى ظهرت جيوش الروم، فلقيهم المسلمون، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عليهم، فتضعضعوا شيئًا وكادوا ينهزمون، لولا أنَّ الأمير أقدم لا يلوي على شيء، ومضى يشق الصفوف حَتَّى انتهى إلى مكان القائد العام برداس فوكاس، فانهزم الروم هزيمة منكرة، وأقام سيف الدولة الحصن وعاد مظفرًا، فقال المتنبي ميميته التي أولها:

عَلَى قَدْرِ أَهْل العَزْم تَأْتِي الْعَزَائِمُ   وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ المَكَارِمُ

وفي المحرم من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة أقبل سفراء ملك الروم على سيف الدولة يطلبون الهدنة فأدخلوا عليه، وأنشده المتنبي بحضرتهم ميميته التي أولها:

أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمامُ   وسَح لهُ رُسْلَ الملوكِ غَمامُ

ومن إلحاح المتنبي على الأمير فِي هذه القصيدة أنْ يمنح السفراء ما يطلبون من الموادعة، أستخلص أنَّ الأمير نفسه كان راغبًا فِي هذه الهدنة ليقمع ثورة القبائل القيسية التي رجحتُ فيما مضى أنها كانت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة.

وفي هذه السنة نفسها نقض الروم الهدنة فيما يظهر، وأغاروا على حصن الحدث يريدون أن يستردُّوه، ولكن سيف الدولة نهض لهم، فلما علموا بمقدمه جلوا عن الحصن وعادوا أدراجهم، فقال المتنبي لاميته التي أولها:

ذِي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ من تَعالَى   هَـكَـذَا هَـكَـذَا وإلا فَـلا لا

وفي المحرم من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة علم سيف الدولة أنَّ الروم قد هموا بالغارة على آمد، فنهض إليهم، فلما علموا بمقدمه عادوا أدراجهم، ولكنه تبعهم وأمعن حَتَّى هزمهم على تل البطريق، ودمر حصونًا وقلاعًا وعاد، ولكنه وجد الدروب قد أخذت عليه، فكانت بينه وبين الروم موقعة عظيمة كتب له فيها النصر وانهزم الروم، وقد تركوا ألوفًا من القتلى وعددًا ضخمًا من الأسرى، وعاد سيف الدولة ظافرًا إلى آمد، فأنشده المتنبي نونيته التي يقول فيها:

الرَّأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُّجعانِ   هُوَ أَوَّلٌ وَهيَ المَحَلُّ الثانِي

وفي هذه السنة نفسها أعيد حديث الوقعة الماضية فِي مجلس سيف الدولة، وما كان الروم قد قدَّروا من أخذ الطريق عليه والإيقاع به، ثم ما كان من إخلاف ظنهم، فأنشد المتنبي ميميته التي أولها:

عُقْبَى اليَمينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ   مَاذَا يَزِيدُكَ فِـي إِقْدَامِكَ الـقَسَمُ

وهي كما يقول الديوان آخر ما أنشد المتنبي من الشعر بين يدي سيف الدولة فِي حلب، وتاريخ هذه القصائد كلها مفصل أحسن تفصيل فِي كتاب الأستاذ بلاشير، وفي بحوث الأستاذ جبريلي عن حياة المتنبي، وفي كتاب الأستاذ كنار عن سيف الدولة، وعلى هذه الكتب مع الديوان كان اعتمادنا — فيما قدمنا — من التاريخ، وكنا خليقين ألا نعيد فِي هَذَا الإيجاز ما فصلوه فأحسنوا تفصيله، لولا أنهم كتبوا فِي الفرنسية والإيطالية، وأنَّ كتبهم ليست فِي أيدي قراء العربية.

وكل هَذَا الشعر — كما قلنا — فِي أول الحديث عن صلة المتنبي بسيف الدولة، رائع بارع، خليق بالدرس والتحليل، ولكننا سنصنع به ما صنعناه بغيره من شعر المتنبي فِي سيف الدولة، فنكتفي بالوقوف عند نماذج منه تُغني عن الوقوف عند سائره.

(٧) تفصيل لهذا الوصف

ولندع الجيمية التي قالها المتنبي ﻓِﻲ أوائل الحرب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، فإنها لا تزيد على أن تكون تحريضًا للجيش، وتثبيتًا للمسلمين وحثًّا لهم على الهجوم، وثناء على الأمير بما ﻫُﻮَ أهله، ثم إنذارًا للنصارى بما سيُصبُّ عليهم من نار الحرب، وكان المتنبي ﻓِﻲ هذه الجيمية القصيرة عظيم الأمل، بل واثقًا كل الثقة بالفوز، ثم كانت سيرة المسلمين بعد هذه القصيدة محققة كل التحقيق لذلك الأمل، مصدقة كل التصديق لهذه الثقة، فقد انتصر المسلمون ﻓِﻲ غزوهم ﻫَﺬَا الطويل، وهزموا عدوهم أشنع الهزيمة ﻓِﻲ كل موطن لقوهم فيه، ﺣَﺘَّﻰ انتهوا إلى خرشنة — كما قدمنا — كان الأمير يريد أن يمضي ﻓِﻲ الغزو، ولكن بعض أتباعه سئموا الحرب وأشفقوا من الإبعاد ﻓِﻲ الغزو، فطلبوا الرجوع إلى أوطانهم وألحوا ﻓِﻲ ذلك، فاستمع لهم الأمير، فلما رجعوا مثقلين بالغنائم والأسرى، تبعهم العدو منغصًا عليهم قفولهم، آخذًا عليهم الطرق، ﺣَﺘَّﻰ كانت الهزيمة التي لم تأخذ من نفس سيف الدولة برغم تعرضه فيها لأشد الأخطار.

وقصيدة المتنبي التي وصف بها هذه الحرب وما كان فيها من نصر مؤزر، ثم من هزيمة منكرة، تصور الحوادث أجمل تصوير وأروعه وأصدقه معًا، ثم هي تصور فوق الحوادث نفس المتنبي، وما ثار فيها من العواطف المختلفة والأهواء المتباينة، ثم هي بعد ﻫَﺬَا كله تصور نفس الأمير وقد عاد محزونًا كئيبًا نادمًا خائب الأمل، ولكنه مع ذلك يتحرَّق شوقًا إلى الانتقام، ولا يكاد يطمئن ولا يستقر ﺣَﺘَّﻰ يبلغ منه ما يريد.

وهذه القصيدة تنقسم أربعة أقسام، وقد رُتبت هذه الأقسام فيما بينها أحسن ترتيب وأدقه، كأن القصيدة رسالة ذات أربعة فصول، ولكنها قصة تبدأ من آخرها، إنْ صح ﻫَﺬَا التعبير، تبدأ من آخرها، ثم تُستأنف من أولها بعد ذلك.

فأما الفصل الأول فيصور لنا المتنبي نفسه، بعد أنْ عاد المسلمون إلى حلب، وقد خلا إلى نفسه وأمعن ﻓِﻲ التدبر لِمَا شهد وما سمع وما وجد أثناء هذه الحوادث الطويلة العنيفة، وإذا ﻫُﻮَ محزون كئيب، كاسف البال، يائس من الناس، ساخط على هذه الحياة التي صورتهم شجعانًا ﻓِﻲ القوم، جبناء ﻓِﻲ العمل، كرامًا إذا وعدوا، بخلاء حين يطلب إليهم الوفاء، أوفياء إذا تحدثوا، خونة غادرين إذا امتحنوا، ثم ﻫُﻮَ لا يكتفي بهذا اليأس والسخط، بل ﻫُﻮَ لا يريد أنْ يستسلم لهذا اليأس والسخط، وإنما ﻫُﻮَ يجد ﻓِﻲ نفسه بقية خفية من أمل، فليست طبيعة الناس شرًّا كلها، وليس من المستحيل أنْ يخرجوا على هذه الطبيعة فيلائموا بين القول والعمل، وبين الوعد والإنجاز، وإذن فهو

يحثهم دون أنْ يصارحهم على أنْ يأخذوا بالثأر، ويغسلوا عنهم هَذَا العار، على أنه لا يتحدث إليهم فِي ذلك مباشرة، وإنما يقيم نفسه مقامهم فيتحدث إليها، حَتَّى إذا فرغ من ذلك، فصور الحزن واليأس، ثم صور الأمل والرجاء، انتقل إلى الفصل الثاني الذي هُوَ فِي حقيقة الأمر نتيجة طبيعية منطقية للفصل الأول.

كان يريد من الناس أنْ يغسلوا عن أنفسهم العار، فأي حافز لهم أبرع من هَذَا الوصف الذي صور به انتصارهم فِي أول الحرب، واستعلاءهم على الروم، واستحواذهم على الأرض وما فيها ومن فيها، ودَفعهم للمحاربين أمامهم يمضون هاربين لا يلوون على شيء، وانتصارهم بعد ذلك كله إلى أرباض خرشنة، وهو فِي أثناء هَذَا الوصف يصطنع أروع ألفاظ الحرب، وأقدر صورها على إثارة الحفيظة، وإشعار النفس العربية بالبأس والقوة، وبالكرامة والعزة، وبالشمم والإباء، فإذا انتهى إلى خرشنة فقد أتم الفصل الثاني من قصته، ولا بد له من أنْ يأخذ فِي الفصل الثالث.

وهذا الفصل الثالث دقيق جدًّا، ففيه تصوير الهزيمة، وقد كانت الهزيمة منكرة حقًّا، فكيف السبيل إلى ذلك دون أنْ يَفت الشَّاعِر فِي أعضاد المسلمين، ويُشمتَ بهم العدو، ويزيد فِي شماتة الروم.

ليس الأمر عسيرًا كل العسر، فقد تعود الشعراء القدماء منذ العصر الجاهلي أنْ يذكروا الهزيمة ويعتذروا منها، ولكن المتنبي يستغني عن وصف الهزيمة، بل يهمله إهمالًا، ويكتفي بالاعتراف بها فِي شيء من الإجمال والغموض، ثم يتحول إلى المنتصرين من الروم، فينذرهم ويوعدهم، ويذكرهم بما أصابهم من الهزائم، ويتنبأ لهم بما سيصيبهم منها، وهو لا يرى الهزيمة إلا امتحانًا للمسلمين، وتمحيصًا لهم، وتنقية لجيشهم من الضعفاء والجبناء، وهو يعترف بأن الروم قد أسروا جماعة من المسلمين، ولكنهم لم يأسروا أحدًا ذا بأس أو حفاظ، وإنما أسروا جماعة من الموتى وأشباه الموتى، من موتى النفوس على كل حال، فالروم ضباع، والضباع لا تظفر بالأحياء، ولا تنعم إلا بالموتى.

فإذا أتم حديثه إلى الروم منذرًا موعدًا، لم يبق له إلا الفصل الرابع والأخير من فصول القصة، وهو تعزية الأمير نفسه من نفسه، وتهوين الأمر عليه، ثم إعلان رأي الأمير فيما كان، وأمل الأمير فيما سيكون.

وقد صور المتنبي هَذَا الفصل تصويرًا مؤثرًا حقًّا، فهو قد رفع الأمير عن اللوم ونزهه عن العار، بل هُوَ قد رفع الأمير فوق الشمس، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يرفعه

ولا أنْ يضعه، وبحيث لا يستطيع العار أنْ يسمو إليه، إنما العار كل العار على الذين خذلوه وأسلموه وتفرقوا عنه، والمجد كل المجد لهذا الأمير الوحيد الذي انهزم عنه الجيش فثبت للعدو، ولم يَحْمِ منه نفسه وحدها، وإنما حمى منه الجيش المنهزم أيضًا، والأيام دول، والزمان يُخطئ ويُصيب، فقد أخطأ فِي ذات الأمير هذه المرة، وهو مصلح خطأه من قابل، وهل أرض الروم إلا مصطاف الأمير حين يُقبل الصيف، ومرتبع الأمير حين يقبل الربيع، فالسيف معتذر إلى الأمير، والدهر منتظر أمر الأمير، وويل للروم بعد ذلك!

وكذلك تنتهي هذه القصيدة الرائعة من قصائد المتنبي، وقد وُفِّقَ الشَّاعِر فيها كل التوفيق من ناحيتين: من الناحية العلمية، فهو قد وبخ المنهزمين أشد التوبيخ، وعنفهم أقصى التعنيف، ولكنه لم يُصغرهم فِي أنفسهم، ولم يدفعهم إلى اليأس من الظفر والانتقام، وهو قد عرف للروم انتصارهم، ولكنه لم يسرف فِي تعظيم هَذَا الانتصار والتنويه به؛ لأنه لا يريد أنْ يقل من حد المسلمين، ولا أنْ يكسر قلوبهم، ومن الناحية السياسية، فهو قد ضمن للأمير حسن السمعة، وذاد عنه ألسنة السوء، وردَّ عنه شماتة الشامتين به من هؤلاء الملوك المسلمين الذين يتربصون به الدوائر، وينتظرون له المكروه، وهو فِي الوقت نفسه قد حفظ له وفاء الرعية، وأشعرها بأنها قد خذلته وقصرت فِي ذاته، وأنَّ له عليها حقًّا يجب أنْ تؤديه إليه، فتنصره وتفنى فِي نصره إذا استأنف الحرب فِي العام المقبل.

ولم يكن توفيق المتنبي سياسيًّا وعمليًّا فحسب، بل كان توفيقًا فنيًّا قبل كل شيء، فلهجة الشَّاعِر فِي القصيدة صادقة كل الصدق، حارة كل الحرارة، وألفاظه ومعانيه ملائمة أشد الملاءمة لهذا الصدق الحار؛ لأن المتنبي قد شهد الموقعة ورأى أطوارها كلها، واستيقن أنَّ الهزيمة لم تأتِ عن ضعف فِي المسلمين ولا عن تقصير، إنما الحرب سجال يومٌ لك ويومٌ عليك، ولولا أنَّ طبيعة الموقف تقتضي أنْ يلوم المنهزمين شيئًا ليربط على قلوبهم وليحفزهم إلى الجهاد، لما فكر المتنبي فِي لومهم قليلًا ولا كثيرًا.

وأنا أحب الآن أنْ تقرأ أطرافًا من هذه القصيدة، لتحس من جمالها وروعتها بعض ما أحس، فانظر إلى غنائه الحزين فِي أولها:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هذا الناس يَنْخَدِعُ   إنْ قَاتَلوا جَبُنُوا أَو حَدَّثُوا شَجُعُوا
أَهلُ الحَفِيظَةِ إلا أَنْ تُجَرِّبهُمْ   وَفِي التَّجَارِب بَعْدَ الغَيِّ مَا يَزَع

وَمَا الحياةُ وَنفسِي بَعْدَ مَا عَلِمَتْ　　أَنَّ الحياةَ كما لَا تشتَهِي طَبَعُ
لَيسَ الجمالُ لوجه صَحَّ مَارِنُه　　أَنْفُ العَزِيز بِقَطْعِ العِزِّ يُجتَدَعُ

ثم انظر إِلَيْهِ بعد هَذَا اليأس كيف يعود إلى استفزاز المسلمين واستنهاضهم للانتقام، فيقول:

أَأَطرَحُ المجدَ عن كِتفِي وأطلبُهُ　　وأترُكُ الغَيثَ فِي غِمدِي وأنتَجِع

وانظر إِلَيْهِ كيف خلص إلى سيف الدولة فِي هَذَا البيت الذي يجمع الظرف والقوة معًا، فقال:

بِالجَيشِ يمتنعُ الساداتُ كُلُّهمُ　　والجيشُ بَابْن أبي الهيجاءِ يمتنِعُ

ثم انظر إِلَيْهِ كيف يصف غارة سيف الدولة حين انقضَّ على الروم كالصاعقة فلم يثبتوا له، وانظر كيف يُلائم فِي السرعة بين الوصف والموصوف، فيصل إلى خرشنة كما وصل إِلَيْهَا الأمير فِي غير مهلٍ ولا أناة، ثم يقيم عليها بعد ذلك كما أقام الأمير عزيزًا منتصرًا مُبَاهيًا بالعزة والانتصار:

قادَ المقانِبَ أقصَى شُرْبِها نَهَلٌ　　عَلَى الشَّكيمِ وأدنى سَيْرِها سِرَعُ
لا يَعتَفي بَلَدٌ مسراهُ عن بَلَد　　كالموت ليسَ له ريٌّ وَلَاشِبَعُ
حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةٍ　　تَشْقَى بِه الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالْبِيَعُ
لِلسَّبْيِ مَانَكَحُوا وَالْقَتْلِ مَاوَلَدُوا　　وَالنَّهْبِ مَاجَمَعُوا وَالنَّارِ مَازَرَعُوا
مُخْلى لَهُ المَرْجُ مَنْصُوبًا بِصَارِخَةٍ　　لَهُ المَنَابِرُ مَشْهُورًا بِهَا الجُمَعُ

ثم يمضي المتنبي فِي وصف ما كان للمسلمين من قوة وبأس، وما كان يملأ قلوب الروم من فزع وجزع، وما أحدث المسلمون من قتل، وما تركوا فِي نفوسهم من حزن، يصف هَذَا كله مستأنيًا فِي وصفه، مستلذًّا هَذَا الوصف، مصطنعًا فيه الإطالة والتفصيل؛ كأنه قد أشرف على الروم من أكمة مرتفعة عند خرشنة، فهو يُلقي عليهم فِي ذلك خطبة بشعة قوامها الحديد والنار والضرم والماء.

ثم انظر إِلَيْهِ كيف يتحدث إلى الروم بعد ذلك عن هذه الهزيمة العارضة بعد أن سجل النصر تسجيلًا:

قُلْ لِلدُّمُسْتُقِ إِنَّ الْمُسلِمِينَ لَكُم   خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُم نِيَامًا فِي دِمَائِكُمُ   كَأَنَّ قَتلَاكُمُ إِيَّاهُمُ فَجَعُوا
ضَعفَى تَعفُّ الْأَعَادِي عَنْ مِثَالِهِمُ   مِنَ الْأَعَادِي وَإِنْ هَمُّوا بِهِمْ نَزَعوا
لَاتَحْسَبُوا مَنْ أَسَرْتُم كَانَ ذَا رَمَقٍ   فَلَيْسَ يَأْكُلُ إِلَّا الميتَةَ الضَّبُعُ
هَلَّا عَلَى عَقَبِ الْوَادِي وَقَدْ صَعِدَت   أُسْدٌ تَمُرُّ فُرَادَى لَيْسَ تَجْتَمِعُ
تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلَّ سَلْهَبَةٍ   وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدَعُ
وَإِنَّمَا عَرَّضَ اللهُ الجُنُودَ بِكُمْ   لِكَيْ يَكُونُوا بِلَا فَسْلٍ إِذَا رَجَعُوا
فَكُلُّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهُ   وَكُلُّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

وانظر إِلَيْهِ كيف يتحدث إلى سيف الدولة فِي هذين البيتين:

وَهَلْ يَشِينُك وَقْتٌ كُنْتَ فَارِسَهُ   وَكَانَ غَيْرَكَ فِيهِ الْعَاجِزُ الضَّرَعُ
مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُه   فَلَيْس يَرْفَعُهُ شَيءٌ وَلَا يَضَعُ

وانظر آخر الأمر إلى هَذَا البيت، وهو من أروع ما قال المتنبي فِي سيف الدولة، بل فِي غيره من الممدوحين أيضًا:

الدَّهْرُ مُعْتَذِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ   وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُرْتَبَعُ

وقد صدق الأمير وَعْدَ شاعره، واعتذر من خطيئته، وظفر السيف بما كان ينتظر، فلم يحل الحول حَتَّى نهض سيف الدولة لقتال الروم وظفر بهم، وكاد يبلغ خرشنة لولا الثلج، وقد قال المتنبي فِي هذه الموقعة قصيدتين أيضًا، يحرض الجيش فِي أولاهما، ويسجل الفوز فِي أخراهما.

ولكني لا أقف عند هَذَا الشعر — فاقرأه إن شئت، فأنت واجد فيه من الجمال والروعة ما يرضيك — ولن أقف كذلك عند قافيته التي قالها حين أدخل السفراء على سيف الدولة، سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وإن كانت خليقة بالإعجاب، إنما أصل مسرعًا إلى هذه اللامية التي هي عندي آية المتنبي فِي سيف الدولة؛ لأنها جمعت خصالًا

ما أراها اجتمعت فِي غيرها من القصائد التي وصف فيها جهاد الأمير للروم، صاغ الشَّاعِر هذه القصيدة على مثال لامية السموءل التي أولها:

إِذَا الْمَرءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرتَديه جَميلُ

فاصطنع الوزن نفسه، والقافية نفسها، واللغة نفسها أيضًا، بل هُوَ استعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعاني والأساليب، ولكنه لم يصنع ذلك تقليدًا ولا احتذاءً، وإنما أعجبه هَذَا المذهب الشعري، فعارض السموءل ولم يتخذه إمامًا، وهو حين ذهب هَذَا المذهب الفني أجرى فِي القصيدة روحًا عذبًا غريبًا، ليس من اليسير وصفه ولا تصويره، ولكنك تحسه إحساسًا قويًّا، بل أنت تقرأ القصيدة، فإذا هَذَا الروح يسبق ألفاظها ومعانيها إلى قلبك، ويُشيع فِي نفسك خفةً وطربًا، لا تجدهما حين تقرأ أي قصيدة أخرى من قصائد المتنبي.

والغريب أن هَذَا الروح العذب الخفيف يحتفظ بعذوبته وخفته فِي القصيدة كلها، ولكنه مع ذلك يتخذ أشكالًا، وإن شئت فقل يتخذ ألوانًا مختلفة، تتباين بتباين المعاني والموضوعات التي يطرقها الشَّاعِر فِي هذه القصيدة. فهو على عذوبته حزينٌ شاحب كئيب، يثير فِي نفسك الحنان والرحمة والألم الهادئ، حين يتغنى الشَّاعِر فِي هَذَا الغزل الذي بدأ به القصيدة، فإذا انتهى الشَّاعِر إلى المدح ووصف الموقعة خلع عن هذه الروح العذب الخفيف دائمًا حزنه وشحوبه وكآبته، واتخذ ثوبًا زاهيَ الألوان إلى أبعد حدٍّ، يمسه ضوء الشمس، فتضطرب ألوانه وتتموج تموُّجًا ساحرًا، وإذا هُوَ يغلبك على نفسك، وإذا نفسك تتموج معه كما يتموج، والشاعر يصف الحرب وصفًا دقيقًا، وكانت الحركة النشيطة السريعة أخص ما تمتاز به هذه الحرب، بل كانت هذه الحرب تمتاز بخصلة أخرى لعلها نتيجة لهذه الحركة، وهي الجرأة التي لا تسمح بمهلٍ ولا أناة، ولا تبيح روية ولا تفكيرًا، وإنما هي اندفاع متصل إلى أمام، يزداد عنفه من وقت إلى وقت، لا يحفل بالمصاعب ولا يقف عند العقاب، وإنما يقتحم كل ما يعترضه ويكتسح كل ما يلقاه، يصعد حين تعترضه الجبال، وينحدر حين ينتهي من القمة إلى السفح، ويعدو حين ينتهي إلى السهل: حركة وجرأة هما أشبه شيء بنشوة النشوان الذي يأتي ما يأتيه عن فرحٍ ونشاط، لا سعة فيهما لتعقل أو تدبر.

وكذلك فعل سيف الدولة فِي هذه الحرب؛ فقد خطرت له فجأة، فاندفع إِلَيْهَا من حَرَّان، لا يلوى على شيء حَتَّى أمعن فِي بلاد الروم واقتحم ملطية، فلما أراد العودة من

درب إرمينية وجد الدرب قد أخذ عليه، وكان خليقًا أن يتدبر، وأن يقدر أنه قد أخذ من ورائه أيضًا، وأن يحتال فِي اقتحام الدرب، ولكنه أبى أن يضيع الوقت، فكر راجعًا فِي سرعة الطير، واقتحم ملطية مرة أخرى غير مبال بما كان العدو قد أعدَّ له من أمامه، وبما كان خليقًا أن يلحقه من وراء، ثم انتهى فِي هذه السرعة الجريئة الغريبة إلى مخرج من بلاد الروم فسلكه، وظن الروم أنه قد انصرف عنهم، ولكنه لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى، فدمر وخرب وسلب الغنائم والنفوس، ومضى حَتَّى أدرك الفرات، فاقتحمه اقتحامًا على ظهور الخيل، ولم يكد ينتهي إلى آمد ويعلم بعبث الروم حول أنطاكية، حَتَّى خف وأغذ وأخذ الروم عند مَرْعَش وهم قافلون فمزقهم تمزيقًا، وأضاف إلى ما كان عنده من الغنائم والأسرى، وأخذ ابن القائد نفسه وعاد مظفرًا.

كان سيف الدولة نشوان قد أسكرته الحرب، فمضى فيها لا يقف ولا يتدبر، وأتيح له النصر، فإذا هَذَا النصر نفسه يسكر شاعره المتنبي، وإذا هُوَ ينشئ هذه القصيدة صورة دقيقة مطابقة كل المطابقة للأصل الذي أراد وصفه وتصويره، فأنت ستحس، حين تقرأ هَذَا الوصف، الحركة والنشاط اللذين أحسهما المتنبي حين تبع سيف الدولة فِي غارته الجريئة السريعة تلك، لا يكاد يطمئن ولا يستقر ولا يستريح.

وستمضي أنت فِي قراءة القصيدة كما مضى المتنبي فِي اتباع سيف الدولة، مندفعًا من بيت إلى بيت، متنقلًا من مقام إلى مقام، صاعدًا مع الجيش حين يصعد، ومنحدرًا مع الجيش حين ينحدر، ودائرًا مع الجيش حين يدور حول العدو، ثم هاجمًا مع الجيش حين يهجم على العدو، ثم إن هذه الروح العذب الخفيف على احتفاظه بعذوبته وخفته، يخلع هَذَا الثوب ذا الألوان المشرقة المتألقة إذا فرغ من هَذَا الوصف، ليتخذ ثوبًا آخر ليس شديد التأنق والإشراق، ولكنه حالك بعض الشيء، أو قل قاتم يكاد يمعن فِي القتوم، لولا أنَّ شيئًا من البهجة يترقرق فيه بين حين وحين، وذلك حين يلتفت الشَّاعِر إلى ما وراء سيف الدولة من بلاد المسلمين، وإلى من حول سيف الدولة من ملوك المسلمين، فلا يرى إلا ذلًّا وضعة، وإلا خمولًا وجمودًا، وإلا إقبالًا على اللهو، وعكوفًا على اللذات، وضجيجًا وعجيجًا لا غناء فيهما ولا طائل منهما فِي هَذَا الوقت الذي يجدُّ فيه الجد بين سيف الدولة وعدوه من الروم؛ فإذا الظفر الذي ينتهي إلى البطولة حينًا، وإذا الهزيمة التي تنتهي إلى البطولة حينًا آخر، وإذا الثقة بالنفس والنهوض بالواجب والاطمئنان إلى الله على كل حال، فإذا فرغ الشَّاعِر من هَذَا التعريض الحزين الفرح، خلع عن روحه العذب الخفيف ثوبه هذا، وأفاض عليه ثوبًا آخر هُوَ ثوب

الفخر بالنفس، والاعتزاز بالكفاية الشخصية والبراعة الفنية، وكأنه رضي عن قصيدته وعن فنه بعد أن سمع قصائد الشعراء الآخرين ورأى فنونهم، وهو ساخط على هؤلاء الشعراء الذين يعجزون عن مجاراته، ويقصرون عن بلوغ غايته، فلا يسعهم إلا أن يسعوا به ويكيدوا له، ويتألبوا عليه، وهو قد أشرف عليهم، وأخذ يرمقهم مزدريًا لهم، محتقرًا لما يقولون ويفعلون.

فالمتنبي يبدأ القصيدة بنفسه حزينًا مفتخرًا، ويختم القصيدة بنفسه مبتهجًا منتصرًا، ويمنح أكثر القصيدة وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده، بل له ولجماعة المجاهدين معه فِي سبيل الله، الذائدين عن حوزة الإسلام وحسب العرب، ولجماعات أخرى من المسلمين لاهية عن الجد، ساهية عن المجد، منصرفة إلى المخازي والآثام، فالشاعر مغنٍّ، والشاعر مادح، والشاعر قاصٌّ، والشاعر هاج، والشاعر مفاخر متحمس، والشاعر يجمع أكثر فنون الشعر فِي هذه القصيدة التي لم تُسرف فِي الطول.

قلت لك: إنَّ هذه القصيدة عندي أروع ما قال المتنبي لسيف الدولة من الشعر، واقرأ معي بعض أبياتها، فترى أني لست مسرفًا فيما أقول:

لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ ... طِوَالٌ وَلَيْل الْعَاشِقِينَ طَوِيلُ
يُبِنَّ لِيَ الْبَدْرَ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ ... وَيُخْفِين بَدْرًا مَا إِلَيْهِ سَبيلُ
وَمَاعِشْتُ مِنْ بَعْدِ الْأَحِبَّةِ سَلْوَةً ... وَلَكِنَّنِي لِلنَائِبَاتِ حَمُولُ

لماذا بدأ المتنبي قصيدته بهذا الغناء الحزين، وقد عرفناه إذا امتلأت نفسه إعجابًا ورضًا يعرض عن النسيب، وينصرف عن الغناء، ويهجم على موضوعه هجومًا لا يبتغي إِلَيْهِ الوسائل، ولا يبسط بين يديه المقدمات؟ ستقول: لأنه شاعر يريد أن يتأنق فِي فنه، وأن يبهر سامعيه، وأن يُهيِّئَهم لاستماع ما سيقص عليهم من أنباء الحرب، وما سيعرض عليهم من أوصافها، وقد يكون هَذَا حقًّا، وما أكثر ما يفعل الشعراء هذا! وما أكثر ما يكون أحدهم ممتلئًا بموضوعه، شاعرًا بأن الناس من حوله ممتلئون بهذا الموضوع، ولكنه مع ذلك لا يسرع إِلَيْهِ ولا يبلغه حَتَّى يدور إِلَيْهِ فِي أنحاء من الغناء! نعم! ولكني أرى فِي نفس المتنبي شيئًا آخر غير هَذَا التأنق الفني، والترفق الذي يعمد إِلَيْهِ الشعراء، فيها حزنٌ دفين، يصدر أحيانًا عن نفس الشَّاعِر التي لم تُدرك من آمالها شيئًا، أو لم تكد تدرك منها شيئًا، ويصدر أحيانًا أخرى عن حال هذه الأمة الإسلامية التي تُبلى فتحسن البلاء، وتجاهد فتحسن الجهاد، ولكنها حيث هي لا تتقدم خطوة،

ولعلها تتأخر خطوات، هذه الحرب التي أبلى فيها سيف الدولة كأحسن ما يُبلي الأمراء المجاهدون، ماذا أفاد منها المسلمون؟ وماذا أفاد منها سيف الدولة؟ وماذا أفاد منها المتنبي؟ إذا تعمقت فِي الأمر، ونفذت إلى حقائق الأشياء المسلمون حيث هم لم يمدُّوا حدودهم ولم يؤمنوا من غارة الروم، والمسلمون حيث هم لم تصلح أحوالهم الخاصة، ولم تبرأ سياستهم الداخلية من الإغراق فِي الفساد، وسيف الدولة حيث هُوَ يظفر اليوم ليستأنف الحرب غدًا، وقد ينتصر غدًا، وقد تدور عليه الدائرة، لم يأمن بأس الروم، ولم يأمن مكر المنافسين، والمتنبي نفسه حيث هو، يمدح الأمير اليوم مهنئًا كما مدحه أمس معزيًا، وقد يهنئه غدًا وقد يعزيه، ولكنه سيظل شاعرًا مادحًا على كل حال، وهو مع ذلك محسود يُكاد له، ويؤتمر به، ويدبر له السوء، حياته متشابهة كحياة المسلمين، وكحياة الأمير، وإذن فهذه الليالي المتشابهة فِي الطول، المتشابهة فِي أنها تبدي له البدر الذي لا يريده، وتخفي عليه البدر الآخر الذي يهواه كل الهوى، ويطمح إِلَيْهِ كل الطموح، ولا يجد إِلَيْهِ مع ذلك سبيلًا، هذه الليالي المتشابهة التي أمضته وثقلت عليه لتشابهها، لم لا تكون رمزًا لهذه الحياة المتشابهة التي تُمض وتثقل بتشابهها؟ لماذا ننظر إلى الشعراء دائمًا كما ننظر إلى الأطفال وهم يلعبون؟ لماذا نبخل عليهم بأن نظن بهم الرجولة والبطولة أحيانًا؟ وأي صفات الناس أدنى إلى الرجولة والبطولة، وأقرب إلى حال الفن الرفيع من هَذَا السأم وهذا الضيق بالتشابه حين يتصل ويطول؟ أحق أنَّ هَذَا البدر الذي تخفيه الليالي على المتنبي هُوَ صاحبته هذه التي يزعم أنها ظعنت عنه، وأنَّ الأسباب قد تقطعت به من دونها؟ لم لا يكون هَذَا البدر شيئًا آخر غير هذه الفتاة الأعرابية التي تحميها الأسنة والرماح؟ لما لا يكون البدر رمزًا لهذه الآمال النائية وهذه الهموم البعيدة التي تاقت إِلَيْهَا نفس الشَّاعِر منذ أحس الحياة وَقَدَر على النشاط، والتي أنفق ما أنفق من حياته دون أن يبلغها أو يدنو منها؟

لو أنك سألت المتنبي نفسه عن هذه الليالي المتشابهة فِي الطول والعقم، وعن هَذَا البدر الخفي العزيز، لما أجابك بغير ما يقول الناس؛ فهو شاعر يتغنى، وهو إنما يجيد الغناء ويبرع فيه؛ لأنه يتغنى بما لا يحققه ولا يحيط به علمًا.

فجائز بل مرجح أن يكون المتنبي بعيدًا كل البعد عن أن يفكر فِي هذه المعاني التي أشرت إِلَيْهَا وأفضت فيها، ولكنه مع ذلك يتغنى هذه المعاني نفسها؛ لأنه شاعر، وأبرع الشعراء من عرض لما يفوته من مطالب الفن، فتعلق بأذياله وطار فِي أثره دون أن يبلغه أو ينتهي إليه.

ما أشد سأم المتنبي وضيقه بهذه الليالي المتشابهة الطوال! ولكنه مع ذلك حي يغدو ويروح ويستمتع بلذات الحياة، أتراه سلا عن أحبته أو زهد فيهم؟ كلا! ولكنه صبور، صبور جَلد، قد تعلم الثبات للحوادث واحتمال الملمات، أفتراه يبكي حقًّا فِي إثر هذه الفتاة الأعرابية؟ أم هُوَ يبكي فِي إثر هذه الآمال التي لا يدنو منها إلا نأت عنه، ولا يطلبها إلا فاتته وعزَّت عليه؟ أو لسنا جميعًا نأمل ثم يدركنا اليأس، ونرجو ثم يصيبنا القنوط، ونحيا مع ذلك يائسين قانطين، كما كنا نحيا آملين راجين! بل قل: إن هَذَا اليأس الذي يدركنا لا يكاد يستقر فِي نفوسنا، وإنما هُوَ يؤذينا ويصيبنا حَتَّى يدفعنا إلى الشكاة، ويثير فِي نفوسنا الحزن، ويُطلق ألسنتنا بالغناء، ثم يتجاوزنا، وإذا الأمل يستقر مكانه، وإذا نحن جاهدون فِي السعي، مستأنفون للنشاط، مجدون للأمل، نسعى فِي إثر ما فاتنا، ونلج فِي تحقيق ما أملنا؛ وإذا نحن نتمنى الفرح والمرح، والفوز والظفر، ثم يبلغنا العجز، ثم يعاودنا اليأس، ثم نستأنف غناء الحزن والأسى، وما نزال كذلك حَتَّى نفرغ من الأمل والحياة، أو يفرغ منا الأمل والحياة.

كل هَذَا أفهمه من هذه الأبيات الثلاثة الحزينة التي بدأ المتنبي بها قصيدته، وما يعنيني أنْ يكون المتنبي قد أراد هَذَا أو لم يرده، فأنا لا أطلب من الشَّاعِر أنْ يُفهمني ما أراد حقًّا، وأنا لا أقيس براعة الشَّاعِر بقدرته على أنْ يفهمني ما أراد حقًّا، وإنما أريد من الشَّاعِر البارع كما أريد من الموسيقي الماهر أنْ يفتح لي أبوابًا من الحس والشعور ومن التفكير والخيال، وما أشك فِي أنَّ المتنبي قد وفق لهذا التوفيق كله فِي هذه الأبيات.

وامض فِي قراءة الأبيات التي تأتي بعد هذا، فسترى أنَّ الشَّاعِر ماض فِي تَغني يأسه الممض، وحزنه اللاذع، وضيقه بهذا التشابه الممل.

ألست ترى أنَّ كل هَذَا الألم الذي يصوره ويشكو منه لم ينشأ إلا عن هَذَا الفراق الذي نشأ عن رحيل واحد فِي الحياة، فراق من الممكن أنْ يعقبه لقاء، ورحيل من الجائز أنْ يعقبه اجتماع الشمل، فكيف إذا أقبلَ الرحيلُ الذي لا عودة منه، والفراق الذي لا لقاء بعده! كيف إذا أقبل الموت فأتم اليأس إتمامًا وقطع الأمل قطعًا!

ثم انظر إلى هَذَا الشاعر، وقد أحس أنَّ أمله قد فاته، وأنَّ غايته قد بعدت منه، وأنَّ الأسباب قد تقطعت به دون غايته، فهو يتعلق بأَرَثِّها وأَوْهاها، وهو يتمنى أنْ يلقى فِي كل يوم روضة تهبُّ عليها ريح الشمال؛ لأن هذه الروضة وهذه الريح، هما اللتان تدنيانه من حبيبته وتقربانه إِلَيْهَا بما تُثيران فِي نفسه من الذكرى، وهو يتعلق بالأسباب الواهية فِي فرحه كما يتعلق بالأسباب الواهية فِي حزنه أيضًا، يبتهج بالروضة

وريح الشمال، كأنهما تحملان إِلَيْهِ روحًا من حبيبته، ويَشرَق بالماء؛ لأنه يذكره ماء آخر قد نزلت عنده حبيبته وهو لا يستطيع إِلَيْهِ وصولًا، كذلك هُوَ يبتهج بالنصر؛ لأنه يدنيه من أمله، أو يخيل إِلَيْهِ أنه يدنو من أمله، وكذلك هُوَ يبتئس بالنصر؛ لأنه يثير فِي نفسه صورة ذلك النصر الحق الذي يريد أنْ يبلغه فلا يستطيع:

وَإِنَّ رَحيلًا وَاحدًا حَالَ بَيْنَنَا ... وَفِي المَوْتِ مِنْ بَعْدِ الرَّحِيلِ رَحِيلُ
إِذَا كانَ شَمُّ الرَّوْحِ أَدْنى إِلَيكُمُ ... فَلا بَرِحَتْنِي رَوْضَةٌ وقَبُولُ
وَمَا شَرَقِي بِالماءِ إِلَّا تَذكُّرًا ... لِمَاءٍ بِهِ أهلُ الحبِيبِ نُزُولُ
يُحرِّمُهُ لَمْعُ الأَسِنَّةِ فَوْقَهُ ... فَلَيْسَ لِظَمْآنٍ إِلَيْهِ وُصُولُ

وانظر إِلَيْهِ كيف يتحدث عن الليل والنجوم، وعن الصبح والحبيب فِي الأبيات التالية، فسترى أنَّ شكاة الشَّاعِر مستمرة ملحة، وأنَّ حزنه عميقٌ بعيدٌ، وأنَّ نفسه ساعية جادة فِي هذه الطريق التي تُظلم فتغمرها باليأس، وتضئ فتثير فيها الرجاء:

أَما في النُّجُوم السائراتِ وَغيْرِها ... لعَيْني عَلَى ضَوءِ الصَّباحِ دَلِيلُ
أَلَمْ يَرَ هَذَا اللَّيلُ عَينَيك رُؤيتي ... فتَظهَر فيهِ رقة ونُحُولُ
لقيتُ بِدَرْب القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً ... شَفَتْ كَمَدي واللَّيلُ فيه قتيلُ
ويومًا كأَنَّ الحُسْنَ فيهِ عَلَامَةٌ ... بَعَثتِ بها والشَّمسُ منكِ رَسُولُ

وليس كل الناس شاعرًا كالمتنبي، وليس كل الناس يحس ما يحسه الشعراء من الحزن ويحب ما يحبه الشعراء من الغناء، وما أرى إلا أنَّ المتنبي لو كان حرًّا يستطيع إرسال نفسه على سجيتها لأطال غناءه هَذَا الجميل، ولاستخرج من اختلاف اليأس والأمل على قلوب الناس نفحات حلوة وألحانًا مشجية، ولكنه شاعر الأمير وترجمان هؤلاء الجند، والأمير مترقب للمدح، والجند مترقبون للفخر والحماسة، فليقطع الشاعر على قلبه الحزين غناءه، وليرض الأمير والجيش — كما أرضى نفسه — وهو يخلص إلى المدح والوصف خلوصًا جميلًا، فيقول:

وما قَبْلَ سَيفِ الدولة اثَّارَ عَاشِقٌ ... وَلا طُلِبَتْ عندَ الظَّلامِ ذُحُولُ
ولكنَّه يأتي بِكلِّ غَريبَةٍ ... تَرُوقُ عَلَى استغرابها وتَهُولُ

رَمَى الدربَ بِالجُرْدِ الجياد إلى العدى وما عَلموا أنَّ السهامَ خُيولُ
شوائلَ تَشوالَ العَقارِبِ بِالقنَا لهَا مَرَحٌ من تَحتهِ وصَهيلُ

وما أظنك إلا راضيًا عن تشبيه الخيل بالسهام مرة، ومُعجبًا بتشبيهها مرة أخرى، وقد أديرت أسنة القنا نحو أعجازها بالعقارب وقد شالت بأذنابها، وما أراك إلا مُحسًّا ما أحسه المتنبي من نشاط الخيل، وإعلانها هَذَا النشاط بالمرح والصهيل، ولكن امض فِي القراءة:

ومَا هي إلَّا خَطْرَةٌ عَرَضَتْ لَهُ بِحَرَّان لَبَّتْها قَنًا وَنُصُولُ

فقد خطرت الغارة إذن لسيف الدولة فجأة فِي حَرَّان، فلم يكد يدعو إِلَيْهَا حَتَّى استجاب له الجيش واندفع فِي الهجوم، فانظر إِلَيْهِ كيف يصور هَذَا الهجوم:

فَلَمَّا تَجَلَّى من دَلُوكٍ وصَنْجةٍ عَلَتْ كُلَّ طَود رايةٌ ورَعِيلُ
عَلَى طُرُقٍ فيها عَلَى الطُّرْقِ رفعة وفي ذِكرها عند الأَنِيسِ خُمُولُ

فأنت ترى الخيل وقد انتهت إلى آخر السهل المنبسط عند دلوك وصنجة، وإذا هي تصعد مرتقبة فِي الجبال، وإذا هي تبلغ قمم الأطواد فتزحمها بنفسها وحركاتها كما تملأ الجو بالرايات والأعلام، والعدو من هَذَا كله ساهٍ لاهٍ، لا يعرف ما دُبِّر له ولا يقدر ما سبق إليه.ولكن اقرأ:

فما شَعَرُوا حَتَّى رأَوْها مُغيرةً قِباحًا وأَمَّا خَلْقُها فجمِيلُ
سَحائبَ يُمْطِرْنَ الحَدِيدَ عليهِمُ فكُلُّ مَكان بِالسُّيوفِ غَسِيلُ

فهم إذن قد أخذوا على غرة، وصُب عليهم الموت من هَذَا العارض الذي أمطرهم حديدًا، وغسل أرضهم بما صبَّ عليها من السيوف.

وأمْسى السَّبَايا يَنْتَحِبْن بِعرقَةٍ كأَنَّ جُيُوبَ الثاكلاتِ ذُيولُ

وقد ملأ سيف الدولة يديه من الغنيمة والسبي وعاد، فخيل إلى العدو أنَّ العاصفة قد أقلعت، وأنَّ العارض قد انجلى، وأنَّ سيف الدولة قد انصرف عنهم، وقد كان سيف الدولة يريد أنْ ينصرف، ولكنه وجد الطريق قد أخذت عليه، وهذا ما لم يقله المتنبي، ولم يجزع سيف الدولة ولم يُضع وقته، وإنما عاد أدراجه فأمطر العدو بأسًا جديدًا، فانظر كيف يصور المتنبي هَذَا أجمل تصوير:

وَعادَتْ فَظَنُّوها بِموْزارَ قُفَّلًا وليسَ لها إلَّا الدُّخُولَ قُفُولُ
فَخَاضَتْ نجِيعَ الجمع خَوضًا كأنَّهُ بِكُلِّ نَجيع لَمْ تَخُضْهُ كَفيلُ
تُسايِرُها النيرانُ في كُلِّ مَسْلَكٍ بِه القَومُ صَرعَى والديارُ طُلُولُ

وانظر كيف يصور المتنبي كرور سيف الدولة عليهم، واقتحامه ملطية مرة أخرى:

وَكَرَّتْ فَمَرَّتْ فِي دِمَاءِ مَلَطْيَةٍ مَلَطْيَةُ أُمٌّ لِلْبَنِينَ ثَكُولُ
وَأَضْعَفْنَ مَا كُلِّفْنَهُ مِنْ قُبَاقِبٍ فَأَضْحَى كَأَنَّ الْمَاءَ فِيهِ عَلِيلُ

وقد انتهى سيف الدولة بجيشه غانمًا مظفرًا إلى الفرات، فانظر كيف يصور المتنبي اقتحام النهر على ظهور الخيل:

وَرُعْنَ بِنَا قَلْبَ الفُرَاتِ كَأَنَّمَا تَخِرُّ عَلَيْهِ بِالرجَالِ سُيُولُ
يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلُّ سَابِحٍ سَوَاءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيلُ
تَرَاهُ كَأَنَّ الْمَاءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ وَأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحْدَهُ وَتَلِيلُ

على أنَّ عبور الفرات لم يكن آخر الخطوب التي سيلقاها الجيش قبل أن يبلغ مأمنه بما حوى من غنيمة وسبي، فما زالت أمامه قلاع وحصون للروم يجب أن يقتحمها وقد فعل:

وَفِي بَطْنِ هِنْزِيطٍ وَسِمْنِينَ لِلظُّبَا وَصُمِّ الْقَنَا مِمَّنْ أَبَدْنَ بَدِيلُ
طَلَعْنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَةً يَعْرِفُونَهَا لَهَا طُرَرٌ مَا تَنْقَضِي وَحُجُولُ
تَمَل الْحُصُونُ الشمُّ طُولَ نِزَالِنَا فَتُلْقِي إِلَيْنَا أَهْلَهَا وَتَزُولُ

وانتهى سيف الدولة إلى حصن الران فيما يقول المتنبي، وإلى آمد فيما يقول المؤرخون، والمتنبي عندنا أصدق، وقد أراد سيف الدولة أنْ يُريح خيله لا أنْ يستريح هو، فقد تعبت الخيل والجيش، وهو جَذع البصيرة، قارح الإقدام — كما يقول قطري — على أنَّ الظروف أبت له أنْ يستريح أو يُريح، فقد انتهت إِلَيْهِ الأنباء بأن الروم يصنعون فِي بلاد المسلمين صنيعه فِي بلادهم، فيغيرون على ما حول أنطاكية، فلا بد إذن لسيف الدولة من أنْ يلحقهم أو يقطع عليهم الطريق، وقد نهض لذلك ووفق فيه، فانظر كيف يصور المتنبي نهوضه وتوفيقه، وهو يبدأ بوصف الطريق البعيدة الشاسعة، ثم بإدراك العدو والإيقاع به:

وَبِتْنَ بِحِصْنِ الرانِ رَزْحَى مِنَ الوَجَى ... وَكُـلُّ عَـزِيـزٍ لِـلْأَمِـيـرِ ذَلِـيـلُ
وَفِـي كُلِّ نَـفْـسٍ مَـا خَـلَاهُ مَـلَامَـةٌ ... وَفِـي كُلِّ سَـيْـفٍ مَـا خَـلَاهُ فُـلُـولُ
وَدُونَ سُمَيْسَاطَ المَطَامِيرُ وَالْمَلَا ... وَأَوْدِيَـةٌ مَـجْـهُـولَـةٌ وَهُـجُـولُ
لَبِسْنَ الدجَى فِيهَا إلى أَرْضِ مَرْعَشٍ ... وَلِـلـرُّومِ خَـطْـبٌ فِـي الْبِـلَادِ جَـلِـيـلُ

وعند مرعش أدرك سيف الدولة جيشَ الروم، وكان فِي طليعة خيله:

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ ... دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِين فُضُولُ
وَأَنَ رِمَاحَ الْخَطِّ عَنْهُ قَصِيرَةٌ ... وَأَنَّ حَدِيدَ الْهِنْدِ عَنْهُ كَلِيلُ
فَأَوْرَدَهُمْ صَدْرَ الْحِصَانِ وَسَيْفَهُ ... فَتًى بَأْسُهُ مِثْلُ الْعَطَاءِ جَزِيلُ
جَوَادٌ عَلَى الْعِلَّاتِ بِالْمَالِ كُلِّهِ ... وَلَـكِـنَّـهُ بِـالـدارِعِـيـنَ بَـخِـيـلُ
فَـوَدَّعَ قَـتْـلَاهُـمْ وَشَـيَّـعَ فَـلَّـهُـمْ ... بِضَرْبٍ حُزُونُ الْبَيْضِ فِيهِ سُهُولُ
عَلَى قَلْبِ قُسْطَنْطِينَ مِنْهُ تَعَجُّبٌ ... وَإِنْ كَانَ فِي سَاقَيْهِ مِنْهُ كُبُولُ

فقد انتهت الموقعة وختمت القصة — كما رأيت — بهذا الانتصار الذي انهزم له الروم وفر له قائدهم، وقد ترك ابنه قسطنطين أسيرًا، ولكن الشَّاعِر لم ينته بعدُ، فلا بد له من أنْ ينذر ويوعد، ومن أنْ يسخر ويستهزئ، ومن أنْ يتحدث بالنذير والوعيد وبالسخرية والاستهزاء إلى هَذَا القائد المنهزم، وقد آثر نفسه وحياته على ابنه هَذَا الأسير:

لَعَلَّكَ يَوْمًا يَا دمُسْتُقُ عَائِدٌ فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يَئُولُ
نَجَوْتَ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً وَخَلَّفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ
أَتُسْلِمُ لِلْخَطِّيَّةِ ابْنَكَ هَارِبًا وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ
بِوَجْهِكَ مَا أَنْسَاكَهُ مِنْ مُرِشَّةٍ نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ
أَغَرَّكُمُ طُولُ الْجُيُوشِ وَعَرْضُهَا عَلِيٌّ شَرُوبٌ لِلْجُيُوشِ أَكُولُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلَّيْثِ إِلَّا فَرِيسَةً غَذَاهُ وَلَمْ يَنْفَعْكَ أَنَّكَ فِيلُ
إِذَا الطَّعْنُ لَمْ تُدْخِلْكَ فِيهِ شَجَاعَةٌ هِيَ الطَّعْنُ لَمْ يُدْخِلْكَ فِيهِ عَذُولُ
وَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَبْصَرْنَ صَوْلَةً فَقَدْ عَلَّمَ الْأَيَّام كَيْفَ تَصُولُ

وقد فرغ المتنبي من حديث الروم بهذا البيت، والتفت إلى أعداء سيف الدولة من ملوك المسلمين، ثم إلى أعدائه هُوَ من الشعراء المنافسين، ولكنَّا ندع ذلك الآن لنعود إِلَيْهِ بعد حين.

وكم كنت أريد أنْ أقف عند قصائد أخرى من هَذَا الشعر ربما كانت أقل من هذه القصيدة روعة وجمالًا، ولكن لها مكانها الرفيع من التفوق والامتياز، لا بين شعر المتنبي وحده، بل بين الشعر العربي كله أيضًا، ولكني قد أطلت فِي الحديث عن هَذَا الشعر الذي هُوَ خليق أنْ يفرد لدرسه كتاب خاص.

وأنا أحب على كل حال أنْ تقرأ فِي مثل هَذَا التدبر والتحليل من هَذَا الشعر القصائد التي أولها:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ المَكَارِمُ

* * *

أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمَامُ وَسَحَّ لَهُ رُسْلَ الْمُلُوكِ غَمَامُ

* * *

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا

* * *

الرأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثانِي

(٨) تعريض المتنبي بأعداء سيف الدولة من أصحاب السلطان

وللمتنبي فِي سيف الدولة شعر لم يُعنَ به الذين درسوا الشَّاعِر وديوانه حق العناية إلى الآن، مع أنه — فيما أعتقد — خليق بالعناية كلها؛ لأن له أثرًا عظيمًا جدًّا فيما سيستقبل المتنبي من الحياة فِي مصر والعراق.

والشرَّاح والنقاد معذورون فِي إهمالهم لهذا الشعر؛ لأنه لم يستقل بقصيدة من القصائد، ولا بمقطوعة من المقطوعات، وإنما جاء عرضًا فِي قصائد المدح والوصف لما كان من جهاد سيف الدولة لعدوه من الروم، أو للثائرين عليه من العرب، وهو الشعر الذي عرض فيه المتنبي بأصحاب السلطان فِي مصر والعراق تعريضًا خفيًّا مرة، وواضحًا يكاد يبلغ التصريح مرة أخرى، وخطر هَذَا الشعر يأتى من أنه يُعيننا على أنْ نفهم ما لقيه المتنبي فِي مصر من الإعراض، وما انتهى إِلَيْهِ من الإخفاق، وما اضطر إِلَيْهِ آخر الأمر من الهرب — كما يعيننا — على أنْ نفهم ما لقى المتنبي من الفتور فِي العراق، ثم من العداوة الصارخة فِي بغداد خاصة، ولست أزعم أني أستطيع أنْ أوضح أمر هَذَا الشعر كما أحب وكما ينبغي أن يتضح، ولكني أكتفي بالإشارة إِلَيْهِ والدلالة على بعضه، وأرجو أنْ يسمح الوقت لي أو لغيري باستئناف الحديث فيه، والرجوع به إلى أصوله القريبة والبعيدة من مصادر التاريخ.

وقد رأيت فِي حديثنا عما قال المتنبي من الشعر لسيف الدولة، حين ثار به الثائرون من القرامطة، ثم من رعيته البدو، أنه لم يكن يمتنع عن التعريض بالذين كانوا يؤلبون هؤلاء الثائرين أو يغرونهم من بعيد، وهؤلاء المؤلبون كما يمكن أنْ يكونوا من عمال سيف الدولة نفسه يمكن أنْ يكونوا من أهل العراق أو من عمال المصريين فِي جنوب الشام، على أنَّ تعريض المتنبي بهؤلاء الكائدين فِي ذلك الشعر لم يكن واضحًا كله، ومن شعر المتنبي ما هُوَ أوضح منه وأظهر وأدنى إلى التصريح الذي لا يحتمل شكًّا ولا لبسًا.

ويخيل إليَّ أنَّ المتنبي قد دُفع إلى هَذَا بدافعين: أحدهما أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بمضائه وحسن بلائه، لم يكن يملك نفسه أنْ يعيب أولئك الملوك الآخرين الذين ينعمون بالحياة واللين، وسعة الملك، وضخامة الثروة، فِي غير مشقةٍ ولا جهدٍ، والآخر أنَّ سيف الدولة نفسه كان يظهر على بعض ما يدبر له من الكيد فِي العراق أو فِي مصر، وكان الأمر يفسد أو يدنو من الفساد بينه وبين بغداد أو الفسطاط، فيُغري شاعره بأن يمس هذه الناحية من نواحي السياسة الإسلامية، لينذر أو يعذر أو يغيظ.

وقد نستطيع أنْ نعد من هَذَا الشعر قصيدتين قالهما المتنبي يمدح بهما سيف الدولة حين فسد الأمر بين أخيه ناصر الدولة فِي الموصل وبين مُعز الدولة البويهي فِي بغداد.

ولكن الشَّاعِر فِي هاتين القصيدتين لم يكن واضح التعريض، وإنما آثر التعميم، واكتفى بالمدح الذي يُظهر البأس والقوة، ولا يُحرج مادحًا أو ممدوحًا، كما أنَّ سيف الدولة نفسه أظهر الاستعداد لنصر أخيه دون أنْ يزحف بجيشه نحو الموصل، فكأن الأمر لم يزد فِي هذه المرة على أنْ يكون وعيدًا من بعيد، ولكن هناك مواقف أخرى لا يحتمل الأمر فيها شكًّا ولا مراء.

فلننظر قبل كل شيء إلى أول ما عمد إِلَيْهِ المتنبي من التعريض حين فسد الأمر بين ناصر الدولة وبين معز الدولة البغدادي، فاقرأ هذه الأبيات، فسترى المتنبي يصور فيها اضطراب الأمر فِي الموصل، وما أدى إِلَيْهِ ذلك من وحشةٍ في حلب ومن فساد العلاقة بينها وبين بغداد، ثم ينتقل من هَذَا التصوير إلى التهديد والوعيد:

عَلَى الفُرَاتِ أَعَاصِير وَفِي حَلَبٍ ... تَوَحُّشٌ لِمُلَقَّى النَّصْرِ مُقْتَبَلِ
تَتْلُو أَسِنَّتُهُ الْكُتْبَ التِي نَفَذَتْ ... وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبْدَالًا مِنَ الرُّسُلِ
يَلْقَى الْمُلُوكَ فَلَا يَلْقَى سِوَى جَزَرٍ ... وَمَا أَعَدُّوا فَلَا يَلْقَى سِوَى نَفَلِ

وسيف الدولة مصانع للخليفة، مكبر لسلطانه مع ذلك لا يريد أنْ يؤذيه ولا أنْ يُظهر خروجًا عليه، فيقول المتنبي فِي تصوير ذلك هَذَا البيت:

صَانَ الخَلِيفَةُ بِالْأَبْطَالِ مُهْجَتَهُ ... صِيَانَةَ الذَّكَرِ الْهِنْدِي بِالْخِلَلِ

وانظر إلى هذه الأبيات الثلاثة التي يعود فيها المتنبي إلى الوعيد، ويعلن أنَّ الأمير عالمٌ بما يُكاد وما يُراد فِي عاصمة الخلافة:

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهْيَ نَاظِرَةٌ ... فَمَا تُقَابِلُهُ إِلَّا عَلَى وَجَلِ
قَدْ عَرَّضَ السَّيْفَ دُونَ النازِلَاتِ بِهِ ... وَظَاهَرَ الْحَزْمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغِيَلِ
وَوَكل الظَّنَّ بِالْأَسْرَارِ فَانْكَشَفَتْ ... لَهُ ضَمَائِرُ أَهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وكأن إذاعة الأخبار بأن سيف الدولة يريد أنْ يزحف لنصر أخيه لا تكفي ﻓِﻲ إنذار بغداد ورفع الضغط عن الموصل، فيظهر سيف الدولة أنه آخذٌ ﻓِﻲ الزحف، ويطلب إلى المتنبي أنْ يصحبه ويتقدَّم إليه، سرًّا ﻓِﻲ أكبر الظن، أنْ يقول ﻓِﻲ ذلك شعرًا، فيقول المتنبي قصيدة أخرى تأتي فيها هذه الأبيات:

وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ الْمُلُوكُ مَوَاهِبٌ ... دَرُّ الـمُـلُـوكِ لِـدَرِّهَـا أَغْـبَـارُ
لِلهِ قَلْبُكَ مَا تَخَافُ مِنَ الرَّدَى ... وَيخَافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيْكَ الْعَارُ
وَتَحِيدُ عَنْ طَبَعِ الْخَلَائِقِ كُلِهِ ... وَيَحِيدُ عَنْكَ الْجَحْفَلُ الجَرَّارُ
يَامَنْ يَعِزُّ عَلَى الْأَعِزَّةِ جَارُهُ ... وَيَذِلُّ مِنْ سَطَوَاتِهِ الْجَبَّارُ

وكأن وعيد سيف الدولة هَذَا قد انتهى إلى غايته، فصلح الأمر بين الموصل وبغداد.

ولما نهض سيف الدولة لقتال الروم، وأتم بناء مرعش، مدحه المتنبي، ببائيته المعروفة، ولكنه ختم هذه البائية بأبيات لا يُعرض فيها بمنافسيه من ملوك الإسلام، وإنما يصرح بذمهم تصريحًا، ويسبهم ﻓِﻲ غير احتياط، ويخص المصريين بشيء قاسٍ من الذم، وذلك حيث يقول:

كَفَى عَجَبًا أَنْ يَعْجَبَ الناسُ أَنهُ ... بَـنَـى مَـرْعَـشًـا تَـبًّـا لِآرَائِـهِـمْ تَـبًّـا
وَمَـا الْـفَـرْقُ مَـا بَـيْـنَ الْأَنَـامِ وَبَـيْـنَـهُ ... إِذَا حَذِرَ الْمَحْذُورَ وَاسْتَصْعَبَ الصَّعْبَا
لِأَمـرٍ أَعَـدَّتْـهُ الْـخِـلَافَـةُ لِـلْـعِـدى ... وَسَمَّتْهُ دُونَ الْعَالَمِ الصَّارِمِ الْعَضْبَا
وَلَـمْ تَـفْـتَـرِقْ عَـنْـهُ الْأَسِـنَّـةُ رَحْـمَـةً ... وَلَـم تَـتْـرُكِ الـشَّـأْمَ الْأَعَـادِي لَـهُ حُـبَّـا
وَلَـكِـنْ نَـفَـاهَـا عَـنْـهُ غَـيْـرَ كَـرِيـمَـةٍ ... كَـرِيـمَ الـثَّـنَـا مَـا سُـبَّ قَـطُّ وَلَا سَـبَّـا
وَجَـيْـشٌ يُـثَـنِّـي كُـلَّ طَـوْدٍ كَـأَنَّـهُ ... خَرِيقُ رِيَاحٍ وَاجَهَتْ غُصُنًا رَطْبَا
كَـأَنَّ نُـجُـومَ الـلَّـيْـلِ خَـافَـتْ مُـغَـارَهُ ... فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجْبَا
فَمَنْ كَانَ يُرْضِي اللُّؤْمَ وَالْكُفْرَ مُلْكُهُ ... فَهَذَا الَّذِي يُرْضِي الْمَكَارِمَ وَالرَّبا

فهو كما ترى يسب الذين أكبروا من سيف الدولة بناءه مرعش، وهو كما ترى أَيْضًا مُصانع للخلافة، لا يعرض لصاحبها بأذى، ولكنه يصارح المصريين بالعداء، فيعلن أنهم لم يتركوا ما تركوا من الشام لسيف الدولة كرامةً ولا حبًّا، وإنما نفاهم عنها نفيًا، ثم يختم القصيدة ببيت ما أرى إلا أنه قصد به إلى معز الدولة، فرماه بأنه يقيم ملكه على اللؤم والكفر، على حين يقيم سيف الدولة ملكه على ابتغاء مرضاة الله.

فإذا كانت سنة اثنتين وأربعين، وقال المتنبي لاميته الرائعة التي أطلنا الحديث عنها فِي الفصل الماضي، عرض لمنافسي سيف الدولة بهذين البيتين اللذين كان لهما أبعد الأثر فِي حياة المتنبي من الناحية السياسية والأدبية جميعًا، وهما قوله:

فَدَتْكَ مُلُوكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِيًا فَإِنَّكَ مَاضِي الشفْرَتَيْنِ صَقِيلُ
إِذَا كَانَ بَعْضُ الناسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ فَفِي الناسِ بُوقَاتٌ لهَا وَطُبُولُ

ومعز الدولة وحده هُوَ المَعْنِي بهذيْن البيتين، ما أشك فِي ذلك، فهو قد لُقِّب بلقب يضاف إلى الدولة، ولكنه ليس ماضيًا ولا عضبًا، وإنما هُوَ لفظٌ ضخم لا يُغني شيئًا، والبيت الثاني صريحٌ فِي ذلك، فقد جعل المتنبي أمير حلب سيفًا للدولة يحميها ويذود عنها، على حين أنَّ منافسه فِي بغداد لا يزيد على أنْ يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول.

وقد كان أثر هَذَا البيت عميقًا جدًّا فِي الشرق الإسلامي كله، وفي بغداد خاصة فقد ذُكر هَذَا البيت حين وصل المتنبي إلى بغداد فِي آخر حياته، وعيب عليه فيها وفي غيرها من بلاد الشرق الإسلامي، وإذا لم تكذبني الذاكرة فقد عابه الصاحب بن عباد.

والغريب أنَّ النقاد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة فِي إنكار هَذَا البيت فعابوه، مع أني لا أعرف هجاء أقذع ولا أوجع، ولا سهمًا أنفذ، من هَذَا البيت الذي هُوَ عندي من روائع المتنبي.

وفي هذه السنة نفسها عاد المتنبي إلى هَذَا النحو من الكلام، ولكنه خالف ما كان قد مضى عليه من رأي وسُنة، بأمر سيف الدولة فِي أكبر الظن، فقد كان المتنبي إلى الآن يوقر الخليفة ولا يعرض له بالسوء، فأما فِي هذه القصيدة التي أنشدها سيف الدولة، فِي ميدان حلب عند عرض الجيش، وهما على فرسيهما، مهنئًا له بعيد الأضحى، فإنه يهاجم الخليفة تصريحًا لا تلميحًا، ويرسل إِلَيْهِ نذيرًا لا لبس فيه، وذلك حيث يقول:

فَوَا عَجَبًا مِنْ دَائِلٍ أَنْتَ سَيْفُهُ أَمَا يَتَوَقَّى شَفْرَتَيْ مَا تَقَلَّدَا
وَمَنْ يَجْعَلِ الضرْغَامَ لِلصَّيْدِ بَازَهُ تَصَيَّدَهُ الضِّرْغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَا
رَأَيْتُكَ مَحْضَ الْحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ وَلَوْ شِئْتَ كَانَ الْحِلْمُ مِنْكَ مُهَنَّدَا
وَمَا قَتلَ الأَحْرَارَ كَالْعَفوِ عَنْهُمُ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيم مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضْعُ النَّدى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَلَكِنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأْيًا وَحِكْمَةً ... كَمَا فُقْتَهُمْ حَالًا وَنَفسًا وَمحْتِدَا
يَدِقُّ عَلَى الْأَفْكَارِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ ... فَيُتْرَكُ مَا يخفَى وَيُؤْخَذُ مَابَدَا

فهو كما ترى صريح لا يُعَرِّض ولا يُوَرِّي، وإنما يسخر من الخليفة الذي يتقلد سيفًا يوشك أنْ يقتله، ويرسل للصيد جارحًا يوشك أنْ يصيده، وهو يغري سيف الدولة بهؤلاء الذين عفا عنهم فأبطرهم العفو، وأمهلهم فغرهم الإمهال، واصطنع معهم الحلم فظنوه عجزًا، وآثرهم بالكرامة فتلقوه باللؤم والجحود، وهو يعجب من أناة سيف الدولة وحلمه، ويحذره مع ذلك عاقبة ذلك الحلم وهذه الأناة، ويثق برأيه آخر الأمر فِي كلام يملؤه الوعيد.

وبعد أنْ أنشد هذه القصيدة بوقت قصير فِي سنة ثلاث وأربعين بالضبط، أدخل سفراء الروم على سيف الدولة، وأنشده المتنبي رائيته التي ذكرناها آنفًا، وقال فيها هذين البيتين:

قَدِ اسْتَرَاحَتْ إلى وَقْتٍ رِقَابُهُمُ ... مِنَ السُّيُوفِ وَبَاقِي الْقَوْمِ يَنْتَظِرُ
وَقَدْ تَبَدَّلها بِالْقَوْمِ غَيْرَهُمُ ... لِكَيْ تَجِمَّ رُءُوسُ الْقَوْمِ وَالْقَصَرُ

فلمن هذه الرقاب التي أينعت وحان قطافها، ويوشك سيف الدولة أنْ يكون صاحبها أثناء إبقائه على الروم؟ أهي رقاب أهل بغداد؟ أهي رقاب أهل الفسطاط؟ أم هي رقاب الكلابيين الذين ثاروا بسيف الدولة وأدَّبهم فِي هَذَا العام نفسه؟

وفِي آخر قصيدة أنشدها المتنبي بحلب قال هذه الأبيات التي لا شك فِي أنه لم يُرد بها إلا أهل العراق:

أَلْهَى المَمَالِكَ عَنْ فَخْرٍ قَفَلْتَ بِهِ ... شُرْبُ المُدَامَةِ وَالْأَوْتَارُ وَالنَّغَمُ
مُقَلَّدًا فَوْقَ شُكْرِ اللهِ ذَا شُطَبٍ ... لَا تُسْتَدَام بِأَمْضَى مِنْهُمَا النَّعَمُ
أَلْقَتْ إِلَيْكَ دِمَاءُ الرُّومِ طَاعَتَهَا ... فَلَوْ دَعَوْتَ بِلَا ضَرْب أَجَابَ دَمُ

ثم خرج المتنبي من حلب مغاضبًا، وأقام عند كافور ما أقام وعاد إلى العراق، واستأنف سيف الدولة بره به وعطفه عليه، فأنفذ إِلَيْهِ هدية، وشكر المتنبي هذه الهدية فِي لاميته المشهورة التي قال فيها مُعَرِّضًا ومصرحًا وغير حافل بمكانه من العراق وقربه من أولي الأمر فِي بغداد:

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ　　سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ
كَيْفَ لَا تَأْمَنُ الْعِرَاقُ وَمِصْرٌ　　وَسَرَايَاكَ دُونَهَا وَالْخُيُولُ
لَوْ تَحَرَّفْتَ عَنْ طَرِيقِ الْأَعَادِي　　رَبَطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمْ وَالنَّخِيلُ
وَدَرَى مَنْ أَعَزَّهُ الدفْعُ عَنْهُ　　فِيهِمَا أَنه الْحَقِيرُ الذَّلِيلُ
أَنْتَ طُولَ الْحَيَاة لِلرُّومِ غَازٍ　　فَمَتَى الْوَعْدُ أَنْ يَكُونَ الْقُفُولُ
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ　　فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ
قَعَدَ الناسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيـ　　ـكَ وَقَامَتْ بِهَا الْقَنَا وَالنُّصُولُ
مَا الذِي عِنْدَهُ تُدَارُ المَنَايَا　　كَالذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

وهذا البيت الأخير سهم صائب قد أرسل مباشرة إلى صدر صاحب الأمر فِي بغداد.

وفي آخر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة تلقى المتنبي من سيف الدولة كتابًا بخطه يسأله المسير إليه، فأرسل إِلَيْهِ بائيته المشهورة، وقال فِي آخرها:

أَرَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِيـ　　ـنَ إِمَّا لِعَجْزٍ وَإِمَّا رَهَبْ
وَأَنْتَ مَعَ اللهِ فِي جَانِبٍ　　قَلِيلُ الرقَادِ كَثِيرُ التعَبْ
كَأَنكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ　　وَدَانَ الْبَرِيَّةُ بِابْنٍ وَأَبْ
فَلَيْتَ سُيُوفَكَ فِي حَاسِدٍ　　إِذَا مَا ظَهَرْتَ عَلَيْهِمْ كَئِبْ
وَلَيْتَ شَكَاتَكَ فِي جِسْمِهِ　　وَلَيْتَكَ تَجْزِي بِبُغْضٍ وَحُبْ

فهو كما ترى يكاد يقصر الإسلام على سيف الدولة لكثرة ما يجاهد الروم فِي سبيله، ويكاد يرمي المسلمين المنافسين له بالنصرانية لكثرة ما قصروا عن هَذَا الجهاد، ومَنْ عسى أنْ يكون هَذَا الحاسد الذي يعرض به المتنبي ولا يسميه؟ أتراه يقصد إلى كافور، أم إلى معز الدولة؟

والغريب أنه يُنفذ هذه القصيدة إلى صديقه القديم فِي الوقت الذي يتهيأ فيه ليمعن فِي الشرق الإسلامي زائرًا لابن العميد، ثم لعضد الدولة.

ومهما يكن من شيء فقد يكشف التاريخ لنا يومًا عما كان لهذا الشعر السياسي من أثر فِي علاقات هؤلاء الأمراء من المسلمين، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هُوَ أننا نعرف ما كان له من أثر فِي حياة المتنبي نفسه حين قصد إلى كافور، وحين لجأ إلى العراق.

(٩) شعر المتنبي في فراغ سيف الدولة

وفن آخر قال فيه المتنبي لسيف الدولة شعرًا كثيرًا، ولكني أمر به دون أنْ أقف عنده؛ لأنه فيما أرى لا يكاد يستأهل عنايةً أو درسًا، وهو عندي أسخف ما قال المتنبي لسيف الدولة من شعرٍ، وهو قد قال مثله للأمراء الذين اتصل بهم وعاش فِي ظلهم، وقد رأيت أطرافًا مما قال من ذلك لعلي بن إبراهيم التنوخي، ولبدر بن عمار وللأمير الإخشيدي، ولأبي العشائر، وهو هَذَا الشعر الذي ينزل فيه الشَّاعِر عن كرامته دائمًا، وعن مروءته أحيانًا، ويبيع فيه فنه لمولاه بيعًا دنيئًا، أريد به شعر المناسبات الذي يقوله الشَّاعِر مدفوعًا إِلَيْهِ بالتملق مرة، وبالخوف مرة أخرى، وبالمناسبة مرة ثالثة، وبالطاعة مرة رابعة، وعلى هَذَا النحو.

وكان الأمراء فِي هَذَا العصر قساة على شعرائهم — فيما يظهر — ويكلفونهم ما يطيقون وما لا يطيقون، ينتظرون منهم المدح حين ينشطون له، وحين يفترون عنه، ويريدونهم على أنْ يقولوا لهم الشعر فيما يستحق وما لا يستحق أنْ يقال الشعر فيه.

وكان الشعراء طيعين مذعنين أذلة، يدفعهم إلى ذلك الرغب والرهب جميعًا وقد رأيت كيف أبطأ المتنبي عن مدح الإخشيدي الشاب، فعاتبه فِي هَذَا الإبطاء، واضطر الشَّاعِر البائس إلى الاعتذار، وكذلك فعل سيف الدولة، فاستبطأ مدح شاعره حينًا، وتعلل عليه أحيانًا، واقترح عليه غير مرة موضوعات يقول فيها الشعر ارتجالًا، منها القيم، ومنها السخيف، وكان المتنبي البائس يذعن للأمر فيوفق مرة، ويخطئه التوفيق مرات، فهذا بيت للعباس بن الأحنف يطلب منه أنْ يُجيزه، وهذا بيت آخر للعباس الصولي يطلب منه أنْ يجيزه أيضًا، وهذا المؤذن يدعو إلى الصلاة فيدرك الأمير وفي يده الكأس، ولا بد للمتنبي من أنْ يقول فِي ذلك شعرًا وإلا سبقه غيره من الشعراء المنافسين إلى رضا الأمير وحبائه، وهذا سحاب يسقط والأمير فِي بعض أسفاره، فلا بد للمتنبي من أنْ يفضِّل سيب الأمير على فيض السحاب، وهذه خيمة الأمير تعصف بها الريح فتسقط فيتشاءم الأمير، ويتحدث بذلك الناس، ولا بد للمتنبي من أنْ يعتذر عن

هذه الخيمة البائسة التي عصفت بها الريح، ومن أنْ يتأذَّن للأمير بأن هذه الحادثة آية من الله تؤذن بنصره القريب، واعتراف من الخيمة بأن شخص الأمير أضخم وأعظم وأرفع من أنْ تظلله الخيام.

والأمير مريض، فيجب أنْ يرثى الشَّاعِر له ويشفق عليه، ويتمنى له الشفاء، وقد شفى الأمير، فيجب أنْ يهنئه الشَّاعِر ويتمنى له مزيدًا من العافية وفضلًا من طول البقاء.

وقد قلت: إني لا أحفل بهذا الشعر ولا أطيل عنده الوقوف، ولكني أحب مع ذلك أنْ أنبه من يقرأ شعر المتنبي ويدرس حياته، إلى أنَّ لهذا الشعر السخيف خطرًا عظيمًا من ناحيتين:

الأولى: الناحية الفنية الخالصة، فأكثر هَذَا الشعر كان يُرتجل ارتجالًا، ولا يتهيأ الشَّاعِر له ولا يعنى به، وهو من هذه الجهة يصور طبع الشَّاعِر كما هُوَ دون أنْ يعمل فيه الاحتفال لقول الشعر، والتهيؤ لنظم القصيد.

وكان طبع المتنبي، كما يصوره هَذَا الشعر الذي قاله لسيف الدولة ولغيره، سمحًا سهلًا خصبًا، يواتي صاحبه فِي غير مشقة، وقد يغمره حَتَّى يشرف به على الغرق، وليس من شك فِي أنَّ المتنبي لم يحتفظ من فيض هَذَا الطبع الخصب إلا بأقله، وترك أكثره يذهب به الزمان.

كان طبع المتنبي خصبًا، ولكنه لم يكن صافيًا دائمًا، وكان ذوق المتنبي حسنًا، ولكن بشرط أنْ يتهيأ للنقد ويشفق من الناقدين، فأما إذا أرسل الشَّاعِر نفسه على سجيتها، فقد كان شعره يتدفَّع تدفُّع السيل ويحمل كثيرًا من الفساد.

والناحية الثانية: أنَّ هَذَا الشعر كان موضوع التنافس بين الشعراء والتسابق بين الندماء، كلهم يريد أنْ يكثر منه ويجيد فيه ليظفر بما يحرص عليه من رضا الأمير ونائله، وكان أعظمهم حظًّا من هَذَا الظفر، محسدًا بما ينال من الرضا والمال، وكان المتنبي من غير شك أخصب الشعراء الذين لزموا سيف الدولة، وأغزرهم مادة، وأسرعهم بديهة، وأسبقهم إلى عطف الأمير ومثوبته، فإذا أضفنا إلى هَذَا تفوقه الذي لا شك فيه حين كان يُلقي قصائده الرسمية فِي الحفل، لم يصعب علينا أنْ نفهم ما أحاط بالمتنبي منذ اتصل بسيف الدولة من كيد ومكر وحسد، نغص عليه حياته فِي كثير من الأوقات، وعرَّض صلته مع سيف الدولة للخطر يومًا ما، ثم عرض حياة

المتنبي نفسها للخطر حينًا، ثم انتهى بما لم يكن بُدٌّ من الانتهاء إليه، وهو القطيعة بين الشَّاعِر والأمير.

(١٠) عتاب وفراق

وليس العجيب، وقد عرفت ما كان بين سيف الدولة والمتنبي من صلة، أثناء هذه الأعوام الطوال التي اصطحبا فيها، أنْ تفسد حياة المتنبي عند الأمير من حين إلى حين، وإنما العجيب أنْ تسلم وتستقيم وتبرأ من الاضطراب والفساد، وقد رأيت أنَّ المتنبي لم يأمن حسد الحساد حين اتصل بالتنوخيين فِي شبابه، فاضطر إلى أنَّ يدافع عن نفسه، ورأيت كذلك أنه لم يأمن الحسد والكيد عند بدر، فاضطر إلى الهرب والفرار، ورأيت أَيْضًا أنه لم يأمن من الكيد والدس عند أبي العشائر، ولكنه ثبت للكائدين والدساسين وأخذهم بالقوة والحزم، وظهر عليهم حَتَّى اتصل بسيف الدولة.

وهذا يفسر ما قدمناه من أنه لم يُلق بنفسه على أمين حلب إلقاء، وإنما سعى إِلَيْهِ راغبًا فيه، محتاطًا منه فلما أنشده ميميته المعروفة لم يتهالك فيها، وإنما وقف موقف الحذر المعتز بنفسه، وأقدم إقدام المهاجم لخصومه المخوف للذين لم يعرفوه بعد، حَتَّى إذا كاد ينتهي من قصيدته قال مهاجمًا للشعراء فِي غير ريث ولا مهمل ولا ظرف:

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ ... بِلَا وَاصِفٍ وَالشعْرُ تَهْذِي طَمَاطِمُهْ
وَكُنْتُ إِذَا يَممتُ أَرْضًا بَعِيدَةً ... سَرَيْتُ فَكُنْتُ السِّرَّ وَاللَيْلُ كَاتِمُهْ

فهو إذن قد دخل القصر على أصحاب سيف الدولة غازيًا لا ضيفًا، واتصل بحاشية الأمير مخاصمًا لا مسالمًا.

والرواة يقولون — كما عرفت — إنه اشترط لنفسه قبل أنْ يلزم الأمير، وأنَّ الأمير قبل شروطه، ثم لم يلبث أنَّ ملك قلب الأمير واستأثر بحبه ومودته، فليس غريبًا أن تكره حاشية الأمير، ولا سيما الشعراء والأدباء من بينها، مقدم الشَّاعِر وما صحبه من تهجم واستعلاء، وليس غريبًا أنْ تضيق بالشاعر أشد الضيق حين ترى أنَّ شعره يقع من الأمير موقعًا حسنًا، ثم تُبغضه أشد البغض حين ترى الأمير يؤثره أشد الإيثار، وهي مكرهة على أنْ تُظهر الصمت عن هَذَا الشَّاعِر الوقح الذي يسوءها فِي نفسها وفي مكانتها من صاحب القصر، ثم يستأثر من دونها بالحظوة، ثم يرتفع عنها فيما يمنح

الأمير من الجوائز والعطاء، ثم يلزم الأمير بعد ذلك لزوم الظل حين يظعن وحين يقيم، ثم هُوَ بعد هذا كله لا يزداد إلا طموحًا وجموحًا، وإلا علوًّا واستكبارًا، وكلما أحس حب الأمير له وتقريبه إياه ازداد ازدراؤه لغيره، واحتقاره لكل من سواه، ثم هُوَ لا يكاد يقول شعرًا حَتَّى يمتلئ به غرورًا وكبرًا، ولا يدع لشعره أنْ يرفع نفسه على الشعر كله، وأنْ يرفع صاحبه على الشعراء جميعًا، وإنما يرفع شعره ونفسه بهذا البيت وذاك، يدسه فِي هذه القصيدة أو تلك، وهو لا يكتفي برفع نفسه والفخر بها، ولكنه لا يرفع نفسه إلا جدَّ فِي وضع غيره، ولا يحمد إلا ذم شعر الشعراء الآخرين.

وهو كما عرفت لم يستطع أنْ يقيم عند بدر إلا أشهرًا ثم انهزم للكائدين، ولم يطل مقامه عند أبي العشائر، ولم تظهر نتيجة الخصومة بينه وبين أعدائه عند هَذَا الأمير قبل أنْ يتصل بسيف الدولة، وكان من الجائز ألا تطول إقامته عند سيف الدولة، وأنْ يفسد الأمر عليه بعد عام أو عامين بتأثير هذه الأخلاق والخصال التي قدمناها، وما تستتبع من الكيد له والتألب عليه، ولكنه أقام عامًا وعامًا وعامًا ثالثًا، والحاشية تنكره وتضيق به، وتبغضه وتكيد له، وهو ثابت لا يتزعزع، ومستقر لا يزول، والأمير يرفعه ويدني منه مكانه، ويؤثره على غيره من الشعراء والندماء، فلا تزداد الحاشية إلا ضيقًا به وكيدًا له، حَتَّى إذا كانت الموقعة التي انتصر فيها سيف الدولة انتصارًا باهرًا أول الأمر، وانهزم فيها آخر الأمر انهزامًا منكرًا، قال المتنبي عينيته التي يعزي بها الأمير وينذر بها الروم، وكان شديد الوطأة على الجند الذين تفرقوا عن الأمير وانهزموا للروم، فقد وصفهم بالضعف بالجبن والذلة، واستيأس منهم أو كاد يستيئس، وأيأس الأمير منهم أو كاد يوئسه.

وليس من شك فِي أنَّ كثيرًا من الأشراف الذين انهزموا فِي تلك المعركة لم يقع من أنفسهم ما قاله المتنبي موقعًا حسنًا، فأنكروه وكرهوه، وانتهز أعداء المتنبي وحساده هذه الفرصة، فسعوا به، وألبوا عليه، وكثر كلام الناس فِي المتنبي، واجترأ بعض الشعراء على أنْ يجاهره بالعداوة بعد أنْ كان يُسر له البغضاء ويدبر له الكيد.

ولسنا نعرف تفصيل ما حدث من هَذَا كله، ولكنا نلاحظ أنَّ المتنبي حين، هنأ سيف الدولة بأخذ الثأر من الروم وانتصاره عليهم سنة أربعين وثلاثمائة يقول فِي داليته المشهورة:

خَليلَيَّ إِني لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَكَمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى ومِني الْقَصَائِدُ

فَلَا تَعجَبَا إنَّ السيُوفَ كَثِيرَةٌ   وَلكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

فهناك إذن شعراء يدعون الشعر ويكاثرون فيه المتنبي، والمتنبي يصوب إليهم هَذَا السهم النافذ، فيرى أنه الشاعر، وأنهم الأدعياء، ويرى أَنَّ قصائده هي الشعر، وأَنَّ جهود غيره لا تتجاوز أَنْ تكون دعوى لا طائل تحتها، فكما أَنَّ السيوف كثيرة، ولكن سيف الدولة واحد، هُوَ الأمير، فالناظمون كثيرون، ولكن الشَّاعِر واحد، هُوَ المتنبي.

ثم يمضي المتنبي فِي مدح الأمير، ولكنه يعود إلى هؤلاء الحساد والكائدين فيقول:

أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ الزمَانِ وَبَدْرَهُ   وَإِنْ لَامَنِي فِيكَ السُّهَا وَالْفَرَاقِدُ
وَذَاكَ لِأَنَّ الْفَضْلَ عِنْدَكَ بَاهِرٌ   وَلَيْسَ لأنَّ الْعَيْشَ عِنْدَكَ بَارِدُ
فَإِنَّ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَقْل صَالِحٌ   وَإِنَّ كَثِيرَ الْحُب بِالْجَهْلِ فَاسِدُ

فهو فِي البيتين الأولين من هذه الأبيات الثلاثة يعرض لسيف الدولة فِي لباقة وظرف، بأن أمراء غيرَه يلومونه فِي الانقطاع لصاحب حلب، ومنهم مرتفع القدر ومعتدله، ولكنه لا يحفل بلوم هؤلاء الأمراء، ولا يستجيب لإغرائهم، لا إيثارًا لما يمنحه الأمير من لين العيش وخفضه، بل إكبارًا لفضل الأمير ومجده وتفوقه على غيره من الأمراء.

أما البيت الثالث، ففيه إنذار لخصومه والساعين به عند الأمير، وإنذار للأمير نفسه؛ لأن هؤلاء الذين يظهرون الغلو في حب الأمير والتهالك عليه، قد يحتاجون إلى كثير من العقل؛ لأن غلوهم وتهالكهم ربما أساء إلى الأمير، على حين أَنَّ الاعتدال في الحب مع العقل والنصح، خير كله.

ومعنى هَذَا أَنَّ خصوم المتنبي لم يكتفوا بالجهر بعداوته، ولكنهم سعوا عند الأمير، وكأن الأمير قد أخذ يسمع لهم، أو كأنهم قد أَمَّلوا فِي الأمير أَنْ يميل إليهم، فالمتنبي يصارح خصومه بالعداوة، ويعرض للأمير بالنذير تعريضًا، ولسنا ندري ماذا حدث بعد ذلك ولكنا نرى الرواة يتحدثون بأن خصوم المتنبي قد اجترءوا على مجاهرة الأمير بالنعي عليه والطعن فيه، حَتَّى أنكر أبو فرَّاس أَنْ يعطيه الأمير ثلاثة آلاف دينار في كل عام أجرًا على ثلاث قصائد.

ويظهر أنَّ المتنبي قد أحس انصراف الأمير عنه وتقريبه لبعض خصومه، فأراد أنْ يجزي إعراضًا بإعراضٍ، وأبطأ فِي مدح الأمير، ثم أنكر الأمير منه هَذَا الإبطاء، فلم ينشط للمدح ونشط غيره للكيد، ثم أظهر الأمير غضبه فأعرض عن المتنبي ذات يوم بمحضر من الناس، وعاد المتنبي خجلًا كئيبًا قد أسقط فِي يده، وأراد أنْ يستدرك أمره فأرسل إلى الأمير هذه الأبيات:

أَرَى ذَلِكَ الْقُرْبَ صَارَ ازْوِرَارَا ... وَصَارَ طَوِيلُ السلَامِ اخْتِصَارَا
تَرَكْتَنِيَ الْيَوْمَ فِي خَجْلَةٍ ... أَمُوتُ مِرَارًا وَأَحْيَا مِرَارَا
أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِيًا ... وَأَزْجُرُ فِي الْخَيْلِ مُهْرِي سِرَارَا
وَأَعْلَمُ أَنِّي إِذَا مَا اعْتَذَرْتُ ... إِلَيْكَ أَرَادَ اعْتِذَارِي اعْتِذَارَا
كَفَرْتُ مَكَارِمَكَ الْبَاهِرَا ... تِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّي اخْتِيَارَا
وَلَكِنْ حَمَى الشِّعْرَ إِلَّا الْقَلِيـ ... ـلَ هَمٌّ حَمَى الْنَّوْمَ إِلَّا غِرَارَا
وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ... وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارَا
فَلَا تُلْزِمَنِّي ذُنُوبَ الزَّمَانِ ... إِلَيَّ أَسَاءَ وَإِيَّايَ ضَارَا
وَعِنْدِي لَكَ الشُّرَّدُ السَّائِرَا ... تُ لَا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ إِذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِي ... وَثَبْنَ الْجِبَالَ وَخُضْنَ الْبِحَارَا
وَلِي فِيكَ مَا لَمْ يَقُلْ قَائِلٌ ... وَمَا لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا

... إلخ إلخ.

فالشاعر كما ترى يسجل إعراض الأمير عنه وغضبه عليه، ثم يعترف بالذنب، ثم يعتذر منه، مؤكدًا أنه لم يتعمده، وإنما اضطرته إِلَيْهِ هموم حالت بينه وبين النوم، ولم يثر هُوَ هذه الهموم، ولم يَدْعُها إلى نفسه، وإنما صبها عليه الزمان، وهذه الهموم من غير شك لم يُثرها فِي نفس المتنبي إلا خصومه الذين سعوا به عند الأمير فأفسدوا عليه قلبه، وأفسدوا عليه القصر، ولعلهم أفسدوا عليه البيئة كلها فِي حلب.

ثم يتحدث المتنبي إلى الأمير بأنه لم يقل فيه كل ما يجب أنْ يقال، وبأن عنده له شعرًا جيدًا كثيرًا، ثم تثوب إلى الشَّاعِر عزته بعض الشيء، فيذكر الأمير بما قال فيه من شعر سار حيث لم يستطع القمر أنْ يسير، ثم يتم الأبيات مادحًا مستعطفًا، ولكن الأمير — فيما يظهر — لم يقبل منه ولم يعطف عليه، وأدار المتنبي أمره فلم يرَ إلا أنْ يفجأ خصومه ويلقاهم وجهًا لوجه، ويسترد قلب الأمير عنوة واقتدارًا، فيسعى

ذات يوم إلى القصر ويُنشد الأمير بمحضر من خصومه جميعًا، وعلى رأسهم أبو فراس، ميميته الرائعة الخالدة التي أولها:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

وكلام القدماء والمحدثين فِي هذه القصيدة أكثر وأغزر وأشد اختلافًا وتنوعًا من أنْ نقول فيها، فلن نأتي بجديد، ولكنَّا نلاحظ مسرعين أنَّ المتنبي قد وفق فيها لحظٍّ لا بأس به من الإجادة الفنية، سلك طريق ابن الرومي فألح فِي العتاب حَتَّى كاد يبلغ الهجاء، وأسرف فِي المدح ليصلح ما أفسد بالعتاب، فكان يجرح بيد ويأسو بأخرى، ولم يقصر الأمر على ما بينه وبين سيف الدولة، وإنما تجاوزه كما كان المقام يقتضي إلى السعاة والوشاة والحاسدين والكائدين، فصارحهم بالشر مرة، وعرض لهم بالنكر مرة أخرى.

ولست فِي حاجة إلى أنْ أروي أو ألخص القصة التي تحدث القدماء بها عن الإنشاد، وما كان من ثبات المتنبي لهذا كله وإعراضه عن هؤلاء الخصوم ومضيه فِي الإنشاد، وسيف الدولة يسمع معرضًا مطرقًا حَتَّى أتم قصيدته وانصرف.

وليس من شك فِي أنَّ هذه القصة قد ألفت تأليفًا فِي وقت متأخر، ولكنها على كل حال تعطي ظلًّا لما كان فِي مجلس سيف الدولة حين أنشدت هذه القصة.

والشيء الذي لا شك فيه أَيْضًا هُوَ أنَّ المتنبي إنْ وفق لإرضاء الفن فِي هذه القصيدة فقد أخطأه التوفيق لإرضاء سيف الدولة، ولعله غاظ سيف الدولة أكثر مما أرضاه، ولا سيما حين أنذر بأنه قد يرتحل إلى مصر فِي البيت الذي سار مسير الأمثال:

لَئِنْ تَرَكْنَ ضمَيْرًا عَنْ مَيَامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُم نَدَمُ

ومهما يكن من شيء فقد اضطرب المجلس لإنشاد هذه القصيدة، واشتد غضب الحاشية حَتَّى انتهى إلى أقصاه حين رأت موجدة الأمير على هَذَا الشَّاعِر الذي أراد العتاب فتحدى، ورغب فِي الاستعطاف فانتهى إلى الوعيد والنذير، وقد خرج المتنبي من هَذَا المجلس آمنًا كالخائف، وخائفًا كالآمن، وترك وراءه بغضًا وغيظًا وحنقًا، ويحدثنا الديوان بأن كاتبًا من كُتاب الأمير، عراقيًّا، استأذن الأمير فِي أن يسعى فِي ذم الشاعر، فرخَّص له الأمير فِي ذلك، وانتهى ذلك إلى المتنبي فقال يهجوه:

أَسَامَرِيُّ ضُحْكَةَ كُلِّ رَاءٍ فَطِنْتَ وَكُنْتَ أَغْبَى الْأَغْبِيَاءِ
صَغُرْتَ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتَ أُهْجَى كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الهِجَاءِ
وَمَا فَكَّرْتُ قَبْلَكَ فِي مُحَالٍ وَلَا جَرَّبْتُ سَيْفِي فِي هَبَاءِ

على أنَّ الأمر لم يكن — فيما يظهر — من اليسر بحيث ظن المتنبي، فقد تعرضت حياته للخطر حقًّا، وكيف لا تتعرض حياته للخطر وهو قد ملأ القلوب غيظًا وحفيظة، وعرَّض بالإشراف من حاشية الأمير، وعلى رأسهم أبو فراس ومكانه من الأمير مكانه! ثم لم يكتفِ بذلك، بل أنذر الأمير نفسه بالتحول عنه إلى عدوه من المصريين، وكانت أخت أبي فراس عند أبي العشائر الذي حمى المتنبي حين جاءه لاجئًا إِلَيْهِ عائذًا به، وقدمه إلى سيف الدولة ففتح له بابًا إلى الأمل ثم إلى النعيم.

ولم يكن المتنبي حسن الوفاء لأبي العشائر؛ فهو لم يكد يتصل بسيف الدولة حَتَّى أعرض عن غيره من الناس، ونسى أبا العشائر نسيانًا تامًّا، فلم يذكره ولم يُشر إليه، وكان الرجل خليقًا أنْ يلقى من صنيعته بعض الشكر على ما قدم إِلَيْهِ من إحسان، فكان هَذَا كله ميسرًا لشيء من الحلف الذي تم بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل المتنبي غيلة إذا لم يكن من اليسير قتله جهرة فِي غير ذنب واضح يبيح دم رجل من المسلمين.

وكذلك تعرض المتنبي ذات ليلة فِي ظاهر حلب لجماعة من الغلمان أرصدهم أبو العشائر ليقتلوه، ولكنه أحسن الدفاع عن نفسه ثم نجا، وكأنه لجأ إلى صديق له من ذوي المكانة فِي حلب فأجاره وأخفاه، وجعل يسعى له فِي العفو عند الأمير، وجعل المتنبي نفسه — وقد ثاب إِلَيْهِ رشده وسكت عنه الغضب — يُعِين مجيره على السعي له فِي العفو، فقال هذه الأبيات يعتب فيها على أبي العشائر ويصالحه:

وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إلى مَنْ أُحِبُّهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ
فَهَيَّجَ مِنْ شَوْقِي وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ
وَكُلُّ وِدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَذَى دَوَامَ وِدادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ
فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ
وَنَفْسي لَهُ نَفْسِي الْفِدَاء لِنَفْسِهِ وَلَكِنَّ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا يَكُ قَاتِلَا بِكَفيْهِ فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

وكأن سيف الدولة أظهر استعدادًا حسنًا للعفو عن الشَّاعِر إذا اعتذر من ذنبه وتاب جهرة من خطيئته، فلم يتردد المتنبي فِي أنْ يجهر بالاعتذار ويعلن التوبة، فقال هذه الأبيات:

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدوْلَةِ الْيَوْمَ عَاتِبَا ... فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السيُوفِ مَضَارِبَا
وَمَالِي إِذَا مَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَهُ ... تَنَائِفَ لَا أَشْتَاقُهَا وَسَبَاسِبَا
وَقَدْ كَانَ يُدْنِي مَجْلِسِي مِنْ سَمَائِهِ ... أحادِثُ فِيهَا بَدْرَهَا وَالْكَوَاكِبَا
حَنَانَيْكَ مَسْئُولًا وَلَبَّيْكَ دَاعِيًا ... وَحَسْبِيَ مَوْهُوبًا وَحَسْبُكَ وَاهِبَا
أَهَذَا جَزَاءُ الصدْقِ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا ... أَهَذَا جَزَاءُ الْكِذْبِ إِنْ كُنْتُ كَاذِبَا
وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُل ذَنْبٍ فَإِنهُ ... مَحَا الذنْبَ كُلَّ الْمَحْوِ مَنْ جَاءَ تَائِبَا

وقد عفا الأمير عن شاعره، فكف عنه خصومه، وآمنه على حياته، وأذن له فِي العودة إلى القصر، فلما عاد المتنبي للقاء الأمير أحسن أهل القصر استقباله، فخلعوا عليه وهيئوه للدخول على الأمير تهيئة حسنة، ثم أدخل على الأمير، فتلقاه لقاء فيه العطف والبر والمودة، وأعاد المتنبي اعتذاره، وأعلن الأمير عفوه، وخرج الشَّاعِر من القصر تتبعه الهدايا والصلات، ثم عاد بعد حين فأنشد الأمير لاميته التي أولها:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الداعِي سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْب وَالْإِبِلِ

ولا أقف عند هذه القصيدة، فهي لا تعجبني وإنْ أعجبت المعاصرين وأرضت سيف الدولة كل الرضا، إنما أروي هَذَا البيت السخيف السمج الذي تعمده المتنبي تعمدًا ليغيظ خصومه، ويُظهر براعته من جهة، وابتهاجه بعودته إلى أرض الأمير من جهة أخرى:

أَقِلْ آنِلْ أَقْطِع احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَش بَش تَفَضَّلْ أَدْنِ سُر صِلِ

وقد أعجب الناس بهذه القصيدة حين أنشدت، وطرب لها سيف الدولة، فأجزل عطاء الشَّاعِر لهذا الفوز حَتَّى كاد يخرج عن طوره، فقال المتنبي معجبًا تياهًا مسرفًا فِي تحدي خصومه:

إنَّ هَذَا الشِّعْرَ فِي الشِّعْرِ مَلَكْ ... سَارَ فَهْوَ الشمْسُ وَالدنْيَا فَلَكْ
عَدَلَ الرَّحْمَنُ فِيهِ بَيْنَنَا ... فَقَضَى بِاللفْظِ لِي وَالْحَمْد لَكْ
فَإِذَا مَرَّ بِأذنيْ حَاسِدٍ ... صَارَ مِمَّنْ كَانَ حَيًّا فَهَلَكْ

على أنَّ المتنبي قد غلا فِي الثقة، وأسرف فِي ازدراء الخصوم، وتجاوز الحد فِي حسن الظن بالأيام، فلم تَطردْ حياته حلوة آمنة عند سيف الدولة، وما هي إلا أشهر حَتَّى عاد الكيد له سيرته الأولى، وكثر الطعن فيه واللهج به، واضطر إلى أنْ يدافع عن نفسه، ويهاجم حساده فِي أكثر ما قال لسيف الدولة من القصائد.

ولسنا نروي كل ما قال من ذلك، ولكنا نروي منه نماذج، ففي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة يقول فِي اللامية التي أفضنا فِي ذكرها آنفًا:

أَنَا السابِقُ الْهَادِي إلى مَا أَقُولُهُ ... إذِ الْقَوْلُ قَبْلَ الْقَائِلِينَ مَقُولُ
وَمَا لِكَلَامِ الناسِ فِيمَا يُرِيبُنِي ... أُصُولٌ وَلَا لِلْقَائِلِيهِ أُصُولُ
أعَادَى عَلَى ما يُوجِبُ الْحُبَّ لِلْفَتَى ... وَأَهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِيَّ تَجُولُ
سِوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوِ فَإِنهُ ... إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلَا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ ... وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتنيلُ

وفي هذه السنة نفسها يقول فِي داليته المشهورة التي هنأ بها الأمير بعيد الأضحى:

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بكبتهمْ ... فَأَنْتَ الذِي صَيرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدَا
إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمُ ... ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغمَدَا
وَمَا أنَا إِلَّا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ ... فزَيَّنَ مَعْرُوضًا وَرَاعَ مُسَدَّدَا
وَمَاالدهْرُ إِلَّا مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي ... إِذَا قُلت شِعْرًا أَصْبَحَ النَّهرُ مُنْشِدَا
فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يَسِيرُ مُشَمِّرًا ... وَغنَّى بِهِ مَنْ لَا يُغَنِّي مُغَرِّدَا
أجِزْنَى إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا ... بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي   أَنَا الطَّائِرُ المَحْكِيُّ وَالْآخَرُ الصدَى
تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ   وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجَدَا
وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً   وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا
إِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَيَّامَهُ الْغِنَى   وَكُنْتَ عَلَى بُعْدٍ جَعَلْنَكَ مَوْعِدَا

فالمتنبي إذن ماض فِي استطالته على الشعراء واستعلائه على الخصوم، لا يصطنع فِي ذلك رفقًا ولا أناة ولا تواضعًا، وأعداؤه ماضون فِي الكيد له والوقيعة به، يصطنعون فِي ذلك من المهارة ما لا يصطنع، يُخفون الكيد حين يرون إقبال الأمير على شاعره، ويظهرونه حين يحسون من الأمير مللًا أو فتورًا.

فإذا أنشد المتنبي فِي أوائل سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة بعد انصراف السفراء لاميته المشهورة، قال فيها:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ   ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ
لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ   وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ
وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ   وَأغيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
وَمَا التِّيهُ طِبِّي فِيهِمُ غَيْرَ أَنَّنِي   بَغِيضٌ إِلَيَّ الْجَاهِلُ الْمُتَعَاقِلُ
وَأَكْبَرُ تِيهِي أَنَّنِي بِكَ وَاثِقٌ   وَأَكْثَرُ مَا لِي أَنَّنِي لَكَ آمِلُ
لَعَلَّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَرْمِ هَبَّةً   يَعِيشُ بِهَا حَقٌّ وَيَهلِكُ بَاطِلُ
رَمَيْتُ عِدَاهُ بِالْقَوَافِي وَفَضْلِهِ   وَهُنَّ الْغَوَازِي السالِمَاتُ الْقَوَاتِلُ

وواضح جدًّا أنَّ صدر المتنبي قد ضاق بخصومه كل الضيق، فهو يعلن ذلك ويضج به ويستعين على خصومه بالأمير، وفي هذه السنة نفسها يقول فِي ميميته المعروفة:

لَكَ الحَمْدُ فِي الدُّرِّ الذِي لِيَ لَفْظُهُ   فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وإِنِّي نَاظِمُ
وَإِنِّي لَتَعْدُو بِي عَطَايَاكَ فِي الْوَغَى   فَلَا أَنَا مَذْمُومٌ وَلَا أَنْتَ نَادِمُ
عَلَى كُلِّ طَيَّارٍ إِلَيْهَا بِرِجْلِهِ   إِذَا وَقَعَتْ فِي مِسْمَعَيْهِ الْغَمَاغِمُ

وقد مضى شأن المتنبي مع خصومه على هَذَا النحو فِي خطوب لا نعرف حقائقها، ولكنا نلمحها من هَذَا الشعر وأمثاله، حَتَّى كانت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، وأنشد المتنبي سيف الدولة آخر ما أنشده من الشعر، وهي الميمية التي يقول فِي آخرها:

لَاتَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَتِهِ   إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا
وَلَا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ   قَدْ أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

فكأن هَذَا البيت الأخير كان مؤذنًا بانقطاع الصلة بين الشَّاعِر وأميره، وقد ظهر خصوم المتنبي عليه فصرفوا عنه سيف الدولة، وتبين ذلك الشَّاعِر واضحًا جليًّا حين كانت الخصومة بينه وبين ابن خالويه فِي مجلس الأمير، فيخرج ابن خالويه مفتاحًا من كمه فيشج به الشَّاعِر حَتَّى يسيل دمه فيخضب وجهه، والأمير يرى فلا يقول ولا يصنع شيئًا، ويخرج المتنبي محزونًا منكسر النفس يكظم غيظًا عنيفًا ولا يستطيع أن يبين عنه مخافة أنْ تتكرر القصة التي مضت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، ويرى الشَّاعِر نفسه محصورًا فِي حلب أو معرضًا فيها للموت، فهو يعود إلى داره، وقد استيأس من الأمير وأزمع الرحيل عنه، ولكنه يتلطف فِي ذلك، فيمضي أيامًا فِي هدوء ودعة وإعداد لأمره سرًّا، ثم يستأذن فِي الذهاب إلى إقطاع له عند معرة النعمان، فيأذن له الأمير، وقد علم ما دُبر له وأراد أنْ يُخلي بينه وبين الطريق، أو جهل ما دُبر له وأراد أنْ يُريحه منه ويستريح حينًا، وهو ما أرجحه.

ويمضي المتنبي إلى إقطاعه فِي ظاهر الأمر، وقد أرسل إلى الأمير هذه الأبيات مبالغة فِي التلطف والحيلة:

أَيَا رَامِيًا يُصْمِي فُؤَادَ مَرَامِهِ   تُرَبِّي عِدَاهُ رِيشَهَا لِسِهَامِهِ
أَسِيرُ إلى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ   عَلَى طِرْفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ
وَمَا مَطَرَتْنِيهِ مِنَ الْبِيضِ وَالْقَنَا   وَرُومِ العِبِدى هَاطِلاتُ غمامِهِ
فَتًى يَهَبُ الْإِقْلِيمَ بِالْمَالِ وَالْقُرَى   وَمَنْ فِيهِ مِنْ فُرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ
وَيَجْعَلُ مَا خوِّلْتُهُ مِنْ نَوَالِهِ   جَزَاءً لِمَا خُوِّلْتُهُ مِنْ كَلَامِهِ
فَلَا زَالَت الشمْسُ الَّتِي فِي سَمَائِهِ   مُطَالِعَةَ الشمْسِ الَّتِي فِي لِثَامِهِ

وَلَا زَالَ تَجْتَازُ البُدُورُ بِوَجْهِهِ فَتَعْجَبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ

وينتهي المتنبي إلى إقطاعه، فلا يقيم فيه إلا ريثما يأمن من الطلب فِي أكبر الظن، ثم ينسلُّ منه ويمضي أمامه حَتَّى يخرج من حدود الحمدانيين، ويدخل أرض الإخشيديين، ويطمئن به المقام حينًا فِي دمشق، وإذا هُوَ قد ختم فصلًا آخر من فصول حياته، كان فيه النعيم كله، وكان فيه شيء غير قليل من البؤس والشقاء، وكان فيه مجده الفنيُّ حقًّا.

ومن الخطل أنْ نطيل القول أو أنْ نضيع الوقت فِي البحث عن هذه المسألة التي أثارها النقاد ومؤرخو الأدب: أيهما خلد ذكر صاحبه: سيف الدولة أم المتنبي؟ فلم يكن المتنبي مجهولًا ولا مغمورًا حين اتصل بسيف الدولة، ولم يكن سيف الدولة خاملًا ولا ضعيف الشأن حين عرف المتنبي، وإنما كانا كلا الرجلين قد فرض نفسه على معاصريه، ذلك بشعره، وهذا بسيفه، فكان لكل منهما أثر خالد فِي مجد صاحبه، وإنما أمْر المتنبي مع سيف الدولة كما قال عمرو بن معدى كرب:

وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرمَاح أَجَرَّتِ

غير أنَّ رماح سيف الدولة لم تجرَّ، وإنما أنطقت الشَّاعِر فنطق برائع الشعر وبارعه، وكسا أميره منه حللًا لا تفنى.

على أنَّ المهم هُوَ أنَّ هذين الصديقين اللذين فرَّق بينهما الكيد والحسد لم يتح لهما بعد الفراق سلو ولا عزاء، فقد كانت فِي نفس المتنبي حسرة لفراق سيف الدولة، سنرى بعض مظاهرها فِي شعره حين لجأ إلى كافور، وكانت فِي نفس سيف الدولة حسرة لفراق المتنبي، تظهر من اتصال الحديث فِي مجلسه عن الشاعر، ثم تظهر هذه الحسرة المشتركة من استئناف المودة بين الأمير وشاعره، بعد أنْ أخفق المتنبي فِي مصر وعاد إلى العراق، فهذا الأمير يستأنف البر به ويرسل إِلَيْهِ الهدايا، والشاعر يمدحه باللامية التي أولها:

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يَا رَسُولُ أَنَا أَهْوَى وَقَلبُكَ المتبُولُ

ثم تموت أخت الأمير، فيرثيها الشَّاعِر بالبائية التي أولها:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ   كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

ثم يشتد شوق الأمير إلى الشاعر، فيكتب إِلَيْهِ بخطه يستقدمه، ويهمّ المتنبي بالسفر إليه، ويُنفذ إِلَيْهِ بائيته التي أولها:

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أَبَرَّ الْكُتُبْ   فَسَمْعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبْ

ولكنه يقول فيها:

وَلَوْ عَاقَنِي غَيْرُ خَوْفِ الْوُشَاةِ   وَإِنَّ الْوِشَايَاتِ طُرْقُ الْكَذِبْ
وَتَكْثِيرِ قَوْمٍ وَتَقْلِيلِهِمْ   وَتَقْرِيبِهِمْ بَيْنَنَا وَالْخَبَبْ
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُم سَمْعُهُ   وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبْ
وَمَا قُلْتُ لِلْبَدْرِ أَنْتَ اللُّجَيْنُ   وَمَا قُلْتُ لِلشمْسِ أَنْتِ الذهَبْ
فَيَقْلَقَ مِنْهُ الْبَعِيدُ الْأَنَاةِ   وَيَغْضَبَ مِنْهُ الْبَطِيءُ الْغَضَبْ
وَمَا لَاقَنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ   وَلَا اعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمَايَ رَبْ
وَمَنْ رَكِبَ الثوْرَ بَعْدَ الْجَوَا   دِ أَنْكَرَ أَظْلَافَهُ وَالْغَبَبْ
وَمَا قِسْتُ كُلَّ مُلُوكِ الْبِلَادِ   فَدَعْ ذِكْرَ بَعْضٍ بِمَنْ فِي حَلَبْ
وَلَوْ كُنْتُ سَمَّيْتُهُمْ بِاسْمِهِ   لَكَانَ الْحَدِيدَ وَكَانُوا الْخَشَبْ
أَفِي الرَّأْيِ يُشْبَهُ أَمْ فِي السَّخَا   ءِ أَمْ فِي الشَّجَاعَةِ أَمْ فِي الْأَدَبْ

فالمتنبي إذن يهمُّ ولا يفعل، ويعزم ولا يُقدم، يدفعه إلى الأمير الحب والوفاء والطمع والرجاء، ويرده عنه خوف الوشاة والإشفاق من استئناف حياة يملؤها الحسد والكيد، وهو آخر الأمر لا يعود إلى الأمير، وإنما يرجئ ذلك إلى أن يشفي حاجة فِي نفسه، فيشفي هذه الحاجة، ثم يعترضه الموت قبل أنْ نعرف ما كان قد عزم عليه من الرجوع إلى الأمير أو الاستقرار فِي العراق.

والغريب أنَّ افتراق هذين الصديقين كان شرًّا عليهما جميعًا، فلم يوفق المتنبي فِي حياته العملية لرضا نفسه بعد فراق سيف الدولة، ولم يوفق سيف الدولة فِي حياته السياسية بعد فراق المتنبي.

ألح الإخفاق على الشاعر، كما ألحت العلة والإخفاق على الأمير، فلندع سيرة الأمير للتاريخ والمؤرخين، ولنمض مع الشَّاعِر فِي هذه المرحلة الجديدة من مراحل حياته.

الكتاب الرابع

في ظل كافور

(١) في طريق مصر

وهناك مسألة خليقة بالتفكير، وقد يكون ﻓِﻲ حلها ما يعين على فهم حال المتنبي ﻓِﻲ مصر، فلماذا لجأ المتنبي إلى بلاد الإخشيديين حين فارق سيف الدولة، ولم يلجأ إلى العراق؟ وظاهر أنَّ هناك جوابًا يسيرًا على هذه المسألة، ولكنه جواب لا يقنع ولا يمكن الاطمئنان إليه، فقد يقال: إنَّ المتنبي لم يذهب إلى العراق لسبب جغرافي ليس غير، فهو لم يكن يستطيع أن يقصد إلى العراق من الطريق التي سلكها حين أقبل إلى الشام ﻓِﻲ صباه؛ أي من طريق الجزيرة؛ لأن هذه الطريق كانت كلها إلى سيف الدولة وإلى أوليائه، فلم يكن له بد من أنْ يتخذ إلى العراق طريقًا أخرى يمر فيها من غير شك ببلاد الإخشيديين، وكذلك انتهى إلى دمشق، فلم يستطع عنها زوالًا إلى طريق العراق، بل زال عنها إلى طريق الفسطاط، وهذا الجواب كما ترى مقنع ﻓِﻲ ظاهره، ولكني أعتقد أنَّ المتنبي لو كان قد صمم على الذهاب إلى العراق لما عدم الوسيلة إلى ذلك والحيلة فيه، ولوجد من الأصدقاء ﻓِﻲ مملكة الحمدانيين وفي مملكة الإخشيديين أنفسهم من يعينه على ذلك، ويهيئ له الوسيلة إليه.

ولكن المتنبي لم يفكر ﻓِﻲ الذهاب إلى العراق، أو فكر فيه وأعرض عنه، بل أنا أرجح أنه قد أدار الحديث ﻓِﻲ ذلك مع جماعة من أصحابه وأوليائه، فنصح له هؤلاء بالعراق، وأبى عليهم هو، فتحولوا هم إلى العراق، ومضى هُوَ إلى مصر مخالفًا، ثم ندم على خلافهم، أو أظهر ما يدل على هَذَا الندم، حين قال لكافور بعد ذلك بأعوام، سنة تسع وأربعين وثلاثمائة:

وَمَا شِئْتُ إلا أَنْ أَدُلَّ عَوَاذِلي عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأَعْلِم قَوْمًا خَالَفُونِي فَشَرَّقُوا وَغَرَّبْتُ أَني قَدْ ظَفرت وَخَابُوا

فظاهر من هَذَا الكلام أنَّ قومًا من أصدقاء المتنبي وتلاميذه ضاقوا بحلب كما ضاق هُوَ بها، وهمُّوا أنْ يزولوا عن ملك سيف الدولة كما همَّ هُوَ أنْ يزول عنه، فأجمعوا أمرهم بينهم على الرحيل، ولكنهم أداروا رأيهم فِي البلد الذي يقصدون إليه، فأما أصحابه فآثروا بغداد، وأما هُوَ فآثر الفسطاط.

وقد يكون من المفيد أنْ نعرف الأسباب التي حملت المتنبي على إيثار الغرب، وحملت أصحابه على إيثار الشرق.

فأصحاب المتنبي، وهم فِي أغلب الظن من العلماء وطلاب العلم، فلم يكن لهم من السابقة ما يصرفهم عن بغداد أو يزهدهم فيها أو يخوفهم منها؛ لأنهم لم يذموا أهلها ولم يسيئوا إلى القائمين بالأمر فيها بقول أو فعل، ثم هم فِي أغلب الظن عراقيون قليلًا أو كثيرًا، وفدوا على حلب يطلبون فيها ما يطلبه الرجل المثقف الأديب فِي بلد ناهض يكثر فيه العلم والمجد والمال، ثم أزعجوا عنها، إما لأنهم قضوا منها وطرًا، وإما لأن صروف الحياة لم تتح لهم البقاء فيها، فآثروا أنْ يعودوا إلى أوطانهم على أنْ يتغربوا فِي غير طائل، وبغداد بعد مستقر الخلافة، ودار العلم والحكمة، وملتقى العلماء والأدباء من جميع الأقطار الإسلامية، فلهم فِي العودة إِلَيْهَا نفع محقق، وليس عليهم منها بأس.

أما المتنبي فقد كان أمره مختلفًا أشد الاختلاف، كان العراق وطنه من غير شك، ولكنه ولد فِي ذلك الوطن شقيًّا، ونشأ فيه بائسًا، وزال عنه كارهًا له زاهدًا فيه، وعاد إِلَيْهِ فِي شبابه فلم يطب له فيه مقام، فزال عنه فِي المرة الثانية كما زال عنه فِي المرة الأولى، كارهًا له زاهدًا فيه، والمتنبي لم يتح للنسيان أن يُلقي بينه وبين العراق وأهله أستارًا صفاقًا أو رقاقًا، وإنما جعل يذكر العراق بنفسه، ويعلن إلى العراق عداواته، ويسرف فِي إعلان هذه العداوة فِي جميع الأوقات، ولا سيما أثناء اتصاله بسيف الدولة، فقد أسرف فِي ذلك كما رأيت إسرافًا شديدًا، فهاجم معز الدولة، وهاجم الخليفة نفسه، وآثر على ملكهما ملك هَذَا الأمير التغلبي، ولم يصطنع فِي ذلك حيطة ولا تحفظًا، ولعله لم يكن يتمنى فيما بينه وبين نفسه شيئًا كما كان يتمنى العودة إلى العراق، ولكنه كان يعلم حق العلم أنَّ سبيله إلى العراق غير ميسرة، وأنَّ مقامه فِي العراق لن يكون حميد العاقبة، فغرب هُوَ وشرق أصحابه، وبِوِدِّه لو يُشَرِّقَ كما شرقوا.

وأنا أعلم أنَّ المتنبي لم يهج أولي الأمر ﻓِﻲ بغداد وحدهم أثناء مدحه لسيف الدولة، بل هجا معهم أولي الأمر ﻓِﻲ مصر، وكان خليقًا أنْ يخاف مصر كما خاف العراق، ولكن من المحقق أنَّ ما قاله ﻓِﻲ المصريين عند سيف الدولة لم يكن شيئًا بالقياس إلى ما قاله ﻓِﻲ البغداديين، فهو لم يُعرِّض بكافور ولا بالإخشيد وابنه تعريضًا واضحًا جليًّا، فلما صرَّح بالنعي عليهم لم يزد على أنَّ زعم أنهم لم يتركوا الشام لسيف الدولة حبًّا ولا كرامةً، وإنما نفاهم عنها سيف الدولة نفيًا، فهو إذن قد زعم أنهم انهزموا له ﻓِﻲ الحرب، وليس ﻫَﺬَا شيئًا يشين، كما يشين ما كان يذكر به العراقيين من الجبن والخور، ومن القصور والتقصير، ومن العكوف على اللهو والمضي ﻓِﻲ إرضاء الشهوات والاغترار بمظاهر الملك وترك حقائقه لسيف الدولة الذي كان لا يُعنى إلا بجد الأمر، ولا ينفق حياته إلا ﻓِﻲ جهاد الروم، إلى غير ذلك مما قاله ﻓِﻲ التعريض والتصريح بأهل بغداد.

فقد كان فساد الأمر إذن بينه وبين العراق خطيرًا، وكان إصلاح الأمر بينه وبين مصر ميسورًا سهلًا، فإذا لاحظت أنه حين غاضب سيف الدولة وحاشيته سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة لم ينذرهم بأنه قد يذهب إلى العراق، بل أنذرهم بأنه قد يترك ضميرًا عن يمينه ليمضي إلى ملك الإخشيديين، عرفت أنَّ المتنبي نفسه كان يشعر بأن ملك الإخشيديين سيكون أرحب له صدرًا من ملك الخلفاء العباسيين وأميرهم الديلمي، وللمتنبي بعد ﻫَﺬَا كله عند الإخشيديين أصدقاء ليس له مثلهم ﻓِﻲ العراق، فهو قد مدح جماعة من حكامهم وقادتهم قبل أنْ يتصل بسيف الدولة — كما علمت — وهو قد اتصل اتصالًا وثيقًا بأمير من أمرائهم ﻓِﻲ الرملة، وهو خليق أنْ يجد من هؤلاء أو من بعضهم حماية ورعاية وعونًا على أنْ يتصل بالملك المصري الشاب، أو بوصيه ووليه كافور.

وإذن فأنا لا أفهم إيثار المتنبي لمصر على العراق فحسب، بل أريد أنْ أزعم أنَّ المتنبي لم يفارق حلب، ولم يترك سيف الدولة إلا بعد أنْ استوثق لنفسه عند الإخشيديين، وأكبر ظني أنَّ الرسل قد سعوا سرًّا بين المتنبي والإخشيديين ﻓِﻲ آخر أوقاته بحلب، وأنَّ هؤلاء الرسل لم يضمنوا له الجوار والأمن عند الإخشيديين فحسب، وإنما جاءوه أَيْضًا بالوعود المطمعة والآمال المغرية، فلم يتحول عن شمال الشام إلى جنوبها إلا وهو يعلم ما يريد، ويقدر أنَّ حاله عند الإخشيديين ستكون خيرًا من حاله عند الحمدانيين، وأنه سيظفر ﻓِﻲ ملك مصر بما لم يظفر به ﻓِﻲ ملك شمال الشام.

وأنا من أجل ﻫَﺬَا كله لا أطمئن إلى الأخبار التي يُحدِّثنا بها الرواة عن إقامة المتنبي بدمشق والرملة، وإنما أقرؤها ﻓِﻲ تحفظ شديد، وأفهمها على وجه مخالف كل المخالفة

لما فهمها عليه القدماء، فقد زعم القدماء أنَّ الشَّاعِر وصل إلى دمشق محزونًا، وأنَّ عامل الإخشيديين عليها، وهو رجل يهودي يعرف بابن مالك، تلقاه لقاءًا حسنًا، ولكنه طمع فِي أنْ يمدحه المتنبي، فلما لم يظفر منه بما أراد كاد له عند كافور، ويقول القدماء: إنَّ المتنبي تردد كثيرًا فِي الذهاب إلى مصر، ثم يقولون — ويوافقهم بلاشير على ما قالوا — إنه ذهب إلى الرملة لاجئًا إلى صديقه الإخشيدي القديم الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان يريد أنْ يلزمه، لولا أنَّ كافورًا كتب يستقدمه وألح فِي ذلك، فسار الشَّاعِر إلى الفسطاط كارهًا.

ولا أستبعد أنْ يكون المتنبي نفسه هُوَ الذي قد تحدث بهذا كله، بعد أنْ عاد من مصر إلى العراق خائب الأمل، محزون النفس، يائسًا من كل ما كان ينتظر من كافور، فأما الذي أرجحه أنا فهو أنَّ المتنبي قد أصلح أمره مع المصريين، وترك حلب، على أنْ يكون شاعرًا رسميًّا لكافور، ليغيظ سيف الدولة وأصحابه، وليعرِّفهم أنه إنْ لم يجد عندهم الأمن والرضا، فسيجد عند عدوهم أكثر من الأمن والرضا، سيجد عند عدوهم الحكم والسلطان، وقد عرفنا أنَّ المتنبي كان إذا اتصل بأمير انقطع له حقًّا، ولم يمدح أحدًا من أصحابه والمقربين إليه، فهذا يبين لنا السبب فِي أنه حين بلغ دمشق لم يمدح عامل الإخشيديين عليها، فإذا ذكرت ما افترضناه فِي أول هَذَا الكتاب من جواز أنْ تكون هناك صلة بين هَذَا اليهودي الذي كان على دمشق، وذلك اليهودي الذي سعى به عند عامل حمص فِي شبابه حَتَّى دفعه إلى السجن، لم تستغرب إعراض المتنبي عن مدحه لهذا اليهودي الذي أحسن استقباله وأكرم مثواه.

وليس غريبًا أنْ يكون هَذَا اليهودي قد طمع فِي مدح المتنبي وضاق بما أصابه من الإخفاق، كما جرى ذلك نفسه لإسحاق بن كغلغ حين أراد الشَّاعِر على أنْ يمدحه لما مر بطرابلس فِي طريقه إلى أنطاكية، ومما يرجح هَذَا أنَّ المتنبي ترك دمشق دون أنْ يستطيع اليهودي أنْ يمسكه فيها، أو يرده عن الوجه الذي كان يقصد إليه، فلما وصل الشَّاعِر إلى الرملة، تلقاه الإخشيدي أحسن لقاء، ووصله وأهدى إليه، وكان المتنبي خليقًا أنْ يمدحه رعايةً لما كان بينهما من عهد قديم، ووفاء بحق هذه الهدايا والصلات، ولكن المتنبي لم يصنع من ذلك شيئًا؛ لأنه دخل ملك الإخشيديين على أنْ يكون شاعر كافور لا شاعر غيره من الحكام والأمراء.

ومن أجل هَذَا نفهم إعراض المتنبي، بعد أنْ وصل إلى مصر، عن مدح من كان فيها من السادة والقادة، ومن الأمراء والوزراء، ووقف شعره كله أول الأمر على كافور

حَتَّى استيأس منه، لم يمدح إلا فاتكًا، ولم يمدحه إلا بقصيدة واحدة، ولم ينشئ هذه القصيدة إلا بعد أنْ أذن له بذلك كافور.

إذن فكل هذه القصة التي صيغت حول حيرة المتنبي واضطرابه وتردده وسوء حاله فِي دمشق ثم فِي الرملة، ليست شيئًا، وإنما هي حديث لعل المتنبي نفسه هُوَ الذي تعزى به عما لقِيَ فِي مصر من خيبة وإخفاق.

(٢) في الفسطاط

وقد انتهى المتنبي إلى مصر سنة ست وأربعين وثلاثمائة بعد أنْ فارق سيف الدولة بأشهر، ولعل من الحق أنْ نلاحظ أنه فارق شخص سيف الدولة ولم يفارق ذكره، بل لم يستطع أنْ يفارق ذكره إلى أنْ مات.

ولم يكن من اليسير أنْ تمحى صورة سيف الدولة من نفس المتنبي كما محيت منها صور الأمراء والسادة الذين اتصل بهم قبله، فقد لقي المتنبي عند سيف الدولة خير ما لقي فِي حياته كلها، لا من جهة الثروة والغنى وخفض العيش ولين الحياة، فقد كان ذلك شيئًا يسيرًا، يستطيع كافور أنْ يدره على المتنبي وأنْ يدر على المتنبي أكثر منه؛ لأن ملك كافور كان أوسع وأثرى من ملك الحمداني؛ بل لأن سيف الدولة وحياة المتنبي معه كانتا مخالفتين من جميع الوجوه لحياة كافور ولحياة المتنبي مع كافور، وكانت حياة سيف الدولة حياة بطولة كلها، تملؤها الحرب فِي أكثر أوقاتها، ويتحدث بها الناس فِي جميع الأقطار الإسلامية وفي كثير من الأقطار البيزنطية أيضًا، وكان المتنبي يشارك سيف الدولة فِي هذه الحياة وفيما كان يملؤها من بطولة، كان يشاركه فِي ذلك مشاركة عملية، فكان يغزو الروم معه إذا غزاهم، وكان يستمتع بالنصر إذا أتيح النصر للأمير، ويشقى بالهزيمة إذا كتبت عليه الهزيمة، وكان كذلك يشارك الأمير فِي جهاده للثائرين به والخارجين عليه من أهل البادية، فكان يبلو ألوان الحرب المنظمة وغير المنظمة، وكان يحس لذاتها وآلامها المادية والمعنوية، وكان بعد هَذَا كله يتغنى هذه الحرب، ويعلن مجدها الضخم إلى المسلمين وغير المسلمين، كان اللسان الرسمي لهذا الجهاد العظيم، وكان فِي الوقت نفسه اللسان الصادق لما يثور فِي قلبه هُوَ من عاطفة أو هوى أو شعور.

كانت حياته عند سيف الدولة إذن مملوءة بالنشاط الخصب الذي شغله عن نفسه وشغله بها فِي وقت واحد، فقد كان المتنبي فِي حاجة إلى أنْ يُشغل عن نفسه وإلى أنْ

يشغل بها، كان أبغض شيء إِلَيْهِ وأثقل شيء عليه وأقتل شيء له أنْ تضطره البطالة والخمود إلى أنْ يفرغ لنفسه فينظر فيها وينظر إِلَيْهَا فِي كل وقت، ولم يكن له بد من الحركة العنيفة المتصلة، ومن النشاط القوي المستمر، وحاجته هذه إلى الحركة والنشاط هي التي دفعته إلى ثورة الشباب، وضيقه بالبطالة والخمود هُوَ الذي بغض إِلَيْهِ الحياة والأحياء فِي أيام محنته.

ثم كان المتنبي فِي حاجة شديدة إلى أنْ يعود إلى نفسه بين حين وحين، فينظر إِلَيْهَا وينظر فيها، فتسره ولا تسوءه، يسألها عما عملت فتجيبه بما يحمد ويرضى، فإذا شُغل عن نفسه ثم عاد إِلَيْهَا ألهمته، وإذا هُوَ شاعر فحل يتغنى نشاطه ونشاط الناس، ويُشيد بمجده ومجد الناس، وينشد هَذَا الشعر الذي لا يلبث أنْ يشيع ويذيع ويملأ الآفاق والأقطار.

أما حياة كافور حين اتصل به المتنبي، بل قبل أنْ يتصل به المتنبي، فقد كانت حياة أمن وسلم، ودعة وهدوء، ليست حدوده مجاورة لحدود الروم، فيتكلف مثل ما كان سيف الدولة يتكلف من الهجوم والدفاع، ولا هي مجاورة لحدود العراق، فيخاف مثل ما كان سيف الدولة يخاف من الدس والكيد، ومن الحق أنَّ الفاطميين كانوا يثيرون فِي نفسه شيئًا من القلق، ولكنه كان قلقًا يسيرًا لا يؤرق الليل ولا ينغص النهار، والبلاد التي كان يحكمها كافور بلاد متحضرة منظمة، قد ألف أهلها الحضارة والنظام المدني منذ عهد بعيد جدًّا، وقد انكسرت شوكة الذين ارتحلوا إِلَيْهَا واستقروا فيها من البدو منذ عهد بعيد، فهي قليلة الحظ من الثورة والاضطراب، قد فرغت لنفسها وظفرت باستقلالها، وفرغ الناس أو كادوا يفرغون من الطمع فيها والطموح إليها، إلا ما كان من الفاطميين الذين كان أمرهم لا يزال بعيدًا — كما قلنا — من أنْ يثير القلق والخوف.

وقد تجاوز سلطان هذه البلاد حدودها الطبيعية، فهي متسلطة على فلسطين كلها، وقسم لا بأس به من الشام، وعلى أقطار واسعة وراء البحر الأحمر، وحدودها بعيدة آمنة من جهة الجنوب، وإذن ففي وسعها أنْ تنعم بالأمن والدعة، وتفرغ لاستثمار أرضها الخصبة، ولا سيما إذا ضُبط فيها الأمر، وحسنت فيها الإدارة، ولم يكثر فيها الجور، ولم يشع بين أهلها الفساد.

ويظهر أنَّ أمور مصر كانت صالحة مطمئنة حقًّا فِي ذلك الوقت، فكان أولياء الأمر فيها هادئين مطمئنين، يدبرون الملك أحسن تدبير، وينعمون بثمراته فِي غير خوف

ولا قلق، فأين هذه الحياة الهادئة الوادعة المطمئنة من تلك الحياة القلقة المضطربة الخائفة؟ وأين سكون كافور من قلق سيف الدولة؟ وإذن فلن تكون حياة المتنبي عند كافور مملوءة بالحركة والنشاط، كما كانت ﻓِﻲ شمال الشام، وإذن فلن يُشغل المتنبي عن نفسه، ولكنه سيشغل بها دائمًا، وإذن فهو يفقد عند كافور أحد المؤثرين الأساسيين ﻓِﻲ شاعريته، ﻫُﻮَ يفقد نصف نفسه، إنْ صح ﻫَﺬَا التعبير، وإذن فهو مضطر إلى أنْ يفكر ﻓِﻲ نفسه دائمًا، وإلى أنْ ينظر فلا يرى غيرها، وهو يستحضر ماضيه فيرى آمالًا خابت، وأحلامًا ذهبت، ونعيمًا زال، وحشرات لا تزال لاذعة، ثم يحاول أنْ يفكر ﻓِﻲ مستقبله فلا يرى أو لا يكاد يرى شعاعًا من أمل ولا بصيصًا من رجاء.

ماض كله خيبة وإخفاق ﺣَﺘﱠﻰ ﻓِﻲ أحسن أوقاته، ومستقبل مظلم، وحاضر قلق لا ترضى به النفس ولا تطمئن إليه، فلا غرابة ﻓِﻲ أنْ تسوء حياة الشاعر، ولا غرابة ﻓِﻲ أنْ يسبغ الحزن واليأس على شعره رداء قاتمًا لا يكاد يظهر فيه الإشراق والابتهاج.

(٣) قضية المتنبي وكافور

وقضية المتنبي مع كافور يسيرة جدًّا بالقياس إلينا، وإنْ ظهرت للشاعر ولمعاصريه عسيرة معقدة، فهي تنحل ﻓِﻲ حقيقة الأمر إلى أنَّ المتنبي أحس القلق والضيق عند سيف الدولة، فعرَّض بالتحول عنه إلى مصر، وطمع المصريون ﻓِﻲ تحويله إليهم ليضعفوا خصمهم، وليستأثروا من دونه بسلاح من أمضى أسلحته، وهو سلاح الدعوة والإذاعة، فأغروا ﺍﻟﺸﱠﺎﻋِﺮ وأطمعوه، ولم يفهم ﺍﻟﺸﱠﺎﻋِﺮ ﻫَﺬَا الإطماع وذلك الإغراء على وجههما، وإنما خدعه الغرور، فظن أنَّ القوم يصدقونه ولا يكذبونه، وأنهم يريدون به الخير، ولا يريدون أنْ ينتزعوه من يد مولاه الحمداني، فاستجاب لهم، وأسرع إليهم، وانتظر تحقيق الوعد، وتصديق الرجاء، فلم يجد إلا سرابًا لا يروى من ظمأ ولا يشفى من أوام.

أيهما المخطئ ﻓِﻲ هذه القضية، أهو كافور الذي سار سيرة السياسي اللبق فاجتهد لنفسه، واحتاط لملكه، وخذل عن عدوه، واصطنع ﻓِﻲ ذلك ما يصطنعه الساسة المكرة من وعود لا تفرض على أصحابها الوفاء، وأقوال لا تأخذ أصحابها بالصدق؟ أم ﻫُﻮَ المتنبي الذي أسرف ﻓِﻲ الاعتداد بنفسه، وغلا ﻓِﻲ حسن الظن بها وبالناس، فلم يتدبر أمره ولم يَحتطْ لنفسه، وإنما اندفع ﻓِﻲ غير رَوِيَّة ولا أناة؟ إنَّ الذين يقرءون شعر المتنبي، وهذه الحكم البالغة، والأمثال السائرة التي يرسلها إرسالًا ويكيلها كيلًا، يُخدعون عن الشاعر، فيظنون به الفطنة والحكمة والذكاء، ولكن الذين يتدبرون سيرته، ويقرءون

فخره ومدحه وهجاءه، يعرفون طبيعة الشَّاعِر ويردُّونه إلى مكانه الحقيقي من خصال الرجل الذكي اللبق، فقد كان المتنبي مغرورًا من غير شك، وكان مسرفًا فِي الغرور، وكان مكبرًا لنفسه كل الإكبار، ولكن الشر كل الشر أنه كان يظن من حين إلى حين أنَّ الناس يرون فيه ما كان يرى فِي نفسه، ويكبرونه كما كان يكبر نفسه، ويعتدون به كما كان يعتد بنفسه، وإلا فكيف نفهم أنْ ينفق المتنبي تسعة أعوام يمدح فيها الأمير الحمداني ويعيب فيها خصومه من أهل مصر والعراق، ثم يظن بعد ذلك أنَّ المصريين يَعدونه صادقين، ويبذلون له الآمال والأماني وهم يأخذون أنفسهم بالوفاء والاطمئنان إليه؟ مهما يكن من شيء فقد انخدع لكافور، وأقبل مستسلمًا له، متهالكًا عليه، واثقًا به، يظن أنه سيجد عنده من الرفعة ونباهة الشأن ما يغيظ به سيف الدولة الذي لم يعرف قدره، ولم يرع حقه، ولم يعص فيه الوشاة والكائدين.

وأنت تعلم أنَّ المتنبي نشأ طامعًا فِي الحكم، طامحًا إليه، مجاهدًا فِي سبيله، وأنه احتمل فِي ذلك ألوانًا من الأذى، وذاق فيه فنونًا من العذاب، فهذه الوعود تخيل إِلَيْهِ أنَّ الحكم منه قريب، وأنَّ السلطان يسعى إِلَيْهِ سعيًا ويخطو إِلَيْهِ خطوات واسعة، فما له هُوَ لا يسعى إلى السلطان الذي يسعى إليه، ولا يخطو إلى هَذَا السلطان خطوات واسعة كالتي يخطوها إليه، لقد وعده المصريون بأنه سيتولى الحكم فِي ولاية من الولايات أو إقليم من الأقاليم، هُوَ إذن سيرتفع عن هذه المكانة التي كان يحرص عليها عند سيف الدولة، لن يكون شاعرًا مأجورًا عند كافور كما كان شاعرًا مأجورًا عند سيف الدولة، بل سيكون واليًا من الولاة وأميرًا من الأمراء، سيجمع بين إمارة الشعر وإمارة الحكم، ستشهد له الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم، فما له لا يسرع إلى هذه الأمنية التي تريد أنْ تتحقق بعد أنْ استيأس منها وتعزى عنها!

نعم! إنه كان فِي صباه وشبابه لا يطلب الحكم والسلطان لنفسهما، ولا يراهما غاية لما كان يلقى من مشقة ويحتمل من عناء، وإنما كان يراهما وسيلة إلى إصلاح النظام السياسي والاجتماعي، ورد الأمن والعدل والعافية إلى الناس، وهو الآن يكتفي من الحكم بالحكم، ومن السلطان بالسلطان، يراهما الغاية كل الغاية، والأمل كل الأمل، لا يفكر فِي إصلاح النظام السياسي والاجتماعي؛ لأن أحدًا من الذين ثاروا لإصلاح هَذَا النظام لم يحاول إصلاحه، ولأن الناس الذين يكرهون هَذَا النظام ويشكون منه ويريدون تغييره، لا يغيرونه ولا يعينون أحدًا على هَذَا التغيير، ولأن الناس الذين يتحرَّقون شوقًا إلى الأمن والعدل والعافية لا يكرهون أنْ يعيشوا فِي ظل الخوف والجور والخطر، فهو لا يريد أنْ

يصلح أمور الناس برغم أنوفهم، وحسبه أنْ يصلح أمر نفسه، وأي إصلاح لأمر نفسه أكثر من أنْ يتولى الحكم وينهض بأعباء السلطان، ويصبح رجلًا يأمر فيطاع، وينهى فيستمع له، ومن يدري! لعل الشعراء يمدحونه بمثل ما يمدح به هُوَ سيف الدولة أو غير سيف الدولة من الأمراء والولاة.

ومن الحق أنه كان فِي شبابه شديد الضيق بهؤلاء العبيد الذين يُملَّكون على الأحرار، وبهؤلاء العجم الذين يقضون فِي أمور العرب، وأنه كان يريد أنْ يثور ليرد إلى الأحرار حريتهم، ويديل للعرب من العجم، ويعيد هؤلاء الأرقاء الذين يستخشنون الخزَّ حين يلمسونه، كانت تبرى بأظفارهم الأقلام، إلى حالهم الأولى التي كانوا عليها قبل أن تدور الدنيا إلى الشمال، بعد أنْ كانت تدور إلى اليمين.

كان يريد هَذَا كله، وكان يحرص عليه كل الحرص، وقد جاهد فِي سبيله، وذاق ذل الأسر وهوان السجن، ولكنه أخفق واستيأس، ثم عاد إِلَيْهِ شيء من الأمل وحظ من الرجاء حين اتصل بهذا الأمير العربي الذي أحيا ما كان للعرب من مجد وبأس، ولكنه نظر فإذا هَذَا الأمير نفسه لا يقدره ولا يسمع له، وإنما يطيع فيه الوشاة والكائدين، فليدع الأحرار فِي رق العبيد ما داموا يرضون لأنفسهم هَذَا الرق، وليدع العرب فِي ظل العجم ما داموا ينعمون بالحياة فِي هَذَا الظل، بل ليتجاوز هَذَا الطور من اليأس المتكبر والإعراض المستعلي، وليصبح رجلًا كغيره من معاصريه، وليبع نفسه من هؤلاء العبيد، وأعجمي من هؤلاء الأعاجم، ما دام هَذَا قد يجعله أميرًا على بعض الولايات أو حاكمًا لبعض الأقاليم.

إلى هَذَا الحال انتهى حين فارق سيف الدولة وألقى بنفسه بين يدي سيده الجديد كافور، جحد ماضيه كله، ورفض آراءه كلها، ونزل حَتَّى عما كان خليقًا أنْ يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء، ولا تقل إنه كان محتاجًا إلى هذه الذلة، مضطرًّا إلى هَذَا الهوان، عاجزًا عن أنْ يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة للفن، فلم يكن المتنبي فِي ذلك الوقت بائسًا ولا فقيرًا، بل كان بعيدًا كل البعد عن البؤس والفقر، أخذ من سيف الدولة مالًا كثيرًا جدًّا، ولم يسرف فِي هَذَا المال، بل أسرف فِي حسن تدبيره وشدة القيام عليه حَتَّى انتهى به إلى البخل القبيح، وخرج من ملك الحمداني يسوق بين يديه مالًا ضخمًا، ويحيط به عدد من الرقيق، فلو شاء أنْ يعيش حرًّا كريمًا مستقلًّا لما وجد فِي ذلك مشقة ولا جهدًا، وقد يُقال: إنَّ حياة الشعراء فِي ذلك العصر لم تكن تسمح لهم بهذا اللون من الحياة، وقد يقال أيضًا: إنَّ شاعرنا لم يكن يستطيع أنْ يُعرض عن مدح الأمراء والملوك، ولو حاول ذلك لعرَّضوه للأذى، ولأكرهوه عليه إكراهًا.

قد يقال هَذَا كله، ولكنه لا يغني عن المتنبي شيئًا، ولا يزيد على أنْ يكون ما نذهب إِلَيْهِ من أنَّ المتنبي إنما كان شاعرًا كغيره من الشعراء، ورجلًا كغيره من الناس، قد رفع نفسه فوق قدرها، وزعم لها ما ليس من أخلاقها، وطمع فيما لا ينبغي لمثله أنْ يطمع فيه، ظن نفسه حرًّا، ولم يكن إلا عبدًا للمال، وظن نفسه أبيًّا، ولم يكن إلا ذليلًا للسلطان، وظن نفسه صاحب رأي ومذهب، ولم يكن إلا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس أمرًا وأهونهم شأنًا.

وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة واحتقر الناس وازدراهم، وأنكر الملوك والأمراء، وزهد فِي التقرب إليهم والدُّنوِّ منهم، وأراد لنفسه أنْ تكون نفس الرجل الحر الكريم، ولعقله أنْ يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف، فوفي لنفسه وعقله بكل ما أراد، ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبي، فقد حرمته بصره، ولم تتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش، ومع ذلك عاش كريمًا، ومات كريمًا، ولم يتعلق عليه أحد بذلة، ولم يغتمز فيه أحد هفوة، سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان، واستطال على السلطان وعجز السلطان عن أن يستطيل عليه، وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أنْ يُخلو بينه وبين حريته، وألا يُشركوه فيما يعرض لهم من خير ولا شر، وألا يخرجوه معهم إنْ خرجوا من المدينة فارين أمام الروم، وأنْ يقيموا فِي المدينة إنْ أمنوا، ويظعنوا عنها إنْ خافوا، ويتركوه فيها على كل حال؛ لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعًا، وما أرى إلا أنك قد عرفت هَذَا الرجل الذي أتحدث عنه، وهو أبو العلاء.

فالفرق إذن بين هذين الرجلين، هُوَ الفرق بين الفيلسوف والرجل من سائر الناس، والذي أريد أنْ أصل إِلَيْهِ من هَذَا الحديث الطويل هُوَ أنَّ المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه، وما أكثر ما يُخدع الناس عن أنفسهم، ولكن الغريب أنَّ المتنبي لم يخدع نفسه وحدها، وإنما خدع معها كثيرًا جدًّا من الناس، فظنوا به الفلسفة، وليس هُوَ من الفلسفة في شيء، وظنوا به الحرية والكرامة وإباء الضيم، وليس هُوَ من هَذَا كله فِي شيء، إنما هُوَ رجل من أهل زمانه لم يمتز منهم بأخلاقه، وإنما امتاز منهم بلسانه، كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء.

أقبل المتنبي إذن على كافور وضيعًا ذليلًا، قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس، وقد رأينا فِي بعض ما سبق من هَذَا الحديث أَنَّ المتنبي لم يصف أحدًا كما وصف نفسه حين قال:

وَإِذَا مَاخَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ　　طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزالا

فلنلاحظ الآن أنه لم يصف أحدًا كما وصف نفسه حين قال أيضًا:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ　　مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ

فقد ماتت نفس المتنبي أو كادت تموت حين فارق سيف الدولة هاربًا من الكيد ومكر الحاشية، وباع كرامته وصداقته من كافور بثمنٍ بخسٍ هُوَ أَنْ يكون واليًا فِي ظل عبد:

يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمسهُ　　وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ

كما كان يقول فِي شبابه، وفي ظل من سيقول عنه فِي آخر أيامه:

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ　　يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

ماتت نفسه أو كادت تموت، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقى منها، إنما كان شر أجزاء نفسه وأهونها على الناس حين يلتمسون الخلق والفلسفة، وكان خير أجزاء نفسه وأكرمها على الناس حين يلتمسون الشعر والفن والغناء.

بهذا الرمق الذليل الخصب المهين القوي، أقبل المتنبي على كافور، فمدحه وتملقه، ورغب إِلَيْهِ وطمع فيه، ومن هَذَا الرمق نفسه انصرف المتنبي عن كافور راغبًا عنه زاهدًا فيه، هاجيًا له، كافرًا بأنعمه، مُشيعًا فيه الفحشاء، مذيعًا فيه السوء، وذنب كافور أنه عرف المتنبي كما كان ينبغي أنْ يعرف، ووضعه فِي الموضع الذي كان ينبغي أنْ يوضع فيه، رآه شاعرًا يبيع المدح والثناء بالدراهم والدنانير، فاشترى منه المدح والثناء بالدراهم والدنانير، ورآه أحمق يجهل قدر نفسه، فجاراه فِي هَذَا الحمق ليصرفه عن خصمه، وليحمله على أنْ يكذب نفسه وينكر ما كان قد قال فيه، ويمدحه بعد أنْ

كان قد ذمه، ووفق كافور لكل ما أراد، فذنب كافور إذن أنه كان عاقلًا فطنًا لبيبًا، لم يخدعه المتنبي، وما كان للمتنبي ولا لأبرع منه أنْ يخدع هَذَا الأسود الدميم الذي استطاع أنْ يتجاوز قدره، وأنْ يفرض نفسه على الدولة الإسلامية كلها، وأنْ يقتطع أحسن أجزائها، فيستأثر فيه بالملك والسلطان نعم، ذنب كافور أنه كان عاقلًا فطنًا، وأنه كان يحسن العلم بالناس، ويضع الأمور فِي مواضعها.

ولكن لا بأس على المتنبي من هَذَا التلون والاضطراب، فنحن قد ربحنا من هَذَا التلون والاضطراب شيئًا كثيرًا، ربحنا هَذَا الشعر الذي حفظه لنا ديوان المتنبي بما فيه من مدح وهجاء، ومن حزن وغناء، فهو سواء أَلَاءَمَ الحقَّ أم لم يُلائمه، أعذب شعر المتنبي وأرقه، وأصفاه وأصدقه تصويرًا للناحية الإنسانية المؤلمة من نفس هَذَا الشَّاعِر البائس الحزين.

(٤) البيئة المصرية

ولم تكن البيئة المصرية أقل من البيئة الحلبية خصبًا ولا نشاطًا، ولا ثروة من العلم والفلسفة والأدب، حين وفد المتنبي على الفسطاط، بل قد يكون من الخطأ أنْ نسوي بين البيئتين فِي ذلك، فقد كانت البيئة المصرية قديمة العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها، أقدم عهدًا بها من دار الخلافة نفسها، والناس جميعًا يعلمون أنَّ علوم الدين وفنون الأدب ازدهرت فِي الفسطاط قبل وجود بغداد.

ازدهرت فيها منذ أواخر القرن الأول للهجرة، ثم سلكت سبيلها إلى الرقي هادئة مطمئنة طوال القرن الثاني والثالث لم تضعف ولم تفتر، ولم يدركها الخمود، ولعلها كانت تقوى حَتَّى تتجاوز المألوف من النشاط أحيانًا فِي بعض فروع العلم أو فِي بعض فروع الفن، كالذي كان حين وفد الشافعي على مصر، وأنشأ بها مدرسته آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث، فقد كان لهذا الحادث أثر عظيم فِي تنشيط الحياة العقلية فِي مصر، وكالذي كان حين اشتغل ابن طولون بأمر مصر، فدفع الحضارة دفعة قوية نشط لها الشعر والنثر، ونشط لها الفن أيضًا.

وقد أتاح الإخشيديون لهذه الحياة العقلية، التي كانت ترقى فِي هدوء وتنشط فِي اطراد، ما مكنها من المضي فِي طريقها إلى القوة والرقي والتزيد من العمق والاتساع، ولست أزعم أنَّ الفسطاط قد سبقت بغداد أو بلغت منزلتها فِي ذلك العصر، ولكنها كانت على كل حال قريبة من بغداد ومتجاوزة للحظ الذي انتهت إِلَيْهِ حلب من النهضة

أيام سيف الدولة، وقد كان العلماء يُنشئون ﻓِﻲ مصر، وكان العلماء يفدون عليها من الأقطار الإسلامية فيعملون فيها ويتعلمون، ولم يكن هناك فرع من فروع العلم والفن والفلسفة يزدهر ﻓِﻲ بغداد إلا وله حظ من الازدهار ﻓِﻲ مدارس الفسطاط ومساجدها، وأندية السادة والقادة من أهلها.

وقد يكون هناك فرق بين الحضارة التي كانت تزدهر ﻓِﻲ ظل الإخشيديين والتي كانت تزدهر ﻓِﻲ ظل الحمدانيين، وهو أنَّ الحضارة الحمدانية كانت جديدة طارئة، فكانت محدثة تعلن عن نفسها فتسرف ﻓِﻲ الإعلان، على حين أنَّ الحضارة المصرية كانت تليدة مستقرة مؤثَّلة المجد، فلم تكن تحفل بنشر الدعوة، ولم ترغب ﻓِﻲ الإعلان.

وبعيدٌ عن بالي كل البعد أنْ أفكر ﻓِﻲ الحضارة المصرية القديمة التي ازدهرت أيام الرومان واليونان، وإنما أفكر ﻓِﻲ الحضارة الإسلامية العربية وأتحدث عنها، فقد كانت الفسطاط مصرًا من أمصار المسلمين، له ما لأكثرها من الحظ ﻓِﻲ الأخذ بأسباب الأدب والعلم والفن، فلما أنشئت بغداد جذبت إِلَيْهَا معظم القوة العقلية التي كانت شائعة ﻓِﻲ الأمصار، ولكنها لم تقتل الفسطاط كما لم تقتل البصرة والكوفة.

ولم تعرف الفسطاط منذ آخر القرن الأول عصرًا غلب فيه الجهل وضعفت فيه الثقافة وانقطعت فيه المشاركة ﻓِﻲ هَذَا البناء العقلي الإسلامي العظيم، على حين نرى أنَّ المتنبي نفسه قد شهد شمال الشام وهو ﻓِﻲ حالة من الضعف والاضطراب وفتور النشاط العقلي، وظهرت آثارها واضحة قوية ﻓِﻲ شعره أثناء الصبا والشباب.

وفرق آخر يمكن أنْ يلاحظ بين الحضارة التي لقيها المتنبي ﻓِﻲ مصر، والتي تركها ﻓِﻲ حلب، وهو أنَّ الحضارة المصرية كما كانت بعيدة العهد بالوجود ﻓِﻲ الماضي، فقد اتصلت ﻓِﻲ المستقبل، لم يضعفها زوال ملك الإخشيديين، وإنما أتاح لها ملك الفاطميين فرصة مكنتها من منافسة بغداد والتفوق عليها، على حين لم يكد سلطان الحمدانيين يضعف حَتَّى ذوت أزهار الحضارة الحلبية، وأسرع شمال الشام، فعاد أو كاد يعود إلى الحال التي كان عليها حين زاره المتنبي ﻓِﻲ أوائل القرن الرابع، ومعنى هَذَا كله أنَّ الحضارة المصرية لم تكن عارضة ولا طارئة، لم يُذْك جذوتها قائد أو أمير، فتخمد بزوال ملكه وانقضاء سلطانه، وإنما أذكت جذوتها طبيعة مصر الخالدة الهادئة، التي لا تحب الجعجعة، ولا تتهالك على الفخر بما قد يعرض لها من لين الحياة.

هذه الحضارة المصرية لقيها المتنبي ﻓِﻲ الفسطاط، ولقيها متنوعة مختلفة، ولقيها أشد عمقًا وتفاوتًا مما رأى ﻓِﻲ حلب، فقد كان النشاط ﻓِﻲ حلب محصورًا أو كالمحصور

فِي المتصلين بسيف الدولة؛ لأن سيف الدولة هُوَ الذي أنشأه ودعاه واشتراه بالمال، أما فِي مصر فقد كان النشاط مفرَّقًا فِي غير مجلس، كان فِي مجلس كافور، وكان فِي مجلس وزرائه وقادته، وكان فِي المساجد العامة وفي المدارس الخاصة، بل لم يكن فِي الفسطاط وحدها، وإنما كان فيها وفي غيرها من المدن الكبرى، فِي مصر العليا وفي مصر السفلى أيضًا.

ولم يكن بُدٌّ للمتنبي من أنْ يحسب حساب هَذَا النشاط، ومن أنْ يقدِّر أنَّ شعره سيَلقَى الفسطاط بمثل ما كان يلقى فِي حلب من النقد والدرس والتحليل، على أقل تقدير، وقد ظهر أثر هَذَا فِي شعر المتنبي الذي قاله فِي مصر، فقد ظل الشَّاعِر ملاحظًا نفسه، مراقبًا فنه، لا يُظهر الشعر ولا ينشده إلا بعد الامتحان والابتلاء والتمحيص، ولستُ أغلو إنْ قلت: إنَّ شعر المتنبي فِي مصر أقل سَقَطًا من شعره فِي حلب؛ لأن المتنبي — فيما يظهر — كان يقدر العلماء المثقفين المصريين أكثر مما كان يقدر العلماء والمثقفين الذين كان يلقاهم فِي قصر الحمدانيين.

وثَمَّ سبب آخر لا بُدَّ من الإلمام به والإشارة إليه، فأكثر ما يضعف شعر المتنبي فِي حلب حين يقول الشعر فِي المناسبات المختلفة مرتجلًا حينًا، وطائعًا للأمر حينًا آخر، ومتكلفًا ليثبُتَ أمام منافسيه مرة ثالثة، أما فِي مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد فِي الديوان، ولم يحتج الشَّاعِر إلى الارتجال؛ لأن اتصاله بكافور لم يكن من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك، فلم يَصْفُ كافور للمتنبي، ولا صفا المتنبي لكافور، ولا كان بينهما من هذه المودة الخالصة المتصلة ما يدعو إلى ارتجال الشعر فِي الموضوعات التافهة المتنوعة، إلا أنْ يكون المتنبي قد جحد ذلك فيما بعدُ جحودًا، ومحاه من ديوانه وذاكرته محوًا، ولم يرد أنْ يُبقي من هَذَا الشعر ما يصور نفسه عارية أمام كافور، كما أبقى منه ما صورها عارية أمام بدر والحسن بن عبد الله بن طغج وأبي العشائر وسيف الدولة.

ومهما يكن من شيء، فشعر المتنبي الذي قاله فِي مصر أو الذي ألهمته إياه مصر مختار كله، بريءٌ من السخف واللغو أو كاد.

(٥) المتنبي والبيئة الطبيعية في مصر

ونلاحظ هنا ظاهرة قد كنَّا نستطيع أنْ نلاحظها فِي حلب أو فِي غيرها من البلاد التي قام فيها المتنبي، لا نكاد نستثني منها إلا الشيء القليل، نلاحظ أنَّ البيئة الطبيعية لم تكن تؤثر فِي نفس المتنبي كثيرًا؛ فقد كان يمر بالمدن والقرى، ويعيش فيها دون أنْ يراها أو دون أنْ يظهر فِي شعره أنه رآها أو أنها أثرت فِي نفسه تأثيرًا قويًّا أو ضعيفًا، ولولا أنه وصف بحيرة طبرية حين مدح علي بن إبراهيم التنوخي، وألم إلمامًا يسيرًا بوصف لبنان حين مدح الأوراجي، ووصف وادي بوان حين مدح عضد الدولة، وسَمَّي طائفة من المدن والقرى والجبال تسمية، لولا هَذَا لقلنا: إنَّ المتنبي قد مرَّ بالدنيا ولم يرها ولكننا نستطيع الآن أنْ نقول: إنه مر بالدنيا ورآها، ولكنه لم يحفل بها، نستغفر الله، بل لم يحفل بمظاهر الطبيعة فيها؛ لأنه كان مشغولًا عن الطبيعة بنفسه وبالناس، وهو كان يرفع بصره إلى السماء أحيانًا إذا جنه الليل وأرَّقه الحزن واليأس، فيرى النجوم، وربما وصف النجوم فأحسن الوصف، وربما صور الليل فأحسن التصوير، وربما أبدع فِي وصف وادي بوان، وربما راع فِي وصف بحيرة طبرية، ولكنه فِي هَذَا كله لم يكن يقصد إلى الوصف من حيث هُوَ فنٌ يطلب لنفسه ويُتخذ إلى الجمال الخالص، وإنما كان يتخذ الوصف وسيلة إلى ما يثور فِي نفسه من العواطف والأهواء.

فالطبيعة عنده ليست شيئًا ذا خطر، وإنما الأمر الخطير حقًّا عند المتنبي شيئان، نفسه ليعبدها، والناس ليبغضهم أشد البغض، ويذمهم أقبح الذم، ويتملق منهم أشنع التملق من يستطيع أن ينفعه بالجاه أو بالمال.

ومن هنا نفهم أنْ يزور المتنبي مصر ويقيم فيها أعوامًا متصلة، ثم لا يظهر للطبيعة المصرية أثر يذكر فِي شعره، فهو يسمي المقطم فِي مدحه لكافور، وهو يسمي الأهرام فِي رثائه لأبي شجاع، وهو يذكر النواطير فِي هجائه لكافور، وهو يذكر السواقي فِي مدحه لكافور وتعريضه بسيف الدولة، ولكنه لا يزيد على التسمية والذكر.

وقد لاحظ الأستاذ بلاشير فِي شيء من الدهش أنه حين طلب إِلَيْهِ كافور أنْ يصف دارًا جديدة انتقل إليها، لم يزد على أنْ وصف كافورًا نفسه وهنأه بهذه الدار، وقد كان موقع الدار من النهر والجبل وما يحف بها من الحدائق والبساتين، خليقًا أنْ يلهم الشَّاعِر شيئًا، ولكن الشَّاعِر لم يرَ إلا كافورًا الذي يستطيع أنْ يمنح المال والولاية، وإلا نفسه التي تتحرق جشعًا إلى المال وطمعًا فِي الولاية، وليس فِي شيء من هَذَا ما يدعو إلى الدهش، فقد كان المتنبي — كما قلنا — لا يرى إلا نفسه والناس الذين يرغب إليهم أو

يرغب عنهم، وهو لم يعرض عن طبيعة مصر وحدها، وإنما أعرض عن طبيعة غيرها من البلاد، إلا هذه الأماكن القليلة التي استثنيناها.

وأغرب من هَذَا كله أنَّ المتنبي كان بدوي الطبع، كثير الإقامة فِي البادية، كثير الاضطراب فِي الصحراء، فكان خليقًا أنْ يصور لنا بعض التصوير طبيعة البادية والصحراء، ولكنه لم يصنع من ذلك شيئًا، وقد احتاج إلى أنْ يسلك سبيل الفحول من قبله، فيصف الإبل والطرق والأسفار، وما تكلف من جهد وما تحمل من عناء، ولكنه استعار هَذَا كله أو أكثره من الذين سبقوه، ولم يضف أو لم يكد يضيف إِلَيْهِ شيئًا جديدًا، وليس لذلك فيما أعتقد إلا سبب واحد، وهو أنه كان يقطع الصحراء ويضطرب فِي البادية، ولا يرى فِي هذه ولا فِي تلك إلا نفسه وإلا عدوًّا يرهبه، أو صديقًا يرغب إليه.

وليس أدل على ذلك من هَذَا الشعر الذي قاله حين هرب من مصر، فوصف الطريق التي سلكها من الفسطاط إلى الكوفة، فإنك لا تجد فِي هَذَا الشعر الجميل الرائع من هذه الطريق الطويلة الشاقة التي كانت خليقة أنْ تُلهمه أبرع الشعر وأروعه إلا تسمية للأماكن التي مرَّ بها وأنزل فيها، كأنه جغرافي يصف طريقًا من الطرق، نستغفر الله، بل يسمي مواضع بعينها من هذه الطريق.

والمتنبي لم يهمل الطبيعة المصرية وحدها، وإنما أهمل الحضارة المصرية أيضًا، فنحن نعرف أنه زار الفسطاط، ولكننا نعرف هَذَا من التاريخ ومن هذه الأسطر التي يقدم بها الديوان بين يدي القصائد التي يتألف منها شعره المصري، فأما الحياة فِي مدينة الفسطاط، فأما ما كان يقوم فيها من العمارات، فأما ما كان يملؤها من النشاط على اختلاف ألوانه ومظاهره، فليس له فِي شعر المتنبي أثر ولا ظل، وما ينبغي أن ننكر ذلك أو نضيق به، فلم يكن حظ حلب أو دمشق أو الرملة أو الكوفة أو أرجان أو شيراز أو بغداد من شعره خيرًا من حظ الفسطاط.

قلت لك: إنه كان يمر بالمدن والقرى، ولا يكاد يراها، بل أغرب من هَذَا كله أنه خرج ذات ليلة من قصر سيف الدولة، فصادف نهر قُويق، وقد مدَّ وطغى على شاطئيه، فقال فِي ذلك رجزًا، ولكنك تقرأ هَذَا الرجز فلا ترى فيه النهر ولا ماءه، وإنما ترى فيه سيف الدولة؛ لأنه اتخذ هَذَا المظهر الشعري الذي كان خليقًا أنْ يلهم شعرًا جميلًا وسيلةً إلى مدح سيف الدولة ووصفه بالكرم والجود، كدأبه حين كان يرى السحاب متكاثفًا أو يرى المطر منهمرًا، فلا يفتح الله عليه إلا باتخاذ السحاب والمطر وسيلة إلى تملق من كان فِي حاجة إلى أنْ يتملقه من الناس.

(٦) شعره في كافور

وشعر المتنبي ﻓِﻲ كافور قليل بالقياس إلى شعره ﻓِﻲ سيف الدولة، ولكنه مختلف متنوع، لا بأس بالوقوف القصير عند أنواعه وفنونه؛ لأنها تصور لنا براعة الشَّاعِر ﻓِﻲ معالجة هذه الفنون على تباين ما كان عليه من الأحوال، فهو قد مدح كافورًا وطمع فيه واستنجزه وعده، وهو قد تغنى حزنه ويأسه، وخوفه وإشفاقه، وهو قد عرض بسيف الدولة وعاتبه حَتَّى انتهى أحيانًا إلى الذم، وهو قد ألم ببعض وجوه السياسة الداخلية المصرية، ثم هُوَ قد هجا كافورًا فأسرف ﻓِﻲ هجائه، وهو بعد هَذَا كله قد مدح أبا شجاع فاتكًا ثم رثاه.

وإذن ففنون الشعر التي طرقها ﻓِﻲ مصر، ليست أقل من فنون الشعر التي طرقها ﻓِﻲ حلب، لم يُهمل إلا فنًّا واحدًا هُوَ خير ما أحسن من فنون الشعر، وهو تصوير الجهاد بين المسلمين والروم، فهل كانت طريقته ﻓِﻲ معالجة الفنون التي ألم بها ﻓِﻲ مصر كطريقته ﻓِﻲ معالجة هذه الفنون نفسها حين ألم بها ﻓِﻲ شمال الشام؟ لا ونعم.

أما لا، فلأن عنصرًا أساسيًّا من عناصر الإجادة الفنية عند المتنبي قد تأتَّى له ﻓِﻲ شمال الشام ولم يتأتَّ له ﻓِﻲ مصر، وهو الإعجاب الذي هُوَ أساس الشعر والباعث له والدافع إليه، كان المتنبي معجبًا بسيف الدولة، ما إلى الشك ﻓِﻲ ذلك من سبيل، كان يريد أنْ يحيا ﻓِﻲ ظله ويظفر بجوائزه وينعم بنائله، هَذَا حق، ولكنه قبل هَذَا وبعد هذا، كان مكبرًا للأمير الحمداني، معجبًا به، مفتونًا بحسن بلائه ﻓِﻲ جهاد العدو من العرب والروم، وأحسب أنه لو لم يتصل بسيف الدولة لقال فيه الشعر وأكثر عليه الثناء، ولم يكن معجبًا بكافور ولا محبًّا له، بل هُوَ كان يبغضه أشد البغض، ويزدريه أشد الازدراء، ليكن مخطئًا ﻓِﻲ ذلك أو مصيبًا، فهذا شيء لا خطر له، وإنما الواقع أنه كان يمقت كافورًا ويزدريه، وإذن فهو عندما كان يمدح سيف الدولة كان يصدر عن الإعجاب والرغبة، وعندما كان يمدح كافورًا كان يصدر عن الرغبة وحدها، وكان مضطرًا إلى أنْ يكظم عواطف البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد، كان صادقًا أمام نفسه حين كان يمدح سيف الدولة، كان كاذبًا منافقًا أمام نفسه حين كان ينشئ المدح وينشده ﻓِﻲ كافور، فإذا أتيحت له الإيجادة ﻓِﻲ سيف الدولة، فليس ﻓِﻲ ذلك غرابة، وإذا أتيحت له الإيجادة ﻓِﻲ كافور فهذا هُوَ الغريب حق الغريب.

وعلى عكس ذلك غضب المتنبي على سيف الدولة فعاتبه وألح فِي عتابه، وعرض به وانتهى أحيانًا إلى الهجاء، ولكنه كان معجبًا دائمًا بسيف الدولة، فلم يكن غضبه عليه إلا حزنًا لفراقه ولونًا من خيبة الأمل فيه.

ثم غضب على كافور فعاتبه أول الأمر، ثم هجاه بعد ذلك، فكان مظهر الفن فِي العتاب والهجاء معاكسًا لمظهر الفن فِي المدح، كان صادقًا أمام نفسه فِي هجاء كافور فلا غرابة فِي أنْ يجيد، وكان كاذبًا متكلفًا فِي نعيه على سيف الدولة فلم يكن يبلغ منه شيئًا.

ولم تكن السياسة المصرية تهم المتنبي أو تعنيه؛ لأنه لم يكن مشتركًا فيها كما كان مشتركًا فِي السياسة الحمدانية، ولأن هذه السياسة المصرية كانت من الهدوء والاستقرار بحيث لم يكن فيها ما يثير الشعر أو يلهم الشعراء، ولذلك قلَّ شعر المتنبي السياسي عند كافور، ولم يَقل منه إلا قصيدتين اثنتين سنقف عندهما بعد حين.

أما الفن الذي أجاده المتنبي وبرع فيه، أثناء إقامته فِي مصر، فهو الغناء، فقد وفق المتنبي لنغمات جديدة لعله لم يوفق لمثلها فِي شعره كله، ولم تكد تخلو من هَذَا الغناء قصيدة من قصائد المتنبي التي مدح بها كافورًا أو هجاه، والتي مدح بها فاتكًا أو رثاه، وهو بعد هَذَا قد خرج عن مألوفه منذ زمن بعيد، فاختص نفسه بشيء من الشعر لم يُشرك معه فيه أحدًا بمدح أو هجاء.

وكنا نعرف ذلك من المتنبي فِي صباه وشبابه، فلما اتخذ الشعر صناعة ووسيلة إلى العيش، أعرض عن القصائد الخالصة له، وجعل قصيدته قسمة بينه وبين الممدوح، له أولها وللممدوح آخرها، ولكنه حين انتهى إلى مصر وأنفق فيها شطرًا من وقته ينتظر الوفاء بالوعد، ورأى أنه لا يظفر بشيء، وأنه لا يستطيع أنْ يجهر بكل ما يحس أو يعلن كل ما يجد، تغني حزنه وألمه وانتظاره وسخطه وندمه فِي شعر رائع حقًّا.

ثم لم يكد يخرج من مصر ويستأنف حياته فِي العراق وفارس حَتَّى عاد إلى طريقته الأولى، فجعل الشعر قسمة بينه بين غيره من الناس.

ولم يُحدث المتنبي شيئًا ذا بال فِي القصيدة التي مدح بها فاتكًا، ولا فِي المراثي التي قالها فيه، وإنما مضى فِي هَذَا المدح والرثاء على عادته المألوفة فِي هذين الفنين، فقلد غيره وقلد نفسه، ولم يتجاوز ما سبق إِلَيْهِ من ذلك، وكل ما أحدثه أنه كان شديد الضغن على كافور، فكان يعرض به فِي رثائه أبا شجاع، ولكن هَذَا ليس بالشيء الخطير ولا بالأمر الذي يحفل به.

فلنقف وقفات قصارًا عند نماذج من هذه الفنون التي ألم بها المتنبي فِي مصر، فهي فِي حقيقة الأمر لا تحتاج إلى الوقفات الطوال، ولكن إهمالها غير ممكن ولا ميسور.

(٧) مدحه لكافور

وقد مدح المتنبي كافورًا بثماني قصائد، أنشده أولاها فِي جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلثمائة، وهي اليائية التي مطلعها:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وفي هذه السنة نفسها بنى كافور دارًا، وطلب إلى المتنبي أنْ يذكرها، فأنشده همزيته التي أولها:

إِنَّمَا التهْنِئَاتُ لِلْأَكْفَاءِ وَلِمَنْ يَدني مِنَ الْبُعَدَاءِ

وفي هذه السنة كذلك أنشده بائيته التي أولها:

مَنِ الْجَآذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِيبِ حُمْرُ الْحِلَى وَالْمَطَايَا وَالجَلَابِيبِ

وفي آخر هذه السنة أنشده داليته التي أولها:

أَوَدُّ مِنَ الْأَيَّامِ مَالَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْى جُنْدُهُ

فهو إذن، كان مكثرًا فِي مدح كافور لأول عهده به، يريد أنْ يظفر بحبه أو بالمكانة عنده، كما كان مكثرًا فِي مدح سيف الدولة حين اتصل به فِي سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، ولكن سيف الدولة أرضى حبه للمال، وأرضى إعجابه بجلائل الأعمال، فمضى على الإكثار فِي مدحه، ولم يبلغ كافور من ذلك ما كان يبلغه سيف الدولة، ففترت همة الشَّاعِر بعض الفتور، فلما كانت سنة سبع وأربعين وثلثمائة انتقل كافور من دار إلى دار، فأنشده تلك الأبيات التي أولها:

أَحَقُّ دَارٍ بِأَن تُدْعَى مُبَارَكَةً   دَارٌ مُبَارَكَةُ الْمَلْكِ الَّذِي فِيهَا

وفي هذه السنة نفسها أهدى إِلَيْهِ كافور فرسًا، فشكر له هديته بالميمية التي يقول فِي أولها:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ   وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

وفي شوال من هذه السنة مدحه بالبائية التي أولها:

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ   وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ

ثم أنشده فِي شوال سنة تسع وأربعين وثلثمائة آخر مدائحه له، وهي البائية التي أولها:

مُنًى كُنَّ لِي أَنَّ البَيَاضَ خِضَابُ   فَيَخْفَى بِتَبْيِيضِ الْقُرُونِ شَبَابُ

ومن الخطأ أنْ يُظن أنَّ المتنبي قد خص كافورًا بهذه المدائح، وإنما الصواب أنه جعلها قسمة بين ثلاثة أشخاص، الأول المتنبي نفسه، حين كان يتغنَّى آلامه وأحزانه، وحين كان يرغب إلى كافور فِي تحقيق آماله، ويستنجزه ما قدم له من وعد، والثاني سيف الدولة حين كان يعيبه حينًا ويعاتبه حينًا آخر، ويظهر الندم على فراقه ويعرض بالعودة إِلَيْهِ مرة ثالثة، والشخص الثالث والأخير هُوَ كافور.

ولسنا فِي حاجة إلى أنْ ندرس هذه القصائد كلها، فبعضها يغني عن سائرها؛ لأن موضوعاتها ومعانيها متشابهة، وإنْ اختلفت فيها ألوان التصوير والتعبير، فلننظر قبل كل شيء إلى هذه اليائية التي أنشدها لأول عهده به، فهي بطبيعة الحال مشتملة على هذه الموضوعات الثلاثة التي قدَّمنا ذكرها.

فأما القسم الأول منها فغناء بآلام الشَّاعِر وأحزانه لما أصابه من خيبة الأمل وما أدركه من الإخفاق، وهو فِي هَذَا القسم شديد على سيف الدولة، مسرفٌ فِي الشدة عليه، يريد أنْ يغيظه ويُحفظه، ويثير فِي نفسه الندم على ما قصَّر فِي ذاته وفرط فيه، وهذه الشدة نفسها تصور ما كان يملأ قلب المتنبي ويفعم ضميره من الغيظ والحنق ومن الأسف والندم، فنفسه تنازعه أشد النزاع إلى سيف الدولة، وقلبه لا ينفك يهفو إليه،

وهو يعنف قلبه أشد التعنيف، ويؤنب نفسه أوجع التأنيب على هَذَا الحنين إلى ما لا يستحق حنينًا، والوفاء لمن لا يستأهل وفاء، وهو يرى سيف الدولة غادرًا، وينكر نفسه إن صَبَتْ إليه، وينكر دموعه إنْ جرت فِي أثره وهو على ذلك لا يعدو أنْ يكون محبًّا ينسب بحبيبه، ويبكي فِي أثر هواه، ويشتد فِي اللوم والتعنيف على هَذَا الحبيب الذي أسرف فِي الهجر، حَتَّى انتهى إلى الغدر، ولكنه يتجاوز هَذَا الغزل الحاد العنف إلى شيء يوشك أنْ يكون هجاء، لولا أننا نحس منه الغيظ المتأجج الذي ينتهي بصاحبه إلى التحدي، وذلك حين يقول:

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْره وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا

فالشطر الأول من هَذَا البيت غيظ قد بلغ أقصاه، وانتهى إلى التحدي الذي يصور ألم المتنبي أكثر مما يصور شيئًا آخر، والشطر الثاني من هَذَا البيت هُوَ نتيجة هَذَا الغيظ، وهو أشبه شيء بما يقوله العاشق الذي أخرجه الهجر عن طوره، فأخذ يتسلَّى باللهو العارض، والحب المتكلف، والصبابة الكاذبة، ويزعم للتي ملكت قلبه أنَّ التي تمنحه اللذة والعزاء فلا تلذه ولا تعزيه، أروع منها جمالًا وحسنًا.

ثم يمضي المتنبي فِي مدح كافور إلى أنْ يقول:

إِذَا كَسَبَ الناسُ المَعَالِيَ بِالندَى فَإِنَّكَ تُعْطِي فِي نَدَاكَ المَعَالِيَا
وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ ملكًا لِلْعِرَاقينِ وَالِيَا
فَقَدْ نهبُ الْجَيْشَ الَّذِي جَاءَ غَازِيًا لِسَائِلِكَ الْفَرْد الَّذِي جَاءَ عَافِيَا

فهو هنا يعرض بحاجته ويتجنب التصريح، ولكن تعريضه واضح كل الوضوح، ويرجع إلى مدح كافور، إلى أنْ يقول:

إِذَا الْهِنْدُ سَوتْ بَيْنَ سَيْفَيْ كَرِيهَةٍ فَسَيْفُكَ فِي كَفٍّ تُزِيلُ التسَاوِيَا

فإذا هُوَ يعود إلى سيف الدولة بتعريض الغائظ المغيظ، ومن قبلُ عرض بسيف الدولة ففضل عليه كافورًا فِي الرفعة والكرم حين يقول:

فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا
تَجُوزُ عَلَيْهَا الْمُحْسِنِينَ إلى الَّذِي نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالْأَيَادِيَا

وعرض بانهزام سيف الدولة لكافور فقال:

غَزَوْتَ بِهَا دُورَ الْمُلُوكِ فَبَاشَرَتْ سَنَابِكُها هَامَاتِهِمْ وَالمَغَانِيَا

فأنت ترى أنَّ النصيب الأوفى من القصيدة شائع بين المتنبي وسيف الدولة، يصرح مرة ويعرض أخرى، ولكنه مع ذلك يمدح كافورًا فيحسن المدح دون أنْ يخرج عن المألوف أو يأتي بشيء جديد، وإنما هي المبالغة فِي وصف جوده وذكائه، وعزمه ومضائه، وبأسه وعصاميته، يؤدي هَذَا كله أداء حسنًا، لا مشقة فيه ولا جهد، ولا تكلف فيه ولا عناء.

فإذا تركت هذه اليائية إلى البائية الرائعة التي مدح بها كافورًا فِي شوال من السنة نفسها، رأيت مذهبه فيها كمذهبه فِي القصيدة السابقة، فهو يقسمها قسمين، قسمًا للغناء وقسمًا للمدح، وهو يذهب فِي غنائه مذهبين مختلفين، يقصد بأحدهما إلى الرمز والإيماء، وبالآخر إلى الفلسفة الصريحة، ويذهب بمدحه مذهبين أيضًا، يخص بأحدهما كافورًا، ويشيع الثاني بين كافور وسيف الدولة والمتنبي نفسه، فأما اصطناعه للرمز والإيماء فحين يتغزل بالأعرابيات ويطيل فِي ذكرهن ويؤثرهن على الحضريات، وهذا الجزء من قصيدته مشهور شائع، قد أعجب به الناس منذ زمن بعيد، ولكنهم فهموه على وجهه الظاهر القريب، وأذهب فِي فهمه أنا مذهبًا آخر، فأرى فيه حنينًا إلى حياته فِي شمال الشام، حيث البداوة أغلب من الحضارة، وحيث البأس أظهر من اللين، وحيث المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكروه، وكأن الشَّاعِر قد ضاق بهذه النعمة الهادئة، وهذا الخفض الآن فِي مصر، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد، ولكنه لم يستطع أنْ يجهر بما يجد من ذلك، فاتخذ الأعرابيات كناية عنه ورمزًا له، كما اتخذ الحضريات كناية عما كان فِي مصر من حياة ناعمة فاترة فيها تكسر وخضوع.

والقدماء يعجبون أشد الإعجاب بهذا البيت من هذه القصيدة وهو:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ الليْلِ يَشْفَعُ لي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصبْحِ يُغْرِي بِي

وربما كنت رديء الذوق، ولكني أحب أنْ أعْجبَ بهذا البيت فلا أظفر بما أريد من الإعجاب الخالص الذي لا يشعر به نقد ولا عيب، فما الذي يُعجب فِي هَذَا البيت؟ هُوَ هَذَا الطباق الكثير المتتابع، الذي يحدث موسيقى ظاهرة التأثير فِي النفس، فالشاعر يطابق بين الزيارة والانثناء عنها، وهو يطابق بين السواد والبياض، وبين الليل والصبح، وبين الشفاعة له والإغراء به، وبعض هَذَا الطباق يكفي لإرضاء المشغوفين بالبديع، وهذا الطباق نفسه قد يرضيني، لولا أني أجد فِي القافية انحدارًا ثقيلًا على السمع أشد الثقل، فأنت بين اثنتين: إما أنْ تجعل قوله «يغري بي» فِي مقام الكلمة الواحدة، فتنطق بها موصولة ولا تشعر بما فيها من التفرق لتستقيم لك القافية على نظامها الموسيقي المألوف، وإذن فقد أفسدت النطق وأسأت إلى الصوت اللغوي نفسه، وإما أنْ تنطق بهذه الجملة على وجهها، فتشعر بأن لفظها يتألف من فعل وحرف وضمير وتنبر الباء، إنْ جاز هَذَا التعبير، وإذن فقد صح لك النطق اللغوي، ونبتْ عليك القافية نبوًّا شنيعًا.

وسواد الليل كان يشفع للمتنبي عند من؟ عند عدوه، فما يحتاج العدو إلى هذه الشفاعة وما يرضاها، وما أظنه إلا كان يريد أنَّ سواد الليل كان يخفيه على الرقباء فيحميه منهم، وأنْ بياض الصبح كان يُظهره للرقباء فيغريهم به ويعرضه لآذاهم، والمعنى قديم جدًّا طرقه عمر بن أبي ربيعة كما طرقه امرؤ القيس من قبل، فلم يزد شاعرنا على أن أوجزه أشد الإيجاز، واصطنع فيه هَذَا الطباق الكثير الذي كان خليقًا أن يحسنَ، لولا ما ينتهي إِلَيْهِ من نبوِّ القافية.

فإذا فرغ المتنبي من هَذَا الغزل الرمزي عمد إلى فلسفته الصريحة الواضحة فقال:

وَمنْ هَوَى كُل مَنْ لَيْسَتْ مُمَوَّهَةً ... تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ
وَمِنْ هَوَى الصدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ ... رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي الرأْسِ مَكْذُوبِ
لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ ... مِنِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِيبِي
فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بمَانِعَةٍ ... قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشِّيبِ

فهذا الكلام من أروع الشعر وأجمله، يعجبني فيه هَذَا الانتقال من إيثار الجمال البدوي الصريح، الذي لم يُصْنعْ ولم يُتكلف، إلى إيثار الشيب الواضح الذي لا يخفيه الخضاب، ثم يعجبني أَيْضًا عدول الشَّاعِر إلى الحق واعترافه بأنه يحتمل المشيب كارهًا له وراغبًا عنه، بعد أنْ صرَّح بأنه لم يُرد أنْ يخفيه بالخضاب، فهو يؤثر الصراحة على النفاق، وهو يؤثر الصدق على الكذب، وهو يؤثر أنْ يكون شجاعًا تؤذيه الشجاعة

وتُغَنِّيه، على أنْ يكون منافقًا يغر نفسه بالآمال والأوهام، ثم هُوَ بعد ذلك يتمنَّى العودة إلى الشباب ويضحي فِي سبيل ذلك لو استطاع بكل ما أفاد من علم وحلم، ومن الذي زعم أنَّ العلم والحلم لا يستفادان إلا بالشيب والضعف وتقدم السن، لقد يوجد العلم والحلم عند الشبان الذين لم يراعوا فِي شبابهم، كما يوجدان عند الشِّيب الذين اشتروهما بما أضاعوا من القوة والأمل والنشاط.

وكل هذه الفلسفة وكل هَذَا الغناء، إنما يشير الشَّاعِر به إلى هَذَا الحزن الغامض العميق الذي يملأ نفسه، والذي يستطيع أنْ يفصل أسبابه، ولكنه لا يستطيع أنْ يحصره ولا أنْ يحيط به، ثم ينتهي الشَّاعِر إلى كافور فيقول:

تَرَعْرَعَ المَلِكُ الْأُسْتَاذُ مُكْتَهِلًا قَبْلَ اكْتِهَالٍ أَدِيبًا قَبْلَ تَأْدِيبِ
مُجَرِّبًا فَهِمًا مِنْ قَبْلِ تَجرِبَةٍ مُهَذَّبًا كَرَمًا من غَير تَهذيبِ
حَتى أصابَ من الدُّنيا نهايتَها وهَمُّهُ في ابتداءَاتٍ وتَشْبِيبِ

ومن الناس من يظن أنَّ المتنبي قصد بهذا الشعر وأشباهه إلى كلام ظاهره المدح، ويمكن أنْ يلتوي به السامع أو القارئ؛ لأن الشَّاعِر قد التوى به إلى الذم.

وما أظن إلا أنَّ هَذَا النحو من فهم شعر المتنبي فِي كافور، تكلف فِي كثير من الأحيان، يدفعنا إِلَيْهِ ما نعلمه من سوء رأي الشَّاعِر فِي ممدوحه، ومن غضبه عليه وهجائه له، وليس المهم هُوَ أنْ نفسر الشعر بما فسره المتنبي نفسه فِي أحاديثه ودروسه بعد أنْ هرب من مصر، ولا أنْ نفسر الشعر بما فسره به الشرَّاح الذين سمعوا المتنبي وتأثروا بحديثه، والذين سمعوا الأخبار أو صنفوها حول ورود المتنبي على كافور وإقامته، وإنما المهم أنْ نفترض أننا ظفرنا بهذا الشعر غُفلًا من كل تفسير، ولم نعلم من أمر قائله والمقول فيه شيئًا، أفكنا نظن أنَّ صاحبه قد التوى به عن وجهه الظاهر، وأراد به خداعًا ومكرًا؟ كلا! إنما كنا نفهم فِي يسر وسهولة أنَّ الشَّاعِر لم يُرِدْ إلا أنْ يصور عصامية الأمير وتفوقه، وما أتيح له من النبوغ والظفر بما لا يظفر به أذكياء الناس والذين كملت لهم العدة وتمت لهم أدوات الفوز، دون أنْ يستعد لذلك أو يتهيأ له، ودون أنْ يرث ذلك من أبٍ أو جدٍّ.

كذلك كنا نفهم هَذَا الشعر، وما كان يخطر لنا أنَّ قائله قصد به إلى وجه آخر من وجوه التعريض والتلميح، ولكن المتنبي فارق الأمير مغاضبًا له، ساخطًا عليه، نادمًا على مدحه، خجلًا من الإسراف فِي هَذَا المدح، مستخذيًا من الخيبة والإخفاق، مجتهدًا

بالطبع ﻓِﻲ أنْ يأخذ ما أعطى وينكر ما عرف ويغير ما قال، وهو نفسه ينبئنا ﻓِﻲ هجائه كما سترى أنه لم يمدح كافورًا وإنما عبث به، وأنه لم يكن يزوره مكبرًا له ساخرًا منه، ولكنا نعلم حق العلم أنَّ هَذَا كلام شاعر مَغِيظ مُحْنِق، والمتنبي متهم عندنا ﻓِﻲ أحد الحالين، فإن صدق ما قاله ﻓِﻲ الهجاء فقد كذب ما قاله ﻓِﻲ المدح، وإنَّ صدق ما قاله ﻓِﻲ المدح فقد كذب ما قاله ﻓِﻲ الهجاء، وهو مع ذلك صادق عندنا ﻓِﻲ الحالين، بشرط أنْ نفهمه على وجهه، لا كما يجب هُوَ أنْ نفهمه، فقد كان صادقًا حين مدح كافورًا، وكان كاذبًا ﻓِﻲ الوقت نفسه، كان صادقًا؛ لأنه أراد المدح ولم يُرِدْ غيره، وكان كاذبًا؛ لأنه لم يمدح عن يقين ولا عن إيمان، وإنما مدح عن رغبةٍ وطمع، فقال غير ما يعتقد، وأثنى بغير ما يرى.

وهو كذلك صادقٌ كاذبٌ ﻓِﻲ هجائه: صادق لأنه كان يهجو عن غضب وسخط وبغض، وكاذب لأنه كان يقول غير الحق ويذيع ﻓِﻲ هَذَا الأمير من السيئات ما كان يكذبه فيما بينه وبين نفسه إذا خلا إليها، وما أكثر الأحوال التي يفرض فيها علينا البحث الصحيح أنْ نتهم الشعراء والكتاب فيما يتحدثون به عن أنفسهم مادحين أو قادحين.

ويمضي المتنبي بعد ذلك ﻓِﻲ مدح كافور فيقول:

يُدبِّرُ المُلكَ من مِصْرٍ إلى عَدَنٍ ... إلى العِراقِ فأرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ
إذا أتتها الرِياحُ النُّكْبُ من بلدٍ ... فما تهبُّ بها إلَّا بترتيبِ
ولا تُجاوِزُها شمْسٌ إذا شَرَقَتْ ... إلَّا ومنهُ لها إذنٌ بِتَغريبِ

وما أظن أحدًا يقدِّر أن المتنبي كان يعبث ﻓِﻲ هَذَا المدح، وإنما لهجة الشَّاعِر هنا صادقة صريحة، تدل على إعجابه بهذا الأمير الذي سمت به همته وحدها من أسوأ الحالات إلى تدبير هَذَا الملك الواسع العريض، ولكن سعة هَذَا الملك وعرضه يُطمعان المتنبي ﻓِﻲ رقعةٍ منه ضيقة ﻓِﻲ مدينةٍ من مدنه أو قريةٍ من قراه، ونفسه تتحرق شوقًا إلى هذه الولاية، ولكنه مع ذلك لا يصرح ﻓِﻲ هذه القصيدة كما لم يصرح ﻓِﻲ القصيدة الماضية، وإنما يكتفي بالتعريض الواضح الجلي بعد أنْ يمضي ﻓِﻲ مدح الأمير مدحًا حسنًا قويًّا على أنه قبل أنْ يعرض بحاجته لا يُهمل التعريض بسيف الدولة، فهو يقول:

قالوا هَجَرْتَ إليه الغَيْثَ قُلْتُ لهمْ إلى غُيُوثِ يَدَيْهِ والشَّآبِيبِ
إلى الذي تَهَبُ الدَّوْلاتِ راحَتُهُ ولا يَمُنُّ عَلَى آثارِ موهُوبِ
ولا يَرُوعُ بمغْدُورٍ بِه أحَدًا ولا يُفَزِّعُ موفورًا بِمنكوبِ

وظاهرٌ ما فِي هَذَا الكلام من التعريض الواضح الثقيل بأخلاق سيف الدولة، وما فيه أَيْضًا من جحود الجميل وإنكار النعمة، وظاهر كذلك ما فِي البيت الثاني من هذه الأبيات من تجاوز للحد فِي انتقاص صديقه ومولاه القديم، والتلميح بحاجته التي يضحي فيها حَتَّى بالحياء، فكافور لا يهب المال وحده، ولا يهب من المال أكثر مما كان يهب سيف الدولة فحسب، ولكنه يهب الدولات، فهو يستطيع أنْ ينشئ دولًا، وأنْ يجعل لهذه الدول سيوفًا.

وانظر إلى البيتين الأخيرين من هذه القصيدة، فهما يغنيان عن كل تفصيل، لتعريض المتنبي بحاجته وتهالكه صادقًا أو كاذبًا على رضا الأمير، وإشفاقه من الغضب أو السخط الذي قد يجر عليه الحرمان وخيبة الأمل:

يا أيُّها المَلِكُ الغَانِي بِتَسْمِيةٍ في الشَّرْق والغرْبِ عن وَصْف وتَلْقيبِ
أَنتَ الحبِيبُ ولكنِّي أَعُوذ بِه من أن أكونَ مُحِبًّا غير مَحْبُوبِ

وأنا أمرُّ مسرعًا بالدالية التي مدح بها المتنبي كافورًا آخر سنة ست وأربعين وثلثمائة، ولكني أروي منها هذه الأبيات وحدها؛ لأنها تصور أبلغ تصوير وأجمله، تلك العلة التي حملت المتنبي فِي حياته ما احتمل من جهد وعناء، وألقته صريعًا آخر الأمر فِي مَهْمَهٍ من مهامه العراق، وهذه العلة هي قلبه الذي لا يقنع بشيء ولا يطمئن إلى حال، وإنما هُوَ طامعٌ أبدًا، طامحٌ أبدًا راغبٌ فِي التغيير، قلق مهما يستقر:

وفي الناسِ من يرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشه ومركوبُه رجلاهُ والثَّوْبُ جِلْدُهُ
ولكِنَّ قَلْبًا بينَ جَنْبَيَّ مالَهُ مَدًى يَنْتَهِي بِي في مُرادٍ أَحُدُّهُ
يَرى جِسْمَهُ يُكْسَى شفُوقًا تَرُبُّهُ فيختارُ أن يُكْسَى دُرُوعًا تَهُدهُ
يُكَلِّفُنِي التهجير في كُل مَهْمه عَلِيقِي مَرَاعيه وزَادِي رُبْدهُ
وأمضى سِلاحٍ قلَّدَ المرءُ نَفْسَهُ رجاءُ أَبِي المِسْكِ الكَرِيمِ وقَصْدُهُ

ويطول انتظار المتنبي ويبطئ وفاء كافور، ويبعد العهد بسيف الدولة، فيهدأ الغيظ ويسكت الغضب، ويبقى الندم قويًّا لاذعًا، وإذ بنا نرى الشَّاعِر يمدح كافورًا سنة سبع وأربعين وثلثمائة بهذه الميمية التي يكفي أنْ تقرأ مطلعها لتفهم منه ندم الشاعر، وتتصور حاله النفسية، وتبين أنه سيحمد سيف الدولة فِي القصيدة ويعتذر عن فراقه إياه، يصور بذلك ندمه من جهة، ويدعو بذلك كافورًا إلى الوفاء من جهة أخرى:

فِراقٌ ومَنْ فارقتُ غَيرُ مُذَمَّمِ وأمٌّ ومن يَمَّمْتُ خَيرُ مُيَمَّمِ

وتتقدم هذه السنة والشاعر منتظر، والأمير مبطئ، وندم الشَّاعِر على ما خلف وراءه يقوى ويشتد ويكلفه أحزانًا وآلامًا، وإذا هُوَ يهنئ كافورًا بعيد الفطر، فينشده هذه البائية، وهي آثر ما قال فِي كافور عندي؛ لأنها تصرح عن نفس الشَّاعِر تصريحًا لا لبس فيه، فهو حامد لأثر سيف الدولة يجهر بين يدي كافور بندمه على فراقه، وهو واصف لما لقي من الجهد فِي الفرار من حلب، وهو مطالب كافورًا بتحقيق أمله فِي غير تعريض ولا تلميح، وهو يشير إلى أنه قد بعد عن أهله وطال بعده عنهم، واشتد لذلك حزنه وعظم ألمه، وهو يحب أن يعود إليهم، لولا أنَّ الآمال تقيده عند كافور، واقرأ هذين البيتين، وانظر إلى تصويرهما للندم:

وَلِله سَيْرِي مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الحَدَالَى وَغُرَّبُ
عَشِيَّةَ أحْفَى الناسَ بي من جَفَوْتُه وأهدَى الطرِيقينِ التي أتَجَنَّبُ

واقرأ كذلك هذه الأبيات لترى ملله من طول ما اشتكى وتعتَّب:

أَلَا ليت شِعري هل أقُولُ قَصيدةً فلا أشْتكي فيها ولا أتَعتَّبُ
وبي ما يَذُود الشعْرَ عَنِّي أقلُّهُ ولكنَّ قَلْبِي يا بْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ
وأخلاقُ كافُورٍ إذا شئتُ مَدْحَهُ وإنْ لم أشَأ تُملي عَلَيَّ وأكتبُ

وانظر بعد هَذَا إلحاح الشَّاعِر على الأمير فِي حاجته وتصريحه بهذه الحاجة فِي غير لبسٍ ولا غموض:

أبا المِسْكِ هل في الكأس فَضْلٌ أنالُه فإنِّي أغَنِّي مُنْذُ حين وتَشْربُ
وهَبْتَ عَلَى مقدارِ كَفَّيْ زماننا ونَفسْي عَلَى مِقْدارِ كَفَّكَ تطلُبُ
إذا لم تَنُطْ بي ضَيْعَةً أو ولايةً فجودك يكسُونِي وشُغلُكَ يَسلُبُ
يُضاحِكُ فِي ذَا الْعِيدِ كُلٌّ حَبِيبَهُ حِذَائِي وَأَبْكِي مَنْ أُحِبُّ وَأَنْدُبُ
أَحِنُّ إلى أَهْلِي وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأَيْنَ مِنَ الْمُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

ولكنه حسن الاستعداد للتعزي عن أهله بالبقاء مع كافور، بشرط أنْ يُحسن هَذَا البقاء، وأنْ يكون فيه الثراء والمجد معًا:

فَإنْ لَمْ يَكُنْ إلَّا أَبُو المِسْكِ أَوْ هُمُ فَإنكَ أَحْلَى فِي فُؤَادِي وَأَعْذَبُ
وَكُل امْرِئ يُولِي الجَمْيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ

وفِي هَذَا البيت الأخير نفس أبي الطيب كلها، فهو رجل لا يحب إلا نفسه، وهو سعيد حيث وجد من الناس الجميل، وهو راض حيث وجد المجد العزة، فأما الوطن والأهل والأصدقاء، فتأتي بعد ذلك، ولعلها لا تأتي.

ولا يحفظ الديوان لنا من مدحه لكافور سنة ثمان وأربعين وثلثمائة إلا قصيدة واحدة، لم نحصها فيما أحصينا من قصائد المدح؛ لأنا سنتحدث عنها فِي فصل خاص مع قصيدة أخرى بها سنة سبع وأربعين وثلثمائة ولم نحصها أَيْضًا فيما أحصينا.

وكذلك لا يحفظ الديوان من مدح المتنبي لكافور سنة تسع وأربعين وثلثمائة إلا قصيدة واحدة هي البائية التي أنشده إياها حين لقيه لآخر مرة.

ثم لا يروي الديوان لنا مدحًا لكافور فِي سنة خمسين وثلثمائة، مع أنَّ الشَّاعِر لم يترك مصر إلا فِي ذي الحجة من هذه السنة. أفيمكن أنْ يكون المتنبي قد أعرض عن مدح الأمير هَذَا الإعراض نحو سنتين كاملتين، ولم يتهمه الأمير ولم ينكر سكوته هَذَا الطويل؟ أما أنَّ الأمير كان يتهم المتنبي ويرصد له الأحراس ويدس عليه الجواسيس، فشيء يظهر أنه كان محققًا، وأما أنَّ المتنبي قد سكت عن مدح الأمير هَذَا الوقت الطويل، فشيء أشك فيه كل الشك، وأكاد أقطع بأن المتنبي قد مضى فِي مدح كافور سنة

تسع وأربعين وسنة خمسين كعهده فِي السنتين السابقتين، ولكنه أسقط هَذَا الشعر من ديوانه، أو أسقط هَذَا الشعر من الديوان بعد المتنبي ولم يصل إلينا، وليس غريبًا أنْ يستخذى المتنبي من كثرة ما استجدى فِي غير فائدة، فيسقط طرفًا من هَذَا الاستجداء، ولا يُبقي من شعره فيه إلا ما يقيم له الحجة عليه، ومهما يكن من شيء فإن قصيدته الأخيرة تصور يأسه أو قربه من اليأس، كما تصور استخذاءه من شماتة أهل حلب فيه بعد أنْ حاول ما حاول وألح ما ألح ولم يظفر بطائل، وهو يقول ذلك لكافور فِي لهجة مؤلمة حقًّا، فانظر إلى هذه الأبيات:

أَرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالبِعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ بَيْنَنا وَدُونَ الَّذِي أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
أُقِلُّ سَلَامِي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمُ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يكُونَ جَوَابُ
وَفِي النَّفْس حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبّ رِشْوَةً ضَعِيفُ هَوًى يُبْغَى عَلَيْهِ ثَوَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَاذِلي عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُوني فَشَرَّقُوا وَغَرَّبْتُ أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا

ثم انظر إلى البيتين اللذين يختم بهما القصيدة:

وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْت إِلَّا مُهَاجِرًا لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابُ
وَلَكِنَّكَ الدنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةً فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

فهذا شعر مستعطف ذليل بائس، قد تقطعت به الأسباب أو كادت تتقطع، وهو يعلن حسرته ولهفته فِي لهجة عذبة مؤثرة حقًّا، ولكن كافورًا كان صاحب سياسة لا صاحب عاطفة، وقد كوَّن رأيه فِي هَذَا الشَّاعِر وقضى فيه بأمره، واتخذه أسيرًا فِي سجن ينعم فيه بلين الحياة وخفض العيش، ورأى أنَّ هَذَا يكفيه.

وأنت بعد النظر فِي هذه القصائد كلها بتفصيل أوفى مما عرضت عليك مقتنع بأن المتنبي قد آثر نفسه وآثر سيف الدولة بخير ما فيها من الشعر، وأنَّ ما قدم من المدح إلى كافور على جودة بعضه وتوسط بعضه الآخر لم يكن يستحق أكثر مما أخذ المتنبي من مال هَذَا الأمير.

(٨) شعره السياسي عند كافور

وقد كادت الفرصة تسنح للمتنبي وتهيئ له العودة إلى الفن الذي برع فيه عند سيف الدولة، وهو وصف الحرب وتصوير الجهاد، ولكنها لم تلبث أنْ أخلفت الظنون واضطرت المتنبي إلى الهدوء الذي كان يكرهه ولا يحتمله إلا فِي مشقة وعناء.

ففي سنة سبع وأربعين وثلثمائة كانت وحشة بين كافور وبين أنوجور بن الإخشيد، سعى فيها المفسدون بين الملك ووليه، وجدُّوا فِي السعي حَتَّى أفسدوا بينهما، وحتى كادت الحرب تشب، ثم اصطنع كافور الحلم والأناة كما اصطنع معهما العزم والحزم، وأحس الملك ضعفه عن الحرب وحاجته إلى وليه، فعاد الأمر بينهما إلى صفاء، وذكر المتنبي هذه القصة مرتين، المرة الأولى حين هنأ كافورًا بعيد الفطر لهذه السنة ببائيته المشهورة التي تحدثنا عنها آنفًا، والمتنبي فِي هذه القصيدة يُجمل ولا يفصل، ويكاد يؤثر التعريض على التصريح، ولكنه مع ذلك حازم عازم، منضم إلى كافور من غير تردد ولا التواء، معلن أنَّ الملك مدين لهذا الرجل ببقائه وسلامته وقصور الأعداء فِي الوصول إليه، وقصور الأحداث عن البلوغ منه؛ لأنه قام على هذه الدولة قيام الأب الجريء الرحيم، فرد عنها العدو الخارجي بالحرب، ورد عنها البؤس والفقر والاضطراب بحسن السياسة والتدبير، فالذين يحسدونه أو يمكرون به أو يريدون صرف السلطان عنه طاغون باغون جاحدون للنعمة منكرون للجميل، وذلك حيث يقول:

يُرِيدُ بِكَ الحُسَّادُ مَا اللهُ دَافِعٌ ... وَسُمْرُ الْعَوَالِي وَالْحَدِيدُ المُذرَّبُ
وَدُونَ الَّذِي يَبْغُونَ مَا لَوْ تَخَلَّصُوا ... إلى المَوْتِ مِنْه عِشْتَ وَالطِّفْلُ أَشْيَبُ
إِذَا طَلَبُوا جَدْوَاكَ أعْطُوا وَحُكِّمُوا ... وَإِنْ طَلَبُوا الْفَضْلَ الَّذِي فِيكَ خُيِّبُوا
وَلَوْ جَازَ أَنْ يَحْوُوا عُلَاكَ وَهَبْتَهَا ... وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاء مَا لَيْس يوهَبُ
وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ
وَأَنْتَ الَّذِي رَبيتَ ذَا المُلْكِ مُرْضَعًا ... وَلَيْسَ لَهُ أُمٌّ سِوَاكَ وَلَا أَبُ
وَكُنْتَ لَهُ لَيْثَ الْعَرِينِ لِشِبْلِهِ ... وَمَا لَكَ إلا الهِنْدُوَانِيَّ مِخْلَبُ
لَقِيتَ الْقَنَا عَنْهُ بِنَفْسٍ كَرِيمَةٍ ... إلى الْمَوْتِ فِي الهَيْجَا مِنَ الْعَارِ تَهْرُبُ

ثم يقول:

وَيُغْنِيكَ عما يَنْسُبُ الناسُ أَنهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ
وَأَي قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانٍ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

وظاهرٌ ما فِي الأبيات من اندفاع المتنبي فِي تأييد كافور وصدق لهجته فِي النهوض بالذود عنه، ولنذكر هَذَا البيت الأخير الذي يفدي الشَّاعِر فيه هَذَا العبد الأسود بمعد ويعرب جميعًا، فقد ينفعنا تذكر هَذَا البيت حين نرى هجاء المتنبي لكافور.

ولما تم الصلح واستقر الأمر بين الملك ووليه، قال المتنبي داليته المشهورة يهنئ بها كافورًا، وهي عندي من أجمل شعر المتنبي وأصدقه فِي تصوير ما يكون فِي مصر بين حين وحين من الفرقة وانشقاق العصا، ثم من الوحدة واجتماع الرأي، ومن أبياتها ما يمكن إنشاده والتمثل به فِي هَذَا العصر الذي نعيش فيه، وفِي هَذَا الطور من أطوار تاريخنا الحديث بصفة خاصة، ونلاحظ أنَّ المتنبي قد أشار إلى الملك فِي هذه القصيدة ولكنه لم يسمعه، وقد أثنى عليه ولكنه اقتصد فِي الثناء، وخص بالذكر والمدح الخالص كافورًا، وانظر إلى أول القصيدة:

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ
وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسٌ حَالَ تَدْبِيـ ـرُكَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ المُرَادِ
صَارَ مَا أَوْضَعَ المُحِبُّونَ فِيهِ مِنْ عِتَابٍ زِيَادَةً فِي الوِدَادِ
وَكَلَامُ الْوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى الْأَحْـ ـبَابِ سُلْطَانُهُ عَلَى الْأَضْدَادِ
إِنَّمَا تُنْجِح المَقَالَةُ فِي المَرْ ءِ إِذَا وَافَقَتْ هَوًى فِي الْفُؤَادِ

فهذا كلام سائغ اللفظ، قريب المعنى، ملائم لأهواء النفوس المجتمعة بعد افتراق، وعواطف القلوب المؤتلفة بعد اختلاف، وهو قد صور الفرقة والألفة اللتين كانتا بين الكافورية والإخشيدية سنة سبع وأربعين وثلثمائة، وهو فِي الوقت نفسه خليق أنْ يتمثله المصريون فِي عصرهم الحديث كلما أتيح لهم الائتلاف بعد الاختلاف، والاتفاق بعد الافتراق، وقد عطف المتنبي على كافور بعد هذه الأبيات فوصف ثباته وحلمه وإعراضه عن الوشاة وامتناعه على دعاة السوء فِي كلام ما أرى إلا أنه يصلح للإنشاد فِي هَذَا العصر الحديث، ويصور بعض النابهين الذين نحبهم من المصريين، قال:

وَلَعَمْرِي لَقَدْ هُزِزْتَ بِمَا قِيـ ـلَ فَأُلفيْتَ أَوْثَقَ الْأَطْوَادِ
وَأَشَارَتْ بِمَا أَبَيْتَ رِجَالٌ كُنْتَ أَهْدَى مِنْهَا إلى الْإِرْشَادِ

ثم يقول:

نِلْتَ مَا لَا يُنَالُ بِالبِيضِ وَالسُّمْـ ـرِ وَصُنْتَ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَجْسَادِ
وَقَنَا الْخَطِّ فِي مَرَاكِزِهَا حَوْ لَكَ وَالْمُرْهَفَاتُ فِي الْأَغْمَادِ
مَا دَرَوْا إِذْ رَأَوْا فُؤَادَكَ فِيهِمْ سَاكِنًا أَنَّ رَأْيَهُ فِي الطِّرَادِ

ثم يقول:

فَبِهَذَا وَمِثْلِهِ سُدْتَ يَا كَا فُورُ وَاقْتَدْتَ كُلَّ صَعْبِ الْقِيَادِ
وَأَطَاعَ الَّذِي أَطَاعَكَ وَالطَّا عَةُ لَيْسَتْ خَلَائِقَ الْآسَادِ

ثم يقول:

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طِعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ
لَاعَدَا الشَّرُّ مَنْ بَغَى لَكُمَا الشـ ـرَّ وَخَصَّ الفَسَادُ أَهْلَ الْفَسَادِ
أَنْتُمَا مَا اتَّفَقْتُمَا الجِسْمُ وَالرُّو حُ فَلَا احْتَجْتُما إلى الْعُوَّادِ

وانظر إلى هذه الأبيات العذبة التي يملؤها الحنان، والتي تصور أحسن تصوير وأبدعه وأروعه ما يكون من تواصل بعد تقاطع، ومن مودة بعد حفيظة وضغن، والتي نحس معناها بين حين وحين، ونود لو نحسه فِي كل حين:

مَنَعَ الوُدُّ وَالرِعَايَةُ وَالسؤ دُدُ أَنْ تَبْلُغَا إِلى الْأَحْقَادِ
وَحُقُوقٌ تُرَقِقُ الْقَلْبَ لِلْقَلْـ ـبِ وَلَوْ ضُمنَتْ قُلُوبَ الجَمَادِ
فَغَدَا المُلْكُ بَاهِرًا مَنْ رَآهُ شَاكِرًا مَا أَتَيْتُمَا مِنْ سَدَادِ
فِيهِ أَيْدِيكُمَا عَلَى الظَّفَرِ الحُلْـ ـوِ وَأَيْدِي قَوْمٍ عَلَى الْأَكْبَادِ
هَـذِهِ دَوْلَةُ المَكَارِمِ وَالرأْ فَةِ وَالمَجْدِ وَالنَدَى وَالْأَيَادِي

كَسَفَتْ سَاعَةً كَمَا تَكْسِفُ الشمـْ ـسُ وَعَادَتْ وَنُورُهَا فِي ازْدِيَادِ

أرأيت أجمل من هَذَا الكلام، وأبرع من هَذَا التصوير، وأنفذ من هذه المعاني إلى ضمائر النفوس ودخائل القلوب، فِي ألفاظ حلوة لينة جزلة رصينة، وهي مع ذلك ترضي الذوق ولا تؤذيه، وتقهر السمع ولا تشق عليه، أرأيت شعرًا أصدق فِي تصوير اتفاق المصريين، حين يتفقون برغم الكائدين والحاسدين، من هَذَا البيت الذي يجمع الصدق والدقة وجمال اللفظ وعذوبة المعنى ومضاء الرأي ونفاذ البصيرة ورضا النفس وتحدي العدو:

فِيهِ أَيْدِيكُمَا عَلَى الظَّفَرِ الحُلْـ ـوِ وَأَيْدِي قَوْمٍ عَلَى الْأَكْبَادِ

ويخلص المتنبي بعد ذلك إلى كافور فيختصه بالمدح ويقصر عليه الثناء، ويصطنع الذوق والظروف، فلا يستنجزه وعدًا ولا يسأله شيئًا، وذلك حيث يقول:

أَجْفَلَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِ أَبِي المِسْـ ـكِ وَذَلَّتْ لَـهُ رِقَـابُ الـعِـبَـادِ
كَيْفَ لَا يُتْرَكُ الطَّرِيقُ لِسَيْلٍ ضَـيِـقٍ عَـنْ أَتِـيِّـهِ كُـلُّ وَادِ

ولما كانت سنة ثمان وأربعين وثلثمائة عرضت فرصة أخرى كادت تدفع المتنبي إلى وصف الحرب، ولكن الظروف حوَّلتها عن وجهها، فقد ثار شبيب العقيلي فِي الشام، واجتمع حوله عدد ضخم من الأعراب، وعرَّض النظام للخطر وأغار على دمشق وكاد يقتحمها، ولكنه سقط فِي الميدان أثناء الهجوم صريعًا ميتًا لم يمسه سيف ولا رمح ولا سهم، واختلف الناس فِي تفسير موته، فظن بعضهم أنْ قد كان به صرع قضى عليه، وتحدث قوم آخرون بأن السم هُوَ الذي قتله، وبأن كافورًا هُوَ الذي وجه من دسَّ له السم فِي الطعام أو فِي الشراب.

وقال المتنبي فِي هذه القصة ميميته الغامضة، التي يقال: إنها أثارت أو قوَّت الشكوك فِي نفس كافور؛ لأن الشَّاعِر لا يذم فِي هذه القصيدة شبيبًا، بل يحمده ويرثيه، ويُظهر الأسف الشديد عليه، وهو فِي الوقت نفسه يحمد حظ كافور ويهنئه بمواتاة الأيام والحوادث له وردها عدوه عنه فِي غير حرب ولا قتال، وأنا لا أقف فِي هذه القصيدة موقف المعجب المسائل ولا موقف المتشكك المستريب، ولا أظن أنَّ كافورًا قد شك فيها أو ارتاب بها، وما كان له أنْ يشك أو يرتاب، وهو فيما أرجح الذي أوحى هذه القصيدة

وكلف المتنبي أنْ يذهب فيها هَذَا المذهب، ليخفي ما كان قد دبر من كيد، أو ما زعم الناس أنه دبر من كيد، وهذا من سيرة الساسة وأصحاب الدهاء معروف فِي كل مكان، وفي قصور الشرق التي يستأثر فيها الفرد بالحكم والسلطان بنوع خاص، وأول هذه القصيدة:

عَدُوكَ مَذْمُومٌ بِكُل لِسانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلـلـهِ سِرٌّ فِـي عُلَاكَ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

والناس يسيئون الظن بهذا البيت، ويرى بعضهم أنه إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح، كأن المتنبي قد جعل ارتفاع قدر كافور أثرًا من آثار المصادفة، ونوعًا مما تنكشف عنه الظروف، ولكني قدَّمت لك أني أرتاب فِي ارتياب الناس هذا، إنْ صح أنْ نصطنع أسلوب المتنبي فِي الحديث، فالبيت مدح خالص لا غبار عليه ولا لبس فيه؛ لأن الشَّاعِر لا يريد إلا أنْ يقول: إنَّ الله كتب العلا لكافور، وهيَّأ له قهر الحوادث، وذلل له المصاعب والعقبات، دون أنْ يكلفه جهدًا أو يحمله عناء؛ لأنه أتاح له حظًّا موفقًا سعيدًا، فمن الحق على أعدائه أنْ يعلموا أنَّ الله معه، وأنَّ الزمان مواتيه، فلا يطمعوا فيه ولا يشكوا فيما كتب له من فوز وتوفيق، والشعر الذي يأتي بعد هَذَا صريح فِي تحقيق ما أراد الشَّاعِر إليه، وهو يقول:

أَتَلْتَمِسُ الْأَعْدَاءُ بَعْدَ الذِي رَأَتْ قِيَامَ دَلِيلٍ أَوْ وُضُوحَ بَيَانِ
رَأَتْ كُلَّ مَنْ يَنْوِي لَكَ الْغَدْرَ يُبْتَلَى بِغَدْرِ حَيَاةٍ أَوْ بِغَدْرِ زَمَانِ

ولكن الناس بعد أنْ عرفوا ما كان من فساد الأمر بين الشَّاعِر وكافور، مشغوفون بالتماس التعريض والتلميح والالتواء فِي كل ما قال المتنبي، وهم يحملون شعر الرجل ما لا يحتمل، ويضيفون إلى المتنبي ما لم يرده ولم يفكر فيه، والناس معذورون؛ لأن المتنبي نفسه هُوَ الذي استخذى من مدحه لكافور ففتح لهم هَذَا الباب.

والشاعر يمضي بعد ذلك فِي رثاءٍ شبيب والثناء عليه، بما يخيل إلينا أنَّ قلب المتنبي قد خفق بشيء من الحنان والعطف على هَذَا المخاطر الذي أعجله الموت عن تحقيق ما كان يريد، ولا غرابةً فِي ذلك، فقد كان المخاطرون المخفقون يذكِّرون المتنبي بما تعرض

له أثناء الشباب، ولعلك لم تنس أنَّ شيئًا من هَذَا الشعور يظهر فِي لاميته التي ذكر فيها إيقاع سيف الدولة بالقرامطة الذين أسروا ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود.

فأنت ترى أنَّ إلمام المتنبي بالسياسة المصرية كان يسيرًا، لأنها لم تكن سياسة حرب وقتال، وإنما كانت سياسة مكر ودهاء، وليس المتنبي من المكر والدهاء فِي شيء، وأيسر أصول المكر والدهاء ألا يظهر عليهما شاعر لا يمسك لسانه، وهو بعدُ غريبٌ متَّهمٌ وطامعٌ محرومٌ.

(٩) غناؤه في مصر

وأجمل ما قال المتنبي من الشعر فِي مصر إنما هُوَ هَذَا الغناء الذي صور فيه حزنه وألمه واغترابه، وهذه البطالة التي فُرضت عليه، وهذا اليأس الذي جاهده خمس سنين، وقد استأثر هَذَا الغناء بشعره الذي قاله فِي مدح كافور كما رأيت، وبشعره الذي قاله فِي هجاء كافور كما سترى، ولكن المتنبي قد تغنى حزنه وألمه، وما أحاط بنفسه من الكوارث والخطوب، فِي شعر لم يقصد به إلى مدح ولا هجاء، وإنما قصد به إلى الغناء وحده، كان طائرًا تعوَّد الهواء الطلق والفضاء العريض، يرتفع فِي السماء ما أتاحت له قوته العنيفة أنْ يرتفع، فإذا أراد الراحة لم يقع إلا على الشواهق من قمم الجبال، فإذا هُوَ الآن سجين فِي قفص ضيق، لعله من الذهب المرصع بألوان الجوهر، ولكنه قفص على كل حال، وكان جوادًا مرحًا فرحًا، حياته كلها فِي العدو والغزو، ولذته كلها فِي المرح والنشاط، لا يطمئن ولا يرضى إلا إذا مضى أمامه فِي البيد والمهامه، مستمتعًا بحر النهار وبرد الليل، أو اقتحم الصعاب والعقاب إلى العدوِّ ثملًا بنشوة الظفر أو ألم الهزيمة، فإذا هُوَ الآن مرتبط فِي الفسطاط عند قصر كافور، قد مضغ الشكيم حَتَّى ملَّ مضغ الشكيم، وقد أفنى مرحه ونشاطه فِي هذه الحركات العنيفة المرحة التي يأتيها الجواد الأصيل فِي الرباط لا تقدمه ولا تؤخره، فإذا طالت عليه أضنته وعنته وردته إلى الخمود والفتور.

هذه كانت حال المتنبي حين طالت إقامته فِي الفسطاط، يغدو على كافور ويروح إلى داره، ويخلص من حين إلى حين لهؤلاء الجلساء الذين كانوا يروون عنه شعره، ويسألونه عن غريبه ومشكله، وما تعوَّد الرجل هذه الحياة الهادئة الخاملة، فإذا أضفت إلى ذلك أنَّ أمله فِي كافور قد ألح عليه حَتَّى أصبح مرضًا، وأنَّ حزنه لفراق سيف الدولة قد طبع فِي قلبه حَتَّى أصبح نُدُوبًا لا تزول، وأنه كان يشعر شعورًا قويًّا مؤذيًا بأن

كرامته قد أهينت ﻓِﻲ مصر، وبأن الذين تحداهم ﻓِﻲ حلب وتركهم مغاضبًا لهم، تنتهي إليهم أخبار حياته هذه المظلمة القاتمة، فيسخرون منه ويشتمون به، وقد تنقطع عنهم أخباره، فيخلقون الأخبار من عند أنفسهم، ويتحدثون بها ﻓِﻲ مجلس صديقه القديم شامتين ساخرين.

إذا قدَّرت ﻫَﺬَا كله، وذكرت أنَّ نفس المتنبي كانت من الدقة والرقة ورهافة الحس، بحيث يؤذيها أقل شيء ويثيرها أهون أمر، عرفت أنَّ الشَّاعِر كان ﻓِﻲ مصر تعسًا مبتئسًا، خليقًا بالرحمة والرثاء، وقد نفس الرجل عن نفسه ﻓِﻲ مدحه لكافور وفي هجائه إياه، وحين خلا إلى نفسه ولم يفكر إلا فيها، ولكن شعره ﻫَﺬَا الحزين الكئيب مخالف كل المخالفة، ﻓِﻲ طبيعته ونغمته ولهجته، لما كان يقوله من الشعر الحزين أيام الشباب، فأنت تذكر شعره الذي شكا فيه أيام الشباب، ومكر الزمن به، وتنكر الحوادث له، وتألب الخطوب عليه، وأنت ترى أنَّ ذلك الشعر قد كان ثائرًا هائجًا، يظهر فيه الاضطراب العنيف، والغضب الذي لا حدَّ له والذي ينذر بالانفجار، وينتهي أحيانًا إلى ما يخرج به الشاعر عن طوره، ويطرح فيه كل وقار.

وما أظنك تستطيع أنْ تجد ﻓِﻲ كل ما قاله المتنبي من شعر الشكوى قبل زيارته لمصر إلا قصيدة واحدة أنكر فيها الشَّاعِر نفسه، واستسلم فيها للحزن والألم حينًا، ولكنه لم يلبث أنْ ثاب إلى نفسه، واسترد قوته العنيفة، وبأسه الشديد، وهي الميمية التي قالها بعد أنْ فر من بدر بن عمار، ولجأ حينًا إلى صديقه المُرِّيِّ، والتي أولها:

لَا افْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ مُدْرِكٍ أَوْ مُحَارِبٍ لَا يَنَامُ

فأما ﻓِﻲ مصر فنحن نحس أنَّ شيئًا قد انحطم ﻓِﻲ نفس ﻫَﺬَا الشَّاعِر العنيف، فإذا حزنه لا يصطنع لغة الغضب ولا لغة الثورة، وإنما يصطنع لغة الشكوى والأنين، كأنه الجريح لا يستطيع أنْ يقبض على السيف ولا أنْ يبطش به، ولا يملك إلا أنْ يئن أنين العاجز الكليل.

أكان مصدر ذلك أنَّ شيئًا قد انحطم ﻓِﻲ نفس المتنبي حقًّا مع تقدم السن واختلاف الأحداث، ففارقه شبابه، وتفرقت عنه خصال القوة والجرأة والبأس، وبقي له عقله المفكر، وقلبه الحساس، ونفسه الشاعرة، فهو يرى الألم ويحتمله، ولا يرى ﻓِﻲ نفسه القدرة على دفعه؟ أم كان مصدر ﻫَﺬَا أنه أسير ﻓِﻲ مصر قد ضربت حوله مراقبة شديدة،

وأرصدت له العيون والجواسيس، فهو مضطر إلى الحذر والاحتياط، وهو مكره على القصد والاعتدال؟

كلا الأمرين كان حقًّا، فقد رشد المتنبي ونضج عقله المفكر، فأدرك الضعف والفتور نفسه الثائرة، وهو فِي الوقت نفسه أسير سجين، مشدد عليه فِي المراقبة، مكلف أنْ يتحفظ ويحتاط.

ولم يحفظ الديوان لنا كثيرًا من هَذَا الشعر الذي اختص الشَّاعِر به نفسه فِي مصر، ولكن ما بقي منه خليق بالإعجاب كل الإعجاب، وهذه الميمية التي قالها حين أصابته الحمى فِي مصر سنة ثمان وأربعين وثلثمائة من أرق الشعر العربي كله، وأعذبه وأرقاه، وأشده استثارة للحزن، وتحريقًا للقلوب الحساسة الشاعرة، وقد أعجب القدماء بهذه القصيدة؛ لأن الشَّاعِر قد برع فيها حين أراد وصف الحمَّى؛ وليس فِي هَذَا شك، ولكني حين أحب هذه القصيدة وأكلف بها، لا أكاد أحفل بهذه البراعة الفنية أو أقف عندها؛ لأن حزن هَذَا الشَّاعِر العظيم قد تجاوز الفن وصار أعظم منه وأبعد مدى، وأنفذ إلى القلوب والنفوس، فأنا لا أرى شاعرًا يصطنع الشعر ليصور ما يجد من لوعة وحسرة ويأس، وإنما أرى اللوعة والحسرة واليأس تتخذ الشعر لها لسانًا لتبلغ أسماعنا وتنتهي إلى قلوبنا.

وما أشك فِي أنَّ لهذه القصيدة قيمتها الفنية الخالصة، ولكني لا أشك فِي أنها لم تكلف الشَّاعِر من الجهد والعناء، ما تعوَّد أنْ يتكلفه فِي غيرها من قصائده، وإنما فاضت بها نفسه، وانطلق بها لسانه، وجرى بها قلمه فِي غير تكلف ولا عسر، واقرأ هذه الأبيات لترى فيها كيف كانت خيبة أمله فِي الأصدقاء:

وَلَما صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ ... لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي ... وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ
وَآنَفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي ... إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ

أترى إِلَيْهِ كيف يصطنع النفاق والمداجاة على شدة بغضه للنفاق والمداجاة؛ لأنه أصبح لا يجد من ذلك بدًّا! وأين نحن من المتنبي الذي كان يقول بين يدي أبي العشائر:

فَلَا مُبَالٍ وَلَا مُدَاجٍ وَلَا   وَانٍ وَلَا عَاجِزٌ وَلَا تُكَلَهْ

لقد أصبح الآن يجزي على ابتسام بابتسام، ويلقى نفاقًا بنفاق؛ لأنه عرف الناس واعترف بأن الجماعة أقوى من الفرد، وبأن الحوادث أقوى من الإنسان، وبأن الحياة أعظم قوة من الأحياء.

وانظر إِلَيْهِ كيف يصف سجنه فِي مصر:

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَائِي   تَخُبُّ بِيَ الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَّنِيَ الْفِرَاشُ وَكَانَ جَنْبِي   يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامِ
قَلِيلٌ عَائِدِي سَقِمٌ فُؤَادِي   كَثِيرٌ حَاسِدِي صَعْبٌ مَرَامِي

وأنا أدع وصفه الرائع للمرض والحمى، فقد كثر فيه حديث القدماء، وأصل إلى هذه الأبيات التي يصف فيها علة مرضه الصحيحة، وهي هذه البطالة التي فُرضت عليه:

يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبِ أَكَلْتَ شَيْئًا   وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طِبهِ أَنِّي جَوَادٌ   أَضَرَّ بِجِسْمِه طُولُ الجَمَامِ
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبِّرَ فِي السَّرَايَا   وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ
فَأُمْسِكَ لَا يُطَالُ لَهُ فَيَرْعَى   وَلَا هُوَ فِي الْعَلِيقِ وَلَا اللِّجَامِ

ثم انظر آخر الأمر إلى هذه الأبيات التي تصوِّر إذعانه للقضاء وصبره على المحن، ولكنها تنتهي به إلى أنه هي اليأس القاتم الذي ليس وراءه أمل ولا رجاء:

فَإِنْ أَمرَضْ فَمَا مَرِضَ اصْطِبَارِي   وَإِنْ أحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعْتِزَامِي
وَإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ   سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ
تَمَتَّعْ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ   وَلَاتَأْمُلْ كَرًى تَحْتَ الرِّجَامِ

فَإِنَّ لِثَالِثِ الْحَالَيْنِ مَعْنًى   سِوَى مَعْنَى انْتباهك وَالمَنَامِ

والمتنبي فِي هذه الأبيات الأخيرة يبلغ الفلسفة العليا، ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرضه وما يحيط به من الأحداث، إلى التفكير فِي طبيعة الموت وما يكون وراء القبر، وهو هنا يائس، وما أراه إلا منكرًا للبعث جاحدًا للحياة الثانية، ولكنه يؤدي هَذَا الإنكار فِي تحفظ واحتياط شديدين، وأهون حاليه أنْ يكون شاكًّا مرتابًا، كما رأيت فِي بائيته التي رثى بها أخت سيف الدولة.

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يتعمق المتنبي فيها فِي أمور نفسه وأمور الناس حَتَّى ينتهي به التعمق إلى تجاوز نفسه وتجاوز الناس، وإذا هُوَ يفكر فِي فلسفة الأخلاق أو فلسفة الدين، فالنونية التي قالها فِي مصر وحفظها لنا الديوان، تحدثنا بكثير من تعمق المتنبي فِي أمور نفسه وأمور الناس أحيانًا، وهي على قصرها خصبة كثيرة الدلالة.

وما أرى إلا أنَّ طول تفكيره فِي قصته عند سيف الدولة هُوَ الذي ألهمه هذه الأبيات المظلمة التي هي عندي من أسس الفلسفة العلائية:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزمَانَا   وَعَنَاهُمْ منْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْـ   ـهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا
رُبَّمَا تُحْسِنُ الصنِيعَ لَيَالِيـ   ـهِ وَلَكِنْ تُكَدرُ الْإِحْسَانَا

فهو في هذه الأبيات يضع أساس التشاؤمِ المطلقِ واليأس الشامل، والتشاؤم الذي لا موضع فيه للتفاؤل، فهو قد صحب الزمان فلم يرَ منه خيرًا، والناس قبله قد صحبوا الزمان فلم يروا منه خيرًا، وهو لا ينكر أنَّ اللذةَ قد تعرض للناسِ في حياتهِم بين حينٍ وحين، ولكنه لا يشك في أنها لذَّة عارضة لا تلبث أنْ تزول، وطارئة لا تقيم حتى تَرِيمَ.

والناسُ جميعًا مهما تختلف حُظُوظُهُم من اللَّذَّاتِ، يتركون الحياة يائسين محزونين، آخر حظهم هذه الغصة التي تنغص كل ما بَلَوْا من خير ولقوا من إحسان، فالأصل فِي الزمان الشر، يبدأ حياة الناس وبه يختم حياة الناس، وقد يخلي هَذِهِ الحياة من الخير، وقد يشيع فيها بعضُ الخيْرِ، ولكنه مُنته بها دائمًا إلى الشَّرِّ.

وليس الناس خيرًا من الزمان، ولكنهم شركاؤه في الشر وأعوانه على السوء، كأنما تلقوا منه العدوى، فأسرعوا إلى موافقته ومعونته.

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ الـ ـدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا
كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ المرْءُ فِي القَنَاةِ سِنَانَا
وَمُرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَى

وإذا كان الزمان كله شرًّا، وإذا كان الناس أعوانًا للزمان على ما يُصبُّ عليهم من الشر، فما عسى أنْ تكون السيرة التي ينصح بها المتنبي للرجل الذي يريد أنْ يكون حكيمًا كريمًا؟ هي أنْ يكون شجاعًا، وألا يذعن للذل، ولا يستسلم للهوان، فأقصى ما ينتهي أمره إِلَيْهِ حين يأبى الذل ويمتنع على الضيم ويثور على الجائرين، إنما هُوَ الموت، والموت واقع لا محالة، وهو نازل بالشجاع والجبان، وبالقوي والضعيف، وبالثائر والمستكين، وإذن فليس هناك معنى للخوف منه أو تهيب لقائه، إنما يُفهمُ الخوف من الموت لو أنَّ للأحياء سبيلًا إلى الخلود، فأما والحياة إلى موت، والبقاء إلى فناء، فاحتمال الضيم عجز، والإذعان للهوان جبن.

وقد يخشى الناس ألم الموت؛ لأنهم يقدرون أنه مؤلم، ولكن قليلًا من الروية يزيل من نفوسهم هَذَا الخوف، فكل ما نراه صعبًا قبل وقوعه نراه سهلًا عند وقوعه، وإذن فليس للكريم خطة إلا الإقدام:

غَيْرَ أَنَّ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَايَا كَالِحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا
وَلَوَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا الشُّجْعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْـ ـفُسِ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

وما أرى إلا أنَّ هذه الأبيات الأخيرة تدل على الخطة التي كان المتنبي يديرها فِي رأسه حين استيأس من كافور وحين استيقن أنه أسير عند هَذَا الأمير، وهي خطة الهرب من مصر.

والديوان يحدثنا بأن الشَّاعِر استأذن كافورًا فِي الذهاب إلى الرملة، ليقضي مالًا كتب له به، فلم يأذن له الأمير، وأقسم عليه لا يرحل، وتكلف أنْ يقضي له ماله، ومنذ

ذلك الوقت لم يشكَّ المتنبي فِي أنه سجين كافور، ولم يفتر عن التفكير فِي الإفلات من هَذَا السجن.

وكم كنت أحب أنْ أقف عند هذه النونية التي قالها المتنبي فِي سيف الدولة وقد انتهت إِلَيْهِ الأنباء فِي مصر بأنه نُعي فِي مجلس الحمداني، فهذه النونية ليست أقل روعة ولا جمالًا من القصيدتين السابقتين، ولكني أذكر منها آخرها؛ لأنه يصور لنا ألم المتنبي من الحرمان فِي مصر والشماتة فِي حلب، ولا أعرف شيئًا يؤلم ويؤذي مثل هذه التعلة التي يخدع بها الشامتين به، وإنْ كان فيما بينه وبين نفسه لا ينخدع ولا يأمل ولا ينتظر شيئًا:

وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنِّي بَعْض مَوْعِدِهِ فَمَا تَأَخَّرُ آمَالِي وَلَا تَهِنُ
هُوَ الوَفيُّ وَلَكِني ذَكَرْتُ لَهُ مَوَدَّةً فَهْوَ يَبْلُوهَا وَيَمْتَحِنُ

وأنا أحسب لك أنْ تقرأ هذه القصيدة وتقرأها؛ فهي من أرقي شعر المتنبي وأبقاه.

(١٠) المتنبي وفَاتِك

وكأنَّ الزَّمَانَ قد تأذَّن أنْ يُعاقِبَ المتنبي عَلَى مَا بَلَا عِندَ سيف الدولةِ منْ راحةٍ ولذةٍ ونعيمٍ، أو أنْ يُعاقبَه على مَا أظهر عندَ سيفِ الدولةِ منَ اعتداد بالنفسِ وازدراءٍ للناس، ومن بغي وطغيان وكفر للنعمة وجحود للجميل، فأقسم لينغصنَّ عليه حياته فِي مصر كلها تنغيصًا، فبينا هُوَ شقي فِي الفسطاط بفراق سيف الدولة، وإخلاف كافور، وأَخْذِ الطرق عليه من كل وجه، واضطراره إلى حياة السجناء، وإذا أمل يبدو له، فيرد عليه فضلًا من حياة، ويشيع فيه شيئًا من نشاط، فقد اتصل — بعد جهد ومشقة — بأمير من أمراء مصر، هُوَ أبو شجاع فاتك الرومي الذي كان يعرف بالمجنون، وكان فاتك هَذَا مولى من موالي الإخشيد مثل كافور، وكان قائدًا من قواده، وكان مقدمًا عنده وأثيرًا فِي نفسه، وكان يفضَّل على كافور؛ لأنه أبيض من الروم، وكافور أسود نوبي أو زنجي، ولأن فاتكًا كان مقدامًا جريئًا يكاد يبلغ التهور أو الجنون، فأما كافور فقد كان كما رأيت من سيرته حازمًا عازمًا شجاعًا، ولكنه معتدل يؤثر المكر والدهاء على الحرب والقتال، ويصطنع فِي ذلك مذهب سيده الإخشيد، وكان فاتكًا مسرفًا فِي الكرم والجود، إنْ صدق تصوير المتنبي له، وصح ما يروي من إهدائه إلى الشَّاعِر عن سعة وسخاء،

ولم يكن كافور بخيلًا ولا حريصًا، ولكنه كان مدبرًا يكره الإسراف وينأى عنه، ولعل المتنبي تقرَّب إِلَيْهِ بقوله فِي الدالية المشهورة:

فَلا يَنْحَلِلْ فِي الْمَجْدِ مَالُكَ كُلُّهُ   فَيَنْحَلَّ مَجْدٌ كَانَ بِالْمَال عَقْدُهُ
وَدَبِّرْهُ تَدْبِيرَ الَّذِي المَجْدُ كَفُّهُ   إِذَا حَارَبَ الْأَعْدَاءَ وَالمَالُ زَنْدُهُ
فَلَا مَجْدَ فِي الدنْيَا لمنْ قَلَّ مَالُهُ   وَلَا مَالَ فِي الدنْيَا لمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

ولما مات الإخشيد قضت الظروف أنْ يكون تدبير الملك إلى كافور دون فاتك، فانحاز هَذَا إلى الفيوم، وكانت إقطاعًا له، وكانت أنباؤه وأحاديث الناس عنه تنتهي إلى المتنبي فتطمعه وتغريه، ولكنه كان لا يجد إلى لقائه سبيلًا، لتضييق كافور عليه وتشديده فِي المراقبة.

وقد اعتل فاتك وأقبل إلى القاهرة يستشفي، سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، ولعله احتال فِي لقاء المتنبي، واحتال المتنبي فِي لقائه، وأتيح لهما هَذَا اللقاء فِي الصحراء، كما يقول بن خلكان، ثم أهدى أبو شجاع إلى المتنبي فأحسن الإهداء، وأعطاه فأجزل العطاء، واستأذن المتنبي كافورًا فِي أنْ يشكر لفاتك إهداءه وعطاءه، فلم يجد كافور بدًّا من الإذن، مجاملة ومصانعة أيضًا، وقال المتنبي فِي فاتك لاميته المشهورة:

لَا خَيْل عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ   فَلْيُسْعِدِ النطْقُ إِنْ تُسعِدِ الحَالُ

وكأن المتنبي لم يستطع أنْ يكف نفسه عن التعريض الخفي بكافور، فقال فِي البيت الثاني من هذه القصيدة:

وَاجْزِ الْأَمِيرَ الَّذِي نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ   بِغَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى الناسِ أَقْوَالُ

وهو كذلك لم يستطع أنْ يخفي تأذِّيه بهذا السجن الذي يمسكه فِي الفسطاط، فقال:

وَإِنْ تَكُنْ مُحْكَمَاتُ الشكْلِ تَمْنَعُنِي   ظُهُورَ جَرْيٍ فَلِي فِيهِنَّ تَصْهَالُ

ثم اتخذ بعد ذلك فِي مدح فاتك سبيلًا سواء، ليس فيها تعوُّج ولا التواء.

ولعل المتنبي كان يتحدث إلى نفسه بأن الظروف قد تتيح له الاتصال بفاتك فِي غير احتياطٍ ولا حرج، ومن يدري! لعله كان يجد عند فاتك ما يعزيه عما لم يظفر به من كافور، ولكن الزمان كان قد تأذَّن، كما قلت لك، بأن ينغص على المتنبي حياته كلها فِي مصر، فقد مات فاتك بعد أنْ سمع هذه اللامية بوقت قصير، وحزن المتنبي عليه كما يستطيع أنْ يحزن، ورثاه كما يستطيع أنْ يرثى فِي قليل من الإجادة والتأثر، وفي كثير من الكلام، فقد رثاه ثلاث مرات فِي ثلاث قصائد، ولكنه لم يُظهر هَذَا الرثاء فيما أرجح إلا بعد خروجه من مصر، وأكبر ظني أنَّ المرثية الأولى قيلت فِي الفسطاط نفسها، وأولى هذه المراثي عينيته التي مطلعها:

الْحُزْن يُقْلِقُ وَالتجَملُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طيِّعُ

والثانية ميميته التي أولها:

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمِ

وقد قيلت فِي الكوفة.

والثالثة ميميته التي قالها فِي الكوفة وقد ذكره ببعض هداياه، وأولها:

يُذَكِّرُنِي فَاتِكًا حِلْمُهُ وَشَيء مِنَ النَّدِّ فِيهِ اسْمُهُ

وليس فِي هَذَا الرثاء كله ما يميزه من رثاء المتنبي إلا ما يشتمل عليه من هجاء كافور، كما أنَّ مدح المتنبي لفاتك لا يمتاز من سائر مدائحه بشيء.

فلندع هَذَا الشعر الذي لا يكاد يصور من حياة الشَّاعِر إلا بارقة أمل لم تلبث أنْ أخلفت الأيام فيها ظنون الشَّاعِر اليائس الحزين.

(١١) هجاؤه لكافور

وقد انتهى المتنبي بعد طوال الانتظار إلى اليأس من كافور وخيبة الأمل فيه، وإذا صدق الديوان فقد أقام سنة كاملة فِي مصر لا يرى كافورًا ولا ينشده، وإذا صدق ما يقوله بعض الرواة، فقد كان يظهر فِي القصر ويسير فِي المواكب، ولكنه لا يمدح الأمير طوال

سنة خمسين وثلثمائة، وأكبر الظن أنه كان يعيش عيشة المغضوب عليه، الذي أخذت عليه طرق الفرار، فهو حر فِي ظاهر الأمر سجين فِي حقيقته.

فِي ذلك الوقت جعل المتنبي يتهيأ للهرب من جهة، ويقول الشعر فِي هجاء كافور، والناس يكبرون هَذَا الهجاء ويكثرون الإعجاب به والكلام فيه، والمحدثون المعاصرون يختلفون فيه اختلافًا كثيرًا، فمنهم من يرى أن المتنبي قد تجاوز كافورًا بهذا الهجاء إلى مصر كلها والمصريين جميعًا، ومنهم من يرى أنه لم يرد مصر ولا المصريين، وإنما أراد كافورًا، ومن كان إليهم الحل والعقد من قادة الإخشيديين، وهم بعد ذلك يختلفون، فمنهم من يعذر المتنبي، ومنهم من يمقته ويسرف فِي مقته، ويكره من أجل هَذَا الهجاء شعره كله، وربما كان من الناس من يرى شيئًا من الصدق فيما عاب المتنبي به المصريين، فمن الناس من يتمثل بقوله:

أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ ... يَا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ

وأكثر الناس يتمثل بقوله:

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ ... وَلَكِنهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا

وربما تمثل بعضهم بقوله:

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْر عَنْ ثَعَالِبِها ... فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعَنَاقِيدُ

وأنا أعترف بأني لا أرى كل هذه الخصومة إلا لغوًا لا خير فيه، فقد غضب شاعر من الشعراء على أمير من الأمراء فهجاه، بعد أن رضي عنه فأثنى عليه، وهذا شيء يكون فِي كل زمان ويكون فِي كل مكان، وما ينبغي أن نحب الشعراء أو نبغضهم؛ لأنهم مدحوا أو هجوا، ولأنهم مدحونا نحن أو هجونا، وإنما ينبغي أن نعرف الشعراء أو ننكرهم؛ لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح، وهجوا فأجادوا الهجاء.

وقد رأينا أنَّ مدح المتنبي لكافور كان مدحًا معتدلًا، يجود حينًا ويتوسط حينًا آخر، وكان جزل اللفظ، رصين الأسلوب، أقرب إلى الرضا منه إلى السخط، وما أشك فِي أن المتنبي قد وفق للإجادة فِي هجاء كافور والمصريين أكثر مما وفق للإجادة فِي المدح، وليس يطلب إلى الشَّاعِر حين يهجو أن يقول حقًّا، إنما يطلب إِلَيْهِ أن يتقن الإساءة

إلى من يهجو، ويبرع فِي التشهير به والتشنيع عليه، فأما أن يكون صادقًا أو كاذبًا، فأما أن يكون مرضيًّا للأخلاق أو مخالفًا عن أمرها وقانونها، فهذا شيء لا يعني الفن بحال من الأحوال، وقد كذب الفرزدق على جرير، وكذب جرير على الفرزدق، وكذب غير الشاعرين عليهما جميعًا، وقُضِي لهؤلاء الشعراء بالبراعة فِي الهجاء.

فماذا أنكر المتنبي من كافور؟ أنكر عليه خلقه أولًا: رآه أسود دميمًا، قبيح الشكل، ضخم المشفر مشقوقه، غليظ القدمين مشقوقهما أيضًا، خصيًّا، ثم عيره هَذَا كله فِي شعر مضحك لاذع من غير شك، ولكنه كان يعرف هَذَا كله من كافور حين كان يمدحه ويتملقه، ويسرف في التقلب إليه، فهو قد أضحك الناس من كافور، ولكنه قد غض من نفسه عند الناس، والناس قد يضحكون من الرجل الدميم ذي الخلقة البشعة والشكل القبيح، ولكنهم مع ذلك يكبرون عقله، ويُعجبون بأخلاقه، ويحمدون مهارته فِي السياسة، وبراعته فِي تدبير أمور السلطان، وكذلك ضحك الناس من كافور، وما يزالون يضحكون منه إذا قرءوا أو سمعوا هجاء المتنبي له، ولكنهم لا يزدرونه ولا يحقرونه، وإنما يضحكون منه فِي شيء من العطف وكثير من الإعجاب، فإذا أنكروا أحدًا فهم ينكرون الشَّاعِر الذي أعطى ثم أخذ، ومنح ثم استرد، وقال ثم كذب نفسه، وهم حين يضحكون من هَذَا الشَّاعِر لا يبخلون عليه بالإعجاب والإكبار، فهم يكبرون فنه وبراعته فِي تصريف الكلام، ولكنهم يصغرون رأيه ويحقِّرون خُلقه، ولا سيما حين يكون هَذَا الرجل مكبرًا لنفسه كما أنَّ المتنبي يكبرها.

والمتنبي يهجو كافورًا بأصله، وبأنه كان رقيقًا تلعب فِي رأسه يد النخاس، وهذا كلام يُضحك الناس ويُرضي العامة، ولكنه لا يغض من كافور، ولا يضع من قدره، فقد كان المتنبي نفسه يثني عليه، لأنه ارتقى من حاله تلك إلى أنْ أصبح يدبر ملكًا واسعًا وسلطانًا بعيدًا.

والمتنبي بعد هَذَا كله ينكر نفسه أشد الإنكار، فما ينبغي للفيلسوف الحكيم الذي أنفق شبابه الأول ثائرًا على النظم الاجتماعية، منكرًا لما تقوم عليه من الجور، مؤمنًا بالمساواة بين الناس جميعًا، أنْ يعيب رجلًا بسواد الجلد، أو أنْ يعيبه بهذا النظام الذي كان ينكره ويثور به، والذي كان يقسم الناس إلى السادة والعبيد، وإلى الأحرار والأرقاء، وإلى الأغنياء والفقراء.

فالمتنبي فِي قصته مع كافور كلها صغير حقًّا، صغير حين مدح، وصغير حين هجا، وصغير حين رضي، وصغير حين غضب، ولكن صغره هَذَا لا يمنعه من أنْ

يهجو فيجيد، ومن أنْ يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد، والحق بعد هَذَا كله أنه قد هجا كافورًا فكان لاذع الهجاء، ولعله هجا المصريين فوفق لتصوير شيء من مواطن الضعف فيهم، ومن ذا الذي لا حظ له من ضعف؟ وأنا أعتذر — إذا لم يكن بدٌّ من الاعتذار — من الإعجاب ببعض هجاء المتنبي للمصريين، فكما أنه قد أحسن تصوير لون من ألوان الحياة المصرية حين ائتلف كافور ومولاه بعد اختلاف، فهو كذلك قد أحسن تصوير لون من أخلاق المصريين حين وصف إذعانهم وخنوعهم لهذا الأسود الذي كانوا يرونه يضرب ويهان ويعبث به فِي الأسواق، ثم أصبحوا يرونه ملكًا يدينون له بالطاعة والخضوع، وما أكثر الظروف التي تدفعنا جميعًا إلى أنْ نتمثل فِي شئون أنفسنا بالأبيات التي ذكرناها آنفًا من شعر المتنبي دون أنْ يمسنا من ذلك أذي أو يلحقنا منه عار، والشعب الكريم كالفرد الكريم خليق أنْ يعرف عيب نفسه ويجدَّ فِي إصلاحه ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

ولننظر فِي نماذج من هجاء المتنبي لكافور، كما نظرنا فِي نماذج من مدحه إياه، ولنبدأ بهذه المقطوعة اليائية التي جاءت على الوزن والقافية اللذين اصطنعهما فِي أول قصيدة مدحه بها حين أنشده:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيا

ومن يدري! لعل المتنبي لو فرغ لكافور وكان منظَّم النفس منظَّم الحياة، لقال فِي هجائه بمقدار ما قال فِي مدحه، ولعارض كل قصيدة فِي المدح بقصيدة فِي الهجاء تشبهها فِي الوزن والقافية، وتنقض ما اشتملت عليه من ثناء.

ولكن المتنبي لم يفرغ حَتَّى لهذا، فهو كان مشغولًا عن الفن الخالص، لا يقول الشعر إلا حين يرغب أو يرهب، وحين يحب أو يبغض، فأما الفراغ للفن من حيث هُوَ فن، فذلك شيء ليس من شأنه، ولا هُوَ من شأن كثير من شعرائنا، ولا سيما فِي هَذَا العصر العباسي.

قال المتنبي فِي هجاء كافور:

أُرِيكَ الرضَا لَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيًا وَمَا أَنَا عَن نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا
أَمَيْنًا وَإِخْلَافًا وَغَدْرًا وَخِسَّةً وَجُبْنًا أَشَخْصًا لُحْتَ لِي أَمْ مَخَازِيَا

تَظُن ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَةً   وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا

وقد أنصف المتنبي نفسه، وأنصف منها فِي هذه الأبيات حين لم يسخط على كافور وحده، بل سخط على نفسه أيضًا، وحين لم يضحك من كافور وحده، بل ضحك مما ناط به من أمل وما عقد به من رجاء، ولكن المهم أنْ نعلم ماذا كان يقول المتنبي فِي كافور لو أنه لم يخيِّب أمله، ولم يخلفه ما وعده، أكان يرى فيه كل هذه الخصال التي زعم أنه يراها فيه الآن، وأنه كان يراها فيه حين كان ينشده المدح ويرفع إِلَيْهِ الثناء؟ ولكن البيت الثاني على كل حال جميل، ولا سيما قوله:

أَشَخْصًا لُحْتَ لِي أَمْ مَخَازِيَا

ثم يقول:

وَتُعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ إنَّني   رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإِنكَ لَا تَدْرِي أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ   مِنَ الْجَهْلِ أَم قَدْ صَارَ أَبْيَض صَافِيَا

وفِي البيت الأول ظرف، ولكن فِي البيت الثاني مبالغة سخيفة، فلم يكن كافور يُظن به الجهل إلى هَذَا الحد.

ثم يقول:

وَلَوْلَا فُضُول الناس جِئْتُكَ مَادِحًا   بِمَا كُنْتُ فِي سرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيا
فَأَصْبَحْتَ مَسْرُورًا بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ   وَإِنْ كَانَ بِالإِنْشَادِ هَجْوُكَ غَالِيا

وهذا أبلغ فِي تصوير الجهل، فقد يظن بالرجل الغفلة عن التفريق بين المدح والذم أكثر ما تُظَن به الغفلة عن التفريق بين البياض والسواد.

ثم يقول:

فَإِنْ كُنْتَ لا خَيْرًا أَفَدْتَ فَإِننِي   أَفَدْتُ بِلَحْظِي مِشْفَرَيْكَ الْمَلَاهِيَا

وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِجال الْبَوَاكِيَا

وليس بهذين البيتين بأس، فقد تكلف الشَّاعِر فيهما عزاء عما احتمل من مشقة، وما قطع من طريق، وما أدرك من خيبة، وكان عزاؤه أنه ضحك من مشفري كافور كما ضحك من رجليه.

ومن أجود هجائه لكافور هذه الأبيات الميمية التي بدأها هازلًا ضاحكًا، ثم أخذ يجدُّ شيئًا حَتَّى انتهى إلى حزن فلسفي عميق، ثم إلى غضب حمله على أنْ يحرض على كافور من يقتله، وذلك قوله:

مِنْ أَيَّةِ الطُّرْقِ يَأْتِي مِثْلَكَ الْكَرَمُ أَيْنَ المَحَاجِمُ يَاكَافُورُ وَالْجَلَمُ
جَازَ الْأُلَى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدْرَهُمُ فَعُرِّفُوا بِكَ أَنَّ الكَلْبَ فَوْقَهُمُ
لَا شَيْءَ أَقْبَحُ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذَكَرٌ تَقُودُهُ أَمَةٌ لَيْسَتْ لَهَا رَحِمُ
سَادَاتُ كُل أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمُ وَسَادَةُ المُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ القَزَمُ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكم يَا أُمةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ
أَلَا فَتًى يُورِدُ الهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُول شُكُوكُ النَّاسِ وَالتُّهَمُ
فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي القُلُوبَ بِهَا مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ
مَا أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلَا تصدق قَوْمًا فِي الذِي زَعَمُوا

وللمتنبي فِي كافور مقطوعات أخرى يعرفها الناس، يبلغ فيها الإجادة، ولا يبعد أحيانًا فيها عن السخف، ولكني أقف عند قصيدته الدالية التي قالها عند خروجه من مصر فِي آخر سنة خمسين وثلثمائة، وهي خليقةٌ بالعناية حقًّا، ولا سيما القسم الأول منها، لما فيه من هَذَا الغناء الحزين الذي أجاده المتنبي فِي مصر كل الإجادة.

وانظر إلى هذه الأبيات الأولى، وإلى هذه اللهجة القوية التي يملؤها الحزن واللهف والإشفاق، فهو يستقبل العيد جاهلًا بماذا يعود عليه، أبهذه الهموم والأحزان التي تعوَّد أنْ يلقاها فيه منذ أقام بمصر؟ أم بشيء آخر يغيِّر حاله السيئة هذه، وينقله إلى حال خير منها؟ وهو مع ذلك مبتئس بالعيد، كاره له، يتمنى لو بعد عنه؛ لأن أحبّاءه منه بعيد، وما يريد أنْ يستمتع وحده بالسرور، فمن هؤلاء الأحباء، وأين يكونون؟ أهم فِي قصر سيف الدولة بحلب، حيث لا يستطيع أنْ يذهب؟ أم هم بالكوفة حيث يريد أنْ يستقر؟

يظهر أنهم ليسوا هنا ولا هنالك، ولا فِي أي مكان آخر، وإنما هم فِي نفس المتنبي، أو هم فِي آماله التي لا يبلغها، وأمانيه التي لا يستطيع لها تحقيقًا.

فانظر إِلَيْهِ كيف يقول:

لَوْلَا الْعُلَا لَم تَجُبْ بِي مَا أَجُوبُ بِهَا — وَجناءُ حَرْفٌ وَلَا جَرْدَاءُ قَيْدُودُ
وَكَانَ أَطْيَب مِنْ سَيْفِي مُعَانَقَةً — أَشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الْغِيدُ الْأَمَالِيدُ

فأحباؤه إذن ليسوا أشخاصًا يقيمون فِي حلب أو فِي الكوفة، وإنما هم أطماعه وأماني نفسه التي لم يظفر بها قط، ولن يجد إلى الظفر بها سبيلًا.

واقرأ هذه الأبيات التي لا أعرف أجمل منها، ولا أصلح للغناء:

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْر مِنْ قَلْبِي وَلَا كَبِدِي — شَيْئًا تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ
يَا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ فِي كُئُوسِكُمَا — أَمْ فِي كُئُوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدُ
أَصَخْرَةٌ أَنَا مَالِي لَا تُحَرِكُنِي — هَذِي الْمُدَام وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ
إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً — وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

أما أنا فمفتون بهذه الأبيات، وبالثلاثة الأخيرة منها خاصة، وما أعرف أني وجدت فِي كل ما قرأت من الشعر العربي ما يشبهها جمالًا وروعة، ونفاذًا إلى القلب وتأثيرًا فِي النفس، ومهما أحاول فلن أستطيع تصوير ما يملأ نفسي من الحزن حين أسمع تحدُّثه إلى ساقييه وسؤاله إياهما عما فِي كئوسهما: أخمرٌ هُوَ أم همٌّ وتسهيد؟

ومهما أقل فلن أستطيع أنْ أصور إعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه، ما له لا يطرب للخمر ولا يطرب للغناء، وما أعرف بيتًا يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيرًا من هَذَا البيت، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت، من أشد الشعر تحريكًا للنفوس وإثارة للطرب الحزين فِي القلوب.

ثم انظر إلى هذه الحسرة التي يصيح بها البيت الأخير، صيحة اليأس والقنوط؛ لأنه يبتغي المدام فيظفر بها، ولكنه وحيد قد فقد حبيب نفسه، فهو لا يستطيع أنْ يلهو وحده، ولا أنْ ينعم بلذة وحيدًا.

ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى؛ فقد أخذ الشَّاعِر يوضح عما فِي نفسه، ويبين أسباب حزنه شيئًا فشيئًا:

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدنْيَا وَأَعْجَبُهُ   أَنِّي بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ
أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِنًا وَيَدًا   أَنَا الْغَنِيُّ وَأَمْوَالِي الْمَوَاعِيدُ

وهذا الشطر الأخير جميل رائع بما فيه من هَذَا الإيجاز، ومن هَذَا الشيء الذي يشبه الطباق، فهو غني ولكنه فقير؛ لأن ثروته وعود لم تتحقق، هَذَا الشطر الجميل الذي سار مسير الأمثال كذب كله، وكان المتنبي يعرف أنه كذب؛ لأن هذه الإبل التي كانت تحْدَى بين يديه مثقلة بما كانت تحمل من الذهب والفضة والمتاع، والتي كان المتنبي حفيًّا بها، حريصًا عليها، لا يتردد فِي أنْ يقترف الإثم ذيادًا عنها، واحتفاظًا بها، هذه الإبل كانت خليقة — لو استطاعت — أن تردَّ عليه شطره هذا، وأن تصيح به، إنه خرج من مصر، كما خرج من حلب، ومعه أموال أخرى غير المواعيد.

وقد وصل المتنبي إلى كافور وأصحابه، فهجاهم بالكذب والغدر وإخلاف الوعد، ومقتهم ومقت الجود معهم، وَلَكِنْ انْظُر إِلَيْهِ بَعدَ قليلٍ كَيْفَ يَقُول:

أَكُلمَا اغْتَالَ عَبْدُ السَّوْءِ سَيِّدَهُ   أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْر تَمْهِيدُ
صَارَ الخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا   فَالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُودُ
نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِبِهَا   فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعَنَاقِيدُ

ولست أعرف أصدق فِي مصر ولا أبرع فِي تصويرها من هَذَا البيت الأخير.

وما أري إلا أنَّ المتنبي قد ألهم البلاغة والحكمة حقًّا، حين وفق لهذا البيت الذي يختصر لونًا من حياة مصر منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلى هَذَا العهد الذي نحيا فيه، ولو أنَّ التاريخ أراد أن يحصي الثعالب التي عدت على مصر وأموالها، فأخذت منها ما أطاقت وما لم تطق حَتَّى أدركها البشم وما هُوَ فوق البشم، ونواطيرها نائمة، وقادتها غافلون، وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا تنفد، ودول الثعالب يتلو بعضها بعضًا، ويقفو بعضها إثر بعض، أقول لو أراد التاريخ إحصاء هذه الثعالب، لما استطاع، ولست أدري! أيأتي يوم يكذب فيه هَذَا البيت من شعر المتنبي، فلا تنام نواطير مصر، ولا تبشم

الثعالب فيها، ولا يعدو الماكرون الغادرون على أهلها الآمنين الغافلين، ثم يقول المتنبي بعد قليل:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُني أَحْيَا إلى زَمَنٍ ... يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مَحْمُودُ
وَلَا تَوَهمْتُ أَنَّ الناسَ قَدْ فُقِدُوا ... وَأَنَّ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودُ
وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدَ المَثْقُوبَ مشْفَرُهُ ... تُطِيعُهُ ذِي الْمَضَارِيطُ الرعَادِيدُ
جَوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيُمْسِكُنِي ... لِكَيْ يُقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

ثم يبلغ الغضب من الشَّاعِر أقصاه حين ينتهي إلى هَذَا البيت، فإذا هُوَ يعلن عزمه على الهرب فيه وقد أسبغ عليه اللون الحماسي القاتم فِي الشطر الأول، ولكنه لا يلبث فِي الشطر الثاني أنْ يستحيل إلى فكاهة تثير الضحك والاستهزاء، ثم يقول:

وَيْلُمِّهَا خُطَّةً وَيْلُمِّ قَابِلِهَا

وإذن فالمتنبي ينكر هذه الخطة ويأبى ما تحمله من الضيم، ولكن كيف يكون إنكاره وكيف يكون إباؤه؟ لن يكون مقاومة ولا امتناعًا، ولكنه سيكون هربًا وفرارًا:

لِمِثْلِهَا خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القُودُ

والقصيدة متينة رصينة إلى آخرها، ولعلها أجود ما قال المتنبي فِي هَذَا الفن، ولم يتحدث عن هجاء المتنبي لكافور من لم يرو هذه الأبيات الخالدة التي جاءت فِي آخر مقصورته، والتي ما أحسب مثقفًا خليقًا بهذا الوصف جهلها أو يجهلها منذ شاع شعر المتنبي فِي الناس:

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ ... وَلَكِنَّه ضَحِكٌ كَالبُكَا
بِهَا نَبَطِيٌّ مِنَ أَهْلِ السوَادِ ... يُدَرِّسُ أنْسَابَ أَهْلِ الفَلا
وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ ... يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدجَى
وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَ ... نَّ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَينَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ ... وَلَكِنهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى

وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ   وَأَمَّا بِزِق رِيَاحِ فَلَا
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رَأَى غَيرُه مِنْهُ مَا لَا يَرَى

وسواءٌ أردنا أم لم نرد، فإن لمصر على المتنبي فضلين لا يستطيع هُوَ ولا نستطيع نحن أن ننكرهما، فهي قد رققت غناءه وعلَّمته الحزن الطويل العميق، والتأمل الذي يكاد يرقى به إلى الفلسفة، وأنطقته بأشد شعره حزنًا وأبلغه فِي النفس أثرًا، فِي ميميته التي يذكر فيها مرضه، وفي نونيته التي يشكو فيها الزمان، وهي قد علَّمته الهجاء اللاذع الممض الذي يبقى على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة.

فالمتنبي مدين لمصر بكثير من حكمته؛ لأنه لم يعرف الحياة الهادئة التي تملؤها الهموم الملحة كما عرفها فِي مصر، كان خليقًا أنْ يعرفها فِي السجن بعض الشيء، ولكنه كان شابًّا قليل التجربة فأسرع إِلَيْهِ الضعف، وكان خليقًا أنْ يعرفها أثناء اضطرابه فِي شمال الشام بعد خروجه من السجن وبعد فراره من بدر، ولكنه كان كثير الحركة قليل الاستقرار، مباعدًا بينه وبين التفكير الطويل العميق، فأما عند سيف الدولة فقد كان مشغولًا بالقصر والحرب، وبالكيد وجمع المال، فلما انتهى إلى مصر واستقر فِي ظِلِّ كَافُور أتيح له السكون والهدوء، ولم يعرض له أحد بكيد ولا حسد، ولم يضيِّق عليه فِي حياته المادية، وإنما وُضع على نارٍ هادئة من الوعد والإخلاف، فنضجت نفسه نضجًا بطيئًا، ولكنه نضج صحيح، وتعلم كيف يطيل التفكير فِي الحوادث والخطوب دون أنْ تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء، وانتهى إلى الاستهزاء بالحوادث والخطوب وبالذين يسلِّطون عليه هذه الحوادث ويغرون به هذه الخطوب، فنبغ فِي الهجاء، واستطاع أنْ يرقى به من السخف والإقذاع إلى حَيْثُ يجعله أمثالًا سَائِرَةً وحكمة تنفع الناس.

(١٢) فراره من كافور

ولم يكن بُدٌّ للمتنبي، حين أزمع الرحيل من مصر، من أنْ يقصد إلى العراق، فسبيل الشام مأخوذة عليه، فِي جنوبها ملك الإخشيديين وسلطان كافور، وفي شمالها الحمدانيون الذين فارقهم قاليًا لهم، والذين لا يستطيع أنْ يصل إليهم حَتَّى لو عاد بينهم وبينه الصفو، إلا أنْ يمر بطريق مأهولة فِي بلاد كافور يشتد فيها الطلب وتضيق فيها المراقبة.

وقد كان من الجائز أنْ يباعد المتنبي فِي أسفاره نحو الغرب، فيقصد إلى الفاطميين فِي شمال أفريقيا، ولكن هَذَا لم يخطر له لسبب واضح جدًّا؛ لأنه لو فعل لنفى نفسه عن العراق والشام نفيًا مؤبدًا كما يقولون؛ لأنه كان يجعل ملك كافور بينه وبين مأمنه فِي العراق والشام، فلم يكن له بدٌّ إذن من أنْ يعود إلى العراق، ومن أنْ يسلك إِلَيْهِ طريقًا غير الجادة، لا يمكن أنْ يدركه فيها الطلب أو يبلغه فيها البحث إلا بعد مشقة وجهد، وقد دبر المتنبي أمره تدبيرًا حسنًا، وأعانه على ذلك جماعة من أعراب مصر الذين يحسنون العلم بطرق الصحراء، فالديوان ينبئنا بأنه استعان برجل قيسي من بِلْبِيس فأرسل إِلَيْهِ دليلًا، ومدحه المتنبي بالأبيات التي أولها:

جَزَى عَرَبًا أَمْسَتْ ببُلْبَيس رَبهَا   بِمَسْعَاتِهَا تَقْرَرْ بِذَاكَ عُيُونُهَا

وليس من شك فِي أنَّ الشَّاعِر جدَّ فِي الهرب حَتَّى أمن طلب كافور، ثم رفق بنفسه وإبله وخيله وعبيده بعد ذلك فسار معتدلًا، ولم يبخل على قافلته ببعض الراحة من حين إلى حين، حَتَّى انتهى إلى الكوفة، وقال مقصورته المشهورة فِي ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلثمائة، وكان قد خرج من الفسطاط فِي يوم عرفات سنة خمسين وثلثمائة، فكأن هذه الرحلة قد اقتضته ثلاثة أشهر أو أقل أو أكثر قليلًا.

وما كنا لنقف عند هَذَا الهرب، ولا نتحدث عن هذه الرحلة، لولا أن فيها ظاهرتين خليقتين بالملاحظة والتفكير، فأما الظاهرة الأولى فنستنبطها من هذه الحادثة التي عرضت له حين نزل فِي بعض طريقه بأعرابي من طيىء يقال له وردان بن ربيعة، فجعل هَذَا الأعرابي يُفسد عبيده، وجعل العبيد يسرقون له من متاع سيدهم، فلما شعر المتنبي بذلك وعرف أعظم عبيده حظًّا من هَذَا الشر ضربه بالسيف فأصاب وجهه وجدع أنفه، ثم أمر غلمانه أنْ يجهزوا عليه ففعلوا.

وقد ذكر المتنبي هذه القصة فِي مقطوعتين حفظهما الديوان، وقد هجا الطائيين فِي أولاهما وهو يقول فيها:

لَئِنْ تَكُ طَيِيء كَانَتْ لِئَامًا   فَأَلْأَمُهَا رَبِيعَةُ أَوْ بَنُوهُ

وقال الثانية يفخر فيها بتلك الضربة التي أصابت وجه العبد، ويذمه بعد موته، وأولها:

أَعْدَدْتُ لِلْغَادِرِينَ أَسْيَافَا　　أَجْدَعُ مِنْهُمْ بِهِنَّ آنَافَا

وليس لهذا الشعر فِي نفسه خطر، وإنما هُوَ نحو من كلام الأعراب فِي مثل هذه الحوادث الهينة فِي ظاهر الأمر، إنما الشيء الخطير حقًّا، هُوَ إقدام المتنبي على القتل فِي سبيل ما كان يسرق هَذَا العبد من متاعه، فذلك لا يصور بخله وحرصه على المال فحسب، وإنما يصور كذلك ما هُوَ شر من هذا، يصور استهانته بالحياة الإنسانية، واستباحته الدم الإنساني فِي سبيل متاع يقوَّم بالدراهم والدنانير.

وأقل ما يوصف به هَذَا الإثم أنه لا يصور نفسًا شاعرة متحضرة رقيقة الحس متأثرة بالفلسفة، فضلًا عن الدين الذي لا يبيح دماء الناس فِي مثل هذه الصغائر، ولو أنَّ حياة المتنبي كلها خلت من النقائص والعيب، لكانت هذه الحادثة وحدها خليقة أن تسبغ عليها لونًا أحمر قانيًا يبغضها ويبغض صاحبها إلى الناس.

والغريب أنَّ المتنبي يفخر بهذا الإثم، ويراه مظهرًا من مظاهر البطولة والفتوة، وأغرب من هَذَا أنَّ من الناس من أُعجب بهذا الإثم، وبشعر المتنبي فيه قديمًا وحديثًا، كأنه يكفي أنْ يُقترف الإثم ويرتكب الفجور ليُحمد الآثم بإثمه ويثني على الفاجر بفجوره فِي بيئات تتخذ الإسلام دينًا، وتتخذ الفلسفة والحضارة مقومًا للعقل والقلب والشعور، ولكنها الفتنة بالمتنبي تصرف الناس حَتَّى عن أبشع سيئاته وأشدها نكرًا.

أما الظاهرة الثانية فنراها فِي هذه المقصورة التي أذاعها من الكوفة، ووصف فيها طريقه وهجا فيها كافورًا، وهي أنَّ استرداد الشَّاعِر لحريته قد ردّ عليه فتوته الأولى ومرحه القديم وقتًا ما، وإذا نفسه الشابة تشيع فِي هذه القصيدة فرحة مرحة وخائلة تياهة لا تكاد تسع نفسها ولا يكاد يسعها الكون، وإذا الشَّاعِر يعود إلى غروره القديم، فيفخر بنفسه فِي غير قصد ولا اعتدال، ويقول هَذَا الفخر فِي شعر جميل سائغ محبَّب إلى النفس.

وليس من شك فِي أنَّ هذه المقصورة من أجود ما قال المتنبي من الشعر، وقد أحبها الناس فِي عصره واستنشدوه إياها، وأعجبوا بها إعجابًا شديدًا، وهي خليقة بهذا الإعجاب؛ لأنها تلائم نفس الشَّاعِر أصدق ملاءمة، وتلائم المعاني التي أراد الشَّاعِر أن يذيعها فيها.

وأظهر ما يعجبني أنا من هذه القصيدة ملاءمة الشَّاعِر بين موضوعها أو موضوعاتها وبين ما اصطنع فيها من الوزن والقافية، فهو قد أراد أنْ يصف هربًا بعيدًا ممعنًا فِي السرعة، ممعنًا فِي البعد، وأنْ يفخر بنفسه فخرًا يجب أنْ يذيع ويشيع ويملأ الآفاق فِي أسرع وقت، وأنْ يهجو عدوَّه هجاءً لاذعًا يجب أنْ يسير ويطير فِي أسرع وقت أيضًا، فاصطنع لهذا كله هَذَا البحر الذي يصور السرعة والعدو، وهذه القافية المقصورة التي ينطلق بها حرف اللين إلى غير حد، وما أسرع ما سارت القصيدة وطارت حَتَّى ملأت الآفاق، وانطلقت بها الألسنة فِي كل مكان!

وأول القصيدة وصف بدوي للطريق، أو قل تسمية بدوية للمواضع التي مر بها وأقام فيها من الفسطاط إلى الكوفة، وليس له من الجمال إلا بداوة اللفظ وعذوبته، وهذه الحركة السريعة التي تحسها فيه، وآخر القصيدة هجاء لكافور قد رأيته وعرفت قدره، فأما وسط القصيدة فهو هَذَا الفخر الذي ذكرته آنفًا، والذي لا بُدَّ من روايته لتعجب بنشاطه وسرعته، وبضخامته وخفته فِي وقت واحد، وإنْ كان درسه وتحليله ينتهيان إلى ما يؤلم، ويثير العطف والإشفاق:

فَيَالَكَ لَيْلًا عَلَى أَعْكُشٍ ... أَحَمَّ الْبِلَادِ خَفِيِّ الصُّوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فِي جَوْزِهِ ... وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى
فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرمَا ... حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى
وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا ... وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ... وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِّي الْفَتَى
وَأَنِّي وَفَيْتُ وَأَنِّي أَبَيْتُ ... وَأَنِّي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى ... وَلَا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفًا أَبَى
وَمَنْ يَكُ قَلْبٌ كَقَلْبِي لَهُ ... يَشُقُّ إلى الْعِزِّ قَلْبَ التَّوَى
وَلَابُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلَةٍ ... وَرَأْيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفَا
وَكُلُّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الْفَتَى ... عَلَى قَدَرِ الرِّجْلِ فِيهِ الْخُطَا

فهذا الفخر الرائع البديع كله ينحل إلى شيء يسير، وهو أنَّ الشَّاعِر قد فر من مصر فرار اللص، واندفع فِي الصحراء اندفاع الصعلوك، وقتل فِي طريقه عبدًا لأنه سرق بعض المتاع، فظاهر هَذَا الفخر معجب من غير شك، وباطنه يحزن ويضحك من غير

شك أيضًا، ولكننا قد نزدري الرجل، وقد ينتهي الازدراء إلى أنْ نرحمه دون أنْ يمنعنا هَذَا أنْ نعرف للشاعر حقه فِي كثير من الإعجاب.

الكتاب الخامس

غنيمة الإياب

(١) في الكوفة

والمسألة التي تحتاج إلى بحث واستقصاء، وتعجز النصوص، إلى الآن، فِي رأيي، عن حلها على نحو يُرضي ويُريح، سواء فِي ذلك ما حفظ الديوان من الشعر، ومما تحدث الرواة به من الأخبار، وهي، ماذا كان المتنبي قد أضمر فِي نفسه من رأي، ورسم لنفسه من خطة حين فر من مصر قاصدًا إلى العراق؟

أما أحاديث الرواة فمختلفة مختلطة، وما أحسب أنهم فكروا فِي إلقاء هَذَا السؤال ومحاولة الجواب عليه، ولكنهم رأوا أنَّ المتنبي قد استأنف الاتصال بسيف الدولة، وذهب إلى بغداد وعاد إلى الكوفة واتصل بسيف الدولة مرة أخرى ومرة ثالثة، وقصد إلى ابن العميد، ثم إلى عضد الدولة، ثم قتل، وتناقلوا أخبارًا متفرقة حول هذه الحوادث كلها، فلم يحسنوا تخليصها ولا استخلاص ما تدل عليه من المعاني، إنْ كانت تدل فِي المعاني على شيء، وأما المحدثون فقد اجتهدوا فِي أنْ يستخلصوا من شعر المتنبي وسيرته وأحاديث الناس عنه معنى متسقًا يلائم بعضه بعضًا، فظنوا أنَّ المتنبي كان يفكر فِي الرجوع إلى سيف الدولة ويريد هَذَا الرجوع، وأنَّ سيف الدولة أَيْضًا كان يتمنى هذا، ولكن الأحداث لم تتح للأمير والشاعر أنْ يلتقيا، وما أدري: أكان هَذَا حقًّا أم لم يكن، ولكني أفهم سيرة المتنبي منذ عاد إلى العراق على نحو يخالف ما ذهب إِلَيْهِ القدماء والمحدثون جميعًا.

وأحب قبل كل شيء أنْ تذكر ما ألمت به فِي بعض الحديث عن المتنبي عند سيف الدولة، من أنَّ الشَّاعِر قد أساء فِي حلب إلى وليِّ الأمر فِي العراق إساءة جارحة لم يكن من اليسير أنْ تُنسى فِي سرعة وسهولة، والأشخاص الذين هجاهم تعريضًا أو تصريحًا

كانوا ما يزالون أحياء، وكان السلطان ما يزال إليهم، وقد رأيت أنَّ المتنبي هجا الخليفة وهجا مُعِزَّ الدولة، وعرَّض بوزيره المهلبي، وأنت تعلم أنه كان قد عرَّض بكافور أيضًا، ولكن تعريضه بكافور كان يسيرًا بالقياس إلى تعريضه بأولي الأمر فِي بغداد، ومع ذلك فقد رأيت أنَّ كافورًا لم يأمن للمتنبي ولم يطمئن إليه، وإنما أذله من جهة واستخدمه من جهة أخرى، وقد أظهرت تجربة كافور أنَّ الثقة بالمتنبي سذاجة، وأنَّ الاطمئنان إِلَيْهِ حمق، طمع فِي كافور، وكان الحق عليه ألا يفعل، وألح على كافور وكان الحق عليه أنْ يفهم استعداده لأول مرة لقيه فيها أو بعد انتظار قصير، ثم غضب على كافور وظل يمدحه مع ذلك حينًا، ثم فر من كافور فأطلق لسانه فيه وأنكر ما كان قد أسبغ عليه من ثناء.

فلم يكن من المنتظر ولا من المعقول أنْ ينخدع أولو الأمر فِي العراق عن هَذَا كله، لم يكن من المعقول أنْ ينسوا ما قال فيهم ولا أنْ يتناسوه، ولا أنْ يُطمعوا المتنبي كما أطمعه كافور وقد رأوا نتيجة هَذَا كله واضحة بشعة، والمتنبي نفسه على سذاجته واعتداده بنفسه لم يقدِّر أنه سيلقى من أهل العراق حفاوة به أو إقبالًا عليه وقد قال فيهم ما قال، وما أحسبه كان مستعدًا لأن يأمن لهم ويطمئن إليهم كما فعل مع كافور، فهو إذن كان يائسًا من أنْ يستأنف حياة الشَّاعِر المادح من أصحاب السلطان فِي بغداد كما فعل فِي الفسطاط، وما أراه كان يفكر تفكيرًا صادقًا فِي العودة إلى سيف الدولة، فلعله كان يحب الأمير ويكبره ويثق به، ولكنه كان يعرف سلطان الحاشية وكيد القصر وضيق أسرة الأمير نفسها به، وهو كان قد تعرَّض للموت مرة وأفلت منه بعد جهد، فمن يدري! لعله كان يتعرض للموت ولا يفلت منه مرة أخرى.

وكانت أمور سيف الدولة قد أخذت تفسد ويسعى إِلَيْهَا الاضطراب والانحلال فالروم يظهرون عليه من ناحية، والمرض يأكل صحته من ناحية أخرى، وإذن فأيسر الحزم كان يفرض على المتنبي ألا يفكر فِي حلب، وألا يطمع فِي بغداد، وما أظن إلا أنه قد انتهى إلى الكوفة وهو يريد أنْ يحيا فيها حياة الرجل الهادئ المطمئن، الذي جمع من المال مقدارًا ضخمًا يمكنه من أنْ يعيش عيشة أصحاب الثراء والجاه، وما أظن إلا أنه كان يريد أنْ يستمتع بهذه الحياة حينًا من الدهر، وأنْ ينتظر ما ستتكشف عنه الأحداث، ولست أدري، أأحس شيئًا من الحنين حين عاد إلى وطنه، ولست أدري، أثارت فِي نفسه ذكريات الصبا، ففكر فِي نشأته البائسة، وفي جَدَّته الكريمة، كما يظن الأستاذ بلاشير، ولكن الذي نعلمه هُوَ أننا لا نجد أثرًا لشيء من ذلك فِي شعره، فهو لم ينشئ

قصيدة ولا مقطوعة، ولم يشر ﻓِﻲ قصيدة ولا مقطوعة إلى هَذَا العهد القديم ﻓِﻲ حياته، كما أنه لم ينبئنا ﻓِﻲ قليل أو كثير من شعره بما أحدثت عودته إلى وطنه الأول من أثر ﻓِﻲ نفسه.

والغريب أننا سنجد عنده حنينًا ولكن إلى الشام، وادِّكارًا ولكن لحمص ودمشق وصحاري الشام، فأما الكوفة وباديتها، فقد رأيناه يذكرها شيئًا ما حين كان مع سيف الدولة، أما بعد أنْ عاد إِلَيْهَا فقد أهملها الإهمال كله.

وإذن فقد نغلو إن ظننا، كما ظن الأستاذ بلاشير، أنه قد أحس شيئًا من الألم والحزن حين رأى هذه المدينة العظيمة وقد أخذ الخراب يسعى فيها، والانحطاط يسرع إليها، ولعله أحس شيئًا من الكبرياء حين رأى نفسه يعود إلى الكوفة غنيًّا موفورًا بعد أنْ خرج منها بائسًا معدمًا، لا يجد ما يحمله إلى بغداد، ولكن هَذَا أَيْضًا لا يظهر ﻓِﻲ شعره، ولعله شُغِل حَتَّى عن هذا، بغضبه على كافور وإذاعته الهجاء له.

على أني أرجح أنه لم يطمئن إلى حياته ﻓِﻲ الكوفة، ولم يرض لنفسه هَذَا الخمول الذي لم يُخلق له، فما هي إلا أشهر حَتَّى ضاق بالكوفة ورحل عنها ﻓِﻲ آخر سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى بغداد.

رحل عنها ضيِّقًا بها من غير شك، فليس فيها أمير يمدح، ولا قائد يتقرب إليه، ولا غنيٌّ يطمع ﻓِﻲ ماله، ولعله كان من أغنى أهلها حينئذ، وهو كان قد علل نفسه بحياة العزلة التي يستمتع فيها بالحرية والاستقلال، وبالراحة وفراغ البال، ولكنه لم يكد يذوق هذه العزلة حَتَّى ضاق بها وفر منها أشد الفرار؛ لأنه لم يكن يعرف نفسه حق المعرفة، أو كان يعرفها ولكنه كان قوي الحس، سريع التأثر، فكان ذلك يخدعه عن نفسه، ويغريه بالتغرب والاضطراب، ويحول بينه وبين الهدوء والاستقرار.

وقد كان المتنبي ﻓِﻲ عنفوان قوته ﻓِﻲ الثامنة والأربعين من عمره، لم يبلغ بعد السن التي يحيل نفسه فيها على المعاش — كما يقول المعاصرون — فلا غرابة إذن ﻓِﻲ أنْ يضيق بالكوفة ويكره الإقامة فيها، وهو قد جرَّب حياة الشَّاعِر المتصل بالملوك والأمراء المنقطع إليهم، وقد زهد الآن ﻓِﻲ هذه الحياة واستيأس منها، ولكن أمامه لونًا آخر من ألوان الحياة الحرة المستقلة التي يملؤها مجد من طراز جديد، وهي حياة الشَّاعِر الفني المستقل الذي لا يكسب عيشه بالمدح، ولا يغضُّ من نفسه بالانقطاع لأمير أو وزير، ولكنه مع ذلك يحيا ظاهرًا نابهًا معروفًا، ينشد شعره للطلاب، ويفسره لهم على نحو أوضح وأجلى وأكرم مما كان يصنع ﻓِﻲ حلب أو ﻓِﻲ الفسطاط، وهو قريب من بغداد دار

الخلافة، ومركز الحضارة الإسلامية، والتي لا يتوج المجد إلا فيها وقد زار بغداد بائسًا طريدًا، ثم خرج منها خائفًا يترقب، فما له لا يعود إِلَيْهَا غنيًّا كريمًا يحتاج الناس إِلَيْهِ ولا يحتاج هُوَ إلى أحد! وكذلك ارتحل المتنبي إلى بغداد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة لا راغبًا ولا راهبًا، لا مُريدًا بأحدٍ شرًّا، ولا مريد من أحد خيرًا، وما أظن إلا أنه أنفق الأشهر التي قضاها فِي الكوفة مدبرًا أمره وأمر أسرته، مفكرًا فِي محنته المصرية، منشئًا للشعر فِي هجاء كافور ورثاء أبي شجاع.

ولست أدري، أوصلت إِلَيْهِ هدية سيف الدولة فمدحه بقصيدته اللامية:

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يَا رَسُولُ

فِي هَذَا العام، كما يظن الأستاذ بلاشير، أم بعد رجوعه من بغداد، كما يرى بعض الرواة، ولكني أميل إلى الرأي الثاني وأرجحه بما فِي هذه القصيدة من هجاء لأصحاب السلطان فِي بغداد، فقد كان المتنبي أحمق، ولكني أتردد فِي أنْ أراه من الحمق بحيث يهجو أولي الأمر فِي بغداد وهو يهم بالرحيل إليهم.

وإذن فلم تصل إِلَيْهِ هدية سيف الدولة فِي هَذَا العام، ولم يفكر هُوَ فِي استئناف الصلات مع الأمير فِي هَذَا العام أيضًا، وهو كما رأيت لم يقل من الشعر فِي هذه الأشهر إلا قليلًا، ولم يكن فِي حياته فِي الكوفة ما يدفعه إلى قول الشعر، فالناس يرونه فيلسوفًا مفكرًا حكيمًا، وكان خليقًا، وقد خلا إلى نفسه وفرغ لفلسفته وتفكيره وحكمته، أنْ يقول فِي ذلك شعرًا، ولكنك عرفت من كل ما قرأت إلى الآن أنه كان شاعرًا، وشاعرًا لا يقول إلا عن رغبة أو رهبة، ولا سيما بعد أنْ انتهى عهد الشباب.

(٢) في بغداد

ودخل المتنبي بغداد، فأقام فيها سبعة أشهر أو ثمانية، ولكنه لم يحدث فيها شعرًا ولولا أنَّ الرواة تحدثوا بقدومه إلى بغداد وانصرافه عنها، وببعض ما جرى له من الأمر فيها، لما عرفنا من قصته فِي بغداد قليلًا ولا كثيرًا، فهو كما رأيت لم يقل شعرًا فِي بغداد، ولما خرج منها لم يذكرها، ولم يذكر إقامته فيها فيما قاله من الشعر، وقد يظن بعض الناس، ومنهم الأستاذ بلاشير، أنه صوَّر بعض سخطه على بغداد فِي الميمية التي رثى بها فاتكًا، والتي أولها:

حَتامَ نَحْن نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ   وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُف وَلَا قَدَمِ

ولكني أستبعد هَذَا كل الاستبعاد، وأرجح أنه قال هذه القصيدة قبل أنْ يزور بغداد، وأنَّ ما فيها من الحزن والشكوى وإيثار السيف على القلم، وذم الزمان، والإخبار بأنه قد أدرك الدهر فِي أوقات هرمه، وأدركه القدماء فِي أوقات شبابه، كل هَذَا لم تُثره بغداد، وإنما أثاره إخفاقه فِي مصر، وغضبه على كافور، وحزنه على فاتك، وضيقه بحياة البطالة والفراغ فِي الكوفة، وإذا لم يكن بُدٌّ من التماس إشارة إلى بغداد فِي شعر المتنبي بعد خروجه منها، فأنا ألتمس هذه الإشارة فِي لاميته التي مدح بها سيف الدولة حين أهدى إليه، والتي يحذر فيها الحمداني من الروم الذين يناصبونه الحرب من أمامه، ومن أعدائه الذين خلف ظهره فِي مصر والعراق، والتي يقول فيها معرضًا بالسلطان فِي بغداد:

لَيْسَ مَنْ عِنْدَهُ تُدَارُ المَنَايَا   كالذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

فهذه القصيدة، كما رأيت منذ حين، لم تَقلْ إلا سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة، بعد أنْ رجع المتنبي إلى الكوفة.

فزيارة المتنبي لبغداد إذن لا تكاد تعنينا؛ لأنها لم توح إلى الشَّاعِر شيئًا، ولم تترك فِي شعره أثرًا ما، فكأنها بالقياس إلى فنه لم تكن، ومع ذلك فالناس يكثرون فيها القول، وينوِّعون فيها الأحاديث، ولا يكادون يفقهونها على وجهها، أو لا يكادون يفقهون ما جرى للمتنبي فيها على وجهه، والأمر مع ذلك أيسر من كل هذا، فلم يقصد المتنبي كما رأيت إلى بغداد ليفيد بشعره مالًا أو مجدًا عند الخليفة أو الأمير أو الوزير، وإنما قصد إِلَيْهَا ليعيش فيها عيشة الشعراء والعلماء والنابهين من الأغنياء، ويقال: إنه زار الوزير المهلبي وشهد مجلسه، ورأى فيه جماعة من الأدباء والعلماء، وشارك فِي بعض ما كان بينهم من حوار، ولكنه لم يمدح الوزير، فأسرها له، وأغرى به الهجائين والمجادلين، ولست أدري، أزار المتنبي الوزير المهلبي أم لم يزره، ولكني أرجح، إنْ كانت هذه الزيارة قد وقعت، أنها لم تكن إلا زيارة رسمية — كما يقول المعاصرون — قد أبرأ الشَّاعِر بها ذمته ليأمن الكيد والغدر، وليعيش هادئًا مطمئنًّا فِي بغداد، وما أظن أنَّ المهلبي كان ينتظر منه مدحًا، وما أظن أنَّ المتنبي فكر فِي أنْ يجدد تجربته مع كافور، ويجبُ أنْ نُلاحظ أنَّ المتنبي كان لبقًا مؤثرًا للعافية، ومسيطرًا على نفسه أثناء

إقامته فِي بغداد، لم يتح له أن يمدح معز الدولة، ولا أنْ يمدح المهلبي، ولا أنْ يصل إلى الخليفة، وما أشك فِي أنَّ كثيرًا من سراة بغداد وأشرافها كانوا يودون لو يمدحهم الشاعر، ولعل الشَّاعِر نفسه كان يود لو يمدح بعض هؤلاء السراة والأشراف، ولكنه لم يفعل اصطناعًا للذوق — فما ينبغي أنْ يمدح أحدًا من أهل بغداد وهو يمدح خليفتها وملكها ووزيرها — واحتفاظًا بمكانته، وضنًّا بمقامه أنْ يعيبه المقربون من السلطان بأنه لم يستطع أنْ يبلغ الرؤساء فاكتفى بمن دونهم.

آثر الشَّاعِر العافية إذن، وتجنب السياسة؛ لأنه لم يكن يستطيع أن يدنو منها، وتجنب الساسة؛ لأنه لم يكن يحبهم ولم يكونوا يحبونه، وقد يظن —والأستاذ بلاشير يرى هَذَا الرأي — أنَّ المتنبي أعرض عن مدح الرؤساء فِي بغداد إبقاءً على ما كان بينه وبين سيف الدولة من الود، واحتفاظًا بما كان قد دبر من الشخوص إلى حلب، وكانت العلاقات سيئة بين الحمدانيين والبويهيين، فكان مدحه للبويهيين يفسد عليه خطته التي دبرها فِي نفسه، ولكني أستبعد هَذَا أَيْضًا كل الاستبعاد؛ لأني لا أقطع بأن المتنبي فكر حقًّا فِي الرجوع إلى حلب، وما أشك فِي أنه لو وجد سبيلًا إلى الرؤساء فِي بغداد لما تردد فِي سلوكها، ولكن هؤلاء الرؤساء احتملوا مقامه فِي العراق، ودخوله بغداد وإقامته فيها، وهذا منهم كثير، فما كان للمتنبي أنْ يطمع فِي أكثر منه.

وقد يظن الأستاذ بلاشير أنَّ المتنبي كان يفكر فِي السفر من بغداد إلى حلب، ولكن غارة الروم على شمال الشام واقتحامهم حلب، وإخراجهم سيف الدولة عنها وإقامتهم فيها وقتًا ما، كل هَذَا رد المتنبي عما كان قد عزم عليه، وكل هذه فروض لا يرجحها نص، بل لعل النصوص تباعد بينها وبين الحق، فقد دعا سيف الدولة شاعره إلى الرجوع إليه، وأجابه المتنبي فِي آخر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة فِي بائيته المشهورة بأنه سامع مطيع، ولكنه لم يكد يمضي فِي القصيدة حَتَّى عرَّض بالاعتذار، وقد أنفذ القصيدة إلى سيف الدولة من الكوفة فِي ذي الحجة، وخرج من الكوفة فِي المحرم، ولكن لا إلى حلب حيث سيف الدولة، بل إلى أرَّجان حيث ابن العميد، ثم إلى شيراز حيث عضد الدولة، فلم يكن المتنبي يقدر الرجوع إلى حلب أو يفكر فيه، وإنما كانت له خطة أخرى سنراها بعد حين.

إذن ففي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، لم تكن نفس المتنبي قد أبلت من ضيقها بالملوك والأمراء، ولم يكن قد زهد فِي حياة الهدوء والاستقلال، ولم يكن يريد فِي بغداد إلا هَذَا الهدوء والاستقلال، ولكنه لم يظفر بهما لسببٍ يسيرٍ جدًّا، فقد احتمله أولو

الأمر فِي العراق، ولكن على أنْ يقيم بعيدًا عن بغداد، لا على أنْ يأتي فيقيم بين أسماعهم وأبصارهم، ويستقر على صدورهم كأنه الكابوس، لا يريدون أنْ يُدنوه، ولا يريد هُوَ أنْ يدني نفسه منهم، ولكنه مع ذلك مقيم بين أظهرهم يغدو ويروح، ويختلف إِلَيْهِ العلماء يحدثونه ويخوضون معه فِي ألوان الجدال.

كل هَذَا كان كثيرًا، والحق أَنَّ المتنبي قد استمتع أمام السلطان السياسي فِي جميع الأقطار التي زارها وأقام فيها بحرية غريبة بالقياس إلى ذلك العصر، وبالقياس إلى ما كان مألوفًا من الظلم والطغيان، فهو قد أغضب الأمراء ومَنْ دون الأمراء، ولم يتعرض لعقوبة ظاهرة رسمية، وإنما كان آمنًا مطمئنًّا فِي حلب حَتَّى خرج منها، ولما ضاق به الحمدانيون لم يجاهروه بالعقوبة، وإنما هموا باغتياله، ولجأ إلى مصر، فلولا أنه طمع فِي غير مطمع لما لحقه أذى من كافور، ومع ذلك فلم يُلْحِق به كافور أذى، وإنما حاول أنْ يمنعه من ترك مصر ليرد على ملكه لسانه الحاد الطويل، ثم عاد إلى العراق، بعد أنْ قال فِي أصحابه ما قال، فلم يردوه ولم يزعجوه، وإنما تركوا له الحرية فِي أنْ يقيم فِي وطنه ما أراد، ثم هُوَ لا يكتفي بهذا، بل يذهب إلى بغداد نفسها وهو مع ذلك لا يتعرض فيها لأذى، فليس دمه مهدرًا، وليس السجن يدعوه وليست المراقبة تفرض عليه، ولكنه مع ذلك لم ينعم بالحياة فِي بغداد؛ لأن خصومه السياسيين خلوا بينه وبين الشعراء والأدباء يحاربونه بالنقد؛ أي يحاربونه بالسلاح الذي كان يحسن الحرب به لو أراد، فالشعراء البغداديون يهجونه فيسرفون فِي هجائه، وابن لنكك فِي البصرة يهجوه فيقذع فِي هجائه، وبعض الأدباء والعلماء يتعرضون له فيجادلونه فِي شعره متحدين له، مشنعين عليه.

والمتنبي يؤثر الصمت، ويصطنع الحلم، ويتكلف الكبرياء، ولكنه فيما أعتقد كان حذرًا محتاطًا، يخاف أنْ يطلق لسانه فيتجاوز حده، ويخرج عن طوره، ويحفظ سلطانًا لا يحتمله إلا فِي شيء كثير من الحلم المتكلف، والأناة المتصنعة، ولولا هَذَا لما صبر المتنبي على هَذَا الهجاء القبيح والتحدي الشنيع، وهو كما نعلمه ضيق الصدر، عاجز عن إمساك لسانه فِي فمه، بل لولا هَذَا لما سكت المتنبي حَتَّى بعد خروجه من بغداد عن هؤلاء الذين آذوه بأقوالهم وأعمالهم، ولكن المتنبي مصمم على أنْ يعيش فِي العراق، ولا بد له من أنْ يؤدي ثمن المعيشة فِي العراق، فيحتمل ما كان ينكره حين كان يقول، بعد أنْ فر من بدر بن عمار:

وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيـ ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ

فلا بد له من أنْ يحتمل الأذى، ويرى جُنَاته ولا يدفعهم عن نفسه بيد ولا لسان، وأخرى لا ينبغي أنْ ننساها، فقد كانت السياسة مبغضة للمتنبي فِي العراق، وكان الأدباء الرسميون يصانعون السياسة، ولكن الأدب العراقي نفسه كان يضيق بهذا الشَّاعِر الأجنبي الذي كسب فنه ومجده بعيدًا عن العراق لأول مرة فِي التاريخ الأدبي، فقد كان الشعراء فِي القرون الثلاثة الأولى يظهرون وينبُه ذكرهم فِي العراق، فإذا ظهروا فِي قطر آخر، فلم يكونوا يكسبون المجد ونباهة الشأن إلا فِي العراق، فمروان بن أبي حفصة كان يعيش فِي اليمامة، ولولا أنه وفد بشعره على علماء البصرة وخلفاء بغداد لما عرفه الناس، وأبو تمام نشأ فِي الشام وشب فِي مصر وقال الشعر فِي الغرب، ولكنه لم يعرف ولم يشتهر حَتَّى وفد على العراق، والبحتري نشأ فِي شمال الشام، وقال الشعر فِي منْبِج ومما حولها، ولكنه لم يصبح شيئًا إلا بعد أنْ وفد على العراق.

وهذا المتنبي يولد فِي العراق وينشأ فيه ويبدأ فيه قول الشعر، ولكنه يغرِّب بشعره ويطيل الإقامة فِي الغرب وينبغ هناك، ثم يعود إلى العراق كامل الفن ذائع الصوت باهر المجد، فمن حق الأدب العراقي أنْ يضيق به، ومن حق الأدباء العراقيين أنْ ينكروه ويعدوه دخيلًا.

وإذن فلم يكن التحالف بين السياسة والأدب على المتنبي غريبًا فِي بغداد، وإنما كان الغريب ألا يتحالفا عليه، ومع ذلك فقد وجد المتنبي عند شباب بغداد وعند جماعة من أدبائها وعلمائها، بل عند جماعة من أغنيائها وسراتها، حبًّا وإجلالًا، فتلقَّوه أحسن لقاء، وأنزلوه أحسن منزل، والتفوا حوله يسمعون منه ويكتبون عنه، ويقومون دونه ما وسعهم ذلك، ولكنهم كانوا قلة وكانوا مستضعفين.

ولم يكن بدٌّ من أنْ ينتهي الأمر بالمتنبي إلى إحدى اثنتين، فإما أنْ يتوب ويثوب إلى الذين هجاهم وآذاهم وأساء إليهم، ومن يدري! لعلهم لا يقبلون توبته لأنهم لا يأمنونه، وهل أمنه كافور؟ وإما أنْ يترك بغداد، ولكن إلى أين يتركها؟ لا إلى سيف الدولة، فهو لا يريد — ولا يستطيع — أنْ يعود إلى سيف الدولة؛ لأنه لا يثق بقدرة سيف الدولة على حمايته من أعدائه وحاسديه.

ومن يدري! لعله لو هم بالعودة إلى حلب لوجد الطريق مأخوذة عليه، فقد انتفع معز الدولة والمهلبي من قصة كافور، وما ينبغي أنْ يخليا بين المتنبي وبين الرجوع إلى الشام ليطلق فيهما لسانه كما أطلقه فِي كافور.

فليس له إذن إلا أنْ يعود إلى الكوفة ويستقبل أمره فيها بالروية والتفكير، فإما أن يقنع بالحياة الهادئة، وإما أنْ يجد طريقًا إلى الصلح بينه وبين السياسة والساسة فِي بغداد.

(٣) عَوْدٌ إلى الكوفة

وقد عاد إلى الكوفة فِي السنة نفسها، وهناك وصلت إِلَيْهِ هدية سيف الدولة فشكرها باللامية المشهورة، وهناك نعيت له أخت سيف الدولة فرثاها بالبائية المشهورة، وانقضى هَذَا العام ولا يحفظ لنا الديوان من الشعر الذي قيل فيه إلا هاتين القصيدتين، أقال المتنبي شعرًا لم يحفظ لنا؟ أم أعرض المتنبي عن الشعر؛ لأن دواعي الشعر لم تكن موجودة فنام شيطانه حَتَّى أيقظته هدية سيف الدولة، ثم عاد إلى النوم حَتَّى أيقظه موت ستِّ الناس.

هذا هُوَ الذي أرجحه؛ لأني كما قدمت لا أرى المتنبي يقول الشعر إلا حين تدفعه إِلَيْهِ الدوافع، ولعله كان يقول الشعر فِي هجاء البغداديين كما كان يقوله بمصر فِي هجاء كافور، ولكنه كان أشد احتياطًا من أنْ يذيعه أو يظهر عليه حَتَّى أخصَّ الناس به وآثرهم عنده من الذين تبعوه إلى الكوفة.

استقبل المتنبي سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة محزونًا كاسف البال، متدبرًا فِي أمره، ولكن الحوادث أبت إلا أنْ تمتحنه امتحانًا ليس أقل عسرًا من الامتحانات المختلفة التي تعرض لها فِي الشام ومصر، فهذه دعوة القرامطة تعود إلى الظهور فِي الكوفة، ويكثر فيها الحديث، وينشأ عنها لغط كثير، وإذا فقراء المدينة والبائسون من أهلها يسرعون إلى الدعوة ويستجيبون للدعاة، وإذا أغنياء المدينة وأوساط الناس فيها ينكرون الدعوة ويقاومون الدعاة، والمتنبي من الأغنياء طبعًا، ولكنه كان قرمطي النشأة، قرمطي الشباب، وهو الآن كاره للسلطان العراقي، كما كان مبغضًا له فِي صباه وشبابه، فإلى أي جانبيه يميل، أيميل إلى القرامطة فيرضي شهوته إلى الحركة والحرب؟ أم يميل إلى السلطان فيحفظ ماله، ولعله يصلح أمره مع هؤلاء الساخطين عليه فِي بغداد؟ مال المتنبي إلى السلطان، وجحد القرمطية فِي هذه المرة، كما جحدها من قبل، وإذا هُوَ من أغنياء الكوفة وأوساط الناس فيها يقاومون دعوة القرامطة، وإذا هُوَ يبدأ هذه المقاومة بلسانه، فيهجو داعية بدويًّا من دعاتهم، ضبة بن يزيد الكلابي، بقصيدته البائية المشهورة التي أولها:

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضبَّهْ وَأُمُّـهُ الـطُـرطُـبَّـةْ

وهي من أقبح شعر المتنبي وأقذع ما قال فِي الهجاء، ولكن دعوة القرامطة هذه لا تلبث أنْ تقوى، ويخيل إلى الداعين أنَّ الكوفة قد نضجت، وإذا هم يغيرون عليها، وهنا تتم خيانة المتنبي للقرامطة، فهو لا يكتفي بما قدَّم من المقاومة باللسان، ولكنه ينهض ومعه غلمانه، فيقاوم بالسيف والرمح، وينجح فِي هذه المقاومة، ويشق لنفسه ولغلمانه طريقًا حَتَّى يتصل بحاكم المدينة.

وتعود الغارة على المدينة، فيعود المتنبي وغلمانه إلى الاشتراك فِي ردِّ المغيرين، وتوفق المدينة لإبعاد المغيرين عنها، ولكن الخبر كان قد وصل إلى بغداد، وإذا هي ترسل جيشًا على رأسه أحد قوادها، دلّير بن لَشْكَرُوز، فلا يكاد هَذَا القائد يصل إلى الكوفة حَتَّى يعرف الذين آبلوا فِي رد القرامطة، فيخلع عليهم، ومنهم المتنبي، فإذا وصلت إِلَيْهِ الخلعة أنشأ قصيدة فِي مدح القائد، ثم ذهب فأنشده إياها، وهي اللامية التي أولها:

كَدَعْوَاك كُل يَدَّعِي صِحَّة الْعَقْلِ وَمَنْ ذَا الذِي يَدْرِي بِمَا فِيه مِنْ جَهْلِ

والتكلف أظهر شيء فِي هذه القصيدة، كأن الشَّاعِر كان خجلًا، مستخذيًا أمام نفسه وهو ينشئها، ومهما يكن من شيء، فقد أتم المتنبي انقلابه على القرامطة، أطلق فيهم لسانه، وأعمل فيهم سنانه، ومدح عدوهم، وتلقى منه الجائزة، وهو بهذا قد صان ماله من جهة، وخطا الخطوة الأولى إلى إرضاء السلطان العراقي من جهة أخرى.

ثم تريد الظروف، التي تحب المزاح أحيانًا، أنْ تمتحن المتنبي للمرة الأخيرة، فيصل إِلَيْهِ فِي وقت واحد أو فِي وقتين متقاربين كتابان، أحدهما من صديقه القديم سيف الدولة، وقد كتبه بخطة يدعوه إلى حلب، والثاني من فارسي صميم، هُوَ ابن العميد يستزيره فِي أرَّجان.

وأكبر الظن أنَّ المتنبي نظر فِي الكتابين، ثم نظر فيهما، ثم رد عليهما بعد قليل من الروية،فأما سيف الدولة فقد أرسل إِلَيْهِ بائيته:

فَهِمتُ الْكِتَابَ أَبَر الْكُتُبْ فَسَمْعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبْ

وأما ابن العميد فلم يرسل إِلَيْهِ كتابًا منظومًا ولا منثورًا، وإنما أرسل إِلَيْهِ نفسه، وسافر من الكوفة فِي المحرم سنة أربع وخمسين مُوَجَّهًا نحو أرَّجان.

(٤) في أرَّجَان

وأي الرجلين بدأ بالكتابة إلى صاحبه، أو التماس الوسيلة إلى صاحبه، إنْ أردنا التعبير الصحيح: أهو ابن العميد أم المتنبي؟ أما إجماع الناس قديمًا وحديثًا فمنعقد على أنَّ ابن العميد هُوَ الذي كتب إلى المتنبي يستزيره، والناس يقولون أيضًا: إنَّ ابن عباد كتب إلى المتنبي يستزيره الريَّ حين كان الشاعر ببغداد، ولكن المتنبي لم يحفل به ولم يرد عليه، ولم يتأخر عن الاستجابة لابن العميد حين دعاه إلى أرَّجان.

وقوام هذه الأحاديث كلها أنَّ المتنبي كان شديد الكبرياء مزهوًّا بنفسه، يترفع عن مدح الوزراء والكتاب، ولا يريد إلا أنْ يمدح الملوك والأمراء الممتازين الذين لا يقلون امتيازًا عن سيف الدولة وكافور.

ولكن هَذَا كله — فيما أعتقد — إنْ صوَّر شيئًا فإنما يصور حب أصحاب المتنبي للمتنبي وتصديق الناس لكل ما يقال، فقد مدح المتنبي فاتكًا فِي مصر، ولو امتدت بفاتك الحياة لا تصل مدح المتنبي له، ولجاز أنْ يستجيره المتنبي وينقطع إليه، ولم يكن فاتك أميرًا ولا ملكًا ولا وزيرًا ولا كاتبًا، وإنما كان قائدًا غاضبًا، قد حرم السلطان فانحاز إلى إقطاعه فِي الفيوم.

وكان ابن العميد عظيم الشأن نابه الذكر، ولكنه على كل حال لم يكن ملكًا ولا أميرًا، وإنما كان وزيرًا لأمير من أمراء الفرس أو سلطان من سلاطينهم، وقد رأيت أني لا أعتقد أنَّ المتنبي ترفع عن مدح الوزير المهلبي، وإنما أرجح أنه لم يجد سبيلًا كريمة إلى هَذَا المدح، وطبيعة المتنبي وسيرته تصوران لنا الأمر على غير ما فهمه أصدقاء الشَّاعِر ومؤرخوه، وأكبر ظني أنَّ الشَّاعِر هُوَ الذي سعى فِي التقرب من عظماء الفرس، ليصلح بهم أمره فِي الشرق الإسلامي، بعد أنْ فسد عليه أمره فِي الغرب الإسلامي، وأنَّ المتنبي رغب فِي أنْ يتقرب من ابن العميد ليقربه ابن العميد من ركن الدولة أو من عضد الدولة، حَتَّى إذا مدح هؤلاء العظماء وظفر برضاهم أولًا، وبجوائزهم بعد ذلك، استطاع أنْ يتقرب بهم إلى أصحاب السلطان فِي بغداد أو أنْ يستغنى بهم عن أصحاب السلطان فِي بغداد، وهذا من غير شك فرض من الفروض ليس فِي النصوص ما يدل عليه، ولكنه ملائم كل الملاءمة لطبيعة المتنبي وسيرته، فقد رأينا كيف ترك أرض الإخشيديين بعد

خروجه من السجن، وأنفق ما أنفق من الوقت ﻓِﻲ شمال الشام، ثم اتصل ببدر عدو الإخشيديين، ثم فر منه وظل حينًا مضطربًا ﻓِﻲ الأرض، فلما عاد السلطان ﻓِﻲ الشام إلى الإخشيديين جعل المتنبي يبتغي إليهم الوسائل متقربًا من حكامهم وقادتهم، حَتَّى اتصل بأمير من أمرائهم، ثم رأيناه ينَهز ظفر الحمدانيين ﻓِﻲ شمال الشام فيسعى ﻓِﻲ الاتصال بهم، ويوفق لما كان يريد من الانقطاع إلى سيف الدولة، فإذا أخفق ﻓِﻲ حلب لم يتردد ﻓِﻲ أنْ يستأنف السعي ليعود إلى الإخشيديين، وهو يظفر بما كان يريد أيضًا، فيتصل بكافور بعد أنْ كان قد عرَّض به وشنع عليه، وهو قد أخفق عند كافور ففر إلى العراق، وما أشك ﻓِﻲ أنه لم يدخله إلا بعد أنْ استأمن لنفسه فأعطى الأمان، وقد كان يظن أنه يستطيع أنْ يحيا ﻓِﻲ العراق حياة الهدوء والاستقلال، فرأى بعد التجربة أنه مَا زَالَ شاعرًا محتاجًا إلى من يظله ويتلقى مدحه، ولم يتيسر له ذلك ﻓِﻲ بغداد، فالتمسه أو التمس المعونة عليه ﻓِﻲ الشرق، ولم يتردد ابن العميد ﻓِﻲ أنْ يتلقى هَذَا الطامع فيه، اللاجئ إليه، المستعين به، فقد كان المتنبي أكبر الشعراء المعاصرين وأبعدهم صوتًا من غير مراءٍ، وكان شعره كما قال لكافور، قد شرَّق حَتَّى ليس للشرق مشرق وغرَّب حَتَّى ليس للغرب مغرب، وقد أغضبه الأميران المتسلطان ﻓِﻲ الشام ومصر، ولم يحسن اصطناعه الأمير المتسلط ﻓِﻲ بغداد، وما ينبغي أنْ تضيع هذه الفرصة، ولا أنْ يموت أكبر شعراء العصر ولم يتغن البويهيين، ولم يذع ﻓِﻲ الأقطار العربية، وما ينبغي أن يخل بين هَذَا الشَّاعِر العظيم الضعيف وبين صاحب حلب الذي كان يغريه ويزين له العودة إليه.

انتهز ابن العميد إذن هذه الفرصة، ولعله هيَّأ أسبابها وهوَّنها على الشَّاعِر تهوينًا، وهذا المتنبي يرحل من العراق مشرِّقًا فيصل إلى أرَّجان ﻓِﻲ شهر صفر سنة أربع وخمسين وثلثمائة، وقد تلقاه ابن العميد أحسن لقاء، ومنحه من ظاهر الود والإكبار والإجلال ومن الهدايا والهبات، ما أرضى كبرياءه وطمعه معًا، وأقام المتنبي عند ابن العميد ومعه غلمانه وجماعة من أصحابه شهرين أو ما يقرب منهما، وخرج من عنده وقد ظفر من المال بشيء كثير، ولكنه ظفر بما هُوَ خير من المال، ظفر بالاتصال بعضد الدولة، والرواة يحدثوننا هنا أَيْضًا بأن عضد الدولة دعا الشَّاعِر فتردد، ثم اعتذر، ثم قبل، وهم يحدثوننا كذلك بأن ابن العميد أوحى إلى ابنه أبي الفتح أنْ يرغب الشَّاعِر ﻓِﻲ مدينة الريِّ حيث يقيم هُوَ ﻓِﻲ خدمة ركن الدولة، فآثر بعد التردد مدينة شيراز حيث يقيم عضد الدولة، وقوام هَذَا الحديث أَيْضًا إظهار الشَّاعِر مظهر الذي يتنافس فيه الملوك والأمراء، فيمتنع عليهم ولا يستجيب لهم إلا كارهًا.

ولكني أعتقد أنَّ ابن العميد لم يكن إلا واسطة يراد منه أنْ يقرِّب المتنبي إلى أمراء البويهيين، ولعل ابن العميد قد تردد فِي تقديم الشَّاعِر إلى ركن الدولة الشيخ أو إلى ابنه عضد الدولة الشاب، فاستقر رأيه على الثانية، لشباب الأمير المقيم فِي شيراز، ولما كان هَذَا الأمير يدبِّر لنفسه وما كان يدبر له من خطة فِي العراق، فقد كان هَذَا الأمير الجريء الذكي الطموح محتاجًا إلى من يدعو له فِي البلاد العربية ويمهد لقدومه على العراق حين تتاح له فرصة القدوم على العراق، وكان المتنبي أنفع أداة لهذه الدعوة وأقدر الناس على هَذَا التمهيد، فوجَّه إذن إلى شيراز، ولم يوجه إلى الريِّ.

على هَذَا النحو وحده أفهم تاريخ المتنبي فِي العام الأخير من حياته، ويخيل إِليَّ أَنَّ مِنَ السَّذاجةِ أنْ نقبل الأمور كما نقلها إلينا القدماء من رواة الشعر والأدب، وأنْ نهمل أثر السياسة فِي حياة شاعر كالمتنبي قد ارتفع شأنه وعظم أمره، وأصبح عنصرًا لا يقوَّم أثره الممكن فِي نشر الدعوة السياسية، ونحن نرى الآن ما تصنعه الحكومات مع الصحف، وقد رأينا فِي أول التاريخ الإسلامي ما كانت تصنعه الحكومات مع الشعراء، بل رأينا ما صنعته الحكومات الغربية مع المتنبي نفسه، فمن السذاجة أنْ نظن أنَّ ابن العميد لم يرغب إلا فِي شعر المتنبي، وأنَّ البويهيين المقيمين فِي الفرس لم يريدوا إصلاح الخطأ الذي تورطت فيه بغداد حين تجهمت لهذا الشَّاعِر العظيم.

(٥) شعره في ابن العميد

وقد مدح المتنبي ابن العميد بقصائد ثلاث، أولاها الرائية التي أولها:

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أو لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

والثانية الدالية التي أولها:

جَاءَ نَيْرُوزُنَا وَأَنْتَ مُرَادُهْ ... وَوَرَتْ بِالذِي أَرَادَ زِنَادُهْ

والثالثة الدالية التي أولها:

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصدِّ   ولا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْخَدِّ

وقد قالها مودِّعًا للوزير حين ارتحل عنه إلى شيراز، وقال المتنبي لابن العميد مقطوعة سينية ارتجلها فِي مجمرة حشيت بالآس والنرجس، فلم تكن ترى نارها إلا من خلال هَذَا الزهر، وأولها:

أَحَبُّ امْرِئٍ حَبَّتِ الْأَنْفُسُ   وَأَطْيَبُ مَا شَمهُ مَعْطِسُ

وقال المتنبي أَيْضًا مقطوعة دالية لأبي الفتح ابن الوزير حين كتب إِلَيْهِ يدعوه إلى الريِّ، وأولها:

بِكُتْبِ الْأَنَامِ كِتَابٌ وَرَدْ   فَدَتْ يَدُ كَاتِبِهِ كلُّ يَدْ

وقراءة هَذَا الشعر كله تُلقي فِي روع القارئ أَنَّ المتنبي كان ضيقًا بإنشائه، يكلِّف نفسه منه ما لا تحب، ويحملها منه على ما لا تكاد تطيق، وأكبر ظني أَنَّ ابن العميد كان عظيمًا فِي نفس المتنبي، عظيمًا من ناحيته العقلية والأدبية والفنية معًا، عظيمًا بحيث ينبغي أَنْ يحسب الشَّاعِر له حسابًا، وأَنْ يتقي نقده ويجتهد فِي إرضائه، وقد يكون هَذَا سببًا فِي إجادة الشاعر وظفره بالإتقان؛ لأنه يدعوه إلى التأنق والتحفظ وتجويد الصنعة، ولكنه قد يكون سببًا أَيْضًا فِي إخفاق الشَّاعِر وعجزه وتهالكه، فبالطبع الفني لا يستجيب إلى التكليف كلما دُعيَّ إليه، ولا يعطيك الإجادة كلما سألته إياها، وواضح جدًّا أَنَّ طبع المتنبي عصاه وامتنع عليه حين أخذ فِي إنشاء الرائية، فلم يصنع شيئًا، ولم يأت بما يلائم ابن العميد ولا بما يرضيه، وقد أشعر ابن العميد صاحبنا بأن هذه القصيدة لم تعجبه، ولم ترض حاجته من شعر المتنبي، والرواة يزعمون لنا — معتذرين عن المتنبي فِي أكبر الظن — أَنَّ الشَّاعِر كان قد أنشأ هذه القصيدة فِي مصر يمدح بها وزير كافور ابن الفرات، ولكنه لم ينشده إياها، فصرفها عنه إلى ابن العميد مع تغيير يسير فِي بعض الأبيات، ولكني أستبعد هَذَا كل الاستبعاد، وأعتقد أَنَّ المتنبي كان أمهر وأشد احتياطًا من أَنْ يصنع هَذَا بابن العميد، وإنما يصنع هَذَا بالجهال

وأشباه الجهال، لا برجل اعترف له الشرق الإسلامي بالتفوق فِي العلم والأدب، والفن والنقد.

والذي يعنيني من هذه القصيدة الضعيفة السخيفة قول المتنبي فيها:

مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنِي بَعْدَهَا — جَالَسْتُ رِسْطَالِيسَ وَالإِسْكَنْدَرَا
وَمَلِلْت نَحْرَ عِشَارِهَا فَأَضَافَنِي — مَنْ يَنْحَرُ الْبِدرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرَى
وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ — مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِيًا مُتَحَضِرَا
وَلَقِيتُ كُل الفَاضِلِينَ كَأَنَّما — رَدَّ الْإِلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا
نُسِقُوا لَنَا نَسْقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمًا — وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

فالمتنبي فِي هذه الأبيات يتكلف ازدراء الأعراب والغض منهم، ويظن أنه يمدح ابن العميد بما يرضيه، والأعراب هنا هم سيف الدولة وأصحابه فِي شمال الشام.

ومن المحقق أنَّ ابن العميد قد ابتسم لهذا الكلام الذي لا يدل على شيء ولا يغني شيئًا، ولا يمتاز إلا بما فيه من التكلف السخيف فِي المعاني والألفاظ جميعًا، وأجود ما قاله المتنبي فِي ابن العميد من غير شك إنما هي الدالية التي هنأه فيها بالنيروز، وإذا قلنا إنها أجود ما قال فِي ابن العميد فنحن نريد ما نقول.

فالقصيدة جيدة، ولكنها ليست من روائع المتنبي، وقد أظهر الشَّاعِر فيها جهدًا وتأنقًا نحسهما ونرثى له منهما، وقد ارتفع فِي قصيدته هذه عما كان قد انتهى إِلَيْهِ فِي الرائية، فلم يضعف ولم يسف، وأعانته متانة القافية ورصانة الوزن على هَذَا الارتفاع، ولعله وفق بعض التوفيق فِي وصف العيد، وافتخاره بالوزير، وفِي المقارنة بين هَذَا اليوم وبين غيره من أيام السنة، ولكن المهم فِي هذه القصيدة اعتراف المتنبي بتقصيره فِي الرائية، واعتذاره من هَذَا التقصير، وذلك حيث يقول:

هَلْ لِعُذرِي عِنْدَ الْهُمَامِ أَبِي الْفَضْـ — ـلِ قَبُولٌ سَوَادُ عَيْنِي مِدَادُهْ
أَنَا مِنْ شِدةِ الْحَيَاءِ عَلِيلٌ — مَكْرُمَاتُ الْمُعِلِّهِ عُوادُهْ
مَا كَفَانِي تَقْصِيرُ مَا قُلْتُ فِيهِ — عَنْ عُلَاهُ حَتَّى ثَنَاهُ انْتِقَادُهْ
إِننِي أَصْيَدُ الْبُزَاةِ وَلَكِـ — ـنَّ أَحَلَّ النُّجُوم لا أَصْطَادُهْ
رُبَّ مَا لَا يُعَبِّرُ اللَّفْظُ عَنْهُ — وَالَّذِي يُضْمِرُ الْفُؤَادُ اعْتِقَادُهْ

مَا تَعَوَّدْتُ أَنْ أَرَى كَأَبِي الْفَضْـ ـلِ وَهَـذَا الَّذِي أَتَـاهُـا عْـتِـيَـادُهْ
إِنَّ فِـي الْـمَـوْجِ لِـلْـغَـرِيـقِ لَـعُـذْرًا وَاضِـحًـا أَنْ يَـفُـوتَـهُ تَـعْـدَادُهْ
لِلندَى الْغَلْبُ إِنهُ فَاضَ وَالشِّعْـ ـرُ عِمَادِي وَابْنُ الْعَمِيدِ عِمَادُهْ

فأما الدالية التي ودعه بها فليست أقل تكلفًا وتصنعًا من الرائية، وإنْ كانت أقل منها ضعفًا وتهالكًا وإسفافًا، والإنصاف يقتضينا أنْ نقول: إنَّ المتنبي أخذ من ابن العميد أكثر مما أعطاه، فقد قصر الشَّاعِر من غير شك عن مدح هَذَا الرجل الذي كان بعقله وأدبه وسياسته وكرمه زينة لمعاصريه.

(٦) فِي ظل عضد الدولة

على أنَّ المتنبي لم يكد يتقدم فِي طريقه إلى شيراز حَتَّى زال عنه الحرج وانحط عنه الثقل، وحطم القيد الذي كان يمسك خياله ويمنعه أنْ يطير، وإذا هُوَ يبلغ من الشعر طبقة خليقة باسمه، وخليقة بمكانه، وخليقة بما قال من شعره الرائع فِي سيف الدولة، لماذا؟ لأن عضد الدولة ألهمه أكثر مما ألهمه ابن العميد؟ أم لأنه كان يحس الغربة فِي بلاد الفرس، ولم يكن له بد من بعض الوقت ليذوق هذه الحياة الجديدة ويسيغها ويتمثلها، ويضطرب فيها حرًّا غير مقيد ولا مغلول؟ أم لأن طبيعة البلاد الفارسية والحياة الفارسية قد أظهرته على لون جديد من الحياة والطبيعة، لم يكن قد عرفه من قبل، فألهمته شعرًا قيِّمًا لم يقل مثله منذ عهد بعيد، ولعل منه ما لم يقل مثله قط؟ أم لأن عضد الدولة كان أشد إطماعًا للشاعر من ابن العميد؛ لأنه ملك، ولأن الشَّاعِر قد عوَّدنا أنْ يستجيب للطمع أكثر مما يستجيب لأي شيء آخر؟

أما أنا فأعتقد أنَّ هذه الأسباب كلها قد تعاونت على إطلاق الشَّاعِر من عقاله، ورده إلى الجو الطلق الحر الذي تعوَّد أنْ يحلِّق فيه.

ولم يُقم المتنبي عند عضد الدولة إلا ثلاثة أشهر، ولكنه مدحه فأكثر المدح، والغريب أنه وفق للإجادة فِي كل ما قال، وقد حفظ الديوان لنا من شعره فِي عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة ومقطوعة.

فأما القصائد فأولاها الهائية التي أولها:

أَوْهِ بَدِيلٌ مِن قَوْلَتِي وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

والثانية النونية التي أولها:

مَغَانِي الشَّعْبِ طِيبًا فِي المَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الربِيعِ مِنَ الزمَان

والثالثة اللامية التي أولها:

اثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

والرابعة الدالية التي يقول فيها:

أَزَائِرٌ يَا خَيالُ أَمْ عَائِدْ أَمْ عِنْدَ مَوْلَاكَ أَنَّني راقدْ

والخامسة البائية التي رثى بها عمه الأمير، وأولها:

آخِرُ مَا المَلْكُ مُعَزًّى بِهِ هَذَا الذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِهِ

والسادسة الكافية التي ودعه بها، وهي آخر ما قال من الشعر، وأولها:

فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا فلا مَلِكٌ إِذَنْ إِلَّا فَدَاكَا

وأما الأرجوزة فطردية يقول فيها:

مَا أَجْدَر الأَيَّامَ وَاللَّيالي بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِي

وقال المقطوعة فِي عيد الورد، وأولها:

قَدْ صَدَقَ الْوَرْدُ فِي الذِي زَعَمَا أَنكَ صَيَّرْتَ نَشْره ديما

فهذا الإحصاء اليسير يُظهر كثرة ما قال المتنبي من الشعر فِي عضد الدولة أثناء هَذَا الوقت القصير الذي أقامه فِي شيراز، وما عرف عهدًا من عهود الشَّاعِر فِي حياته كلها نشط فيه شيطانه هَذَا النشاط، إلا أنْ يكون عهد ثورته فِي الشباب، ومع ذلك فلم يحفظ لنا الديوان من شعر ذلك العهد مثل ما حفظ لنا من شعر هَذَا الطور الأخير، ونشاط الشَّاعِر لا يمتاز فِي هذه الأشهر الثلاثة بالخصب وكثرة الإنتاج فحسب، ولكنه يمتاز أَيْضًا بالتنوع والاختلاف، فقد طرق المتنبي فِي هَذَا الطور أكثر فنون الشعر من المدح والوصف والسياسة والرثاء والطرد، ومن الحق أنه لم يتعمق فِي شعره سياسة عضد الدولة، كما تعمق سياسة سيف الدولة وسياسة كافور، ولكنه مع ذلك قد ألمَّ بطرف من أطرافها، فوصف فِي قصيدتين ثورة الأكراد على البويهيين وانتصار هؤلاء عليهم.

وما أعرف أنَّ المتنبي أتقن وصف الطبيعة فِي طور من أطوار حياته، كما أتقنه فِي هَذَا الطور، فوصفه لشعب بَوّان رائع حقًّا، ولكنه إلى الغناء أقرب منه إلى الوصف الخالص، على حين تلتمس الغناء فلا تجده فِي أرجوزته اللامية التي وصف فيها الصيد، والتي أشرتُ إِلَيْهَا آنفًا، وهذه الأرجوزة لها عندي خطر عظيم حقًّا، فهي التي ارتقى فيها الشَّاعِر إلى أرفع ما أتيح له أنْ يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة، وهي التي امتزجت فيها نفس الشَّاعِر بالطبيعة المادية امتزاجًا مدهشًا كاد ينسيه نفسه على قلة ما ينسى نفسه، وكاد يصرفه عن عضد الدولة، لولا أنه يقول الأرجوزة لعضد الدولة، وما رأيت طبيعة الشَّاعِر أخذت بحظ من الخصب والغزارة، والسهولة والجزالة، والاندفاع معًا، كما رأيتها فِي هذه الأرجوزة، وقد استعار الشَّاعِر إطار القدماء، فسلك وصفه فِي نظم الرجز كما كان يفعل أبو نواس وابن المعتز، وكما فعل هُوَ عند الأوراجي وعند صاحب الرملة الإخشيدي، ولكنه تجاوز ما كان مألوفًا عند القدماء من فن الطرد، واندفع مع الصائد والمصيد، كأنه الريح أو النسيم الذي كان يضطرب فِي تلك المروج، فيشهد ما كان يجزي فيها من طراد وصراع، ثم يجتمله خياله العنيف القوي إلى أبعد من مروج فارس، وإذا هُوَ يعود إلى نجد ويرى وحشها خائفة تلتمس الأمان.

وليس يكفي أن ألمَّ بهذه الأرجوزة إلمامًا سريعًا كهذا، ولكن هَذَا الحديث لا يتسع للدرس المفصل والبحث الدقيق، فلعلي أعود إلى هذه الأرجوزة فِي غير هَذَا المكان، إنما أردت أنْ أدل على أنَّ نفس الشَّاعِر وملكاته قد استردت فِي هذه الأشهر الأخيرة من حياته قوتها كلها، وأضافت إِلَيْهَا قوة لم تكن تعرفها من قبل، وأكبر ظني أنَّ نفس

الشَّاعِر لم تمتلئ بالأمل فِي وقت من الأوقات كما امتلأت به فِي ذلك الوقت، وما أستبعد أنْ يكون الشَّاعِر قد وثق بالفوز آخر الأمر، واطمأن إلى أنه بعد اتصاله بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير مدافع، لا شاعر أمير فِي شمال الشام أو فِي مصر، بل شاعر السلطان الأعظم، وما أستبعد أنه قد تمثل المستقبل المشرق، فإذا هُوَ يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمال الذي لا يكاد يبلغه الإحصاء، والتأييد الذي لا حد له، وعاد إلى بغداد مقربًا إلى معز الدولة برغم المهلبي وأشياع المهلبي، وإذا الشَّاعِر الإسلامي الفذ، الذي يقول من بغداد فيدوي صوته فِي أرجاء الدولة الإسلامية كلها شرقًا وغربًا، وإذا هُوَ يملي على الدهر قصائده حقًّا.

هذا الأمل الواسع العريض هُوَ الذي يفسر لي اندفاع الشَّاعِر فِي نشاط غريب لا نراه حَتَّى فِي مدحه لسيف الدولة، لا نكاد نستثني من هَذَا المدح إلا بعض قصائده للزوميات، وأغرب من هَذَا كله أنَّ هَذَا النشاط قد محا عن الشَّاعِر محوًا تامًّا ما كان يشعر به من ضيق وحرج عند ابن العميد، بل رد إليه حريَته كاملة، وَإِذَا هُوَ لَا يتحرج من أنْ يتغنى غربته فِي صراحة وجرأة لا حدَّ لهما ولا رقيب عليهما، فهو يتغنى حمصَ وما حولها فِي فتوة تذكر بشبابه العنيف، وهو يحمد شعب بوان ويصف جماله، ولكنه لا يتردد فِي أنْ يعلن حنينه إلى دمشق وغُوطتها، وإلى الشعب العربي النازل في الشام، وفي أنْ يُؤثرَ هَذَا الشعب الفصيح الكريم على الشعب الفارسي الأعجمي، الذي لا يقدر الضيافة ولا يحسن القرى.

بل هُوَ يتجاوز هذه الحرية الشخصية، إنْ صح هَذَا التعبير، إلى حرية أخرى لغوية، كان تعودها فِي عصوره الأولى، ولكنه يسرف فيها الآن، كأنه يريد أنْ يتخذها قاعدة، فاقرأ داليته التي أولها:

أَزَائِرٌ يَا خَيالُ أَمْ عَائِدْ أَمْ عِنْدَ مَوْلَاكَ أَنني راقدْ

وأخص إعراضه فيها عن المألوف فِي نصب الاسم المصروف، فسترى أنه تجاوز المعقول واتخذ الضرورة أصلًا، ولا تقل: إنه استجاز هَذَا متبعًا للغة من اللغات أو مذهب من مذاهب النحويين، فإن الرجل لم يحفل فِي حقيقة الأمر بشيء من هذا، وإنما أطاع فنه وأرسل نفسه على سجيتها، واستذل النحو واللغة للشعر، وأعرض عما قد يكون من غضب النحويين أو رضاهم.

ثم قف عند هذه القصيدة نفسها، فسترى أنه اصطنع فيها الحرية لا مع النحو وحده، بل مع أصول العروض والقافية أيضًا، فقلما يصرِّع الشعراء في القصيدة الواحدة أكثر من مرة، والمتنبي يصرِّع فِي القصيدة الواحدة مرة أو مرتين، أما فِي هذه القصيدة فهو يصطنع التصريع مرات عدة، كأنما هُوَ يتبع فيه وحي الفن، وكأنما لا يريد أنْ ينتقل من معنى إلى معنى دون أنْ يستأنف التصريع؛ ليشعر بهذا الانتقال، ولينبئ السامع بأنه سيخرج به من حديث إلى حديث.

وأخرى لا نكاد نجدها إلا فِي شعر هَذَا الطور، وهي تحرر الشَّاعِر من القيود التي يأخذ الشعراء بها أنفسهم فِي نظم القصيد، فهو ينسب حينًا ويصف حينًا، وهو يتغنى دائمًا فِي أوائل قصائده فِي عضد الدولة، ولكن انظر إلى لاميته التي يصف فيها انتصار الفرس على الأكراد، والتي أولها:

اثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

فسترى كيف تبسط واصطنع حرية فِي الحوار لم يكن يألفها، ثم امض فِي القراءة وانظر كيف خلص إلى الأمير من طريق بديعة فِي شعره حقًّا، حين تصوَّر صاحبته وحيدة قد تحمَّل أهلها وحرَّاسها، ودهم الأمير ديارها، وإذا هُوَ يسألها مَا يريد أن يسألها، أفتراها كانت تمنحه ما تعودت أَنْ تضن به، أم تراها كانت تبخل عليه بما يطلب إليها، مع أنَّ هذا البخل محال؛ لأنه لا يكون حيث ينزل الأمير؟ وما أتردد في الجهر بِأَنَّ المتنبي لَوْ أطال الإقامة في فارس والاستمتاع بما كان يستمتع به فيها من الخفض والأمن والنعيم، لتغير مذهبه الشعري تغيرًا قويًّا جدًّا، وَلَجَازَ أَنْ يُحدث فِي الشعر العربي فنًّا جديدًا لم يُسبقْ إِلَيه، ولم يتح لأحد من العرب بعده أنْ يُحدثه؛ لأن نبوغه واستعداده لم يتاحا لشاعر عربي من الذين زاروا بعده هذه البلاد.

ومن هنا يدهشني حقًّا ألا يكون النقاد قد التفتوا إلى ما يمتاز به شعر المتنبي في شيراز من سائر شعره، وأنْ ينظروا إليه كما تعودوا النظر إلى الشعر العادي لا يلتمسون فيه إلا ما تعوَّدوا أنْ يلتمسوا من ألوان الجمال المألوف.

وأغرب من هذا أنَّ الأستاذ بلاشير لم يكد يشعر بهذا التطور العميق الذي أحدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس في شعره، مع أنَّ الأستاذ بلاشير أوربي، وكان خليقًا أنْ يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبي وبين العقلية الأوربية والفنية الأوربية من تقارب ليس شديدًا، ولكنه واضح كل الوضوح.

ولَشد ما أحببتُ أنْ أطيل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبي، فهو من الناحية الفنية الخالصة آثره عندي، وأعجبه لي وأحبَّه إليَّ، وهو خليق أنْ نقف عنده قصيدة قصيدة، وأنْ نفصله ونستخرج دقائقه، ونضع أيدينا على مواضع التطور فيه، ولكن هذا شيء لا نفرغ منه إنْ أخذنا فيه إلا بعد إطالة لم يعد يحتملها هذا الكتاب.

وكل هذا الشعر مختار، قد تُصادف فيه بين حين وحين بيتًا لا يعجبك، ولكنك لا تستطيع أنْ تُلغي منه قصيدة أو جزءًا طويلًا من قصيدة، وإذا كان لنا أنْ نأسف لشيء لا يغني الأسف له، فقد كنا نتمنى لو فر المتنبي في شبابه إلى فارس لا إلى الشام، وقد كنا نتمنى لو سار عضد الدولة مع الشاعر سيرة كافور، فأمسكه في شيراز ولم يأذن له بالعودة إلى العراق، وذاد عنه مع ذلك الشعور بأنه أسير لا يستطيع أنْ يذهب ويجيء كما يحب، إذن لتغير شعر المتنبي تغيرًا تامًّا، ولوثب الشعر العربي في القرن الرابع وثبةً بعيدة المدى، وَلَفُتِّحَتْ للشعراء بعد المتنبي أبواب جديدة يلتمسها الشباب من الشعراء الآن فلا يكادون يظفرون منها بما يبغون.

(٧) في طريق العراق

ولكن عضد الدولة لم يرد أنْ يشق على الشاعر، ولا أنْ يمسكه في شيراز ويحبسه عن العراق، بل أضاف عطاءً إلى عطاءٍ، وإحسانًا إلى إحسانٍ، وخلى بين الشاعر وبين حريته، فاستأنف الشاعر سفره إلى العراق وهو يُقسم جهدَ أيمانه ليعودن إلى الأمير، أكان صادقًا في هذا، أم كان يذهب فيه مذهب الشعراء، ومذهبه هُوَ مع الذين ودَّعهم من الممدوحين؟ مسألة ليس من اليسير أنْ نجيب عليها، ولكني كما عرفتَ من سياق هذا الحديث أميل إلى الاعتقاد أنَّ الشاعر لم يكن كاذبًا ولا متكلفًا، وأنه كان يقدر في نفسه أنه سيلقى الأمير مرة أخرى في شيراز أو في غير شيراز، والشيء الذي لا أشك فيه، هُوَ أنَّ نفس المتنبي كانت قد خلصت للبويهيين، ولعضد الدولة منهم خاصة، وما أرتاب في أنه يَفصل من شيراز وفي نفسه الذهاب إلى الكوفة أو إلى حلب، وإنما فصل منها وفي نفسه الذهاب إلى بغداد، والاتصال بمعز الدولة والانتصار على خصومه كما قدَّمت.

وهنا يحسن أنْ نقف لحظة قصيرة لنستخلص في كثير جدًّا من الإيجاز، هذا التطور الأخير الذي طرأ على حياة المتنبي، فانحرف بها عن طريقها وقَلبها رأسًا على عقب، إنْ كان للحياة رأس وعقب، فقد رأينا الشاعر بعد محنته في شبابه يدفع شيئًا فشيئًا إلى طريق الشعراء من قبله، ويتهاون شيئًا فشيئًا في الاحتفاظ بما كان له من

مذهب ورأي، رأيناهُ يُفرط في القرمطية، وإنْ احتفظ بشيء من الحنين إليها، ثم رأيناه يمدح غير العرب حين تدعوه الضرورة إلى ذلك، ثم رأيناه يتكلف الشعوبية في مدح الروزباري بدمشق، ثم رأيناه يعود إلى عربيته حين يتصل بالحمدانيين، ثم رأيناه بعد ذلك يُعرض عن هذه العربية، وينقطع إلى عبد زنجي أو نوبي في الفسطاط فيمدحه ما امتدت له أسباب الطمع فيه، ثم رأيناه يسترد عربيته ويعود إلى العراق وقد آثر الحيدة والهدوء، ثم رأيناه آخر الأمر يغلب على قرمطيته وعلى عربيته معًا، فإذا هُوَ يهجو القرامطة ويقاتلهم بالسيف والرمح من جهة، وإذا هُوَ يمدح دلِّير، ويؤثر ابن العميد وعضد الدولة على صديقه الحمداني القديم من جهة أخرى، هُوَ يعود الآن إلى العراق، وقد ضحى في سبيل المال والمجد الشخصي بالقرمطية والعربية معًا تحت أقدام البويهيين.

(٨) خاتمة المطاف

وقد انتهى إلى واسط، فيما يقول الرواة، في شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وثلثمائة، بعد أنْ ألم بالأهواز، فلما انتهى إلى واسط نزل على صديقٍ له يُعرف بأبي نصر محمد الجبلي، وهذا الصديق هُوَ الذي كتب إلى الخالديين بما عرف من جلية أمر المتنبي، بعد أنْ فارقه وخرج من واسط قاصدًا إلى بغداد، وليس عندي ما يحملني على الشك في خبر أبي نصر الجبلي هذا، فالصدق ظاهرٌ فيه، وهو ملائم كل الملاءمة لطبيعة الأشياء، وخبر أبي نصر الجبلي هذا معروف، فهو قد أنبأ الخالديين في كتابه بأن فاتكًا الأسدي، خال ضَبَّة القرمطي، الذي هجاه المتنبي في الكوفة قبل رحيله إلى ابن العميد، قد نزل به قبل مقدم المتنبي على واسط بأيام، وجعل يسأل عن المتنبي حتى ارتاب الجبلي بسؤاله، ثم لم يشك في أنه يريد به السؤال لينقم لابن أخته ويردَّ عنه وعن نفسه عار ذلك الهجاء القبيح، وجعل الجبلي يرد فاتكًا عن هذا الشر الذي أضمره، فلم يبلغ منه شيئًا، فلما وصل المتنبي إلى واسط حذَّره الجبلي من فاتك هذا، ونصح له أنْ يستصحب الأحراس، فأبى مستكبرًا، وعرض عليه أنْ يتولى هُوَ حراسته بإرسال نفر من أصحابه يسيرون بمسيره وينزلون بنزوله، فأبى مستكبرًا أيضًا، وخرج وليس معه إلا ابنه وغلمانه، فلما كان في بعض طريقه إلى بغداد، قريبًا من دير العاقول، تلقاه فاتك وأصحابه من الأعراب، فكان بينهم شيء من قتال، ثم كثره فاتك بأصحابه فقتلوه وقتلوا ابنه وغلمانه جميعًا، وأخذوا ما كان معهم من متاع وكتب ومال.

أكان فاتك ثائرًا لابن أخته ولعرضه فحسب، أم كان ثائرًا لعرضه ولشيء آخر؟ أما القدماء فلم يترددوا في قبول الأمر كما قبله أبو نصر الجبلي، وكما قبله الخالديان، فهم يرون، ويرى معهم المحدثون أنَّ المتنبي ذهب ضحية للسانه، وتلقى الموت ثمنًا لهذه القصيدة البائية التي هجا بها ضبة في الكوفة على كره منه — فيما يقولون — وقد يكون هذا حقًّا، فهو ملائم للمألوف من عادات الأعراب، ولكني أحس من نفسي ترددًا في قبوله، وأراها تنبو عنه ولا تطمئن إليه، وأرى خاطرًا يلح عليَّ ولا يكاد يفارقني منذ درست شعر المتنبي وحياته في شيء من التدقيق والتفصيل، وأنا أعرض عليك هذا الخاطر كما يعرض نفسه عليَّ، فإن شئت فاقبله، وإنْ شئت فارفضه؛ لأني لا أجد بين النصوص ما يمكنني من ترجيحه فضلًا عن القطع به، وهذا الخاطر يُلقي في نفسي أنَّ المتنبي لم يذهب ضحية لهذه القصيدة، ولا ضحية لجشع الأعراب فيما كان يسوق من مال ومتاع، وإنما أدى بموته، إلى القرامطة من جهة، وإلى العرب من جهة أخرى، ثمن هذه الخيانة التي اقترفها في الكوفة، وسجلها في نفسه في شيراز، وعاد وفي نفسه أنْ يمعن فيها ويباهي بها، ويملأ بها الأرض إذا انتهى إلى بغداد.

أما أنَّ الذين قتلوه كانوا من القرامطة، فشيء لا أستبعده،[1] فقد كان الأعراب منتشرين في بادية العراق لذلك الوقت، متأثرين بدعوة القرامطة أشد التأثر، يُظهرون ذلك إنْ أمكنتهم الفرصة فيغيرون على المدن والسواد، ويُخفون ذلك إذا ظهر بطش السلطان، وما أدري؛ إذا كان ضبة الكلابي داعية من دعاة القرامطة في الكوفة، فما الذي يمنع خاله الأسدي أنْ يكون متأثرًا بهذه الدعوة أيضًا؟

والشيء الذي لا ينبئنا به الرواة هُوَ مصير أصحاب المتنبي الذين رافقوه إلى أرجان، ثم إلى شيراز، فقد كان معه جماعة من البغداديين، منهم ابن جني، فأين ومتى تفرَّق عنه هؤلاء الناس؟ أرحلوا معه من شيراز ثم تخلفوا في واسط؟ أتأخروا في شيراز؟

[1] لعل نصًّا فيما نقله البغدادي في خزانة الأدب من كتاب «إيضاح المشكل لشعر المتنبي من تصانيف أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني» يقرب هذا ويؤيده، فهو يحدثنا بأن فاتكًا لما أبى المتنبي ما عرض عليه من خفارته في الطريق جمع له سبعين من الأعراب الذين يشربون دماء الحجيج فقتلوه وقتلوا من معه، وإنما كثر الاعتداء على الحجيج وفحش، وهان على الأعراب أنْ يستبيحوا دماءهم ويشربوها، بعد أنْ اشتد تأثر البادية العراقية بدعوة القرامطة (انظر خزانة الأدب الجزء الأول صفحة ٢٨٩).

أسبقوه إلى بغداد؟ لا ندري، ولكنا نعلم أنهم حزنوا عليه أشد الحزن، وقالوا فيه كثيرًا من الرثاء، وعُنوا بشعره يذيعونه ويفسرونه، ولم يشهدوا موته، ولم يعرفوا من لحظاته الأخيرة أكثر مما كتب به أبو نصر الجبلي إلى الخالديين.

وكذلك أراد الله أنْ يعيش وحيدًا ويموت وحيدًا ذلك الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

سالنش في ١٥ يوليو سنة ١٩٣٦

كمبلو في ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٦

بعد الفراغ

... والآن وقد فرغت من إملاء هذا الكتاب منذ أشهر، وأتمت المطبعة صفحاته الأخيرة منذ ساعات، أحب أنْ أسجل أشياء أخرى من الخير ألا تضيع أولها، أني حين أقبلت على صحبة المتنبي في الصيف الماضي لم أكن جادًّا ولا صاحب بحثٍ ولا تحقيق، وإنما كنت عابثًا، أريد أنْ أداعب المتنبي أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعًا، وليس أدل على ذلك من هذه الصفحات التي تقرؤها في صدر هذا الكتاب، فهي لا تصور جدًّا ولا بحثًا، وإنما تصور عبثًا ولهوًا، ولكني لم أكد ألقى المتنبي وآخذ في الحديث معه، أو الحديث عنه، حتى صرفني عن اللهو والعبث، واضطرني إلى محاولة البحث والتحقيق، وأي غرابة في ذلك ولم يكن المتنبي صاحب راحة ولا ميالًا إلى اللهو، وإنما كانت حياته كلها جدًّا، وجدًّا ثقيلًا، ينتهي به وبقرائه إلى الملل أحيانًا!

ولست أدري، ماذا صنع المتنبي بي، أو ماذا صنعت أنا بالمتنبي، فقد كنت أريد أنْ أمضي معه متباطئًا، وأتحدث إليه أو أتحدث عنه متثاقلًا، ولكني لم أكد آخذ في الإملاء حتى دفعت إليه، ودفعت فيه دفعًا عنيفًا، لم أستطع له مقاومة ولا عليه امتناعًا، وإذا أنا أجري في الإملاء أو أعدو فيه أشد العدو، حتى لا يتابعني صاحبي إلا بجهد كل الجهد ومشقة كل المشقة، وإذا أنا أملي إذا أصبحت وأملي إذا أمسيت، وأملي بين ذلك، وأبغض الراحة أشد البغض، ولا أكاد أنصرف عن المتنبي إلى أحد غيره أو إلى شيء غير حديثه، حتى إذا انتهيت إلى حيث انتهيت، وجدتني مكدودًا قد انتهى بي الإعياء إلى أقصاه، ووجدتني لم أقل للمتنبي ولم أقل عنه كل ما كنت أريد أنْ أقول، فطويت الصحف، وأرجأت الحديث حتى أعود إلى القاهرة.

وكنت أريد أنْ أستأنف الحديث متى عدت، فأفصل القول في فن المتنبي بعد أنْ فرغت من تفصيل القول في حياته، وأقف بنوع خاص عند أشياء لم أزد على أنْ ألممت بها إلمامًا، ولكن الحياة المصرية، كما قلت في غير موضع، لا تلائم البحث الهادئ ولا الدرس المطمئن، ولعلها لا تلائم بحثًا ولا درسًا، فما أكاد أبلغ القاهرة حتى تتلقاني الأعمال الجامعية، فتستغرق أكثر جهدي ووقتي، والحياة الاجتماعية، فتستنفد ما بقي لي من وقت أو جهد، وإذا أنا أصرَفُ عن المتنبي صرفًا عنيفًا كما دفعت إليه دفعًا عنيفًا، وإذا المعنيون لا يكادون يظفرون بي لحظة بين حين وحين، ليسألوني عن هذه الكلمة أو تلك، وليقرءوا عليَّ هذا الفصل أو ذاك.

ومع ذلك فما أكثر ما بقي في نفسي من المتنبي، والله وحده يعلم، أيتاح لي أنْ أشفي من حديثه نفسي، أم تحول بيني وبين ذلك الحوائل والخطوب!

والأمر الثاني: أني أبعد الناس عن حسن الرأي فيما أمليت، ولا تظن أني أريد أنْ أصطنع التواضع، أو أنْ أغض من هذا الجهد الذي أنفقته حين كان ينبغي أنْ أستريح، وإنما أريد أنْ ألاحظ أنَّ هذا الكتاب إنْ صور شيئًا، فهو خليق أنْ يصورني أنا في بعض لحظات الحياة، أثناء الصيف الماضي، أكثر مما يصور المتنبي، وإنه لمن الغرور أنْ يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ أو بالعواطف والخواطر التي يثيرها فيها ما قرأ، فأملى هذا أو سجله في كتاب، ظن أنه صور الشاعر كما كان، أو درسه كما ينبغي أنْ يُدرس، على حين أنه لم يصور إلا نفسه، ولم يعرض على الناس إلا ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء.

وأكثر من هذا أني أخذت أرى أيامًا ما أظن إلا أنَّ كثيرًا من الناس سيضيقون به، ولعلهم أنْ ينكروه عليَّ، وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسي، ولكني لم أزد إلا إمعانًا فيه واطمئنانًا إليه، وتعجبًا من أني قد انتظرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة، قبل أنْ أفطن له أو أطيل التفكير فيه، وهو أنَّ شعر المتنبي لا يصور المتنبي، وأنَّ شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويرًا كاملًا صادقًا يمكننا من أنْ نأخذهم منه أخذًا مهما نبحث، ومهما نجدُّ في التحقيق، وما أريد أنْ أطيل الاستدلال على ذلك، ولا أنْ أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التي يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضًا، وإنما أريد أنْ ألفتك إلى شيء يسير، وهو أنَّ ديوان المتنبي إنْ صوَّر شيئًا فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي، لا أكثر ولا أقل، كما أنَّ هذا الكتاب الذي بين يديك إنْ صور شيئًا فإنما يصور لحظات من حياتي أنا، لا أكثر ولا أقل، فكما أنك لا تستطيع

أنْ تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لي تطابق الأصل وتوافقه، بل لا تستطيع أنْ تزعم أنك قادر على أنْ تستخرج من كتبي كلها صورة صادقة لي تطابق الأصل وتوافقه، فأنت كذلك عاجز عن أنْ تخرج من ديوان المتنبي صورة صادقة تلائم حياة المتنبي كما كانت في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة.

وما أكثر ما أعجب، وما أضحك أيضًا، حين أقرأ ما يكتبه الناس عني بعد أنْ يفرغوا من قراءة هذا الكتاب أو ذاك من كتبي؛ لأنهم يحصِّلون لأنفسهم، ويَعرضون على الناس صورًا يزعمون أنها تمثلني، ولست أدري، وليس المتصلون بي من قريب، يرون أنَّ بينها وبيني سببًا، وما أشك في أنَّ المتنبي لو أنشر اليوم وقرأ هذا السخف الكثير الذي نكتبه عنه منذ قرون، لأنكر نفسه أشد الإنكار، أو لأنكر هذا السخف أشد الإنكار ولرأى أننا لم نكتب عنه، وإنما كتبنا عن أنفسنا، ولم نصوره، وإنما صورنا أنفسنا.

وإذن فقد يكون من الخير أنْ نقتصد، وألا نتشدد في هذه النظرية التي يحبها المحدثون ويشغفون بها، وهي أنَّ الشعر مرآة الشاعر، وأنَّ الأدب مرآة الأديب.

صدقني أني أصبحت لا أطمئن إلى هذه النظرية، ولست أشك في أنَّ الشعر مرآة لشيء، ولكني لا أدري، أهذا الشيء هُوَ نفس الشاعر أم هُوَ شيء آخر غيرها! ومهما أغلو في تصديق هذه النظرية وفي الثقة بنقد النقاد وبحث الباحثين، فلن أتجاوز أنْ أقول: إنَّ نقد الناقد إنما يصور لحظات من حياته قد شُغل فيها بلحظات من حياة الشاعر أو الأديب الذي عُني بدرسه.

وإذن فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب، وإذن فما أعرضه عليك في هذا الكتاب ليس حياة المتنبي كما كانت، ولا هُوَ حياة المتنبي كما أعتقد أنها كانت، وإنما هُوَ حياة المتنبي — أستغفر الله — بل لحظات من حياة المتنبي كما تصورتها في أثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضي، ومن المحقق أني كنت أرى في المتنبي قبل إملاء هذا الكتاب آراء عدلت عنها أثناء الإملاء، ومن يدري؛ لعلي أرى في المتنبي غدًا أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبته في غير هذا الكتاب، إنما نحن عبيد اللحظات لا نملكها ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا ردها عنا حين تُقبل علينا، وهي تقبل علينا بشيء كثير لا نحصيه، ولما تقبل علينا به آثار لا تحصى في تهيئة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثر والتأثير.

ما أحق فكرة اللحظات هذه بشيء من العناية، وما أجدر العناية بها أنْ ترد النقاد والأدباء الباحثين إلى شيء من التواضع، هم في حاجة إليه.

وشيء ثالث لا بُدَّ من تسجيله، وهو أني مدين بأخلص الشكر وأجمله لصديقين، أرى من الجحود ألا أسجل اسميهما في آخر هذا الحديث، ومن يدري؛ لعلي أتخفف عليهما من بعض التبعات، ولعلي أسجل اسميهما إيثارًا لنفسي بالعافية لا وفاءً لهما ببعض الحق.

فأما أولهما ففريد شحاته، الذي تكلف في هذا الكتاب جهدًا ليس من اليسير تصويره، فقد ضحى في سبيله براحة الصيف كلها، كان يكتب حين كنت أملي أكثر النهار وطرفًا من الليل، وكان يختلس من ساعات نومه ما ينسخ فيه الصحف ليهيئها للمطبعة.

والآخر صديقي عبد العزيز أحمد الذي قام على الطبع ونهض بأعباء التصحيح، وإنها لثقال.

وقد قلدتُ أبا العلاء[٢] منذ أعوام طويلة في شكر الذين أعانوه على الكتابة والتأليف.

فلأجدِّد هذا التقليد، إنْ صح هذا التعبير، ولأشكر هذين الصديقين فأنا كأبي العلاء رجل مستطيع بغيره، وأنا مدين لهما بظهور هذا الكتاب.

الزمالك ٦ يناير سنة ١٩٣٧

[٢] ذكرى أبي العلاء صفحة ١١ الطبعة الثانية.

هنداوي